روايات الهلال

الصرخة الصامتة

نوبل ٩٤

كنزابورو أوى

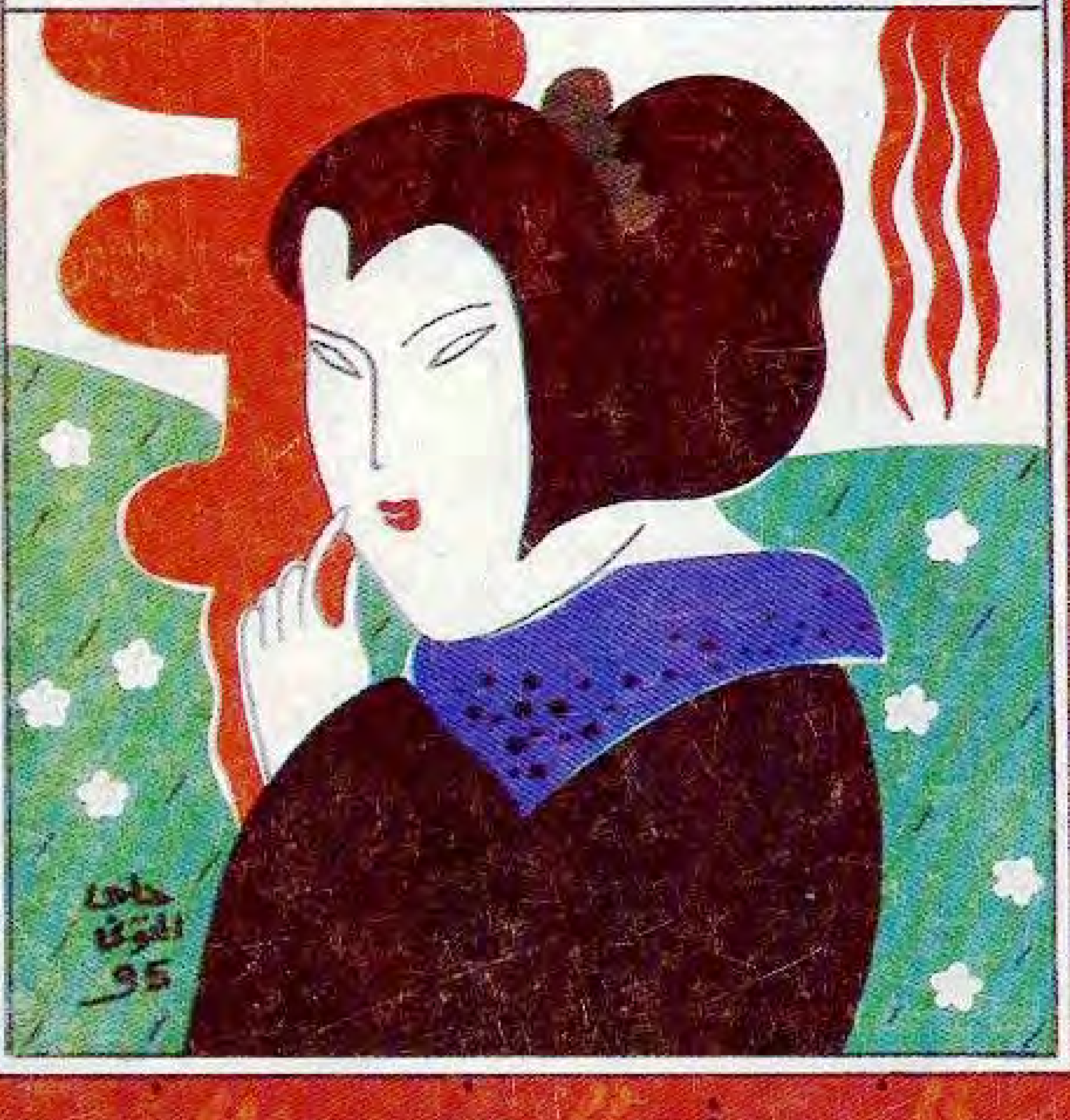

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الصرخة الصامتة

الرواية الفائزة بجائزة نوبل ١٩٩٤

تأليف

اوى كينزابورو

ترجمها عن الانجليزية

ابراهيم محمد ابراهيم

●

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

THE SILENT CRY
By
OE KENZABURO

الغلاف للفنان :
حلمى التونى

قبل أن تقرأ

مرة ثانية ، تقدم روايات الهلال رواية للكاتب اليابانى اوى كينزابورو عقب حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٩٤ . وذلك بعد روايته "هموم شخصية" التى التقاها القراء بحفاوة عند صدورها قبل أشهر .

والرواية التى بين يديك ذكرت فى حيثيات منح الجائزة انها تستحق ان تتوج بنوبل . وبذلك تنضم الى مجموعة الروايات التى سبق ان فاز أصحابها عنها بنفس الجائزة ، من "كوفاديس" ، الى "العجوز والبحر" و "الموت فى فينسيا" ، و "لعبة الكريات الزجاجية" ، و "اولاد حارتنا" و "الصخب والعنف" وغيرها .

والقارىء الذى عاش تجربة الكاتب الحزينة مع ميلاد ابنه المعاق فى "هموم شخصية" سوف يجد رواية اخرى بالغة الخصوصية ، تحتاج الى جهد خاص فى القراءة ، والتعرف على وقائع الحياة التى عاشها كاتب يابانى فى الريف ، تمتزج لديه التواريخ ، والشخصيات ولا يستطيع الانسجام بسهولة مع الآخرين ، وهو يستقبل أخاه العائد من رحلة طويلة الى بلاد مختلفة .

وهنا نجد انفسنا امام جزء من سيرة ذاتية للكاتب المولود فى ٣١ يناير عام ١٩٣٥ فى جزيرة شيكوكو الواقعة فى الجنوب الغربى من اليابان .

فوسط اسرته الصغيرة العدد نسبيا ، عاش "اوى" مأساة اليابان ، عقب سقوط قنبلتى نجازاكى وهيروشيما فى عام ١٩٤٥ ، فقد كان فى العاشرة من العمر ، عندما سقطت ، كما كتب ، زهرة

كريزانتيم ذهبية ، فوق ١٦٥ كيلومترا مربعا من الارض . حول هذه الزهرة انطلقت اشعة الموت ، وراحت تزرع فى قلب الصغير الرغبة فى الكتابة ، فالقنبلة اقوى من الغابة ، ولذا استطاعت تدميرها .

لذا كانت اول مهمة له هى المشاركة فى اعمار البلاد بعد هذا الدمار . فانضم الى مؤسسة إدارة الغابات ، وأحس بمدى الاهانة التى تشعر بها اسرته الصغيرة ، وبلده بشكل عام من قسوة الهزيمة . فسافر الى طوكيو فى بداية الخمسينات لدراسة اللغة اللاتينية وفى عام ١٩٥٤ التحق بقسم اللغة الفرنسية فى الجامعة .

وفى الجامعة بدأ فى كتابة مسرحيات التمثيل ، كما كتب الاقصوصة ، وهى كلها اعمال موجهة للنضال الوطنى ، وقد نشر مسرحيته الأولى "مصائب السماء" وهو فى العشرين من عمره . وفى تلك المرحلة بدأ اعداد دراسته عن "الصورة فى روايات سارتر" وتتابعت اعماله مثل : "تدجين الدواجن" عام ١٩٥٨ . "وعصرنا" .. عام ١٩٥٩ . و "سبعة عشر عاما" عام ١٩٦٠ ، و "الفتى الذى وصل متأخرا "عام ١٩٦٢ . و "الرجل الفاسق" عام ١٩٦٣ .

وبشكل عام يمكن تقسيم الابداع الأدبى للكاتب الى مرحلتين اساسيتين . الأولى بدأت منذ عام ١٩٥٢ وحتى ١٩٦٤ . وهى مرحلة الالتزام فى الابداع ، بمعنى ان الكاتب يوجه كتاباته من أجل خدمة قضيته العامة ، وهى فى أغلب الاحيان مناهضة الامبريالية الغربية ، أما المرحلة الثانية فبدأت عام ١٩٦٤ ، وهى تمثل اهتمام الكاتب بقضاياه الخاصة ، ولذا فان اغلب ابداعه فى هذه الفترة أقرب الى السيرة الذاتية ، اى ان "اوى" قد سجل تجربته الذاتية فى روايات وقصص قصيرة ، وهو دون الثلاثين من العمر .

ومن رواياته فى المرحلة الأولى "الفخ" التى تتحدث عن الأيام الاخيرة من الحرب العالمية اليابانية كما عاشتها مجموعة من الصغار وهى تجربة مليئة بالقسوة والدمار ، عرفوا فيها الدموع ، والتلوث النووى . وقد كرس الكاتب كتاباته من اجل كشف فظائع الحرب ،

والقنابل الذرية التى تركت اثرها على اجيال متعددة . وقد حصل الكاتب على جائزة ادبية كبيرة تحمل اسم الأديب "اكوتاجاو" عام ١٩٥٨ عن روايته القصيرة "تدجين الدواجن" .

اما المرحلة الثانية من حياة الكاتب ، فقد بدأت مع ميلاد ابنه عام ١٩٦٤ ، وكانت الصدمة فى ان الابن المعاق هو ثمرة من ثمار اثار الحرب . فتحول الهم العام الى مأساة خاصة لدى "اوى" ، وقرر الا يكتب سوى عن هذا الابن ، والجيل الذى يمثله ، كما قرر ان يكتب من أجله ، فيعيد صياغة الاساطير اليابانية فى قصص معاصرة .

وقد تعددت اشكال الابداع فى هذه المرحلة . فقد كان يميل الى الرواية القصيرة اكثر من كتابة الرواية الطويلة . ولكن أعماله الكبيرة هى الاكثر أهمية فى ابداعه مثل "الصرخة الصامتة" التى حصل من أجلها على جائزة نوبل ، والتى نشرت لاول مرة عام ١٩٦٧ . ثم مثل ثلاثيته الأخيرة "الشجرة الخضراء المتوهجة" التى نشرها عام ١٩٩٣ .

وكما جاء على لسان "اوى" فى مجلة "الاكسبريس" - ١٢ يونيه ١٩٨٧ - فان لحظة ميلاد ابنه المعاق كانت بمثابة لحظة ميلاد ثانية للكاتب .فقرر أن يظل صغيراً مثله . ونشر عنه روايات من طراز "هموم شخصية" عام ١٩٦٤ . و "الطوفان غمر نفسى" عام ١٩٧٣ . اما مجموعاته القصصية الشهيرة فهناك "النساء يستمعن الى شجرة المطر "عام ١٩٨٢ . و "كيف تقتل شجرة" عام ١٩٨٤ .

تباينت ترجمات عنوان رواية "الصرخة الصامتة" باللغات المختلفة ، ومنها اللغة العربية ، فقد ذكرها البعض "رهان العصر" ، والبعض الآخر "رهان القرى" وسميت فى ترجمتها الانجليزية بـ "الصرخة الصامتة" .. والعنوان الادبى للرواية حسب ترجمته من اللغة اليابانية يعنى "فريق كرة القدم فى العام الاول" . والمقصود بالعام الاول هنا هو ١٨٦٠ .

وهذه الرواية مليئة بالكوابيس ، والمعاناة ، وتدور أحداثها على

لسان شاب يابانى يدعى ميتسو . يتكلم عن شقيقه تاكاشى العائد لتوه من السفر الى قريته الواقعة فى حضن واد أخضر ، فيفاجأ انها لم تعد مألوفة بالنسبة له .

وكلا الأخوين له كابوسه الخاص ، وحزنه العام ، فالراوية ميتسو مهموم بانتحار صديقه الحميم "س" لقد كان انتحاراً بشعاً . كما انه مهموم بمرض التخلف العقلى الذى اصاب ابنه الصغير . والذى تركه فى احدى المصحات . وهذا النوع من المرض المعروف تحت اسم "البله المغولى" عبارة عن بلاهة خلقية تصيب الطفل عند ولادته بانحراف العينين وتسطح الجمجمة .

وميتسو مثل الكاتب مفكر ، لا يفكر فى شىء سوى انتظار الموت . فهو انسان بلا غد ، ولا يجد فى الحياة مايستحق أن يعاش من اجله ، ولذا ، فان لقاء الاخوين فى الوادى لا يكون سببا للحديث عن مشاريع المستقبل ، بقدر ماهو سبب للحديث عن الماضى . ويروح الاثنان يسترجعان ماحدث لاسرتهما العريقة قبل قرن من الزمان . اى فى عام ١٨٦٠ . ويجد الاخ تاكاشى ، العائد من الولايات المتحدة انه من الصعب عليه ان يتأقلم فى ماضى اسرته . وهو الذى يصف نفسه بالعصرية . فقد كان قبل رحيله مسئولا عن قمع انتفاضة قام بها سكان الوادى . ولذا فهو فى نظر الجميع خائن ، ويشكل هذا عقبة فى سبيل تفاهم الاخوين .

وتاكاشى الذى سبق له أن حطم احد المحلات الكبرى فى القرية ، يحس انه حبيس روحه وجسده ، وماضيه . ومن أجل أن يمحو هذا العار الذى يلاحقه ، فانه مستعد أن يتحول الى ضحية . ولذا فهو يحاول الانصياع لاخيه من اجل الرجوع بالذاكرة الى قرن من الزمان . ثم يكتشفان أن اليابان بعد الحرب قد تم مسخها مثل ذلك الابن المعتوه . وأن شعبها ضائع بفضل ماحدث فى نهاية الحرب . ولذا يقرر الشقيقان أن يعيدا تجسيد الماضى . واستعادة صداه فى داخل كل منهما ، حيث يكتشفان انه لم يعد هناك شىء فى الخارج ،

بل أشياء كامنة فى الداخل الى ان تحدث مفاجأة فى الاحداث .

وبمناسبة ترجمة هذه الرواية الى اللغة الفرنسية فى عام ١٩٨٥ ، أجرت جريدة "لوموند" حواراً مع "اوى" قال فيه ـ ١٥ مارس ١٩٨٥ ـ ان الاخ تاكاشى حاول أن يجر معه ، بعد عودته ، كل الشباب ، كى يموتوا معا .

ويقول إن "تمرد تاكاشى مختلف تماما عن كل تمرد نعرفه . فهو يريد أن يحيى امجاد أجداده وبالتالى فهم أجدادى . لأن الوقائع صحيحة . حين قام الفلاحون بالثورة ضد السلطان ، أما تاكاشى فلأنه شخص ديمقراطى ، فهو يمثل روحا مستقلة ، مقهورة ،.وتابعة لنظام امبريالى وثقافته الممركزة اذن فتمرده يمثل ثقافة هامشية . ولكن فى اليابان تبقى الثقافة ممركزة . فهناك أكاديمية للفنون ينضم اليها الكاتب بشكل تلقائى . ويكفى أن يظل الكاتب فى حالة ابداع من أجل البقاء فيها" .

الجدير بالذكر ان الكاتب اليابانى المعروف يوكيوميشيما قد كتب يوما قبل انتحاره عام ١٩٧٠ ان كينزابورو يعتبر بمثابة المتحدث الرسمى لسنوات الستينات ، باعتباره افضل من عبر عنها ولكن الكاتب رفض هذا التكريم بلباقة معلقا انه لم يكن متحدثاً باسم عقد من الزمن ، وهو شخص يفضل الحياة فى عزلة وان هذه مسألة ابداع .

كما تجدر الاشارة إلى ان "اوى" قد مارس انواعا أخرى من الكتابة من أجل خدمة افكاره من بين هذه المؤلفات كتابه "نحن ، اشياء هشة" حول ما اسماه « بالغائية العليا للاقتصاد القوى" هذا الانتصار الذى كان سبباً لانتصار دول بعينها عانت من الحروب مثلما حدث لليابان . والمانيا ، ويرى الكاتب أن كل هذا يمثل حالة هشة ، لأن مثل هذا الاقتصاد يتطلب نظاماً اجتماعياً ثابتا ومتماسكا ، فقد جاءت المدنية سريعة لمجتمعات عاشت قرونا طويلة فى استقرار ، وداخل أودية ، أو فى الصحراء ، ومنذ ان حدث هذا الانقلاب تغيرت

المجتمعات ، والاسرة والحياة الشخصية والمدينة والقرية ، وبدا الانسان الحديث كأنه يهرب من ماضيه بالانغماس اكثر فى الحاضر ، وينسى ماضيه ، وهذا سر انشغال الناس بالسياسة . "عندما أذهب الى باريس ، فاننى أحس بشعور اننى أجتث الفلاح الذى بداخلى أما فى اليابان فنحاول نحن المفكرين ان نخلق نمطا ثقافيا ريفيا تقليديا" .

بقى ان نقول كلمة عن هذه الترجمة التى بين يديك ، فرغم صعوبة الرواية ، وخصوصيتها ، فانها تجربة فريدة فى عالم الترجمة ، حيث ان مترجمها ابراهيم محمد ابراهيم ، هو اول مترجم عربى ضرير ، يمارس عمله من خلال كمبيوتر متطور يعمل بطريقة البرايل استعاره من زميله الملحن عمار الشريعى ، وقد قام بمراجعة الترجمة والثناء عليها اثنان من كبار المثقفين .

روايات الهلال

الفصل الأول

بالقرب من الموتى

حين استيقظ فى ظلمة السحر أفتش فى ذاكرتى عن بقايا واهنة من أحلام تتلكأ فى عقلى الواعى ، بحثا عن إحساس حاد بالانتظار . أبحث بأمل مرتعش كى أجد انتظارا متلهفا ينبعث فى أعمق أعماق كيانى ـ دون جدوى ـ مع أثر الويسكى وهو يشعل أمعائى بالنار أثناء سريانه داخلها فيجعلنى ذلك عدما سرمديا ، فأضم أصابعى التى فقدت ما بها من قوة . وفى كل مكان ، فى كل عضو من أعضاء جسدى ، يشعر لحمى وعظامى بثقلها وحدها دون علاقة ببقية جسدى . شأنها شأن الحواس التى تبدأ فى الشعور بألم متبلد ارتد الى النور مستسلما . وآخذ على عاتقى اللحم الثقيل ، الذى يؤلمنى فى كل الأنحاء ومع ذلك أتفكك . أنام بقدمين وذراعين معكوستين فى وضع انسان يتردد أن يذكره أحد سواء بطبيعته أو بالموقف الذى يجد فيه ذاته .

وكلما استيقظ أبحث عن ذلك الشعور الحاد بالانتظار الذى لايتأتى لاى وعى دون شعور ايجابى بالواقع فى حد ذاته . وحين أقتنع أخيرا بأنى لن أعثر عليه ، أحاول أن أغرى نفسى بالنوم مرة ثانية : النوم النوم ، ذلك أن العالم غير موجود ، غير أنه فى هذا الصباح ، كان السم الذى يؤلم جسدى أقوى من أن يسمح لى بالخلود مرة أخرى الى النعاس . وأشعر بتهديد الخوف وهو يحيط بى من كل اتجاه حتى يجتاحنى . أخيرا ، يبدو أنه باق ساعة واحدة على الشروق ، وحتى ذلك الحين لايمكن لأحد أن يتنبأ بما سيحدث .. وكجنين داخل رحم ، أرقد فى الظلام متناسيا كل شىء . كان

ثمة زمان كانت فيه العادة السرية مفيدة فى مثل تلك المناسبات . أما الآن ، وقد بلغت من العمر السابعة والعشرين ، ومتزوج ، ولى طفل ذهبنا به بعيدا الى احدى المؤسسات ، بعد كل هذا ، أشعر بالخجل من مجرد التفكير فى ممارسة العادة السرية ، فأخنق فوران الرغبة التى تنبت فى داخلى . عليك بالنوم ، واذا كنت لا تستطيع أن تفعل ذلك ، فعليك أن تتظاهر بالنوم . وفجأة فى الظلام ، أرى الحفرة المربعة الشكل التى حفرها العمال أمس من أجل جسدنا الصدىء . يتكاثر السم المر البغيض داخل جسدى الذى يتألم ، حتى يكاد ينشع ببطء كالمادة الهلامية من أنبوب ، أى يخرج من الأذنين والعينين والأنف والفم والشرج والمثانة . أقف وأنا متنكر كشخص نائم ، بعينين مغلقتين ، وأتحرك فى خمول خلال الظلام . وفى كل مرة يصطدم أحد أعضاء جسدى فى الباب أو الجدار أو أى قطعة اثاث ، تصدر عنى أنة متألمة نصف خدرة ، وأحسست أن عينى اليمنى لاتبصر حتى لو كانت مفتوحة تماما ، وفى وضح النهار . أعجب عم اذا كان سيصبح فى مقدورى أن أعرف السر الذى يكمن وراء الأحداث التى جعلت عينى على ما هى عليه . لقد كانت حادثة حمقاء كريهة : ففى صباح أحد الأيام وأنا أسير فى الشارع ، ألقت جماعة من أطفال المدارس ، وهم فى نوبة خوف وغضب هستيرية ، قطعة من الحجارة أصابت عينى فرقدت حيث سقطت على جانب الطريق غير قادر على تبين حقيقة ما حدث . ففقدت عينى اليمنى البصر اذ شقت من البياض الى السواد . وحتى الآن ، لم أشعر قط بأنى فهمت المعنى الحقيقى لتلك الحادثة . بل إنى أخشى ذلك الفهم . فلو حاولت أن تسير بينما تغطى يدك عينك اليمنى ، سوف تدرك كم هى الأشياء التى تترصد لك من الناحية اليمنى . وستصدم بما لايمكن توقعه . وستصدم رأسك ووجهك مرارا . وهكذا ، فإن الجانب الأيمن من رأسى ووجهى لم يكونا قط دون علامة جديدة تنم عن جرح حديث ، وعلى ذلك ، فأنا شخص قبيح الوجه . بل وحتى قبل وقوع ذلك الجرح لعينى ، كنت أظهر بمرور الأيام خاصية من القبح تذكرنى كيف أن أمى كانت تتنبأ بأنه حين نكبر سيكون أخى وسيما بينما لن أكون أنا كذلك . وجاءت حكاية العين المفقودة لتزيد من القبح حتى صار حقيقة

ثابتة . اذ ربما أراد قبحى الأصيل أن يتخفى فى صمت بين الظلال ، فكانت تلك العين المفقودة هى التى أخذت تدفع بقبحى الى دائرة الضوء . ولايمكن القول بأنى لم أحاول أن أسند دورا لتلك العين المفقودة ، رأيتها وقد فقدت وظيفتها ، وكأنها اعتادت الظلمة الأبدية داخل جمجمتى ، وهى ظلمة مليئة بالدم وإلى حد ما بعيدة عن حرارة الجسد . لقد كانت تلك العين مثلها مثل الحارس الوحيد الذى استأجرته كى يقوم بحراسة غابة الليل بداخلى ، وبهذا الفعل وطنت نفسى على مراقبة مايدور بداخلى .

وأنا أمر عبر المطبخ ، رحت أتلمس الباب وأخرج ثم أفتح عينى أخيرا وأنا أرى لونا أبيض شديد الشحوب ينتشر فى سماء أواخر الخريف ملبدا فى السحر . ويأتى كلب أسود وهو يعدو ويقفز نحوى . غير أنه اصطدم برفضى فتباعد دون صوت حتى وصل الى حيث منطقة السكون . ثم وقف وهو يشير الى بكمامته مثل نبات عيش الغراب فى الظلام . التقطه ووضعته تحت ذراعى وواصلت السير مرة أخرى .

لاتزال رائحة الكلب تحت ذراعى ، ذلك أن الكلاب ذات رائحة نفاذة . ولما كان الكلب يتنفس بانتظام فان ابطى صار حارا . ربما كان مصابا بحمى . فاصطدمت أظافر أصابع قدمى العارية ببرواز خشبى . أنزلت الكلب ونظرت حولى كى أعرف موقع درجات السلم ، ثم أحطت بذراعى الظلام فى المكان الذى وضعت فيه الكلب ، فاذا به يشغل بدقة نفس المكان . فلم أتمالك الا أن أبتسم ، غير أنها ليست ابتسامة من ذلك النوع الذى يدوم طويلا . فمن المؤكد أن الكلب مريض . حاولت بجهد أن أهبط الدرج حيث توجد برك ماء آسن تكفى لتغطية قدمى العارية . إنها برك بها قليل من الماء أشبه بعصير اللحم الآدمى . وحين أجلس على الأرض الجرداء . أحس بالماء يتغلغل داخل سروال « بيجامتى » وملابسى الداخلية فيبتل ردفاى ، غير أنى أجد نفسى أتقبل هذا الوضع فى وداعة ، كشخص لايملك الرفض . ظل الكلب صامتا ، كشخص فى إمكانه التحدث غير أنه لايريد ذلك فقفز فى حجرى ، مسندا جسده المرتعش المحموم على صدرى بخفة . وأنشب بعض المخالب بين عضلاتى كى يحافظ على هذا التوازن . ومع ذلك ، شعرت بالألم الذى أحدثه وكأنه شىء آخر لايمكن

رفضه ، وبعد خمس دقائق صرت غير مبال به . بل غير مبال بالماء القذر الذى جعل ردفى يبتلان ، وبدأت تنساب بين فخذى . لم يزد جسدى كله على ١٥٤ رطلا وطولى على خمس أقدام وست بوصات ـ فهو لايختلف عن كم التربة التى أخرجها العمال وهم يقومون بعملية الحفر أمس . من هذه البقعة ذاتها ، وتخلصوا داخلها من نهر ماسحيق . لقد تمثلت التربة لحمى وكأنه طعام . ولم تكن هناك أى دلائل على الحياة سوى حرارة الكلب وفتحات أنفى تدب فى جسدى أو التربة المحيطة ، أو ذلك الجو الرطب . تزداد سرعة حساسية فتحات الأنف وتشم الروائح المخبأة فى قاع الحفرة وكأنها ذات غنى يتعذر التعبير عنه . ان هذه الروائح تقوم بوظيفتها وتكتسب من كثرتها درجة يصعب تمييز كل منها على حدة . أضرب بيدى على راسى من الخلف اذ كنت على وشك الاغماء (وأشعر لتوى بأنها خلفية جمجمتى) أتلمس حائط الحفرة ، ثم اسير الى ما لانهاية ، فأشم الألف رائحة ورائحة وما توفر من أوكسجين على قلته . لايزال السم البغيض المر يملأ جسدى ، غير أنه لم يعد يبدو عليه أنه يتسلل الى الخارج . ولم يعد بعد ذلك الاحساس الحاد بالترقب ، الا أن شعورى بالخوف قد قل . فأنا الآن غير مبال بأى شىء ، غير مبال حتى بأنى أملك جسدا . ان الشىء الوحيد الذى يشعرنى بالأسف هو أنه لايوجد أحد يراقبنى وأنا فى هذه الحالة التامة من عدم المبالاة . الكلب ؟ ليست للكلب عيون . وكذلك أنا ، ففى هذه الحالة من اللامبالاة لاتصبح لى عيون . فما إن بلغت القاع ، حتى انغلقت عيناى مرة أخرى .

ورحت أتأمل حال الصديق الذى حضرت مراسم حرق جثته . ففى نهاية صيف هذا العام ، غمر رأسه تماما بالزيت المائل الى الحمرة ، وتجرد من ملابسه ، ثم دس خيارة فى شرجه وشنق نفسه . واكتشفت زوجته هذا الانتحار الغريب لدى عودتها ، متعبة كأرنب مريض ، من حفل استمر حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى . لماذا لم يذهب معها الى الحفل ؟ لقد كان من ذلك النوع من الرجال الذى يرى أنه من الغريب أن يترك زوجته تذهب الى حفل بينما يبقى هو فى حجرة مكتبه يقوم بالترجمة (ترجمة شىء ما كنا نتعاون معا على إنجازه) .

لقد جرت من على بعد ياردتين من المكان الذى تدلت فيه الجثة الى مكان الحفل . الرعب يملؤها وهى ترفع ذراعيها فوق راسها ، بينما فمها يتخذ شكل صرخة صامتة لايكاد حذاؤها الصبيانى الصغير يحدث صوتا ، بينما تسير خلف خيالها فى منتصف الليل حتى لا يراها أحد ، وكأنها شريط سينمائى يدار فى الاتجاه العكسى . وبعد أن أخبرت الشرطة ، ظلت تنهنه فى صمت حتى جاء أفراد أسرتها ليأخذوها . وهكذا حين انتهت الشرطة من تحقيقاتها ، أوكل الى أنا وجدة صديقى القديم التى كانت تتمتع بالصحة والصلابة ، أن نسهر فى الليلة الأخيرة قبل حرق الجثة العارية ذات الرأس الملطخه باللون القرمزى ، وكان السائل المنوى لايزال آخذا فى الجفاف على فخذ الجثة . يا لها من جثة لن تنال الخلاص ابدا وتأخرت الحالة العقلية لأم المتوفى حتى صارت بلهاء وبذا صارت عديمة الفائدة . ولم تظهر عزما غير متوقع سوى حين كنا نزيل اللون التنكرى من على الجثة ، وذلك بأن عارضت فى القيام بذلك .

قمت أنا والمرأة العجوز بإبعاد جميع من جاءوا للتعبير عن العزاء ، ودون أن يقاطعنا أحد قمنا نحن الثلاثة وحدنا باقامة مراسم الميت الذى كانت الملايين من خلاياه آخذة فى التحلل بعد أن كانت فى وقت من الأوقات خزانة تفرده . وتحول الجلد الى شىء لايوصف بعد أن كان يحفظ الخلايا الحمضية التى أخذت فى التحلل .

كانت جثة صديقى هذه ذات اللون الأحمر مليئة بالاحساس الملح والواقعية وهى مسجاة فى جلال ، تتحلل كجيش يتم تسريحه أكثر مما كان لديها خلال سبع وعشرين سنة من الحياة . تلك الحياة التى أنفقت ويا للأسف فى جهد وجلد كى تمر من خلال النفق المظلم ، فما كان لها الا ان انتهت فجأة قبل أن تعاود الظهور على الجانب الآخر ، وكان مقضى على السد الجلدى أن ينفجر . وكانت عناقيد متخمرة من الخلايا تجهز ، كما يجهز النبيذ ، الموت الحقيقى والجسمانى للجسد ذاته . وعلى من بقوا أن يشربوا ذلك النبيذ . لكم شعرت بنشوة فى اللحظات القليلة السريعة التى تحول فيها جسد صديقى الى بكتيريا تنم عن بداية الفساد . وبينما أراقب مرور هذا الزمن الصرف وهو يومض للمرة الوحيدة ، صرت مجددا على

وعى بهشاشة ذلك النوع من الزمن الآخر ناعما ودافئا كرأس طفل .

لم أستطع منع نفسى من الشعور بالحسد . لن تراقبنى عينا صديق ، ولن يفهم صديق المعنى الحقيقى لما حدث حين أغلق عينى لآخر مرة ويبدأ لحمى فى تحلله .

قلت : « حين عاد الى منزله من العيادة كان ينبغى علىّ اقناعه أن يعود ثانية »

فأجابت جدته « لم يكن فى مقدور الولد أن يظل هناك أكثر من ذلك لأن المرضى العقليين كانوا منبهرين بالأشياء اللطيفة التى قام بها هناك بحيث لم يكن من الممكن له أن يبقى أكثر من ذلك . فلايجب أن تنسى ذلك وتلوم نفسك . إن ماحدث جعل الأمر واضحا تماما ـ كان أفضل شىء بالنسبة له هو أن يغادر العيادة وأن يعيش حرا . فلو أنه قتل نفسه هناك ، فلن يكون بمقدوره أن يدهن وجهه باللون الأحمر ، وأن يشنق نفسه وهو عار . هل كان فى امكانه أن يفعل ذلك ؟ فالمرضى لم يكونوا ليسمحوا له بذلك لأن احترامهم لشخصه يفوق كل حد »

قلت : « إنك تتحملين الأمر بجلد لذا فأنت عون كبير » .

ردت قائلة : « الموت مصير كل حى . وفى غضون مائة عام لن يتساءل كيف مات معظم الناس . وخير شىء يمكن للمرء أن يفعله أن يموت على النحو الذى يروق له » .

جلست أم صديقى عند حافة الفراش تدلك قدمى الجثة دون كلل ، قد أحنت رأسها على كتفيها مثل سلحفاة مرتعدة ولم تبد أى رد فعل على مادار بيننا من حوار . كانت ملامح وجهها الدقيقة فى لون الخضراوات وتشبه ابنها الميت تشابها قاسيا ، كانت تلك الملامح راكدة كقطع الحلوى المنصهرة . بدا لى أنى لم أر وجها يعبر عن مثل هذا اليأس من قبل .

قالت جدته : « مثل سارودهيكو »

سارودهيكو كلمة ريفية غامضة مضحكة من حيث ايحاءاتها ، كانت على

وشك أن توحي الى بشيء ، ربما كان غامضا فى ذهنى ، غير أن ملكاتى كانت قد أصابها الكلل ، فهرب منى الخيط الذى يقود الى المعنى ، وحتى حين هززت رأس دون جدوى ، غاصت كلمة « سارودهيكو » كبيت شعر له رنين فى أعماق ذاكرتى دون أن ينكشف لى معناه .

أما الآن فقد ألحت كلمة « سارودهيكو » على ذهنى كخيط من الذكريات المألوفة . حدث هذا بينما كنت أجلس فى الماء فى قاع الحفرة والكلب بين ذراعى . تجمدت أنسجة المخ المرتبطة بهذه الكلمة منذ ذلك اليوم ، بل ذابت كالجليد « سارودهيكو - سارودهيكو » لقد ذهب كل ماهو الهى الى أموياكيماتا لمقابلة الآلهة الهابطين الى الأرض . ان أمينوزوم الذى كان يتفاوض مع « سارودهيكو » كممثل للدخلاء قد جمع السمك الذى سعى اليه سكان العالم الجديد الأصليين كى يؤمن سيطرته . وبسكين فتح فم البحر « سلج » الذى قاوم فى صمت . أما « سارودهيكو » اللطيف الذى يعيش فى القرن العشرين ، فهو ليس سوى رفيق للبحر « سلج » الذى شق فمه . حين طرأت هذه الفكرة على خاطرى ، جرت الدموع من مآقى ، وانحدرت على خدى وشفتى ساقطة على ظهر الكلب .

لقد قطع دراسته القصيرة فى جامعة كولومبيا قبل وفاته بعام ، وعاد الى اليابان ، حيث دخل إحدى المصحات العقلية . لا أدرى شيئا عن تلك المصحة أو حياته هناك سوى ما رواه هو بنفسه . ولم تزر زوجته المكان أو أمه أو جدته ، بالفعل ، الا أنه قيل إنه كان يقع فى منطقة شونان . فلقد خشى جميع المقربين منه أن يزوروه هناك . وحين أفكر فى الأمر الآن ، يزداد عدم يقينى بوجود مثل هذا المكان أصلا . وعلى أى حال ، اذا كان للمرء أن يصدق ما يقوله ، فان المكان مركز للتدريب على الابتسام ، وكان النزلاء يتناولون جرعات عالية من المهدئات .

وفى كل وجبة كانوا يقضون اوقاتهم وهم يبتسمون فى هدوء . كان مبنى من طابق واحد ، يشبه فنادق الشواطىء التى توجد فى كل أنحاء منطقة « شونان » وكان نصف المبنى تشغله غرفة شمس واحدة . أثناء النهار كان معظم المرضى يثرثرون مع بعضهم بمودة ، ويجلسون على الأراجيح التى

نصبت بأعداد كبيرة فوق العشب . من المؤكد أن النزلاء لم يكونوا مرضى بل كانوا كالمسافرين وهم فى محطة استراحة طويلة . وأصبحوا سلسى القيادة تحت تأثير المهدئات ، وأكثر ألفة من معظم الحيوانات الأليفة ، ينفقون الوقت فى حجرة الشمس أو على العشب وهم يتبادلون ابتسامات سعيدة لاكلل فيها . وكانت لهم حرية الخروج من المبنى ، غير أن أحدا لم يهرب ، طالما أنهم لم يحسوا بأنهم محتجزون . حين عاد صديقى الى منزله .

بعد دخوله الدار بأسبوع كى يأخذ بعض كتبه وملابسه ، أعلن أنه قد تكيف مع هذا المكان الغريب ، على مايبدو ، بسرعة وراحة أكثر من أولئك الذين يبتسمون فى هدوء والذين جاءوا الى المصحة من قبله . وعموما ، وبعد مرور ثلاثة أسابيع ، وعند عودته التالية الى طوكيو ، بدت ابتسامته تزداد ، ورغم استمرارها . كان يثق بى أنا وزوجته . ذلك أن الممرض الذى كان يحضر العقاقير للمرضى كان شخصا قاسيا يعاملهم دائما بفظاظة ، وهم تحت العقاقير المهدئة غير قادرين حتى على الشعور بالغضب . كان أحيانا ، حين يمر بمريض ، يضربه بقسوة على بطنه دون أى مبرر . فاقترحت عليه أن يحتج لدى المسئولين عن المصحة ، غير أنه قال إنه اذا فعل ذلك فسيظن المدير أن الملل هو السبب ، أو أنه يعانى من عقدة اضطهاد بسيطة ، أو كليهما معا . فى نهاية الأمر .

لم يكن هناك من هو أكثر شعورا بالملل منهم ، على الأقل على طول ساحل « شونان » وكانوا جميعا بدرجات متفاوتة فى حالات مزاجية غير عادية . بإلاضافة الى ذلك ، وبفضل المهدئات ، لم يكن يدرى اذا ماكان هو نفسه غاضبا أم لا ...

ومع ذلك ، فبعد يومين أو ثلاثة من هذه الواقعة ، قام بشد السيفون على العقاقير التى أعطيت له ليتناولها مع الافطار ، وفعل نفس الشىء فى الغداء والعشاء . ثم فى الصباح التالى ، واكتشف أنه يشعر بالغضب فترصد ذلك الشخص المتوحش ، وانتهت المعركة بكم كبير من اصابات بالنسبة له ، أما الآخر فكان نصف مذبوح . وفاز ، نتيجة لهذه الحادثة ، باعجاب

أصدقائه المبتسمين ولكنه بعد حديث مع المدير ، أجبر على مغادرة المكان . وغادر مركز التدريب على الابتسام ملوحا بالوداع للمرضى العقليين الذين ودعوه بنفس الابتسامة الودود الأليفة التى كانت تعلو وجوههم ، شعر بحزن أكثر عمقا مما شعر به من قبل .

« ان المسألة ، هى كما قال هنرى ميللر ، اننى شعرت بنفس حزنه . فى الواقع ، وحتى هذه اللحظة لم أستطع أن أفهم حقيقة ما كتبه . حاولت أن أبتسم معه ، غير أنى لم أستطع . لقد جعلنى الأمر أشعر بحزن فظيع ، جعلنى أكثر حزنا مما شعرت فى كل حياتى » وثمة عبارة أخرى كتبها ميللر مازالت تلح على خاطرى منذ قرأتها : « فلنكن مرحين مهما حدث »

ومنذ اليوم الذى غادر فيه « مركز التدريب على الابتسام » الى يوم وفاته شنقا ، وهو عار ورأسه مدهون باللون القرمزى ، لايوجد ثمة مجال للشك فى أن كلمات ميللر مستحوذة على ذهنه ، « فلنكن مرحين ، مهما حدث » ومضت سنوات عمره الأخيرة القصيرة فى مرح . بل إنه انخرط فى نوع خاص من الانحراف الجنسى واكتشف مايحوى هذا النوع الشاذ من الجنون . لقد تذكرت ذلك عن طريق حوار مع زوجتى حين عدت الى المنزل ، وأنا فى حالة ذهول واعياء ، بعد مراسم حرق الجثة . كانت تشرب الويسكى ، وحدها ، وهى فى انتظارى . حدث ذلك فى اليوم الأول الذى رأيتها فيه مخمورة .

وبمجرد وصولى الى المنزل ، ذهبت ونظرت الى الحجرة التى نتقاسمها مع ابننا . حيث كان الطفل لايزال يقيم معنا فى المنزل . كان الوقت فى بداية الليل والشفق يوشك على الظهور ، يرقد الطفل على الفراش وينظر الىّ بعينين بنيتين فارغتين تماما ، كان ينظر بذلك النوع من الثبات الذى يمكن أن ينظر به النبات ، لو كان للنبات عيون ، الى شخص يحملق فيه . لم تكن زوجتى بجانبه . واذا كنت أذكر جيدا ، فقد كانت مخمورة تماما فى حجرة المكتبة حين وجدتها . تتأرجح على مقعد بلا مسند بلا ثبات بين الأرفف كطير فوق غصن يتأرجح .

شعرت بذهول بالغ وأحسست بالحرج من أجل نفسى أكثر من شعورى

بالحرج من أجلها . أخرجت زجاجة ويسكى من حيث أخفيه وأجلست نفسها وأخذت جرعة كبيرة من الزجاجة مباشرة ، واستمرت فى الشرب ، وشيئا فشيئا بدأت تسكر وهى تستكمل الشرب . وحين رأتنى ، تراجعت الى الوراء كدمية آلية . كان العرق يبلل شفتها العليا . لم تتمكن من النهوض . كانت عيناها محمرتين ، أما جلد رقبتها وكتفاها ، فكان خشنا، أوحى كيانها كله بأنها ككلب دفعه المرض إلى مضغ العشب بنهم كى يتقيأ أكثر فأكثر .

سألتها بشىء من السخف : « أتشعرين بالمرض؟»

فردت بازدراء صريح ينم عن أنها أحست بسرعة بما أشعر به من حرج: « كلا لست مريضة »

فقلت : « اذن فأنت مخمورة » .

ولما انحنيت كى أواجهها فتنت حين شاهدت حبة من العرق ترتعش فوق شفتها العليا ، بينما نظرت هى بدورها الىّ فى شك وهى تدير شفتها الى أحد الجانبين والشفة تتقلص . لقد غمرنى نفسها العفن المحمل بدخان الكحول الرطب . تسلل الاجهاد الذى سببه الأحياء بجانب فراش موت صديقى كالصبغة فى كل جزء من جسدى ، كان من الممكن أن أجهش بالبكاء . فقلت : « بل أنت مخمورة حتى الموت »

فردت : « لست مخمورة تماما واذا كنت مبتلة بالعرق فذلك لأنى مرتعدة » .

فسألت : « مم ؟ » من المستقبل ..

أخشى من وجود أناس يقتلون أنفسهم وهم عرايا ورءوسهم مطلية باللون القرمزى ».

كنت قد رويت لها كل شىء دون أن أذكر تلك الجزئية الخاصة بالخيارة ، قلت : « هذا أمر لاينبغى أن تقلقى بشأنه . أليس كذلك ؟ »

أجابت « إنى أرتعد لأنك تطلى رأسك باللون القرمزى ، وتقتل نفسك

وأنت عار » .

وأدارت رأسها كي تستعرض الخوف الخفي . وللحظة ارتعشت اذ رأيت في شعرها البني الداكن الكث صورة مصغرة لنفسي وأنا ميت . رأيت الرأس المائل للحمرة لميتسوسابورو نيداكورو » وهي ميتة ، وبها كتل من محلول الطلاء المتحلل جزئيا جاف وراء الأذن كقطرات الدم . وتماما مثلما كان جسد صديقي ، كانت الأذنان في جسدي بلا طلاء رمزا لمرور الفترة التي مرت بين هذه الفكرة الشاذة للانتحار وتنفيذها .

قلت : « لم أقتل نفسي ولن أفعل ؟ »

« هل كان ماسوشيا ؟ »

« ولم تسألينني هذا السؤال ، في اليوم التالي على وفاته ؟ هل هو مجرد فضول ؟ »

ردت قائلة بنغمة خبيثة يتخللها غضب مكبوت : نعم ... ، فقلت « حسنا لنفرض أنه كان مصابا بنوع من الانحراف الجنسي . لن تكون بي أي حاجة للخوف لانك ستكونين موجودة »

هزت رأسها الى الخلف مرة أخرى وحملقت في ، وكأنها تطلب موافقتي . وصدمني ما رأيت في عينيها الحمراوين من احساس بعجز لايوصف . غير أنها أغلقت عينيها ورفعت زجاجة الويسكي وتجرعت جرعة أخرى كبيرة . كانت انحناءات جفنيها داكنة كالأصابع القذرة . وأخذت تسعل حتى اغرورقت عيناها بالدموع ، وأخذ الويسكي يقطر من أركان فمها ممزوجا باللعاب . وبدلا من أن أقلق نيابة عنها بسبب البقعة التي ربما تسقط على فستانها الأبيض الجديد الحريري أخذت من يدها ، وهي يد متشنجة كيد قرد، الزجاجة ، وأخذت رشفة كي أخفي حرجي .

كان كل ماذكرته عن صديقي حقيقيا كما أخبرني هو بنفسه بمزيج من اللذة والحزن ، وهو في قمة هذه الحالة ، وهي نقطة ليست من الضحالة بحيث تكون من نوع التجارب التي يمر بها أي شخص باستخفاف ، وكذلك النقطة التي لاينهمك فيها المرء بما لايدع مجالا لمناقشتها على الاطلاق مع

غيره . أخبرنى منذ وقت طويل بأنه يسعى للحصول على لذة ماسوشية . اذ قام بزيارة مؤسسة خاصة يتم فيها توزيع إناث عنيفات على الماسوشيين لم يحدث شيء جدير بالملاحظة فى اليوم الأول الذى ذهب فيه هناك . ولكن فى زيارته الثانية بعد ثلاثة أسابيع ، أعلنت امرأة حمقاء أنها تتذكر جسده بشكل سيجعله لايمكنه الاستغناء عنها من الآن فصاعدا . قالت ذلك بكل تفاخر . الا أنه لم يكد يرقد عاريا على وجهه حتى بدأ يضع ابهامه فى شرجه وأدرك بما لايدع مجالا للجدل أن هذه الأنثى البالغة القسوة قد احتلت موقعا حقيقيا فى حياته . ثبت عينيه علىّ بابتسامة هزيلة معذبة .

وقال : « شعرت وكأن جسدى قد تفكك بأكمله ، وصار كله لينا وأعرج فى كل جزء منه ، كان كمجموعة من قطع السجق دونما احساس على الاطلاق . غير أن عقلى كان يطفو فى مكان عال ومنفصل تماما عن جسدى » أخذت رشفة ويسكى أخرى وانتابتنى ، كزوجتى ، نوبة من السعال تسببت فى سقوط بعض الويسكى الفاتر تحت قميصى فسرى فى جلد صدرى وبطنى ثم رحت أحملق فيها وهى جالسة بعينين مازالتا مغمضتين حيث نم الجفنان السوداوان عن عينين زائغتين ، مثل العلامات التى توجد على أجنحة بعض أنواع السوس لحمايتها ، عندها استحوذ على شعور قوى بأن أتحدث اليها بفظاظة .

وددت أن اقول إنه مع افتراض كونه ماسوشيا فليس معنى هذا أنه ليس هناك ماتخشاه . ذلك أن هذا لايبرر لها ان تميز بينى وبينه ، وانى لن أطلى وجهى باللون القرمزى وأقتل نفسى ، وأنا مجرد من الملابس . فنواحى الشذوذ الجنسى ليست مهمة على المدى الطويل ، فهى لاتعدو ان تكون شكلا من أشكال التشويه نجم عن شيء غير طبيعى مخيف .

كان هناك شيء ما ضخم ، قوة دافعة لا يمكن التحكم فيها ، مجنونة تكمن فى روح مهووسة . أحدثت تشوها يسمى الماسوشية ـ هذا هو كل شيء . فهو لم يصب بالجنون بسبب تورطه مع الماسوشية . ذلك الجنون الذى أدى الى انتحاره ، ولكن العكس هو الصحيح . وأنا أيضا لدى بذور ذلك الجنون الذى لاشفاء منه ..

لم أقل شيئا من هذا كله لزوجتى ، وكذلك لم تتغلغل الفكرة فى عقلى ، الذى فقد حدته بسبب الاجهاد . بدا هذا التخيل اشبه بالفقاقيع التى ترتفع فى زجاجة ، وتفور لمدة برهة ، ثم لا تلبث أن تتلاشى . مثل هذه الظنون تمر دون أن تترك وراءها أى اثر . ويصدق هذا بصفة خاصة حين يبقى المرء صامتا بشأنها ، فكل ما يحتاج المرء الى فعله هو أن ينتظر حتى تمر هذه الظنون غير المرغوب فيها ، دون أن تحدث تلفا فى جدار المخ .

لو استطعت الافلات بهذه الطريقة الآن ، فسوف يمكننى اذن الهرب من السم الى أن يحل الهجوم المضاد ويمكننى قبول الأمر كتجربة . أمسكت لسانى عن الكلام ، ووضعت يدى تحت ذراعى زوجتى وساعدتها على النهوض . كنت أشعر بأنى أدنس أشياء مقدسة ، اذ أدعم حياتى بالغموض وبضعف جسدى يعرضنى للخطر والتوتر . ومع أن ذراعى كانتا ملوثتين بجسد صديقى الميت ، ومع أن الجسدين يتساويان من حيث الثقل ، لكنى كنت أشعر بأنى أقرب الى جسد صديقى . تقدمنا نحو غرفة النوم بخطى بطيئة حيث كان الطفل ينتظرنا ، غير أننا حين وصلنا توقف تقدمها كسفينة ألقت بالمجداف وتلاشت الى الحمام فى ليلة صيف عليل الهواء . بقيت هناك لمدة طويلة . وحين ظهرت أخيرا ناشرة كآبة أعمق .

أخذتها الى حجرة النوم ، ووضعتها فى الفراش كما هى بعد أن تخليت عن فكرة خلع ملابسها . وهى تزفر زفرة تنم عن أنها تلفظ انفاسها ، وغطت فى نوم عميق . وتعلقت حول شفتيها مادة ليفية صفراء دقيقة كالشعيرات مثل التى توجد على تويج الزهرة ، الا أنها كانت تسطع بوضوح فى الغسق كانت قد تقيأتها . نظر الطفل الى كما يفعل دائما بعينين مفتوحتين تماما ، غير أنى لم أستطع أن أتبين ما اذا كان جائعا أو عطشان أو يعانى من أى منغص آخر . كان يرقد بعينين مفتوحتين تخلوان من أى تعبير مثل نبات بحرى فى الماء وقت الشفق اذ يوجد ببساطة وبثبات . لم يطلب أى شىء كما لم يعبر مطلقا عن أى انفعال كان . بل إنه لم يبك . بل قد يتعجب المرء إن كان فعلا على قيد الحياة أصلا . ولنفرض أن زوجتى كانت مخمورة طوال النهار منذ غادرت المنزل فى الصباح الباكر وتركت الطفل وشأنه ،

فما عساى أن أفعل ؟ هى ليست أكثر من مجرد امرأة سكيرة تغط فى نوم عميق .

انتابنى هاجس قوى بقرب وقوع كارثة . ولكن كما حدث فى حالة زوجتى ، تراجعت عن تدنيس ما هو مقدس بلمس الطفل بيدى الملوثتين . وكذلك شعرت بأنى أقرب الى صديقى الميت منى الى الطفل ، وبالرغم من أننى ظللت أمعن فيه النظر لمدة طويلة فقد أخذ ينظر الى بلا أدنى تعبير . وأخيرا جاءت حالة من الخدر من تلك التى تجر المرء بقوة لاتقاوم من عينى البنيتين . ودون أن أبحث عن زجاجة لبن له ، لملمت بدنى وصعدت الى الفراش كى أنام . أخبرت نفسى ، وأنا على أعتاب اللاوعى ، باحساس متجدد بالصدمة أن صديقى الوحيد قد طلى وجهه باللون الأحمر وشنق نفسه ، وأن زوجتى فجأة وعلى غير توقع ، سكرت ، وأن ابنى متخلف عقليا ، ولكى أزيد الطين بلة ، كنت على وشك النوم محشورا بين فراش زوجتى وابنى ، دون اغلاق الأبواب ودون أن أخلع رباط عنقى وكذلك كان جسدى لا يزال نجسا بسبب الاحتكاك بالموتى . توقف الذهن عن التفكير السليم كحشرة اشتبكت بدبوس ، فصارت عاجزة عن فعل أى شىء . لقد تقلصت أمام احساسى بأنى أتآكل ببطء بفعل قوة لاشك فى خطرها مع صعوبة تحديد ماهيتها ، ثم غلبنى النعاس .

فى الصباح لم يعد فى امكانى أن أتذكر ما أحسست به فى الليلة الماضية . أى أنها ، باختصار ، قد فشلت فى أن تشكل تجربة . فى أحد أيام الصيف الماضى ، التقى صديقى بأخى الأصغر فى أحد المتاجر فى نيويورك وجاء معه بشهادة عن حياة أخى فى أمريكا . فلقد ذهب تاكاشى الى أمريكا كطالب فى فرقة مسرحية . كانت زعيمتهم امرأة تنتمى الى الجناح اليمينى لاحد الأحزاب السياسية التقدمية . وكانت الفرقة تتكون كلية من الطلبة الذين اشتركوا فى أعمال الشغب السياسية التى وقعت فى يونية من عام ١٩٦٠ ، ولكنهم غيروا رأيهم بعد ذلك . وكانت مسرحيتهم تعبيرا عن الندم تسمى « نحن الملامون » وتبعها اعتذار لمواطنى أمريكا ، نيابة عن الطلبة النادمين بالحركة الطلابية ، على تأجيل زيارة رئيسهم الى اليابان . وحين أخبرنى تاكاشى ، لأول مرة ، أنه ذاهب معهم الى أمريكا

قال إنه سيفر من الفرقة بمجرد وصولها ، وينطلق ويتجول فى تلك البلاد وحده . غير أنى أدركت من تقاريرنا نصف الساخرة ونصف المحرجة التى كانت ترسل الينا من الولايات المتحدة ، أن تاكاشى لم يترك الفرقة بل استمر يظهر فى عروض المسرحية التى تقدم فى واشنطن ، بل وفى أماكن أكثر بعدا تصل الى بوسطون ونيويورك .

حاولت أن أفهم سر تخليه عن خطته الأصلية واستمراره فى لعب دور الطالب النشط النادم ، غير أن هذه المهمة كانت تفوق خيالى ، لذا كتبت خطابا أطلب فيه من صديقى ، الذى كان يدرس مع زوجته فى نيويورك بجامعة كولومبيا أن يبحث عن تاكاشى فى مقر الفرقة . غير أنه لم يستطع الاتصال بهم ، وقابل أخى بمحض المصادفة . اذ التقى بتاكاشى أثناء ذهابه الى المتجر فى برودواى وهو مستند الى مائدة يشرب الليمون ومر خلسة من خلف تاكاشى ، وقبض على كتفه . فاستدار أخى بشكل مفاجىء حتى أن صديقى تراجع . كان تاكاشى يتصبب عرقا ووجهه شاحب ومتوتر ذو مظهر قذر . وكان مظهره يوحى بأنه شخص فوجىء وهو يخطط بمفرده للسطو على أحد البنوك .

قال له صديقى:« أهلا ياتاكاشى لقد كتب لى ميتسو ، وأخبرنى بأنك فى الولايات المتحدة . ويبدو أن زوجته حملت بمجرد زواجه »

رد تاكاشى « أما أنا فلم أتزوج ولم أجعل امرأة حاملا » .

قال هذا ، ولم يكن قد أفاق من المفاجأة بعد .

ضحك صديقى من كل قلبه وكأنه سمع نكتة رائعة . فقال : « أنا عائد الى اليابان فى الأسبوع القادم . فهل تريد إبلاغ أى رسالة لميتسو ؟ »

رد تاكاشى « ألم يكن من المفروض أن تبقى فى كولومبيا لعدة سنوات ؟ »

أجابه قائلا « لن أبقى أكثر من ذلك ، فلقد جرحت فى المظاهرات ، ليس جرحا جسديا ، فلقد حدث شىء ما برأسى . ليس شيئا بالسوء الذى يجعلنى أدعهم يودعوننى فى مستشفى للأمراض العقلية ، غير أنهم قرروا

أننى ينبغى أن أحبس نفسى فى نوع من المصحات » .

عند هذه النقطة ، لاحظ صديقى جرحا عميقا ينتشر كبقعة على صفحة وجه تاكاشى ، وفجأة شعر أنه فهم مغزى الفزع المفاجىء الذى بدا عليه حين أخذ على حين غرة بهذا اللقاء . لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يشعر فى داخله بالأسف نظرا لكونه رجلا عطوفا . شعر أنه نكأ جرحا قديما فصمت كلاهما وهما ينظران الى العلب التى يكتظ بها الرف وراء الخزانة الموجودة بالمحل المملوءة بسائل وردى اللون حلو الطعم فى لزوجته انعكست صورتهما المشوهة فوق الزجاجات وأينما تحركا كان يتحرك السائل بشكل مبالغ فيه . حتى ليخيل للمرء أن ذلك السائل سينطلق فى الغناء فى أى لحظة .

وفى وقت متأخر من احدى ليالى يونية ، حين كان تاكاشى لايزال طالبا كان يقف خارج مقر الحركة القومية ـ وكان صديقى يذهب الى هناك ايضا ، لم يكن ذلك بسبب أى دافع سياسى ، وانما كى يصحب زوجته التى كانت تشترك فى احدى المظاهرات أو مع جماعة مسرحية صغيرة كان ينتمى اليها ، وحين حدث اضطراب جرح أحد رجال الشرطة رأسه بعصا جرحا عميقا وهو يحاول حماية زوجته من المذبحة التى أحدثتها شرطة مكافحة الشغب . لم يكن الكسر خطيرا غير أنه منذ ذلك الهجوم فى الليل المتأخر فى وسط أريج أوراق الأشجار الخضراء النضرة ضاع شىء ما داخل رأس صديقى ، وحل محله ميل غامض الى الاكتئاب الجنونى الى جانب صفاته الأخرى ، ولايكاد يوجد أى طالب إصلاحى غير متردد فى أن يقابله .

وحين ازداد حرج صديقى من صمت تاكاشى ، ثبت ناظريه على العلب ذات اللون الوردى ، كان يشعر وكأن عينيه تنصهران من فرط حرارة الحرج ، بل أحس أنها تحولت الى سائل وردى داخل الزجاجات وكأنها تخرج من جمجمته . وتخيل مقلتيه المنصهرتين تتحركان بيأس دون امكانية فى الخلاص ، كبيض وضع فى مقلاة فوق مائدة فضية .

قال صديقى وهو يتأهب للوداع : « اذا كان هناك ما أقوله لميتسو

فأخبره أني سأهرب من الفرقة ، واذا لم أفعل ذلك فلربما أرحل ، اذن ، ففى كلتا الحالتين ، لن أظل مع الفرقة أكثر من ذلك » .

سأله : « متى تنوى أن تغادر ؟ »

رد تاكاشى بقدر كبير من الحس : اليوم

خطر ببال صديقى بشكل ملح ، بل ربما من الذعر تقريبا أن أخى كان بالفعل فى انتظار شىء ما فى الصيدلية .

قفز فجأة وهو يشعر بالراحة ، إذ استطاع أن يتبين شيئا ما فى المشاعر التى كانت تبدو ثم تختفى فى عينى أخى ، وهما عينان متبلدتان عليهما غشاوة كالشحم تذكر المرء بالمصارع المحترف ، وليس فقط الشعور بالتكتم لدى مقابلتك لشخص كان يفضل لو لم تقابله ، ولكنه أحس تجاهه بالعطف .

سأله صديقى على سبيل الفكاهة:« هل سيأتى الى هنا عميل سرى من نوع ما كى يساعدك على الهرب ؟ »

رد تاكاشى بلهجة بها شىء من التهديد : « هل أخبرك الحقيقة ؟ هل ترى ذلك الصيدلى الذى يملأ تلك الزجاجة بالكبسولات هناك فى الجانب الآخر من رف الأدوية ؟ ».

فلما أدار صديقى جسده كما فعل أخى ، استطاع أن يتبين ، خلف الأرفف بما عليها من زجاجات فى عمله . كان يقف فى الركن المظلم .

استأنف أخى حديثه قائلا : « هذا الدواء من اجل عضوى الملتهب المشوه ، وبمجرد أن أتسلمه فى يدى يمكننى الهرب من المسرحية وأنطلق وحدى »

شعر صديقى بوجود الأمريكيين حولهما وهم يتجمدون لدى سماعهم الكلمة الانجليزية الوحيدة ، أى « عضوه » فأخذ يتحدث بسرعة بحوار يابانى غير مفهوم . الا أن الجو الغريب الخارجى الشاسع فرض وجوده عليهما مرة أخرى .

لذا قال صديقى بجدية موجهة الى الرقابة الجديدة التى فرضت عليهما من جانب الناس من حولهما : « من المؤكد أنك تستطيع أن تحصل على هذا الدواء بكل سهولة ؟ »

قال تاكاشى دون مبالاة بالصراع النفسى التافه الذى يدور داخل عقل صديقى : « أجل ، اذا ما ذهبت الى المستشفى وأخذت دورك واتبعت الاجراءات السليمة ، ولكنها مشكلة صعبة جدا هنا فى أمريكا ما لم تستطع فعل ذلك . فتذكرة الدواء التى أعطيتها للصيدلى قد قامت احدى ممرضات المكتب الطبى بالفندق بتزويرها من أجلى ، واذا ماعرفت الحيلة فان ممرضة سوداء شابة ستفصل من العمل اما أنا فاعتقد انه سوف يتم ترحيلى » .

لِمَ لم يتبع الاجراءات الاعتيادية ؟ لأنه مصاب بالسيلان ، لقد أصيب به فى أول ليلة له بامريكا ، حيث مارس الجنس مع عاهرة سوداء سنها تبيح لها أن ينظر اليها على أنها صورة لامه . ولو أن رئيسة الفرقة عرفت هذه الحقائق فمن الواضح أنها ستعيد تاكاشى الى اليابان ، الذى بذل جهدا جهيدا كى يهرب منها . لقد سقط فريسة لشك يبعث على الاكتئاب سببه أنه مادام قد اصيب بالسيلان فقد يكون أصيب بالزهرى أيضا ، وهو شك أفقده الرغبة فى تكريس طاقاته كى يقوم بأى عمل .

مضت خمسة اسابيع منذ زار تلك المنطقة التى يندمج فيها السود والبيض فى نسيج معقد من الظلال ، ولكن لم تبد عليه أى أعراض أولية للاصابة بالزهرى . بل إنه استغل وجود وجع خفى فى الحنجرة كذريعة للحصول على مجموعات صغيرة من المضادات الحيوية من ممرض الفرقة مما يرجع اليه الفضل فى تخفيف الألم قليلا عن مجرى بوله ، وعندها تخلص تاكاشى من حالة الجمود التى كان يعانيها ، وما إن تعرف على ممرضة فى المكتب الطبى بالفندق أثناء اقامتهم الطويلة فى نيويورك (التى كانت قاعدة انطلاقهم الى مراكز أخرى) حتى استطاع تاكاشى أن يجعلها تحصل له على استمارة من تلك التى يستخدمها الأطباء لكتابة روشتة .

كانت تلك الممرضة السوداء تتمتع بروح لا حد لها لخدمة الآخرين ، مما جعلها لاتضع فى التذكرة الطبية نوع الدواء والكمية المناسبة لما كان يعانيه فى مجرى البول فحسب ، بل إنها أرشدته الى متجر فى مكان مزدحم من المدينة حيث يقل احتمال اكتشاف هذه المخالفة .

قال تاكاشى : « فى أول الأمر حاولت أن أتحدث عن الأعراض غير الطبيعية لعضوى بطريقة مجردة غير عضوية ، أى كنوع من الوصف المحايد . وليس لدى أى أسس تحملنى على الاعتقاد فى ذلك ، لقد شعرت أن كلمة « سيلان » قد تكون شديدة الصراحة ، وتصدم الفتاة ، لذا قلت فى البداية ، أعتقد أنى أعانى من التهاب فى مجرى البول ، غير أنها لم تفهم ذلك . فهمت ذلك البريق الذى برق فى عينيها حين قلت ذلك . ليس فى وسع أى شىء أن يكون أقل تجريدا من ذلك ـ لقد أعاد هذا الى ذهنى مرة أخرى الواقع الجسدى اللزج لما كنت أعانيه فى عضوى فقالت : « هل ثم احساس حارق فى عضوك ؟ »

ثم ضحك بصوت مرتفع وفعل صديقى مثله . فنظر اليهما بريبة متزايدة ، اما اليابانيون الذين كانوا حولهما فقد وخزت آذانهم الكلمات التى تناثرت فى حوار تاكاشى . وظهر الصيدلى من خلف الأرفف يتصبب عرقا ويشعر بالحزن . وحلت محل الابتسامة التى كانت تعلو وجه تاكاشى الذى حرقته الشمس والذى يشبه وجه طائر نظرة مليئة باللهفة والشوق . فلما راقبه صديقى ، شعر بالتوتر ، غير أن الصيدلى الذى كان يبدو كشخص ايرلندى ، قال بلهجة أبوية : « هذا العدد من الكبسولات مرتفع الثمن . فلم لاتأخذ كمية اقل ؟ »

وما إن اعتدل تاكاشى فى وقفته حتى أطلق ضحكة وقال : « انها مرتفعة الثمن ، ولكن أى شىء أفضل من الألم الذى أحس به فى أنابيبى فى الأسابيع القليلة الماضية .

رد صديقى بصوت مرح : « سأشتريها من أجلك كى تحتفل ببداية حياتك الجديدة فى أمريكا .

نظر تاكاشى الذى أصبح بشوشا الآن ، الى الكبسولات التى تلمع فى

زجاجتها ، ثم أعلن انه سيجمع متعلقاته ويبدأ فى جولاته الانفرادية فى امريكا فى نفس ذلك اليوم . وغادر مع صديقى مكان وقوع الجريمة فى اسرع وقت ممكن وسارا معا الى أقرب محطة أتوبيس .

قال صديقى بشعور أقرب الى الحسد من لقاء وجه تاكاشى السعيد والكبسولات الموجودة فى الزجاجات : « عندما تحل مشكلة ، ستبدو الأشياء التى كانت تنغص عليك حمقاء تافهة » .

رد تاكاشى بطريقة عدوانية : « أى نوع من المتاعب تبدو تافهة ؟ فحين تنزع الأربطة من راسك قد لايبقى شىء سوى احساسك ان المسألة كانت كلها بمثابة ضجة كبيرة بسبب شىء سخيف وعديم الأهمية .

فرد صديق فى التواء : « اذا لم تفك تلك الأربطة فان السخف وعدم الأهمية سيكونان هما محصلة حياتى . ولكن ماهى بالضبط الأربطة التى تلف راسك ؟

رد تاكاشى : « من الصعب أن أتبين ذلك . فاذا كان ذلك فى امكانى ، لامكننى التغلب عليها وأبدأ فى الأسف على أننى أخذت أعد الزمن سنوات . ومن ناحية أخرى ، فاننى تركت لها المجال ، وبدأت فى تدمير ذاتى .

أخذ يشكو بحزن حاد . بالنسبة لى شخصيا فان الفهم يكون عديم الجدوى ، ولن توجد أى وسيلة لجعل شخص ما يعرف أن شخصا اصيب بالجنون .

وبمجرد أن ركب صديقى سيارة أجرة ، فتح المنشور الذى أعطاه له تاكاشى . وكان يتحدث عن حركة الحقوق المدنية . وكانت على الغلاف صورة رجل أسود محترق الجسد حتى أن تفاصيله لم تكن واضحة مثل تمثال لدمية سيىء الصنع . كما كان يوجد عدد من الرجال البيض يرتدون ملابس قديمة ويقفون حوله . كان المنظر مأساويا وفظيعا ، ومثيرا للاشمئزاز ، انه تجسيد للقسوة بلا أى مداراة ، ومخيف جدا حتى أنه استحوذ على من يمسك به وكأنه فانتازيا مخيفة . فلقد قربوا كل وجه الى

الآخر دون شعور بالهزيمة تحت وطأة الخوف . وانعقدت مقارنة بين هذا المنظر وبين التعب الذى يحل برأسه . وطرأ على ذهنه أن تاكاشى ترك المنشور معه وهو على علم تام بمغزى منحه له ، بدلا من اعطائه لأى شخص اخر .

وهكذا اطلع تاكاشى على شىء جوهرى فى عقل صديقى ، اذ إن صديقى قال : يدرك المرء احيانا أن وعى الشخص قد أمسك بشىء ما من طرفه الخارجى . اذ بينما كنت افتش فى الزوايا المعتمة فى ذاكرتى ، خطر لى اننى حين ذهبت وراء تاكاشى ، كان ينظر الى تلك الصورة وهو يحتسى الليمون . كان يبدو عليه أنه يواجه مشكلة ضخمة . ولا أظن أنه كان قلقا بشأن روشتة المضاد الحيوى التى تحدث عنها بكل تلك التفاصيل ، وانما كان قلقا بشأن أمر أكثر خطورة بكثير . فهل تظن أن تاكاشى يعير أهمية لمثل هذه اللقطة ؟

شعرت بصدمة غريبة حين قال : « هل أخبرك بالحقيقة ؟ » وأشك أن ما يدور فى عقله كان شيئا مختلفا تماما عما قاله لى . فأتعجب عم يكون ذلك الشىء !

بينما كنت جالسا فى قاع الحفرة فى فجر خريف حار ، والكلب فى حجرى ، لم أستطع معرفة ماهية ذلك الشىء الذى كان يدور فى عقل أخى ، لم يفعل صديقى شيئا يقينا الا أنه جعل ذلك حقيقة واضحة . كذلك لم أستطع أن أتبين ماذا كان ذلك الشىء الذى أخذ ينمو فى عقله فأدى به فى النهاية الى الموت بهذه الطريقة الشاذة . فالموت يقطع فجأة إمكانية الفهم . اذ إن هناك اشياء لايتم اخبارها للأحياء حول ملابسات الكارثة ، فلو أن صديقى قد صرخ صرخة قصيرة فى التليفون ، بدلا من أن يطلى وجهه باللون الأحمر ويشنق نفسه . لعله وجد مفتاحا يفتح مغاليق المشكلة . بالطبع ، من الممكن أن تكون الرأس الأحمر والخيارة فى شرج الجسد العارى ، والموت شنقا هى فى حد ذاتها نوع من صرخته الصامتة ، ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فان هذه الصرخة لم تكن كافية بالنسبة لمن بقوا بعده . وبالنسبة لى ، كانت الحلول متساوية جميعا بحيث لم أتمكن من متابعة التفكير أكثر من ذلك .

ومع ذلك ، فلا يوجد من الأحياء من يستطيع أن يفهم صديقى المتوفى أفضل منى . فمنذ عامنا الأول فى الجامعة ، كنا معا فى كل شىء حتى اعتاد زملاؤنا أن يقولوا إننا توأمان متماثلان . وكان ذلك يبدو حتى فى المظهر ، كنت أشبه صديقى أكثر من شبهى لأخى . لم يكن تاكاشى يشبهنى من أى وجه . وكان هناك شىء فى عقل أخى الأصغر بينما كان يتجول فى أمريكا ، شعرت أننى أقل قدرة على الوصول اليه من أشياء كان لها مكان فى عقل صديقى المنتحر . ففى احدى أمسيات خريف عام ١٩٤٥ ـ أى أمسية اليوم الذى ضرب فيه « س » أحد أخوتى الأكبر ، وهو الوحيد الذى عاد حيا من الجبهة الكورية التى أقيمت خارج الوادى الذى كانت تقع فيه قريتنا ، فى ذلك المساء كانت أمى ترقد على فراش المرض وراحت تقارن قائلة لاختى « انهما مازالا طفلين لم تتضح سمات وجهيهما بعد . ولكن بمرور الوقت سيصبح ميتسوسابورو قبيحا ، أما تاكاشى فسيكون وسيما . وسيحب الناس تاكاشى وسيحيا حياة ناجحة . فعليك أن تكونى على علاقة طيبة معه والتصقى به قدر امكانك حين تكبرين » .

وحين توفيت أمنا ، تبنى أحد أخوالنا أختنا هى وتاكاشى ، وهكذا اتبع فعلا نصيحة أمنا . غير أنها انتحرت قبل أن تصل الى سن البلوغ ورغم أن تخلفها العقلى لم يكن فى خطورة تخلف طفلى ، فقد كانت متخلفة لدرجة أنها لم تكن قادرة على البقاء دون الالتصاق بشخص آخر على حد قول أمى . ولم تظهر أى استجابة حقيقية من أى نوع سوى للموسيقى أو للأصوات المشابهة ...

نبح الكلب . نهض العالم فى الخارج لاستقبال الحياة مرة أخرى ، ضاغطا على فى قاع حفرتى من الجانبين فورا . راحت يدى اليمنى تحفر فى الجدار الذى أمامى ، كنت قد أسقطت بأظافرى على حجرى خمس أو ست قطع من الطوب ، وكان الكلب يلتصق بشدة فى صدرى كى يتجنب هذا الطوب . وحفرت يدى بإلحاح فى جانب الحفرة ، مرتين وأكثر ، وأدركت أن شخصا مجهولا كان يحملق فيما يحدث من أعلى . قربت الكلب منى اكثر ونظرت من الثقب . أصابنى فزع الكلب بالعدوى ، كنت خائفا كما يخاف حيوان حقيقى . كان ضوء الصباح ملبدا كعين مصابة بالمياه

الزرقاء ، أما السماء التى كانت بها مسحة بيضاء عند الفجر عالية ، فقد بدت منخفضة وملبدة بالغيوم . لو أن كلتا عينى كانتا تبصران لملأ ضوء الصباح الموقع بشكل أكبر ، ولكن هذا الصباح كان مظلما وكئيبا بالنسبة للعين المتبقية . جلست عاجزا عن التخلص من القذارة التى كانت تغمرنى ، أعبث بيد عارية فى الجدار المبنى من الطوب اللبن ، ويهاجمنى برد يتغلغل فى جسدى آتيا من الخارج ، وخجل يحرقنى من الداخل ، كان هناك سد أنسانى المدخل المؤدى الى الحفرة ، يبدو من بعيد اشبه بصورة مصغرة ، كان على وشك أن يهدم البرج ويمحو السماء الملبدة واللوح الخشبى . فاستحضر هذا المنظر صورة برج أسود رفع فى الجو من قدميه الخلفيتين . فثار الكلب وشلنى الخوف والخجل . ثم سمعت صوت أشياء ورحت أتبين ملامح ذلك المارد الذى كان يطل علىّ وكأنه إله ، فلما شعرت بالدوار من فرط الألم ابتسمت ابتسامة واهنة .

سأل المارد : « ما اسم الكلب ؟ »

كان هذا السؤال بعيدا كل البعد عن جميع الملحوظات التى سلحت بها نفسى . ولما وجدتنى أرسو فى أمان على شاطىء الحياة اليومية شعرت بشىء من الراحة والاسترخاء . لاشك أن النميمة ستنتشر بين الجيران عن طريق ذلك الرجل . ولكنها ستكون فضيحة ليست من نوع الفضائح التى كنت أتأملها منذ لحظة مضت بمثل هذا الخوف والحرج ، ليست من الفضائح التى تثير الرعب والعار وتتصبب من كل مسام جسدى ، ذلك النوع الذى ينثر كل ماهو انسانى بقسوة وعدوانية ويبعثره فى الرياح ، بل كانت فضيحة هادئة ليست بأسوأ مما اذا شوهد المرء على سبيل المثال ، يمارس الحب مع خادم عجوز .

صمت الكلب على حجرى بعد أن تنبأ بأن صاحبه قد نجا بشكل ما من الخطر ، وصار أليفا كالأرنب .

استأنف الرجل كلامه قائلا : « هل سقطت هناك بينما كنت مخمورا ؟ كان الجو مليئا بالضباب هذا الصباح »

أومأت اليه بحذر (انتصب جسده كله فى مثل هذا السواد حتى أنى

كنت بالنسبة له على ما بى من قتامة كضوء الصباح) ثم نهضت والكلب بين ذراعى .

سقطت قطرات من الماء كالدموع من قاع فخذى ، مبللة جلدى بين الركبتين اللتين كانتا حتى الآن جافتين . تراجع الرجل خطوة الى الخلف ، اذ كان يشعر بتوجس غامض ، مما مكننى أن ألقى نظرة كاملة عليه من نقطة فى مستوى مفصل قدمه . كان بائع لبن صغير يرتدى ملابس تعينه على حمل اللبن يبدو أنه يرتديها طوال حياته ، وفى كل جانب منها زجاجة . وكلما تنفس ، سمع صوت اصطكاك الزجاج من حوله . وبدا أن تنفسه أثقل مما يجب . كان وجهه مسطحا دون أرنبة الى أنفه ، وكان بياض عينيه غير مرئى تقريبا . نظر الىّ بهاتين العينين البنيتين المألوفتين وهو يتنفس بصعوبة ، حولت ناظرى الى شجرة « القرانيا » التى أظهرت ألوانها الخريفية خلف رأس الرجل المستدير مترددا فى أن أرى تعبيرا على وجهه قد يعنى شيئا ما . بدت أوراق الشجرة تشتعل باللون الأحمر . تهدد فى نفس الوقت بصورة لهب الجحيم الذى نراه فى معبد القرية كل عام فى يوم مولد بوذا (كان جدى الأكبر يقدمها للمعبد عقب الحادث التعس الذى وقع عام ١٨٦٠) كان معنى وجود هذه الشجرة بالنسبة لى ، ان اتخذ قرارا . وضعت الكلب ، ثم حفرت الأرض كى يخرج منها مزيج من الوحل وعشب بنى ذابل . فجرى الكلب بكل ما لديه من مظاهر المرح ، وكأنه يؤكد طول ما عاناه حتى الآن .

صعدت الدرج بعناية . كان علىّ أن أصعد بحذر حتى لا أفقد موطىء قدمى اذ إن ساقى كانتا ترتعشان بشدة من فرط البرد . وخطا بائع اللبن خطوة أخرى متوجسة الى الخلف ، اذ رأى بيجامتى مبتلة وقذرة ، وعلى وشك أن تخلع عن جسدى . شعرت بالرغبة فى أن أسبب له ذعرا الا أنى أحجمت ، ذهبت الى المطبخ مغلقا الباب خلفى دون مزيد من الضوضاء .

صاح بائع اللبن من خلفى بخيبة أمل وكأن ذهابى دون الانتباه اليه ، جعله يرى الأمر كله وكأنه تدليس قائلا : « حين رأيتك فى الحفرة ظننتك ميتا » .

توقفت للحظة أمام حجرة زوجتى كى أتأكد من أنها لاتزال نائمة . ثم خلعت « بيجامتى » وقمت بتنشيف نفسى . فكرت فى تسخين بعض الماء كى أغسل ما لحق بى من قذارة ، غير أنى تخليت عن الفكرة . ودون أدراك منى ، فقدت الدافع لتنظيف نفسى . ازداد ارتعاش جسدى . أضأت النور فوجدت اصبعى يدمى حيث قطعت أحد أظافرى أثناء الحفر فى طوب حائط الحفرة . وكان البحث عن مادة مضادة للتلوث يشكل قدرا كبيرا من التعب ، فربطت المنشفة حول اصبعى وعدت مرتعشا الى غرفة نومى . لم يتوقف الارتعاش ، ومالبثت ان اصابتنى حمى اذ بدأ جسدى يدق بوجع خفيف ، منفصلا عن الألم الحاد الذى كنت اشعر به فى اصبعى . كان ألما أشد قسوة من ذلك الألم الذى اعتدت أن أشعر به دائما عند الفجر وأدركت أن أصابعى ، كانت تحاول بلا شعور أن تخرج قطع الطوب المتكسر كى تخرج الطين لتدفننى وأنا على قيد الحياة . وازداد الارتعاش والوجع بشكل لايطاق . وفهمت تلك التجربة اليومية التى تحدث حين يستيقظ المرء ، حيث كنت أشعر عند الفجر بأن جسدى مشوه ، ويحل به فى كل أجزائه وجع متبلد .

الفصـل الثانى

التئام شمل العائلة

بعد ظهر اليوم الذى وصلت فيه برقية من أخى معلنة توقفه المفاجىء عن التجوال فى أمريكا ووصوله الوشيك الى مطار هانيد ، التقيت أنا وزوجتى بأصدقاء أخى ممن هم تحت العشرين . وكانت هناك عاصفة فوق المحيط الهادىء مما أخر وصول الطائرة ، فأخذنا ، نحن الجماعة المرحبة ، حجرة فى فندق المطار ، كى ننتظر الطائرة التى اضطرت الى التأخر . وأسندت زوجتى ظهرها الى النافذة المضيئة وكانت تظلل وجهها كى لا يتبين أحد . ماكانت عليه من تعبير وهى جالسة على مقعد منخفض ذى مسندين ، راحت تشرب الويسكى فى صمت . وكانت كأسها الملتصقة بيدها اليسرى تبدو داكنة كغصن شجرة مبتل ، وكانت تضع الى جانب حذائها زجاجة ويسكى ، واناء به ثلج بينما هى عارية القدمين . كانت قد أحضرت الويسكى من المنزل وطلبت الثلج من الفندق .

كان أصدقاء تاكاشى يجلسون على الفراش ، وقد التصقوا كحيوانات صغيرة تحتمى فى مأواها رافعين ركبهم الى الذقن يشاهدون برنامجا رياضيا عبر تليفزيون صغير يصدر عنه صوت أشبه بطنين الباعوض ، كنت قد قابلت هوشيو وموموكو من قبل . اذ بعد أن اختفى أخى بوقت قصير سمحا لصديقى أن يدفع له ثمن كبسولات المضاد الحيوى ، أتيا لزيارتى على أمل أن يعرفا آخر مستقر له . وفى زيارتهما التالية بعد بضعة أشهر وصلتهما بطاقة بريدية من أخى ، لأنهما يعرفان عنوانا يمكن الاتصال به غير أنهما رفضا اخبارى ، واكتفيا بطلب النقود كى يرسلا له ببعض

الاشياء الضرورية . لم يتركا اى أثر سواء عليّ أو على زوجتى ، غير أننا تأثرنا بالطريقة التى يبدو أن غياب أخى جعلهما يحسان فيها بالضياع ، كذلك تأثرنا بالاخلاص الذى أوحى به منظرهما .

ورحت أشرب البيرة ، ونظرت من خلال الفتحات الصغيرة الى الفضاء الفسيح الذى كانت تهبط فيه الطائرات وتقلع دونما توقف . كانت المنطقة الفاصلة بين مدارج الطائرات والحجرة التى كنا نتلكأ فيها يمكن عبورها عن طريق ممر علوى . وكانت مجموعة من طالبات المدارس يمررن فوقه وهن يقمن برحلة الى المطار ، ينظرن أمامهن فى حذر . وحين وصلن الى منحنى المعبر ، بدا أنهن يصعدن الى السماء الملبدة بالسحب مثل الطائرات على المدارج . غير أن ما بدا للوهلة الأولى ، وكأنه أحذية الفتيات تسقط من أقدامهن ، لم يكن فى واقع الأمر سوى سرب من الحمام . ارتفع عدد منه فى الهواء وهبطت واحدة بحركات غير طبيعية وكأن أحدا صادها ، على المكان الظليل الضيق الذى تكسوه الرمال تحت النافذة مباشرة . فلما ألقيت نظرة متأنية ، رأيت أنها كانت عرجاء . كان من الواضح أنها شديدة السمنة ، ربما بسبب عدم الحركة ، ولذلك لم تتمكن من الهبوط السهل . كان هناك ظل قاتم من أول رقبتها حتى بطنها يشبه جلد يدى زوجتى . ثم انطلقت الحمامة دون سابق انذار . توقفت على بعد سبع بوصات أمام عينى مثل بقعة سوداء فى أحد اختبارات روشاخ النفسية وطارت بخفة ونشاط بعيدا عن مرمى النظر .

سحبت رأسى الى الخلف اذ أثارنى المنظر . استدرت فرأيت أن حركتى المفاجئة أدهشت كلا من زوجتى التى ظلت ممسكة بالكأس فى يدها ، اما صديقا أخى فقد ظلا يشاهدان التليفزيون .

قلت كى أخفى حرجى : "لابد أن العاصفة سيئة جدا بحيث تتسبب فى كل هذا التأخير . ولو تأرجحت الطائرة لأصاب الفزع تاكاشى ..

انفجر هوشيو بصوت متوتر وكأنه لم يعد يحتمل الصمت قائلا : "تاكاشى ليس من الطراز الذى يصيبه الفزع .

أثار هذا الكلام اهتمامى باعتباره أول ما نطق به هذا المساء باستثناء

تحيات عابرة ، فرددت : "انه يفزع كأى انسان . بل اذا كان ثمة ما يميزه فهو أنه كان دائما يخشى من شىء ما أو آخر . فعندما كان طفلا أصيب بجرح صغير فى اصبعه ، ولم يخرج واحد فى المائة من المليجرام من الدم . لكنه ظل يصرخ حتى كادت أمعاؤه تخرج" .

تدفق الدم حين وخزت اصبع أخى الاوسط فى يده اليمنى بكسين . تفاخر أمامى بأن فى امكانه أن يظل فاتحا يده دون أن تتحرك شعرة فى رأسه . كان دائما يصر على أنه لم يخش قط أى عنف أو أى شكل من أشكال الألم ولا حتى من الموت نفسه ، كنت دائما شديد الحرص على اثبات ذاته.

مضيت قائلا : "قطرة دم سالت من جرح دقيق فى طرف اصبعه الوسطى" . قلت ذلك بتأكيد شديد على التفاصيل كى أسخر من حارس أخى الشخصى . "كان يشبه عين سمكة كان كلانا ينظر اليها حين أغشى على تاكاشى .

رد قائلا : "ليس فى امكانك أن تثير الرعب فى تاكا ، فلقد رأيت كم هو بارد الأعصاب أثناء مظاهرات يونيه ، لم يكن مذعورا .

وجدتنى منهمكا أكثر فى ذلك النزاع الصغير الساذج الذى ظهر من أصدقاء أخى . وكانت زوجتى أيضا تصغى وعيناها على هوشيو . ألقيت نظرة أخرى الى الشاب الذى يجلس معتدلا على الفراش ، وهو يرد بثبات على نظرتى . كان يوحى بأنه قد جاء لتوه من المزرعة ، أو مهاجر شاب حضر حديثا الى المدينة . كانت ملامحه غير متوازنة ، وكأنها قررت أن يتجاهل كل منها الآخر ، بحيث أصبح كل شىء مضحكا ، رغم أن هذه الملامح لم تكن قبيحة اذا مانظر المرء الى كل منها على حدة . كان يرتدى سترته الصوفية المخططة باللون البنى رغم أنه بدا أنها ستنسل وتتمزق كقطة ميتة . كنت لا أزال غير مهتم باقناعه ، غير أنى آملت أن أضع حدا لهذا الجدل بتسديد ذلك النصل الى عدوانيته .

قلت : "يبدو أن تاكاشى كان يريد أن يصبح نموذجا قياسياً للسلوك العنيف ، الا أنه حين نجح فى ذلك ، كان يعطى الانطباع بأنه مجرد هاو فى

هذا الشأن . ألا ترغب فى مشاركتنا فى شرب الويسكى أو البيرة؟" .
فرد الشاب بلهجة واضحة الاشمئزاز ، وفى نفس الوقت حرك احدى يديه بقوة الى حد ما تعبيرا عن الرفض قائلا : كلا شكرا . لقد قال تاكا ان السكارى يبدون ضعفاء حين يهاجمهم احد . وقال اذا اشتبك رجل سكير فى معركة مع آخر ، فإن الشخص الذى لا يشرب غالبا ماينتصر ، حتى لو كانا متساويين فى القوة والمهارة الفنية .

وبعد أن خارت قواى الى حد ما ، صببت لنفسى قدحا من البيرة وقدحا من الويسكى لزوجتى ، التى بدت منهمكة فى حالة من الفضول أكثر حيوية مما أظهرته فى الأشهر الماضية . واجهنا اليد الخشنة الحمراء التى كانت مصوبة نحونا ، ونحن نمسك بكأسينا بما يوحى بأننا سكيران تجمعنا معا فى الخندق الأخير لمقاومة قوى أشد منا تتشكل ممن لايشربون الخمر . فنظرة واحدة الى يده تكفى كى تدل أنه لم يترك قريته الا منذ وقت قصير .

قالت زوجتى للفتى : "انا مصدقة لفكرتك عن تاكاشى ، سوف ألتقى اليوم بشقيق زوجى لاول مرة ويسرنى أن أعلم أنه رجل مهذب" .
، حرك الشاب يده كى يبين أنه لم يتأثر بسخرية أنثى مخمورة ، وفجأة استدار موجها انتباهه لذلك البرنامج الرياضى التافه المعروض فى التليفزيون . وبينما يفعل ذلك ، تحدث بصوت منخفض ، مستفسرا عما أحرزه الفريق المهاجم من أهداف ، من الفتاة ، التى لم ترفع عينيها عن جهاز التليفزيون أثناء تبادل النقاش بيننا . فصمتنا أنا وزوجتى طوعا أو كرها وانهمكنا فى كأسينا .

تم الاعلان عن تأخير آخر فى وصول الطائرة . وبدا أنها ستتأخر الى الأبد . وحل منتصف الليل دون أن تصل . وحين نظرت من فتحات النافذة ، بدا المجال الجوى ككهف من الضوء الشاحب ، وكأنها أضواء زرقاء لامعة ، وظلال برتقالية حارة تخترقها عتامة تبعد عن اللون الأبيض الذى كان يغطى المدينة ، وكأن الليل لم يحل على أطراف ذلك المكان ، وظل يحوم هناك بلا نهاية دون أن يتعدى تلك الأطراف . فلما حل بنا الارهاق ، أطفأنا انوار الحجرة ، التى صار مصدر الضوء الوحيد الاتى

اليها هو خطوط الضوء المنبعث بلا اتجاه من جهاز التليفزيون لذا ظل صديقا أخى يشاهدانه حتى انتهى آخر برنامج ، فلم يعد ينقل أى شىء ذا معنى . وظل يصدر أزيزا كأجنحة البعوض ، رغم أننى كنت أعجب فيما إذا كان ذلك يسبب ضوضاء فى رأسى .

أصرت زوجتى فى عناد على الاستمرار فى احتساء الويسكى ، مولية ظهرها نحو مدارج الطائرات وكأنها تصد أى زائر قد يأتى من باب وهمى . كانت مزودة باحساس غريب لا يكشف عمق ما بلغته من سكر . راحت اغوار سحيقة كسمكة تحافظ على مستوى سكناها فى الماء ولكنها ترفض تحت أى ظرف من الظروف أن تذهب أكثر مما ذهبت ، لم ترغب فى أن تفيق . ترى انها قد ورثت هذا الاحساس بالأمان عن امها ، التى كانت هى الأخرى مدمنة . فما أن تصل إلى حد معين من الشرب حتى تغط لتوها فى النوم . ومادامت لم تعان قط من الصداع الذى يصيبنى بعد تناول الخمر ، فكان كل غد يبدأ بالبحث عن ذريعة للعودة بأسرع ما يمكن لتلك الطريقة المعروفة تماما .

قلت لها : "أنت مختلفة عن غيرك من المدمنين فى شىء واحد على الأقل ، يمكنك أن تتحكمى فى شربك وتظلين فى نفس المستوى ، بمحض ارادتك . وأتخيل أن تذوقك المفاجىء للشراب سينتهى فى خلال بضعة اسابيع . فلا ينبغى أن تعقدى صلة بين شغفك العابر بالشراب بذكريات عن أمك ، وتحاولين تبريره أو تجعلين منه شيئا قد جاء ليبقى" .

ظللت أكرر هذا مرات عديدة، لكنها رفضت مفاتحاتى هذه فى كل مرة . وهى تقول : "على العكس ، فان قدرتى على بلوغ حد المتعة الارادية تجعل منى مدمنة . وكانت هذه هى ايضا حالة أمى . فالسبب الذى يجعلنى أتوقف حين أصل الى مرحلة معينة ، ليس من الابتعاد عن الاغراء فى أن أكون أكثر سكرا ، ولكن هو الخوف من أن أنزلق عن الحالة المبهجة التى أصل اليها" . لقد جرها الخوف والتقزز الى الشراب بأشكال مختلفة . لكنها كبطة جريحة تغوص تحت الماء ، كانت تعرف أنها اذا طفت على السطح ، فانها ستواجه سيلا من أشكال القلق ، لذا فهى لم تتحرر قط من

الخوف والتقزز حتى وهى مخمورة . وحين كانت تشرب تصبح عيناها حمراوين كالدم بشكل غير معتاد ، كانت هذه الحقيقة تقلقها ، قالت : "يقولون فى الحكايات الشعبية الكورية إن المرأة التى تكون عينا حمراوين ، مثل البرقوق تتهم بانها آكلة لحوم البشر" .

فاحت فى الحجرة رائحة الويسكى . أما أثر ما احتسيت من بيرة فقد تلاشى ، وفى كل مرة اتنفس فيها كنت على وعى بها بسبب انتظام حاد فى النبض . كانت التدفئة تعمل بصورة جيدة أكثر مما يلزم ، ففتحنا نافذتى حجرتنا كى ندخل بعض الهواء .

فجأة سمع ازيز طائرة نفاثة كدوامة من خلال الفجوة . فوجهت عينى الوحيدة التى اصابها التعب بالخمول ، متجولا بجنون بحثا عن الطائرة التى لعلها وصلت ، ولكن كل ما وجدته لم يزد على ضوئين متحركين على وشك الاختفاء فى العتمة الخفيفة .

افزعتنى محركات طائرة نفاثة كانت تقلع . ومع علمى بهذه الحقيقة فلقد خدعت أكثر من مرة بنفس الطريقة ، رغم قلة مرات الاقلاع ، وتباعدها ، الا أن نظرتى كانت نصف مشلولة . لم يبق هناك سوى الليل .

ظللنا صامتين فى حجرتنا ننتظر الطائرة المتأخرة . لم تكن لعودة أخى من مغزى ايجابى على زوجتى وعلى ، ومع ذلك انتظرنا وكأنه سيعيد قوة ما ستحرك شيئا أساسيا فى كل منا .

نهضت موموكو منتصبة على الفراش وأطلقت صرخة . كانت نائمة ، متكورة كالجنين فوق الغطاء . استيقظ هوشيو الذى كان ممددا على الأرض . وذهب نحو الفراش . وجلست زوجتى بكأس الويسكى فى يدها ورأسها منتصب كعرسة . أما أنا ، فبقيت واقفا واسندت ظهرى نحو النافذة . كنا عاجزين عن فعل أى شىء لتلك الفتاة وهى فى قبضة أحلامها ، نظرنا الى وجهها الذى يبدو كمثلث مقلوب يعصره التوتر ومبتل بتيار من الدموع ، كانت تتلألأ باللون الأبيض كالفازلين فى الضوء .

قالت وهى تجهش بالبكاء "لقد تحطمت الطائرة . انها تحترق انها تحترق" .

رد الشاب باحتقار وبصوت خشن : "لم تتحطم أى طائرة ، فكفى عن البكاء" كان يبدو عليه أنه خجل بالنيابة عنها .

وردد : "الصيف .. الصيف" .

تنفست وغاصت فى الفراش مرة أخرى ، وتكورت وانتقلت الى حلم مختلف . كان هواء الحجرة حاراً وكأننا فى الصيف . سألت نفسى ، لماذا يشعر اثنان من الشباب بمثل هذه الحاجة لأخى وكأنه ملاكهم الحارس بحيث ينتظران طوال الليل ، وقد تأثرا به حتى فى الأحلام ؟ هل لان أخى هو نموذج للرجل الذى يحقق أحلامهما ؟

تحدثت الى هوشيو تدفعنى الشفقة على أصدقائه الشباب : "ألا تتناول قليلا من الويسكى ؟" .

رد قائلا : "كلا شكرا" .

أجبت : "أتعنى أنك لم تمس الخمر قط ؟" .

فأجاب بصوت مبحوح أضعفه الاحساس : "أنا ! .. لقد كنت أقاضى من يمنعنى عن الشراب . فحين كنت اعمل فى المدرسة الثانوية ، كنت أعمل لثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع كنت أشرب الجين من الصباح حتى الليل . وأحيانا أنال قسطا من النوم ، كنت دائما مخمورا ، مخمور وأنا نائم ، وأنا مستيقظ مخمور . كانت لى أحلام شريرة كثيرة" .

ثم جاء ليقف الى جانبى ، ملقيا بظهره على النافذه بجلبة شديدة . فجأة ، بدت على وجهه أول ابتسامة رأيته يبتسمها منذ قابلته . وكان فى عينيه بريق يمكن تبينه حتى فى وسط هذه الكآبة ، فأدركت أنه فخور بهذه القصة . سألت : "لم توقفت عن الشراب اذن؟" .

أجابنى بقوله : "لقد التقيت بتاكا وقال لا تشرب لأنك يجب أن تواجه الحياة وأنت غير مخمور . لذا أقلعت عنها . ومنذ تلك الاونة لم أحلم حلما واحدا .

اذن لقد أظهر تاكاشى الغريزة التربوية ، لم أفكر فيه قط كواحد من هذا الطراز من قبل . يستطيع تاكاشى ان يقول لشخص دون العشرين ، ألا

يشرب بقدر كبير ، لا تشرب لأن الانسان يجب أن يحيا وهو صافى الذهن دون شراب . وبدا أن ذلك وحده كان كافيا كى يجعل عاملا شابا يقلع عن طريقته فى الحياة المدمرة للذات . والأهم من ذلك ، أن الفتى استطاع أن يتذكر الحادثة بأكثر الابتسامات وثقة . قال : "أما بخصوص ما اذا كانت لدى تاكا الشجاعة أم لا ..

ثم بدأ فى اعادة حوارنا السابق ، كان طوال الوقت يرقد فوق الأرض ككلب يقدح ذهنه للبحث عن طريقة يسترد بها كرامة ملاكه الحارس . فقال : "فى مظاهرات يونيه ، فعل شيئا مختلفا عن الآخرين ، لم يتسن لك أن تعرف عن ذلك" .

وبدافع من رغبته أن يتحدانى ، رفع نفسه الى وضع بحيث يمكنه أن ينظر مباشرة الى عينى . أما أنا فنظرت بدورى الى عينين لم تزيدا عن كونهما ثقبين داكنين من الرصاص . فاستطرد قائلا : "فى أحد الأيام انضم الى عصابة وساعد على هزيمة الجانب الذى كان ينتمى اليه .

ضحك بصوت مرتفع وكانت هذه الضحكة بما فيها من طفولة وبهجة هى العصا التى قلبت مياه كرهى الراكدة .

قلت : "ان ذلك النصر العظيم كشف أن تاكا ليس سوى طفل متقلب فاسد ، لايتماسك فى أفعاله ، وليست له أى صلة بالشجاعة" .
رد الشاب بعداء سافر : "أنت متحامل على تاكا لأن صديقك أصيب حين ضرب أمام البرلمان ، ولأنك سمعت أن تاكا ضرب الفريق الذى فعل ذلك بصديقك ، ولهذا السبب فانت لا تريد أن تقر بأنه شجاع" .

قلت "ان الشرطة هى التى ضربت صديقى ولم يكن من الممكن أن يكون تاكا هو الذى فعل ذلك . فليست ثمة صلة بين الأمرين :
لمح الشاب فى خبث : "من له أن يدرى فى كل هذا الظلام" .
أجبت : "لا أعتقد أن تاكا يمكنه أن يضرب رجلا على رأسه بكل تلك القسوة بحيث يكسر جمجمته ، وتدفع الرجل للجنون وقتل نفسه . ولا تنس أننى عرفته منذ كان طفلا . فأنا أعرف مدى ما يتصف به من خجل" .
بينما كنت أتحدث ، رحت أفقد حماسى بالتدريج لمناقشة عديمة النفع

كهذه . فقد جعلنى التعب وشعور من الحقد لا أستطيع تفسيره وكأن أنة فاسدة قد بدأت تسيل ، وبدا فمى مليئا بطعم غير لطيف ، طعم عدم الجدوى والعبث . فاستيقظت ذكرى صديقى الميت وراحت تؤنبنى ، وهى تسألنى ما اذا كان هذا الجدل التافه مع طفل هو كل ما كان فى وسعى عمله من أجل الرجل الميت الذى كان يعنى الكثير جدا بالنسبة لى . واذا كانت تلك الذكرى قد أوحت إلى بشىء ، فهو أنه لا يوجد شىء يستطيع أن يفعله الاحياء من اجل الموتى . وبدون سبب محدد ، صرت فريسة لتوجس غامض على مدى الأشهر القليلة الماضية . انها الشهور التى مات أثناءها صديقى ، وبدأت فيها زوجتى عادتها فى شرب الويسكى ، وأجبرنا أن نودع طفلنا المعوق فى احدى المؤسسات ، مع أن هذا التوجس قد يكون مرتبطا بشىء كان يحتشد قبل ذلك . لقد غذى داخلى قناعة بأنى قد أموت بطريقة أكثر عبثية وسخفا من صديقى . وكنت مقتنعا أيضا أن أولئك الذين سيبقون بعدى سيفشلون فى فعل ما هو سليم وصحيح نيابة عنى .

قال الشاب شاكيا : "أنت لا تفهم تاكا ، أنت لا تعرفه على الاطلاق . فأنت لا تشبهه فى القليل ، ما أنت الا فأر . لماذا جئت اليوم لمقابلة تاكا ؟" كان يتحدث بصوت دامع مؤثر ثم عندما أدرت نظارتى عن وجهه البالغ التأثر غادرنى . ورقد الى جانب رفيقه على الفراش . دون ان يصدر عنه أى صوت .

استطعت ان أستخلص زجاجة الويسكى من قرب قدمى زوجتى وكوبا من الورق كانت قد جاءا مع عشاء مجهز للمتنزهين فى المطار ، لم تكن تشترى سوى أرخص أنواع الويسكى . مما حرق حنجرتى وارتعشت قليلا . نادتنى زوجتى : "أيها الفأر . هل ستقضى الليل تنظر الى المجال الجوى ؟ فلدى شىء أقوله لك" .

كانت منهمكة فى اجترار نشوتها ، وذهبت وجلست الى جانب ركبتيها وأنا أمسك بزجاجة الويسكى . سألت : "ماذا تعتقد أننا يجب أن نقول اذا سأل تاكاشى عن الطفل ؟" .

أجبت : "ليس علينا أن نقول أى شىء ؟

قالت : "ولكن اذا سأل وأنا مخمورة فلن أستطيع أن أصمت ، مع أنى لو أجبت على أى من السؤالين فسيعفينى ذلك من الاجابة عن السؤال الآخر ، مما يجعل الأمور أكثر بساطة" .

قلت : "ليس على هذه الدرجة من البساطة ، لو أنك فهمتين العلاقة السببية بين الأمرين بقدر ما تعتقدين أنك تفهمين ، فستنالين ما تستحقين فى مسألة الطفل ومشكلة تعاطيك الخمر . ستفيقين وتحملين طفلا جديداً .

فأجابت : "لا أدرى ما اذا كان تاكاشى سيلقى على المحاضرات . قلت : اتركى الشرب ، يجب أن يحيا الانسان فى كامل وعيه" وأضافت قائلة : "المشكلة هى أنى ليست بى رغبة فى أن تعاد تربيتى" .

قالت "الا تعتقد أنه قد يتوقع ان نحضر الطفل الى هنا كى يقابله" "إنه ليس فى سن تجعله يتخيل أى شىء بهذا القدر عن أى طفل . فهو نفسه لم ينضج بالقدر الكافى" .

بدا أنها كانت تنظر الى الطفل فى مكان مابين ركبتها اليسرى وركبتى اليمنى . بعد أن وضعت الكأس باهتزاز على مسند المقعد ، مدت يدها الفارغة . بدا أنها ترسم صورة بسيطة لطفل بدين بحركة واحدة ، زادت من شعورى بالحرج واحساسى العام بالنقمة .

ثم قالت : "لدى احساس أن تاكا قد يحضر دمية دب أو أى شىء للطفل ، مما سيضعنا جميعا فى موقف المواجهة" .

قلت : "لا أتصور أن تاكاشى لديه النقود كى يحضر دمية دب" ، كنت أدرك وأنا أتكلم ، أنه رغم أنى لم أرد لها أن تتحدث عن الطفل مع أخى فى أول لقاء لهما ، غير أنى كنت أخشى أن تقع هذه المسئولية على عاتقى .

سألت : "هل هو من النوع الحساس أم من النوع المتبلد ؟"

قلت : "انه مزيج حساس جدا فى بعض النواحى ، وقليل الاحساس فى نواح أخرى . عموما ، هو ليس من النوع المرغوب بالنسبة لك فى حالتك الراهنة" .

قالت زوجتى : "لا أريد أن أتعرض لتحقيق من جانب أى أحد". قالت ذلك بلهجة دفاعية وثارت فجأة ثم خمدت تماما . وكأنها تحدثت فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها كرة الانفعال فى الهواء ثم استقرت فى مكانها .

أجبت كى أريحها : "لن يكون عليك أن تتعرضى لمساءلة" . قلت ذلك خوفا من أن تبدأ فى الهبوط فى بئر سلم حلزونى من كراهية الذات واستطردت قائلا : "ليس لديك سبب يجعلك تخشين تاكاشى . أنت متوترة لأنك ستقابلين فرداً جديدا من العائلة . لا يوجد أى شىء آخر تخشينه ـ ولا يعنى هذا أنى أظن أنك خائفة" .

صببت قدرا آخر من الويسكى فى كوبها . ذلك أنه اذا ما لم تقرر ان تنام ، فينبغى دفعها الى الدرجة التى تسكر عندها . كان عقلها مهددا ومحاصرا بشىء ما ، شىء أكثر شرا من الألم الجسدى .

أخذت رشفة من الويسكى ، من الواضح أنها كانت تقاوم الغثيان . بذلت جهدا بعينى الواحدة التى كانت تؤلمنى فى الظلام ، نظرت الى وجهها العاجز . وبمرور الوقت تغلبت على ماتعانيه . فخف جمود وجهها ، وظهر محله وجه فتاة شابة . ارتعشت اليد الممسكة بالكأس فى الفراغ الموجود فوق ركبتها . فأخذت الكوب منها ، وسقطت اليد النحيلة ذات العرق الى حجرها كطائر سمان يموت . كانت قد نامت بالفعل . وبعد أن ارتشفت الويسكى ، الذى تبقى منها ، تثاءبت ، ثم تمددت على الأرض.

كنت فى أحلامى أقف فى مفترق طرق حيث يتقاطع شارع مشجر عريض مع شاعر جانبى . وتدافعت أعداد كبيرة من الناس نحوى وراحوا يتجاوزوننى من الخلف . وأظهرت أوراق الشجر التى كانت تلف الشارع أننا فى أواخر الصيف ، كانت الأغصان كثيفة كأغصان الغابة العميقة التى تحيط بوادى قريتنا . وعلى عكس الحركة الدائبة اليومية فى عالمى الخاص كان هذا العالم الآخر الذى شاهدته كشخص ألقى برأسه تحت مياه نهر كى يرى حوضه ، بدا هذا العالم الذى يتكشف الآن أمام عينى ، مغلفا بصمت عميق . وحين تعجبت صامتا أدركت أن جميع الذين كانوا يسيرون على الجانب المعاكس ببطء كانوا من كبار السن . وكذلك الناس

الذين يعملون فى محال الخمور والمتاجر . كان يوجد عند مدخل الشارع الجانبى محل للحلاقة . وكان العاملون جميعا من كبار السن . كذلك الحلاقون . كانوا يرتدون حللا داكنة اللون وقبعات تغطى آذانهم تبدو كأحذية المطر وتهبط الى أقدامهم باستثناء العملاء والعاملين . من المسنين الذين تلفهم السكينة . كان لذلك مغزى عميق حتى أنى شعرت بأنى أجاهد كى أكتشف شيئا ما يسبب لى التعب . أدركت أن الطفلين اللذين عهد بهما صديقى الذى شنق نفسه إلى إحدى المؤسسات كانا بين هؤلاء المسنين الذين يملأون الشارع ، كانا يرتديان حلتين سوداوين تغطى أذنيهما . كانا يختفيان ويعاودان الظهور بين زملائهما ، كان من الصعب أن أميز ، طوال الوقت أيهما صديقى وأيهما الطفل . غير أن هذا اللبس فى حد ذاته لم يكن عائقا للمرور بالتجربة الانفعالية طالما كان المسنون الذين ملأوا الشارع على صلة بى الى حد ما . حاولت أن ألقى بنفسى فى عالمهم وصادفت بعض المقاومة الخفية .

أطلقت صرخة يأس "لقد هجرتكم" .

غير أن صرختى تبددت فى اصداء لا حصر لها طارت حول رأسى ، ولم يكن فى امكانى أن أتبين ما اذا كانت قد وصلت الى المسنين أو لم تبلغهم . يسيرون ببطء وثبات ، ويقودون سياراتهم ويختارون الكتب بعناية ، يجلسون فى محل الحلاق ، يظهرون فى المرآة الى الأبد .. أصابنى ألم وكأن شخصا ما كان يضغط على أمعائى وانا اتساءل :

"بأى كيفية هجرتهم ؟"

لأنى ، كما أخبرت نفسى لم أشنق بدلا منهما ، ورأسى مطليه باللون الأخضر ، وكذلك لاننى لم أوضع فى احدى المؤسسات اذن لماذا أصبح كل هذا واضحا أمامى الأن ؟ كان الأمر شديد الوضوح بالنسبة لى لأنى لم أكن معهم ، هناك فى ذلك الشارع فى أواخر الصيف ، لم أكن سوى رجل يرتدى حلة سوداء وقبعة تغطى أذنى وحذاء مطر فى قدمى ..

كنت قد أدركت تماما ان هذا ليس الا حلما ، غير أن هذا الادراك لم يغير

الاحساس بالظلم الذى أوحت الى به هذه الأشباح الثابتة . شعرت ان هناك يدا ثقيلة موضوعة على كتفى . ان هناك قوة ما تغلق جفونى - لم يكن واضحا لى اذا كان ذلك سببه الخجل أو الضوء . فتحت عينى فرأيت أخى ، يرتدى ملابس صياد وسترة ذات ياقة وينظر إلى من أعلى وتعلو وجهه حمرة الشمس .

قال بصوت مشجع : "أهلا" .

عندما جلست بعد هذا النوم ، رأيت الفتاة شبه عارية تنحنى كى تلتقط فستانا داكنا . كانت على وشك أن ترتديه . وكانت زوجتى وهوشيو يراقبانها وكأنهما وليا أمرها . جعلها عريها هذا تبدو وكأنها طائر وحيد نزع ريشه فصار يشعر بالبرد القارس ، وكان المنظر بالنسبة لى أقرب الى الكآبة منه الى الاثارة الجنسية .

قال تاكاشى "انه رداء هندى . الشىء الوحيد الذى أحضرته معى من أمريكا . كان على أن أبيع دلاية أختى كى أحصل على النقود" .

قلت وأنا أخفى خيبة أملى لفقد الشىء الوحيد المتبقى الذى يخص شقيقتنا المتوفية : "لا عليك" .

فرد بسعادة : "يسرنى أنك تقول ذلك" . وكأن حملا قد أزيح عن صدره اتجه نحو النافذة ، ينفض غبار المساء ويفتح النافذة نصف المفتوحة . فملأ ضوء الصباح المكان ، تحت سماء تغطيها السحب ، اما الطائرات التى تعلقت بالأرض فبدت كالجراد تغلفها غلالة كئيبة . ملأنى هذا المنظر بنفس الكآبة . وان كان بدرجة أكبر بحيث يستحيل مقارنتها - كما فعلت الفتاة العارية ، وبذلك اقنعتنى أن أصل الأنفعال يكمن داخلى ، بسبب قلة النوم وما تبقى من أثر للخمر والتعب فى الليلة الماضية .

استطعت أن أرى مومكو فى حالة من الاكتئاب وهى تهز رأسها الذى يبرز من ياقة الرداء الجلدى فى الضوء الآتى من النافذة المفتوحة . كان حز الرداء يلتصق بردفها مما جعل مؤخرتها نصف مكشوفة ، غير أن وجهها كان يشع بكبرياء ساذج لأنها الشخص الوحيد الذى أحضر له

تاكاشى هدية . بدت الطريقة التى زمجرت بها وكأنها تلوم الرداء الجلدى أقرب الى الروح المعنوية العالية التى لا يسهل اخفاؤها .

قالت : "ان جلدى وهذا الجلد يحتكان ببعضهما فى الاتجاه الخاطىء . وليست لدى أى فكرة أى الأزرار تناسب أى ثقب . انظر كم هو عدد الأزرار يا تاكاشى ! هذا يجعلنى اتساءل كيف أن الهنود متقدمون فى الرياضيات على هذا النحو" .

فقاطعها هوشيو بلهجة مرحة وهو يمد لها يدا غير مدربة بغرض المساعدة : "ليست للرياضيات أى علاقة . فهل أنت متأكدة من أن هذه الأشرطة الجلدية ليست الا مجرد زينة ؟"

"سواء كانت زينة أم لا فليس هناك مايدعوك الى خلعها" .

انضمت زوجتى الى الفريق السعيد حول الرداء الهندى وساعدت موموكو فى ارتدائه . ذهلت حين رأيت الطريقة تندمج بها مع حرس تاكاشى الشخصيين فى هذا الصباح . نزل أخى من على متن طائرته المتأخرة أثناء نعاسى المؤلم المهين ، وبسرعة وقف بين زوجتى وصديقيه . وصار الاكتئاب الذى أصابها ولحقتنى عدواه ملكى وحدى .

قلت : "كان الطفل معوقا على نحو سيىء ، وكان علينا أن نودعه احدى المؤسسات" .

فرد تاكاشى مستسلما : "لقد سمعت بذلك من قبل" .

فاستطردت قائلا : "ذهبنا لنأخذه بعد خمسة أسابيع ، الا أنه كان قد تغير تماما فى تلك الفترة ، كانت حالته من السوء حتى أن زوجتى وأنا لم يكن فى امكاننا أن نتأكد من أن هذا هو ابننا . وطبيعى أن الطفل لم يتعرف علينا . يبدو كأن شيئا مريعا حدث له . اذ يداخلك الشعور بأن الحاجز قد سقط بالكامل أكثر مما كان قد مات بالفعل . وعليه فقد عدنا بدونه فى النهاية" . كنت أتحدث بصوت مكتوم ، حتى لا تصل كلماتى الى أذن زوجتى .

وبينما كان أخى يصغى فى صمت ، علت وجهه قتامة من الاخلاص أمكنها أن تتغلغل بين عظامى دون أن تثير أيا من أعضائى ، انها خاصية كانت تشبه شيئا ما تبينته فى وجهه غير المألوف الذى لفحته الشمس حين استيقظت ، انها خاصية كانت كامنة فى صوته حين أخبرنى بأنه علم بحظ الطفل العاثر . لم أكن أتوقع أن أجد فيه هذا الظل من الجدية البالغة فأدركت أنى كنت أشاهد أحد آثار الحياة فى أمريكا .

سألت : "وهل سمعت عن ذلك أيضا ؟" .

فرد قائلا : "كلا ولكنى كنت أعرف أن شيئا فظيعا لابد أن يكون وقع" . قال ذلك وهو يخفض من صوته دون أن يحرك شفتيه .

"هل عرفت أن صديقى قد قتل نفسه ؟"

"نعم لقد كان نوعا خاصا من الناس ، ألم يكن كذلك ؟" .

أدركت أن تاكاشى كان يعرف أيضا تفاصيل الكيفية التى مات بها صديقى . وكانت هذه هى أول مرة أسمع مثل هذا الثناء من شخص خارج عائلة صديقى . قال : "يبدو أنى محاط برائحة الموت . واذا كان الأمر كذلك ، اذن يا ميتسو خلص نفسك واصعد مرة أخرى الى عالم الأحياء . والا فان هذه الرائحة ستهب عليك" .

سألت : "هل يعنى هذا أنك قد أصبت بالعقلية الخرافية من أمريكا ؟

استمر اخى فى حديثه دون رضوخ : "وهو كذلك" "ولكن كل مافعلته هو أن ألتقط شيئا كان ملحوظا فى داخلى مرة أخرى حين كنت طفلا ، وحدث أن نحيت ذلك الشىء فى وقت متأخر من حياتى . أتذكر حين بنيت أنا وأختنا كوخا من الجريد وعشنا فيه لفترة ؟ كنا نبدأ حياة جديدة محاولين أن نبتعد عن رائحة الفناء . كان ذلك ، كما تعرف بعد أن ضُرب "س" حتى الموت" .

وراقبته فى صمت دون القيام بأى من الاستجابات الملائمة ، وظهر شك حارق فى العينين اللتين التقتا بعينى ، يهدد بأن يكبر حتى يصبح شيئا خطيرا وعنيفا . كان تاكاشى دائما يفقد رباطة جأشه اذا ماذكره أى

شخص بشيء ما يتعلق بوفاة شقيقتنا . وظننت فيما بيني وبين نفسي ، أن الحال كما هو . غير أن ماكان يتشكل في عيني تاكاشي اختفى وكأنه ظهر على سبيل التحذير . وشعرت ببعض الدهشة .

قال بلهجة من الاقناع الذى يخلو من العاطفة : "المسألة هى أنها ربما تكون قد ماتت ، غير أن سحر الحياة مازال يفعل فعله ، ذلك أن وفاتها تركتنى أواصل الحياة . مما أيقظ تعاطف العم وأقنعه أن يرسلنى الى جامعة طوكيو . ولو أنى ظللت أعيش فى نفس القرية التى كان يعيش فيها ، لمت من الاكتئاب. فلا تظن أنه يحسن بك أن تبدأ حياة جديدة الآن ، قبل فوات الأوان ؟" .

قلت بتهكم : "وأين تعتقد أن أجد كوخى المصنوع من الجريد ؟" وشعرت أن الحديث كان قد بدأ يحدث أثره فى داخلى .

سألنى بنبرة جادة وكأنه أدرك ما أحس به من عدم يقين : "وما نوع الحياة التى تحياها الآن ؟..

أجبت : "بمجرد وفاة صديقى ، تخليت عن عملى فى الجامعة حيث كنا نعمل مدرسين ، وباستثناء ذلك فلا يوجد ثمة تغيير خاص" .

فمنذ تخرجى فى قسم الآداب ، فى الجامعة ، كنت أكسب عيشى عن طريق ترجمة كتابات صيادى الحيوانات الذين يحتفظون بها فى الأسر ، ولقد طبع أحد هذه الكتب عن الحيوانات ، عدة طبعات . مما ضمن حقوق الطبع ضروريات الحياة لى ولزوجتى . ومن المسلم به أننا اعتمدنا على أبيها بالنسبة للمنزل الذى كنا نعيش فيه ، ناهيك عن مصروفات الاحتفاظ بالطفل فى المؤسسة . منذ أن تركت عملى بالجامعة كان حماى يتحمل كل المصروفات المنزلية الاضافية . فى البداية شعرت ببعض المعارضة فى أن يشترى أحد المنزل من أجلى ، ولكن بعد أن شنق صديقى نفسه ، تركت زوجتى تعتمد على أبيها .

سألنى أخى : "وماذا عن حياتك الداخلية ؟ هناك خطأ ما ، أليس كذلك ؟ لقد صدمت صدمة مؤلمة حين رأيتك ملقى على تلك الأرض القذرة

وكذلك حين استيقظت ، كان صوتك ووجهك مختلفين الى حد ما عما اعتدت عليهما . ولنقلها بصراحة : أنت تنحدر الى أسفل . ذلك أنك تعطى الانطباع بأنك على حافة الهاوية" .

فقلت محاولاً تبرير موقفى : "أعترف بأن وفاة صديقى قد أفرغتنى من الحماس للحياة . بالاضافة الى مسألة الطفل" .

الا أن تاكاشى أخذ يضغط على بقوله : "الا تظن مع ذلك أن هذا الوضع قد طال ؟ واذا طال الأمر أكثر من ذلك ، فسيتخذ وجهك شكل السقوط من أعلى التل . لقد التقيت فى نيويورك بطالب يابانى صار نوعا من الحثالة الاجتماعية . لقد ذهب الى أمريكا كى يدرس الفلاسفة الذين خلفوا "ديوى" ، وبعد أن غاص تماما فى الايمان بالحياة ، كان هذا هو مصيره . وأنت تذكرنى به ، يا ميتسو ، بصوتك ووجهك وكل ما توحى به حالتك الجسدية والعقلية . فهى جميعا تشبهه تماما" .

أجبت : "لقد أخبرنى حارسك الشخصى بأنى فأر" .

فرد : "فأر ؟ لقد كان اسم الشهرة لطالب الفلسفة هذا هو كلمة "فأر" .

واستطرد قائلا : "لا أتوقع منك أن تصدقنى ، أليس كذلك ؟" .

فأجبت وأنا خجل من شعور الشفقة على ذاتى الذى كان يملأ صوتى : "بل أصدقك" .

كان ذلك صحيحا . فقد صرت أشبه الفأر ، كالفيلسوف الذى فقد ايمانه بالحياة . فمنذ الدقائق المائة التى قضيتها فى حفرة القاذورات وأنا أجتر تلك التجربة . كنت على وعى تام بأننى أنحدر جسديا وعقليا . وأن المنحدر الذى كنت أقف عليه تشتد فيه حدة رائحة الموت . وعند هذه النقطة ، أصبح واضحا لى مغزى مابدا فى أول الأمر كأوجاع لا يسهل شرحها والتى كانت غير متصلة ظاهريا فى أجزاء مختلفة من جسدى . غير أن الوعى بطبيعتها النفسية قد قضى عليها ، بل على العكس ، فالنوبات أصبحت أكثر تكرارا . كما أنى لم أتغلب على الاحساس الحاد بالاحتضار .

قال تاكاشى مكررا وكأنه يتجاوز النقطة التى ضغط عليها : "لابد لك ياميتسو أن تبدأ حياة جديدة" .

راحت زوجتى تتأملنا كلا بدوره بعينين حمراوين بسبب السكر ونحن نقف جنبا الى جنب مستندين إلى النافذة ، ثم قالت : "نعم يجب أن تفعل كما يقول . حتى أنا يمكننى ملاحظة ذلك" .

فى هذه الاثناء ، كانت موموكو قد رسمت نفسها كعروس هندية كلها من الجلد ، حتى زينة شعرها . كانت زوجتى قد انتهت من مساعدتها لم تكن فى هذه اللحظة ، غير جذابة بصفة خاصة ، حتى تحت ضوء الصباح . فقلت بجدية :

"من الطبيعى أنى أود بدء حياة جديدة غير أن السؤال هو أين يتسنى لى أن أجد كوخى المصنوع من الجريد ؟" شعرت بأننى فى حاجة الى كوخ كهذا بما فيه من رائحة لا تنسى من الجريد الأخضر .

سألنى أخرى قائلا : "ولم لا تتخلى عن كل ما تفعله فى طوكيو وتأتى معى الى شيكوكو ؟ (اسم الجزيرة التى ولد بها الكاتب) لن تكون هذه طريقة سيئة للبداية يا ميتسو" . وكان يبذل كل مافى وسعه كى يغرينى حتى أنه أبدى خشيته من أن أرفض الفكرة على الفور . "هذا هو فى الحقيقة ما جعلنى آخذ طائرة نفاثة وأعود الى الوطن" .

فتدخل الشاب قائلا : "اذا كنا ذاهبين الى شيكوكو ، يا تاكا فلنذهب بالسيارة ! انها تتسع لثلاثتنا بأمتعتنا . ويستطيع أحدنا أن ينام فى مؤخرة السيارة فى الطريق . لقد اشتريت سيارة ستروين فى رحلة الذهاب .

"وتطوعت موموكو قائلة : "لقد عمل هوشيو فى محل لاصلاح السيارات طوال العامين الماضيين . واشترى الستروين ، كانت أفضل بكثير من مجرد حطام ، وأخذ يصلحها حتى يجعلها صالحة للاستعمال . وفعل ذلك كله وحده !

احمر خد الشاب والجلد المحيط بعينيه وقال بتلهف ساذج : "لقد قدمت بالفعل اخطارى للمحل . فاخبرت المدير بذلك يوم أن وصل خطاب تاكا

وجاءت موموكو كى تبلغنى عنه" .

ورغم حرج تاكاشى وهو يصغى لذلك ، فقد كان يبدو عليه احساس طفولى بالرضاء . لذا قلت له : "إنها حالة من زحام عديم الفائدة . فلا تعتمد أبدا على عقليهما . اعطنى المزيد من التفاصيل عن هذه الحياة الجديدة فى شيكوكو . فلا أظن أنك تعتزم العمل فى الحقول كما عمل أجدادنا" .

علقت موموكو : "كان تاكا يعمل كمترجم لجماعة من السياح اليابانيين حين كانوا يتجولون فى أحد المتاجر الأمريكية ، وقد أثار انتباه ، أحدهم اسم عائلة تاكا . ويبدو أنه يملك سلسلة من المتاجر الكبرى فى شيكوكو . انه الآن واسع الثراء فهو يتحكم فى اماكن عديدة من البلد ، ويتضح أنه قد شغف بفكرة شراء المتجر الواقع حيث ولدت . ويخطط لنقل المبنى بأكملة الى طوكيو ويحوله الى مطعم يقدم الأطعمة الريفية" .

واستطرد اخى قائلا : "باختصار ، لقد ظهر محدث نعمة يمثل تلك الامور الفظيعة المتهالكة من أيدينا . لذا ، فاذا وافقت أن نبيعها ، أظن أنه ينبغى أن نذهب ونشرف على حقوق شئون جدنا وأخيه الأصغر . وهذا سبب آخر دفعنى الى الحضور من أمريكا" .

لم أكن مقتعنا ولو قليلا بخططه . وحتى اذا ماكان قد اكتتشف فى نفسه فجأة مواهبه الكامنة كرجل أعمال ، الا أنه لم يبد عليه أنه قادر أن يبيع مبنى منهاراً لرجل يملك سلسلة من المتاجر يفترض فيه أنه مطلع كغيره من رجال الأعمال فى أيامه . مطعم يقدم الأطعمة الريفية ؟ غير أن المكان لم يكن له هذا النوع من الجاذبية المنشودة ، كان مخزننا يرجع عمره الى حوالى مائة عام . غير أن ما أثر فى أكثر من مثل هذا الكلام هو الاهتمام الذى مازال تاكاشى يواصله ، أى حقيقة جدنا الأكبر وأخيه الأصغر . ففى أحد الأيام ، فى الوقت الذى كانت العائلة تعيش فى القرية على وشك التفكك . لفحت أخى ريح الفضيحة التى تورطت عائلتنا فيها منذ قرن أو يزيد .

قال تاكاشى مرددا ما سمعه بصوت مرتعد : "لقد قتل جدنا الأكبر أخاه

الأصغر لتسوية بعض المتاعب فى القرية . وأكل قطعة من لحم فخذ أخيه ، فعل ذلك كى يثبت للمسئولين فى العشيرة أنه لا صلة له بالمتاعب التى أثارها أخوه" .

أنا نفسى لم تكن لدىّ معلومات دقيقة عن الحادثة . لقد أعطى كبار القرية الانطباع باستبعاد أى ذكر لهذا الأمر ، كما حاولت عائلتنا أن تزعم أن تلك الشائعة لم تكن موجودة ، خاصة فى زمن الحرب . ومع ذلك ، ولكى أواجه ذعر تاكاشى ، أخبرته عن شائعة أخرى مختلفة أذكر أنها رويت لى فى احدى المرات ، سرا . فقلت :

"ليس هذا صحيحا . فبعد تلك المتاعب ساعد جدنا الأكبر أخاه على الهرب داخل الغابة ، ليذهب الى كوتشى . وتوجه بحرا الى طوكيو ، وهناك غير اسمه وعاش حياة رغدة . وارسل عدداً من الخطابات الى جدنا الأكبر تتعلق بعودة أسرة ميياجى الى الحكم . ولم يتحدث جدنا الأكبر فى هذا الأمر مع أحد حتى وفاته ، لذا اضطر الناس الى افتراء نوع الأكاذيب التى سمعتها . وكان السبب الذى حدا به الى الصمت هو أن كثيراً من سكان القرية كانوا قد قتلوا بسبب خطأ أخيه ، فأراد أن يتحاشى اثارة غضب عائلاتهم !"

"بعد أن تذكرت الأثر الضخم الذى كان لى على أخى لعدة سنوات بعد الحرب ، قلت مقترحا : "على أى حال فلنعد الى منزلى ، ويمكننا أن نفكر فى خطط حياتنا الجديدة حين نصل الى هناك" .

"وهو كذلك . مادام ذلك معناه أن مخزن العائلة سيختفى من القرية فى الوادى الذى تقع فيه لمائة عام ، فلن يضر أن نتحدث عن الأمر بشكل مريح" .

قال الشاب كى يدفع بى أنا وزوجتى خارج دائرتهم الصغيرة : "لو ذهبت أنت وزوجتك فى سيارة أجرة فسنتبعكم أنا ومomoko وتاكا بسيارتى" .

قالت زوجتى التى كانت تخلصت تقريبا من أى حذر تجاه أخى : "أود أن أتناول كأسا واحدة قبل أن نركب السيارة" .

نظرت بأسى الى الزجاجة الفارغة بجانب حذائها على الأرض .

فأسعفها أخى اذ قال على الفور : "لدىّ زجاجة من البوربون من السوق الحرة اشتريتها فى المطار" .

فجازفت سائلا أخى وأنا آمل أن حراس أخى لايخصهم الأمر : "هل عدت الى الشراب مرة أخرى" .

فرد تاكاشى : "لو كنت مخمورا حقا فى أمريكا ، فلابد من أنى كنت سأتعرض للضرب حتى الموت فى أحد الأركان المعتمة . فأنت تعرف كيف أصير حين أكون مخمورا ، أليس كذلك ياميتسو ؟" .

ثم أخرج زجاجة من الويسكى من حقيبته وقال : "لقد اشتريت هذه لزوجة أخى الجديدة" .

فقلت : "يبدو أنكما تعرفتما جيدا حين كنت نائما" .

رد تاكاشى على تهكمى بسخرية : "لقد تحدثنا طويلا أثناء نومك . هل تقضى دائما وقتا طويلا هكذا فى أحلامك المزعجة ؟

سألت بانزعاج عميق : "هل قلت أى شىء أثناء نومى ؟" .

فقال مشفقا على ماشعرت به من قلق : "لا تقلق ، فأنا لا أظن أنك تدع الناس يواجهون قدرهم . ولا يظن أحد ذلك ، فأنت لست كجدنا الأكبر ، لست من النوع الذى يرتكب أفعالا رهيبة مع الآخرين" .

لما رأيت زوجتى تشرب جرعة من البوربون من الزجاجة ، فاخذتها منها وتناولت رشفة صغيرة كى أخفى احراجى .

فقالت مومكو وهى تشع بالسعادة وتشعر بالشجاعة بسبب الرداء الهندى الذى ترتديه "وهو كذلك . فلنذهب الى سيارة هوشيو الستروين" .

انطلقنا نلملم شمل العائلة من جديد . ، وسرت فى المؤخرة بوصفى أكبرهم سنا ، وراح الشخص الذى يطلقون عليه انه فأر يسقط من أعلى التل وكان لدى توجس أننى أدفع فى النهاية الى الانسياق وراء خطة تاكاشى غير المؤكدة . كنت فى هذه اللحظة تنقصنى الصلابة لمواجهته . وبينما طرأت لى هذه الفكرة ، بفعل الدفء الذى أحدثته جرعة الويسكى الا أننى حين حاولت التركيز فيها راح التعقل يعوقنى وانا ابحث عن محاولة لعتق الذات .

الفصل الثالث

الغابة الرهيبة

توقف الأتوبيس فى قلب الغابة وكأن المحرك قد توقف دون قصد . كانت زوجتى نائمة فى المقعد الخلفى ، تلفها البطاطين من صدرها حتى أصابع قدميها ، وقد اتخذت هيئتها شكل المومياء ، وكى لا تتدحرج الى الأمام ، أعدتها الى وضعها الأصلى ، خشيت فجأة من الآثار التى يمكن أن يحدثها هذا الانقطاع غير الطبيعى لنعاسها . وكان العائق أمام الأوتوبيس هو فلاحة شابة تحمل لفافة كبيرة فوق ظهرها وشيئا ما منكمشا فى سكون تام كحيوان ، أمام قدميها . فحين نظرت ، تبينت أنه طفل يولى وجهه الى الاتجاه المعاكس . واستطعت أن أتبين بوضوح الردفين العاريين الصغيرين ، وأتبين أيضا لونا أصفر بشكل يتناقض مع منظر الغابة المظلم ، انه كوم صغير من الافراز .

أخذ طريق الغابة يضيق على الجانبين بنباتات دائمة الخضرة وراح ينحدر أمام الأوتوبيس ، وبدت المرأة وطفلها عند قدميها يطفوان على بعد قدم فوق سطح الأرض .

ملت بالجزء الأيسر من جسدى خارج النافذة ورحت أشاهد المنظر . وداخلنى احساس غامض بالخوف ، فأخذت أعد نفسى لشىء مرعب لا أعرفه قد يأتى ويقفز فوقنا من الجانب الذى أخفته عنى عينى التى لا ترى . وساعدت ازاحة الطفل عن الطريق فى زيادة الخوف والخجل فى نفسى .

وفوق طريق الغابة ، امتد شريط ضيق من سماء الشتاء محاط بأوراق

النباتات الكثة ، وكأنه يقع فى قاع خندق عميق ، امتد حول رءوسنا حيث توقفنا . حدثت لنفسى ان السماء ستلف الغابة الشاسعة كقوقعة تنغلق على ذاتها ؛ أثارت هذه الفكرة داخلى مشاعر الخوف من الأماكن المغلقة . ورغم أنى ولدت وتربيت فى أعماق هذه الغابة غير أنى لم أستطع أن أفر من نفس الاحساس الخانق كلما مررت فى طريقى الى وادينا . كانت ثمة انفعالات ترقد فى صلب هذا الاحساس موروثة من أولئك الأجداد الذين فنوا منذ زمن طويل ، والذين كانوا يقودون مركباتهم الى ما لا نهاية فى هذه الغابة . لقد جاس تشوزوكابى فى الادغال حتى وصل الى منطقة لم يستطع التقدم بعدها . حيث يوجد نبع للمياه المعدنية . ظل احساسى الخانق مشحوننا بنفس المشاعر التى توحى للهاربين بالرعب كما حدث "للرجل الأول" من عائلتنا ، حين كان يخشى خيالات الغابة التى تشعره بأن ثمة من يهدده وهو يبحث عن البيت الذى كان يتخيله . وأمثال تشوزوكابى يوجدون فى كل مكان وزمان . كانت أمى دائما تهددنى به وتقول : "سيأتى التشوزوكابى من الغابة ويأخذك" .

كانت كلماتها تحضر الى الذهن الحقيقة الثابتة لذلك المارد ، ليس فقط لدى كطفل ولكن لها هى أيضا كامرأة فى الثمانين ، ذلك المخلوق الذى يحيا فى نفس العصر الذى نعيش فيه .

راح الأوتوبيس يسير لوقت طويل منذ غادر موقف الأوتوبيسات فى المدينة الريفية . وحين وصل اعلى التل ، انتقل جميع الركاب ، عداى ومن معى الى أوتوبيس آخر انحدر من فوق حافة الغابة الى البحر .

لم أكن سوى فأر مهووس بطريق فى غابة . شعرت بعينى الغابة تنظر الىّ من بين أشجار الأرز ، وأنواع أخرى من الأشجار الخضراء تبدو كأنها سوداء . رأيت الفلاحة تسحب نصف جسدها الأعلى بما تنهض به من حمل ، كانت منحنية الى الأمام وتحرك شفتيها فى عنف . فنهض الطفل ببطء ورفع سرواله ، ثم نظر الى فضلاته وبدا وكأنه سيلمسها بطرف حذائه . لكن المرأة راحت تعتصر أذنه . ثم راحت تضربه حتى أخذ يحمى رأسه بيديه . انطلق الأوتوبيس بعد أن أخذ ركابه الجدد الى صمت الغابة الذى يوحى بعدم الأمان . جاءت المرأة والطفل من مؤخرة الأوتوبيس

وجلسا على المقعد الذى أمامنا مباشرة . جلست المرأة الى جوار النافذة ، وجلس الطفل فى جانب من الممر ، يعبث بالمسند الخشبى الذى يقطع الممر بحيث أن رأسه الحليق ووجهه الشاحب الصغير أقحما نفسيهما بمنظر جانبى على أنظارنا . رمقت زوجتى الطفل بعينين حمراوين ، حيث لا تزال آثار الخمر تتلكأ فيهما . كما وجدت أن عينى تنظران نحوه فى كره . اذ إن رأسه ولون جلده كان يعيدان الينا أسوأ ذكرياتنا . رأيت فى قلب الرأس وفى شحوب الجلد ذلك اليوم الذى أجريت فيه عملية لطفلنا بسبب الشىء الذى اصاب رأسه .

كنت أنا وزوجتى ننتظر فى ذلك الصباح أمام مصعد المرضى فى نفس الطابق الذى توجد فيه حجرة العمليات . ثم فُتحت الأبواب الخارجية كى تعلن عن وصول المصعد الذى يشبه قفصا من حديد ، غير أن المجموعة الثانية من الأبواب ذات السلك الأخضر فى الداخل قاومت جهود الممرضة وأبت أن تنفتح .

قالت زوجتى وهى تنظر من خلال السلك منكمشة من فرط الرعب وكأن ثمة ما يغريها بأن تهرب بعيدا : "الطفل يرفض أن تجرى له العملية" .

رأينا رأس الطفل حليقا من خلال السلك الأخضر فى ضوء خافت أخضر يتسلل كضوء الشمس من بين أوراق الشجر ، كان رأسه حليقا كرأس مجرم ، وهو راقد على فراش فى عنبر الأطفال . اكتست عيناه الضيقتان بعلامات الموت ، وكأن المساحيق قد علت مسحوق البودرة . حين وقفت على أطراف قدمى ، أمكننى أن أرى على الجانب القصى من رأس الطفل ، الافراز البرتقالى ينبعث مع الدم من رأس الطفل . كانت الكتلة توحى بالرهبة اذ كانت شاهدا حيا على قوة داخل الذات التى لا يمكن ان تتحكم فيها . ألا يمكننا نحن اللذين أنجبنا هذا الطفل وهذا الشىء النامى بداخله أن تكون لنا سيطرة عليه ؟ ألا يمكننا أن نصحو ذات صباح كى نجد بعض الزوائد المشابهة تبرز من رأسينا بينما تتسلل السوائل بين الكتل وجميع الأعضاء المتصلة بنفسينا ؟ ألن نتقدم بدورنا الى حجرة العمليات برءوس حليقة كالمجرمين العتاة .. ركلت الممرضة باب المصعد . مما جعل الطفل

يفتح فاه . كان بلا أسنان ، وسرعان ما بدأ فى البكاء .

فى تلك الآونة كانت لا تزال لديه القدرة على التعبير عن نفسه بالبكاء .

قالت زوجتى بينما حملت الممرضة فراش الطفل متجهة الى حجرة العمليات : "أشعر وكأن الطبيب سيأتى الينا ويقول « حسنا ، هاكم طفلكم » ، ويقدم لنا الكتلة الزائدة" .

ذكرتنى كلماتها بأن كلانا شعر بنفس القدر بواقعية تلك الكتلة الزائدة البرتقالية المتورمة أكثر مما شعرنا بضعف الطفل وشحوبه وعينيه المغلقتين .

استغرقت العملية عشر ساعات . وبينما كنا ننتظر نهايتها ونحن فى قمة الارهاق ، استدعيت أنا وزوجتى ثلاث مرات الى حجرة العمليات كى ينقلوا منا بعض الدم . فى المرة الأخيرة جعلتنى رأس الطفل الملطخة بدمه أشعر أنه طُبخ فى نوع من العصيدة . ونتيجة لفقد الدم ، صارت ملكاتى العقلية من الضعف بحيث أن معادلة قديمة شكلت نفسها فى عقلى ، وهى أن ازالة الكتلة الزائدة من رأس الطفل تساوى بتر جزء من جسدى . شعرت فعلا بألم حاد فى أعماقى ، وكان علىّ أن أقاوم بإلحاح فى أن أسأل الأطباء الذين كانوا ينهكون فى العملية "هل أنتم واثقون من أنكم لا تسرقون منى ومن ابنى شيئا حيويا" ؟

وما لبث ان عاد الطفل الينا وهو عبارة عن كيان غير قادر على الاتيان بأى رد فعل باستثناء النظر بعينين ثابتتين ، فشعرت أن أعصابى قد تم قطعها وأصبت بقدر كبير من عدم الاحساس كخاصية جديدة صارت من مميزاتى . لم يحدث ذلك للطفل ولى معا . بل كان أوضح ما يكون فى زوجتى .

صمتت بينما توغل الأوتوبيس داخل الغابة وهى تشرب الويسكى دون توقف من زجاجة فى جيبها . كنت أعرف أن سلوكها سيثير عاصفة من الفضيحة بين الفلاحين الذين يركبون الأوتوبيس ، غير أنى لم تكن بى رغبة فى ايقافها . وقررت قبل أن تنام ألا تفيق كى تبدأ الحياة الجديدة فى

القرية الواقعة فى الوادى ، فألقت بما تبقى من الويسكى ، والزجاجة بين الأشجار . تمنيت أن تكون لحظة النشوة التى تبعث فيها النعاس هى الأخيرة من نوعها . تخليت عن أى توقع بأنها ستبدأ الحياة الجديدة صافية الذهن . فلم يتبق لى سوى أمل وحيد ، هو أن أمنع تجدد الحالة الخطيرة المرتبطة بورم الطفل . بيد أنى كنت أشعر فى دخيلة نفسى بأن هذه الرغبة أيضا لن تتحقق . فندمت بحدة على الويسكى الذى ألقت به .

تقدمت مشرفة الأوتوبيس نحو المؤخرة ومعدتها ملقاة الى جانبها كى تحافظ على توازنها . فوبختها الفلاحة الشابة التى كانت تنظر من النافذة . لاحظت أن الطفل يزداد توترا . وبدا وكأنهما قد جاءا وجلسا فى المقعد المجاور لنا ، كى يتحاشياها .

صاحت المرأة : "تذاكر" ، وتجاهلت الفلاحة النداء لبرهة ، ثم بدأت فى حديث بذى . وهاجمت المشرفة على ما طلبت ثمنا للمسافة من أعلى التل حتى أسفل الوادى ؛ فشرحت المشرفة أن المسافة من أعلى الى الوادى قد فرض أخيراً تعريفة لها من أجل الطريق الجديد . لقد أصبحت هذه هى سياسة جديدة استنتها الشركة ودفعتها اليها قلة الموارد من هذا الطريق . فقلت فى نفسى ان هذا دليل آخر على تآكل الطريق المار خلال الغابة . وبدا مؤقتا أن منطق المرأة أخذ يتغلب على الفلاحة الشابة . الا أنه بدا على وجهها السوقى الذى كان يشتعل بالغضب رد فعل أدهشنى بما يجمعه من مزيج من المفاجأة والتسلية . فبقهقهة صغيرة ، أعلنت بلهجة الواثق بنفسه قائلة :

"ليس لدى نقود" .

ظل الصبى شاحبا متوترا بصفة دائمة . ترددت المشرفة لبرهة ثم ذهبت الفلاحة العاجزة لمناقشة الموضوع مع السائق . وبدا لى أننى يمكن أن أنتهز القهقهة التى أطلقتها الفلاحة كخطوة أولى لازالة التوتر عن زوجتى . فنظرت اليها مبتسما ، ولاحظت أن وجهها مغطى بلون غريب ، اما عيناها اللتان تنظران الى الصبى فكانتا تلمعان بالحمى . ترددت حين رأيت المتاعب تتجمع فى الأفق وأنا فى حالة من الحيرة . واعتمل الغضب داخلى

بجنون . لِمْ لَمْ أمنعها من إلقاء زجاجة الويسكى ؟

قمت بمحاولة يائسة . وقلت : "فلننزل ! لعل تاكا ينتظرنا فى محطة الأوتوبيس . لذا يمكننا أن نطلب من المشرفة أن تخبره أن يأتى ليأخذنا فى السيارة" .

نظرت زوجتى الىّ فى شك وأمالت رأسها ببطء ، أمكننى أن أحس بما فى عقلها المتأرجح بينما الخوف الكامن داخلها والخوف من أن يتركها الأوتوبيس فى قلب الغابة .

ولما كان علىّ أن أقنعها قبل أن يظهر الخوف فى الغابة ويجعلها تلتصق بمقعدها ، كان لابد أن أسلم بأنى أكثرهم رغبة فى الهرب من شبح الطفل بسبب الجنون الذى يبعثه فينا الفلاح حليق الرأس وجلده المريض .

"ماذا يحدث لو لم تصل البرقية فلا نجد تاكا والآخرين فى انتظارنا" ؟

"حتى اذا اضطررنا الى المشى مع قدوم الليل . ألم يكن الطفل يريد المشى" ؟

قالت بتوجس غير محدد متباطىء جعلنى أشعر بالراحة والشفقة : "اذن كم أود ان انزل" .

أشرت الى المشرفة التى كانت مشغولة بالتحدث مع السائق .

وقلت لها : "ان أخى فى انتظارنا عند الوادى . فهل يمكنك اعطاؤه أمتعتنا وإخباره بأن يأتى لينتظرنا بالسيارة من فضلك ؟ سننزل هنا" . نظرت المرأة إلينا نظرة دهشة متبلدة .

أحست زوجتى بمحنة ان هناك مشكلة فأسرعت قائلة : "أنا أعانى من متاعب صحية بسبب حركة الأوتوبيس" غير أن المشرفة حاولت أن تهضم ما قالته وأن تفهمه .

ثم قالت : الأوتوبيس لا يدخل الغابة فلقد اكتسح الفيضان الجسر !

فقلت فى دهشة :

- فيضان فى الشتاء ؟!

ردت : "لقد اكتسح كل شىء فى الصيف" .

"وهل ترك على هذه الحالة" ؟

"ان محطة الأوتوبيس الجديدة على هذا الجانب من الجسر . ولا يصل الأوتوبيس الى أبعد من ذلك" .

قلت : "أخى سينتظرنا هناك . اسمه نيدوكورو" .

تدخلت القروية قائلة بعد ان استمعت لحوارنا قائلة : "أنى أعرفه ، لقد جاء بالسيارة . اذا لم يكن بالمحطة ، يمكن للصبى أن يصل الى هناك . فهو يعرف آل نيدوكورو الذين يقيمون فى المخزن" .

يبدو أنها كانت تعتقد أن المخزن هو الاسم الجغرافى لقطعة الأرض المرتفعة التى يقع فيها بيتنا . فلكم وجدت سوء فهم بين الأطفال الذين كنت ألعب معهم قبل عشرين عاما . داخلنى احساس بالارتياح . فإذا كان علينا أن نسير فى الغابة حتى حلول الظلام ، فمن المؤكد أن هذه التجربة ستقتلع أى متاعب جديدة فى عقل زوجتى . أما اذا كانت هناك شبورة ليلا ، فإن حلكة الغابة يمكن أن تغرق زوجتى فى حالة من الذعر .

وبينما تحرك الأوتوبيس وهو يتركنا على الطريق ، بدا وجها الفلاحة ومشرفة الاوتوبيس جنبا الى جنب عند النافذة الخلفية ، وهما تنظران الينا . لم أتمكن من رؤية وجه الصبى ؛ فأومأنا اليهما ، كانت الفلاحة تقهقه ، وشبكت أحد سبابتيها فى أحد كفيها فى اشارة بذيئة موجهة الينا . شعرت بالحمرة تعلو وجهى من فرط التوتر والحرج ، أما زوجتى ، فقد بدت وكأن هذه الاساءة قد جاءتها كنوع من الراحة .

بعد أن لففنا جسدينا فى معاطفنا فى وسط هذا النسيم البارد الرطب المعبأ بالرائحة ، شققنا طريقنا خلال أوراق الشجر المتعفنة التى تغطى الطين الأحمر فوق أرض الغابة . وفى كل مرة ركلت فيها أقدامنا الأوراق المتساقطة كان الوحل المغطى تحتها يكشف شيئا كالدود . حتى الوحل الأحمر ، بدا أنه يخفى تهديدا لم يكن موجودا فى طفولتى . فكان مما يجب

توقعه الآن ، أنى قد صرت فأرا أو ملكا متحجرا ، وأن الغابة التى هربت منها مرة وأسعى الآن الى العودة اليها لابد أن تنظر الى بريبة . كان هناك صراخ مرتفع فوق الأشجار يكفى كى يجعلنى أحس بأن طين الأرض يرتفع كى يمسك بقدمى .

قلت : "ترى لماذا لم يذكر لنا تاكاشى أن الفيضان اكتسح الجسر" .

فأجابت زوجتى دفاعا عنه : "كان لديه ما يكفى للتحدث عنه غير هذا ، أليس كذلك ؟ فليس من المستغرب ألا يخطر بباله حالة اصلاح الجسر ، وفى رأسه مثل هذه القصة الغريبة التى يريد أن يرويها لنا" .

لقد ذهب تاكاشى الى الوادى قبلنا بأسبوعين . إذ ذهب فى سيارته الستروين مع حارسيه وقطع رحلة طويلة بالسيارة . وطوال النهار ، والليل ، تناوب قيادة السيارة مع هوشيو أو سارا دون توقف حتى وصلا الى شيكوكو . ثم الى القرية الواقعة فى الوادى . ووصلتنا أول أخبار عنهما عن طريق مكالمة تليفونية من مكتب البريد . أعلن هذا النبأ أن زوجة أحد الفلاحين فى منتصف العمر تدعى جين كانت تقوم بدور المسئول عن بيتنا فى مقابل أن تزرع ما تبقى من قطعة أرض صغيرة . جاءت الينا كخادمة للطفل بعد ولادة تاكاشى وظلت مع العائلة منذ ذلك الوقت . وحتى بعد زواجها ، ظلت تعيش فى المنزل مع اسرتها .

وضعوا السيارة أمام مكتب القرية وسط الوادى ، حمل تاكاشى وأصدقاؤه متعلقاتهم وساروا على طريق الحصى المنحدر الذى يؤدى الى بيتنا حين قابلهم زوج جين وأولادها ، الذين انهالوا على أمتعتهم وأخذوها منهم عنوة وصعدوا بها الى التل ، عندما حاول زوج جين الحزين أن يشرح شيئا ما لهم ، بصوت غاضب ، غلبه الخجل ، حتى أن تاكاشى لم يتمكن أن يفهم سوى أن الرجل أراد أن يشرح لهم أن شيئا خارقا قد وقع لهما . أخرج الرجل من جيبه قصاصة مطوية من إحدى الصحف المحلية وأظهرها لتاكاشى .

كانت القصاصة عبارة عن صورة فوتوغرافية كبيرة وصدم تاكاشى حين

رأسها . فالنصف الأيمن من الصورة التقط لعائلة جين . أما الأيسر فكان يمثل شكل جين الملطخة الضخمة . وقد استندت على أحد الجوانب فى رداء قطنى على ذراعها الأيسر ، تشبه منفاخين . وكانوا جميعا ، بمن فيهم جين ينظرون بحزن الى الكاميرا وكأن آذانهم تتوقع أن تسمع صوتا ما .

ثمة مرض غريب يصيب القرويات ، جوع لا يشبع "فوق الطاقة" كما قال زوجها .

ويبدو أن هذه المصيبة تلم بالريفيات البدينات ، لذا فان "أسمن نساء اليابان" هى السيدة جين كاناكى ، التى تعيش فى قرية أوكوبو . انها امرأة تبلغ من العمر خمس وأربعين عاما لها أربعة أطفال ، يبلغ طولها خمس أقدام . اما وزنها فهو ١٩١ رصلا . نصفها الأسفل مقاسه ٤٧ بوصة لردفيها نفس الحجم وقطر ذراعيها ١٦ بوصة . لم تكن دائما على هذا القدر من السمنة ؛ فمنذ ستة أعوام حين كان وزنها ٩٥ رطلا ، كانت تعد من بين النحيفات . وبدأت "مأساتها" فجأة منذ ست سنوات ، ودون تحذير فى أحد الأيام ، حين أصيبت بتقلصات فى ذراعيها وساقيها وهبوط فى ضغط الدم ، مما نتج عنه نوبة إغماء . وعادت الى الوعى بعد ذلك بعدة ساعات ومنذ ذلك الوقت ، سقطت فريسة لمرض الشراهة التى لا يمكن التحكم فيها . فلابد أن تطعم نفسها بشىء حيث إن أقل تأخير فى تناول أى وجبة يحدث رعشة ونوبات صراخ ، ثم اغماء فى النهاية .

فى هذه الأيام ، كانت تتناول الوجبات كل ساعة . تبدأ الصباح بالتهام حلة كاملة من الخضار المسلوق والبطاطس والأرز المخلوط بالشعير . ثم فطيرة من القمح أو الشعرية فى كل ساعة حتى الظهيرة . أما الغداء فهو تقريبا مثل الافطار ، ثم فطيرة من القمح والشعرية كل ساعة حتى العشاء . وفى العشاء ، تتناول ملء آنية أخرى من الخضار المسلوق والفجل المجفف مع البطاطس والأرز الممزوج بالشعير . هذه هى قائمة طعامها اليومية . وبفضل هذه الشراهة غير العادية ، تضاعف وزنها فى غضون ست سنوات وما تزال آخذة فى السمنة . وأكثر من أضيروا من حالتها هو زوجها .

فليس من قبيل لعب الأطفال أن يحصل على ما يكفى معدتها من الطعام . فكميات الشعرية الكبيرة التى ينبغى أن تكون جاهزة فورا تعد عبئاً ماليا كبيراً .

ان جين نفسها تكسب القليل عن طريق القيام بالخياطة غير أن ما تكسبه قطرة فى البحر اذ ما قورن بمطالب معدتها الرهيبة . وقدمت سلطات القرية ، التى تأثرت بما تمر به هذه الأسرة من محنة ، العون من أجل تحمل تكاليف الطعام لكن شيئا من كل هذا لم يكف . قالت : "الى حد ما لا أستطيع أن أقوم بما أكلف به من خياطة . وأقضى معظم النهار فى الجلوس . ولا أستطيع ركوب الأوتوبيس ؛ فلابد لنا من احضار عربة نقل كلما كان علىّ أن أذهب الى مستشفى الصليب الأحمر . ولا أنام جيدا ليلا وأعانى كثيراً من الأرق" .

هكذا شرح زوج جين الموقف بقوله أنهم كى يحصلوا على مزيد من النقود فى هذه الظروف أجروا المبنى الرئيسى لمدرس بالمدرسة الابتدائية ، أقنعوه أن ينام فى استراحة المدرسين فى المدرسة أثناء وجود تاكاشى وأصدقائه . وكان يأمل فى تفهمهم للموقف . اذا إن ذلك هو الذى ظل يقض مضجعه طوال الوقت .

قال تاكاشى : "كانت جين تجلس فى ركن معتم فى المساحة ذات الأرضية الخشبية فى مدخل المبنى . ولا يبدو أنها تشعر بالاستسلام بسبب حظها العاثر" . وهى تقول : "من الشرع أن يسمن المرء على هذا النحو" . واذا كنتم ستحضرون هدية حين تأتون ، فإن حقيبة كبيرة مليئة بالشعرية ستكون أفضل شىء" .

ذكرت زوجتى هذا الموضوع حين زارت والديها قبل أن نغادر طوكيو وتعاطف حماى مع هذا النوع من المصائب المأساوية الساخرة . أعد ست حقائب من الشعرية كما اقترح تاكاشى ، عن طريق شركة تبيع هذا النوع . فأرسلنا المؤن الى "أسمن امرأة فى اليابان" قبل وصولنا .

وامتد الطريق الذى كنا نسير عليه والغابة التى تخنقه من الجانبين ، الى ما لا نهاية ، وعلى نحو رتيب . كان لدى احساس بأننا نراقب مرور

الوقت على نقطة ثابتة وذلك لان عينى الواحدة ليس فى مقدورها ان تتبين أى مناظر .

قالت زوجتى : "تبدو لى السماء حمراء اللون . هل تظن أن ثمة مشكلة فى عينى ، لا يمكن أن تتخذ الأشياء هذه الحمرة لأن عينى حمراء كالدم ، أليس كذلك ياميتسو" ؟

نظرت الى أعلى : فرأيت الظل فوق الأشجار الكبيرة قد ترك فتحات ، وأن المسحة الحمراء المنتشرة فوق الخط الأزرق بينها لم يكن وهما .

قلت : "انه الغروب . ولم تعد عيناك حمراوين" .

فأجابت : "هذا راجع الى الحياة الدائمة فى المدينة ياميتسو . بحيث لا يخطر للمرء أن مثل هذا النوع من الألوان يمكن أن يكون هو الغروب" .

كانت لا تزال تدور بلا هدف حول نفس مجموعة الصور المرتبطة بذكرانا الأليمة : من رأس الصبى الحليق فى الأوتوبيس ، الى رأس طفلنا ، ثم الى الكتلة المعطوبة فى الجمجمة . لقد زالت عن عينيها جميع علامات السكر ؛ فانسحب الدم تاركا حفرتين داكنتين .

اقتربت منا عربة جيب تزمجر كوحش غاضب ، تدفع فى طريقها أوراق شجر ميتة وطينا . فحررنى وصولها من الشعور بأن الوقت لا يمر .

قالت : "انه تاكا" !

فقلت وكأنى أكافح النبرة المفرحة فى صوتها : "وماذا حدث للستروين اذن" ؟

ردت فى ثقة : "ميتسو ، انه تاكا" .

توقفت السيارة مندفعة على جانب الطريق ، ابتعدت زوجتى بحدة عن الذراع الذى مددته لها كى تبتعد عن الجيب المندفعة ، استدار تاكاشى فى مقعد السائق وأخرج رأسه من الجيب . "أهلا بكما . ميتسو" . هذا هو نداؤه المرح . كان يضع على رأسه ما يشبه الخوذة فبدا كرجل اطفاء . قالت زوجتى بعد أن استعادت الحيوية التى افتقدتها منذ استيقظت فى

الأوتوبيس وهي تبتسم : "شكرا على حضورك ياتاكا" .

فقلت : "يبدو أن الجسر قد سقط" .

فرد بقوله : "هذا صحيح . لقد تمكنا من الصعود بالستروين ، ولكن سحبها الى هنا كان سيكلف جهدا كبيرا لمجرد أن تأتي لمقابلتكما . لذا جعلت المسئول عن الخلية يؤجر لي مركبته . أتدرين ، انه تذكرني فأعطاني هذه السيارة الجيب" . راح يدخن بزهو وقال : "ميتسو ادخل أنت من الخلف . ويستحسن أن تأتي ناتسو وتجلس في المقدمة .

"شكراً ياتاكا" .

فقال : "سيأخذ هوشيو الأمتعة . فعند الجسر سيكون في استطاعتنا أن نستخدم الستروين للذهاب الى الجانب الآخر" . وبدأ في قيادة الجيب مرة أخرى بحذر يختلف تماما عنه وهو يقودها حين جاء لمقابلتنا .

فسألت : "وماذا عن جين" .

فقال : "لقد كانت صدمة لي حين رأيتها أول مرة . وحتى الآن تبدو لي غريبة الشكل ، غير أن وجهها يبدو أصغر وأكثر لطفا بعد أن أصبح سمينا . يمكنك أن تقول إنها جذابة كامرأة من الوادي تربو سنها على الأربعين" ، ثم ضحك وهو يقول : "هل تدرى ، انها حملت ابنها الأصغر بعد أن بدأت تأخذ في السمنة مما يعني أن زوجها يجدها جذابة جنسيا ، رغم أن وزنها يفوق ٣٠٠ رطل" .

سألت : "هل يبدون في فقر مدقع" ؟

رد قائلا : "ليس بالقدر الذي يفترضه المرء من تلك المقالة الصحفية . فأنا على ثقة أن الصحفي غرر به مثلي بسبب الوجه الكئيب الذي اتخذه زوجها . فهم يحيون على ما يرام لأن أهالي الوادي يحضرون أشياء كثيرة كي يأكلوا . أتدرى انني لم أستطع أن أفهم لماذا يتحمل مثل هذا الجمع البخيل كهذا أن يفعلوا ذلك طوال ست سنين . لذا حين التقيت بالكاهن في المعبد ، ذلك الشخص الذي كان في المدرسة مع س . سألته عن ذلك . فقال إن الناس في الوادي يجدون من الصعوبة أن يحسنوا مستويات

معيشتهم . وجدوا مثل هذه المخلوقة المتورعة بينهم . فجعلوا منها موضوعا للثرثرة . فيوقوع جين ضحية لهذا المرض الغامض جعلها تقوم بحمل الأضحية التى يمكن أن تحمل على عاتقها جميع آلام أهل الوادى . كان هذا هو تفسير الكاهن ، انه شخص ميتافيزيقى . يجب أن تقابله ياميتسو فهو أفضل عقلاء هذا المكان .

لقد أحدث كلام تاكاشى تأثيراً منعشا لدىّ . ففكرة الحمل للتكفير عن خطايا الوادى كان بها شيء أثار ذكرى متأصلة فى داخل كيانى .

فاستطرد تاكاشى بينما جلستُ صامتا مستغرقا فى ذكرياتى : "أتتذكر الرجل المجنون الذى يدعى جى ياميتسو ؟ ذلك الناسك الذى اعتاد أن يعيش فى الغابة ؟

نعم المجنون الذى كان يحضر الى الوادى حين يحل الظلام .

"أذكر جيدا أن اسمه الحقيقى كان جيتشيرو . كنت أعرفه جيدا . كان بعض أطفال القرية يعرفونه فقط كحدوتة . وكان بعضهم يعتقد أنه غول ينام بالغابة فى النهار . ويتجول فيها ليلا" . وشرحت لزوجتى التى لم تكن تشارك فى الحديث : "غير أن بيتنا يقع بين الغابة والوادى ، لذا كنا أحيانا نلمحه عند الشفق ، وهو يشق طريقه فوق الأرض التى يكسوها الحصى الى القرية . كان يجرى من على التل بخفة كلب برى . كنا نرقبه حين يذهب حتى يختفى عن الانظار ، كان الظلام يغطى الوادى بأكمله . وحسب ما أذكره ، كان يحنى رأسه الى الأمام ويهرب بسرعة فى الظلام .

قال تاكاشى متجاهلا ذكريات الاعجاب التى كانت تمر بذهنى : "لقد التقيته حين كنت أتجول بحثا عن شيء نأكله فى وقت متأخر من الليل ، فأخذت السيارة فى جولة حول الوادى . كنا نسينا أن نتسوق . وكان المتجر الكبير مغلقا . ولان الجميع كانوا مفلسين كان لابد من مقابلة جى .

تعجبت قائلا : "ألا يزال جى الناسك على قيد الحياة ؟ لابد أنه قد صار عاجزا تماما ، لم أظن أبدا أن رجلا مجنونا عاش فى الغابة يمكنه ان سيظل على قيد الحياة حتى الآن" .

رد تاكاشى : "انه لا يعطى أى انطباع بأنه عجوز . يبدو كأنه فى

الخمسين من عمره . لديه اذنان صغيرتان بشكل غير عادى . وليس به شىء يبدو منه أنه مجنون ، غير أن هاتين الأذنين تعبران عما فعلته السنون التى قضاها مجنونا . أثارت سيارتنا انتباهه فظهر فجأة خارج الظلام . وحين حيته موموكو ، قدم نفسه على أنه "جى الناسك" وحين أخبرته انى كنت أحد أبناء عائلة نيدوكورو تذكرنى وقال إنه تحدث الىّ فى احدى المرات . ولكن للأسف فأنا لا أتذكر شيئاً عن ذلك" .

قلت : "كان يقصدنى أنا . فحين عاد "س" من الجيش حضر جى الى المنزل ، كى يتحدث معى أنا و"س" كان يريد أن يعرف هل انتهت الحرب أم لا . انه هرب الى الغابة حتى لا يقبض الجيش عليه . لقد كان الهارب الوحيد من التجنيد فى القرية . أخبره "س" أنه لم يعد فى حاجة لأن يظل مختبئا ، غير أن هذا مستحيل بالنسبة لرجل مجنون ابتعد عن الحياة داخل الغابة أن يعود الى القرية مرة أخرى . سلم الجميع ، بأن له الحق فى الحياة كمجنون ، لذا استطاع بعد الحرب أن يستمر طالما لم يمسسه أحد .

انتابتنى حالة مزاجية مألوفة ، فرغت أطرافى من قوتها . "اذن فالناسك "جى" مازال حيا ، أليس كذلك" .

"لابد أنه مر بأوقات عصيبة" . أضاف تكاشى قائلا : "وهو ليس عاجزا بأى حال من الأحوال" . "انه سوبرمان الغابة" . تركنا جى وأخذنا جولة سريعة حول الوادى ، وكنا فى طريقنا للعودة ، حين رأيناه يمر أمامنا ويقفز كأرنب . كان يتحرك بخفة مدهشة . بدا ، كأنه يسعى للابتعاد عن الأنوار ، او ربما ليبدى لنا مدى ترحيبه بنا . انه حقا مجنون ودود" .

حين كنت طفلا ، كان هناك فى الوادى دائما مجنون مقيم فى مكان ما . ورغم أن المكان نال حصته كاملة من حمقى القرية ، فلم يكن هناك أكثر من شخص واحد قط يعرفه الجميع كمجنون حقيقى . اذ لم يكن من الممكن وجود مجنونين فى نفس الوقت ، كذلك فان ذلك المجنون الأوحد لم يترك الوادى قط ؛ وكأن مجتمع الوادى لا يكتمل الا بمجنون واحد لا أكثر .

ذات يوم جاءت الشرطة العسكرية لتحقق فى تلك الشائعات . وأشر ف

كبار القرية على القيام بتفتيش التلال ، غير أنى ارتبت فى جدية أى منهم ؛ كان من الممكن أن يصلوا الى أراضى غابات الحكومة التى لم تقع داخل اختصاصهم لولا الأشجار المتهاوية والنباتات ، التى سدت الطريق المؤدى الى أعماق الغابة . لذا لم يتم القبض على "جى" أبد . انتظر رجال الشرطة العسكرية فى كشك نُصب فى المساحة الموجودة التى تقع أمام مكتب القرية ، وكانت أم جى تبكى طوال النهار ، وتزحف على ركبتيها وهى تولول أمام ستائر الكشك . ومع ذلك ، ففى اليوم التالى ، بعد أن غادرت الشرطة الوادى ، عادت امرأة قروية عادية مرة أخرى ، واستأنفت عملها بابتسامة تعلو وجهها . كان جى الناسك هو الرجل الذى اعتادوا على تسميته بـ"المتعلم" : فلقد كان يحضر مدرسة ليلية ، وعمل كعريف أو بديل لمدرس : وفى احدى المرات ، تربصت له مجموعة من الأجلاف المخمورين الذين عادوا لتوهم من الجيش بينما كان يتجول فى الوادى بحثا عن الطعام ، فأطلقوا الصراخات وهربوا . وبعد عدة أيام وجدوا أن جى قد كتب قصيدة من تأليفه .

فقلت ، يالها من رياضة لطيفة .

تدخلت زوجتى فى الحديث بعد أن ظلت صامتة طوال ذلك الوقت بقولها : "لا أجد ذلك غير عادى ، ياتاكا ، ذلك أننى فى الأوتوبيس تسلل الىّ شعور بأن قوة هذه الغابة آخذة فى التنامى . لقد وجدتها خانقة جدا حتى أنى أحسست أنه سيغشى علىّ . ولو كنت جى الناسك لتجنبت اللجوء الى مكان مرعب كهذا .

رد تاكاشى : "قد يأتى وقت تشعرين فيه بهذا الاحساس ياناتسو ، وقد يظن المرء أن الشخص الحساس جدا ازاء الخوف من الغابة هو النمط المعاكس تماما للنمط الذى يصيبه الجنون ويلجأ اليها . ولكن حسب رأيى ، من الناحية النفسية ، فان النموذجين هما نمط واحد متماثل .

أعطتنى كلماته مدخلا لفهم ما كان من الممكن أن يحدث لو لم يصل بالجيب ، وأن براعم الخوف التى كانت بادية على وجه زوجتى سمح لها أن تزدهر . وأخذت أتخيل بصريا المنظر الذى سيحدث حين تفر الى الغابة

بعد أن يمسها الجنون ، كان هناك على عتبة أفكارى شيء ما كتبه مرة أحد مشاهير الأدباء : "امرأة عارية الا من أسمال بالية تغطى عورتها بشعر يشع كاللهب وعيناها زرقاوان تتلألان" .. "من المهم هنا أن نفهم حقيقة فى غاية الأهمية وهى أن القرويات اللاتى فررن الى التلال ، كن غالبا يعانين من جنون أصبن به بعد الولادة" .

دفعتنى غريزة البقاء أن أسأل تاكاشى : "أتظن انهم يبيعون الويسكى هنا فى محل الخمور ياتاكا" ؟

زوجتى لتاكا : "يريد ميتسو أن يفت من عزمى أن أظل غير مخمورة" .

فأجبتها : "كلا ، ليس الأمر كذلك . فأنا نفسى أريد كأسا ، ويمكنك الانضمام الى حارس تاكا الشخصى غير الثمل" .

قالت : "الشيء الوحيد الذى يقلقنى فى الوقت الحاضر هو ما اذا كان سيصبح فى استطاعتى النوم بلا شراب . ولا يبدو الأمر وكأنى كنت أشرب كل ليلة فى الفترة الأخيرة لمجرد أن أسكر . ماذا عن هوشيو ، ألم تظهر عليه علامات الأرق بعد أن أقلع عن الشراب" ؟

رد تاكاشى ضاحكا : "ليس من المؤكد معرفة أنه كان كثير الشراب : فحديثه عن الشراب يعنى أنه لم يمس قطرة منه طوال حياته . فهو فى السن التى يريد فيها المرء أن يتفاخر بماضيه البطولى حتى ولو لم يكن ثمة ما يدعم ذلك . ولا توجد طريقة لمعرفة مدى الأكاذيب المختلفة فى هذا الماضى . كان لابد أن تستمعى اليه وهو يحاضر موموكو عن الجنس ـ فهو من الذين يحبون تضخيم الوقائع ، رغم أنه ليست لديه على الاطلاق أية تجارب جنسية" . وضحكت قائلة وكانت فى نبراتها خيبة أمل :

"حسن اذن سيكون علىّ أن اكف عن تناول الخمر وحدى ، دون عون من أحد" .

كانت السماء تتخذ مسحة حمراء تميل الى السواد ذكرتنى بالجلد المحروق . مرت بعض الشبورات الصغيرة . وارتفعت رائحة خانقة من تحت الأرض ملأت الطريق ، وزحفت ببطء عند عجلات السيارة الجيب . من

الأجدر أن نخرج من الغابة قبل أن يصل هذا البخار الخانق الى مستوى العين . زاد تاكاشى من سرعة العربة التى خرجت من بين الأشجار ووصلت الى هضبة صغيرة فأوقفنا العربة ، ونظرنا بامعان فى التجويف الذى تحيط به الغابة الكثيفة والذى امتد الى أبعد ما يمكن للعين أن تراه . اتخذ الطريق الذى تقود فيه السيارة نحو اليمين عند الهضبة ، ثم انحدر فى خط مستقيم فوصلت الى طريق الحصى الذى عبر الجسر ، وهبطت نحو الوادى ، والطريق الأسفلتى الذى كان يتبع النهر المرتفع . وحين نظرنا إلى الوادى بدت مجموعات مساكن البشر والحقول المحيطة ، من الصغر حتى ليمكن الامساك بها بيد واحدة مما يبين قوة الغابة العميقة على تشويه ادراك المرء للأحجام . فكلما كبر المرء اعتاد على فكرة أن هذه الغابة هى الحقيقة الوحيدة التى لا لبس فيها ، حتى أن المرء يكاد يرى ستارا كبيرا من النسيان ينسدل على التجويف . ارتفعت الشبورة من قاع الوادى ، وصارت القرية واقعة فى أعماقه . كان منزل عائلتنا يقع على تل صغير ، غير أن كل ما حوله كان مشوشا غامضا ، بحيث لم يمكن تمييز شىء بالعين سوى بياض الجدار الطويل الحجرى . وددت أن أشير الى زوجتى على المكان الذى كان يقع فيه منزلنا غير أن الألم الذى كانت تعانى منه عينى جعلنى لا أتمكن من النظر فى تلك البقعة لوقت طويل .

قالت بلهجة خجلة : "أظن أننى سأرى اذا كان فى امكانى الحصول على زجاجة ويسكى ياميتسو" .

نظر تاكا الينا باهتمام عميق . فألححت عليها قائلا : "لم لا تجربى بعض الماء بدلا من ذلك ؟ يوجد نبع هنا يقول الأهالى إنه يعطى أفضل ماء فى الغابة بأكملها ان لم يكن قد جف بعد" .

انه لم يجف . ففى سفح المنحدر راح يتدفق صانعا من الماء بركة بحجم دائرة ذراعى رجل . وصنعت المياه الغزيرة ترعة انسابت الى أسفل حتى الوادى . وبجانب البركة توجد بعض المواقد خارج البيوت ، بعضها جديد وبعضها قديم ، طينها أسود اللون وكئيب كنت أنا وأصدقائى قد بنينا مثل تلك المواقد فى الربيع وكنا نطهو الأرز ونعد الحساء . فى طقس كان

يحدث مرتين فى العام ، كان كل منا يختار الجماعة التى يقيم معها وبذا نحدد تقسيم العمل بين أطفال الوادى . وكان هذا الخروج الى الخلاء لا يستغرق سوى يومين فى كل ربيع وخريف ، بيد أن تأثير هذه المجموعات كان يظل معمولا به على مدار العام . ولم يكن هناك شىء أكثر اذلالا من الطرد من المجموعة التى اختارها الطفل .

عندما انحنيت على النبع كى أشرب منه مباشرة ، داخلنى شعور مفاجىء باليقين : يقين بأن كل شىء كان مثلما رأيته منذ عشرين عاما ؛ انه يقين تولد عن الشوق ، احسست أن الماء المتدفق هو بالضبط نفس الماء الذى كان يتفجر ويتدفق بعيدا فى تلك الأيام . وتطور نفس اليقين مباشرة الى الشعور بأنه "أنا" المنحنى هناك لم أعد الطفل الذى أثنى ركبتيه ذات يوم هناك وأن هناك استمرارية وليس اتساقاً بين الذاتين وأن الأنا التى فقدت كل صدق التى تنحنى الآن كشخص غريب . لقد فقدت الأنا الصامتة كل هوية حقيقية . ولم يقدم لى شىء ، سواء من داخلى أو من خارجى ، أى أمل فى الشفاء .

استطعت أن أسمع خرير المياه فى البركة يتهمنى بأنى لست سوى فأر . أغلقت عينى وأنا ارتشف الماء البارد . وارتعش داخلى ، مخلفا مذاق الدم على لسانى . ولما وقفت انحنت زوجتى فى تقليد مطيع ، وكأننى حجة فى كيفية الشرب من النبع . وفى واقع الأمر ، فقد صرت الآن شخصا غريبا مثلها تماما عن النبع مع أنها تأتى الى الغابة لأول مرة . شعرت برعدة . اذ إن البرد القارس تخللنى من جديد . وارتعشت زوجتى أيضا ، حاولت أن تبتسم كى تظهر أن طعم الماء كان جيدا ؛ غير أن أسنانها بدا عليها الغل وهى تفتح شفتيها الأرجوانيتين . عدنا الى السيارة ونحن نرتعش من البرد . أدار تاكاشى عينيه وكأنه رأى شيئا يثير الشفقة بشكل لا يمكنه النظر اليه .

عدنا الى الوادى المغلف بالشبورة التى ازدادت كثافة وعمقا . وفى السكون حيث تركنا السيارة كان الساحل فى أسفل التل هو الشىء الوحيد الذى يثير الضوضاء من حولنا ، بالاضافة الى صوت عجل السيارة التى تجعل الأحجار الصغيرة تتطاير ، وصوت النفير يصفر فى الريح وصوت

أوراق الشجر الخافت وهى تسقط فى الغابة . بدت أوراق الشجر وكأنها تتناثر ببطء على الجانبين محدثة حفيفا تدفعها قوة ما .

سأل تاكاشى فى جدية : "أتستطيعين أن تصفرى ياناتسو" ؟

أجابت : "نعم . ولكن لماذا" ؟

"اذا ما صفرت هنا بعد حلول الظلام ، فان أهالى الوادى كله سيجنون حقا . هل تذكر ذلك المحرم القديم ، فى الوادى ، الذى ينسجم مع حالتى الحاضرة ؟

قلت : "نعم أذكر" .

يعتقدون أنه اذا صفر شخص بعد حلول الظلام سيخرج من الغابة مخلوق خارق للطبيعة . فقد اعتادت جدتنا أن تقول إن التشوزوكابى سيأتى" .

رد قائلا : "هل كانت تقول ذلك ؟ الآن وأنا هنا فى الوادى لم اعد أتذكر شيئا . وحتى حين أتذكر فلا يمكننى التأكد من صحته . لكم سمعت فى امريكا كلمة "مجتث" الا أنى الآن وقد عدت الى الوادى كى أتأكد من جذورى ، فأنى أرى أنها اقتلعت جميعا . بدأت أحس اننى مجتث . لذا علىّ الآن أن أضع جذورا جديدة هنا ، ولكى افعل ذلك أشعر بأن ثمة ضرورة لعمل شىء ما . عموما ، فان عودة الإنسان الى مسقط رأسه لا يعنى أن الشخص سيجد جذوره هناك ، مدفونة بشكل مناسب فى المكان الصحيح . قد تظن أنى أصبح عاطفيا ، ياميتسو ، غير أن الكوخ الجريد الذى ينتمى للأيام الخوالى قد اختفى حتى حين لم اعد اتذكرها بوضوح . وحتى لو لم تصبح بدينة الى هذا الحد ، فأنا على ثقة أنى لم أكن لأستطيع التعرف عليها . وحين بدأت تبكى اكتشفت بعض سمات الطفلة التى كانت عليها فى وقت من الأوقات ، كنت أخشى أن تمد هذه المرأة الغريبة ذراعيها الضخمتين وتحاول أن تعانقنى . وكل ما آمل فيه الا يكون خوفى هذا قد ظهر لجين نفسها" . فى أسفل ، كان الظلام قد هبط . ومن الجانب الآخر من الجسر الذى كان يلوى الطريق فوق السنادات ، اطلق الشابان نفير السيارة غير أنه كان من المستحيل الوصول الى السيارة فى الظلام .

أما تاكاشى الذى ذهب الى مقر مشرف الغابة لاستعادة السيارة فقد بدا صغيرا فجأة . حاولت عبثا أن أتخيل تاكاشى وهو يؤدى دور الطالب النادم فى امريكا .. بدت الغابة السوداء من أسفل الوادى أكثر اجتياحا من أى شيء ، وانه أنا وليس أخى الذى عليه أن يتحمل الآلام حين تنادى . "أنت لست سوى فأر" .

وبينما أنا أساعد زوجتى لعبور الجسر المؤقت ، شعرت ببراعم الفرح للعودة الى الوادى وهى تنمو بعناد داخلى . لسع عينى النسيم الذى انبعث من المياه المظلمة مباشرة تحتنا ، مهددة بأن تصيب العين السليمة بالعمى . من الخلف سمعنا صوت طائر لم يسهل تحديده وهو يحوم حولنا . فقال تاكاشى : "انها دواجن . أن لجمعية شباب القرية مزرعة دواجن حيث كانت توجد المستوطنة الكورية" . وعلى مسافة مائة ياردة من الجسر ، تقع مجموعة من المنازل التى كانت مأوى للكوريين فى أحد الأوقات وهم يقومون بأعمال سخرة فى الغابة . كنا قد وصلنا فقط الى منتصف الجسر . ووصل صوت الدواجن الى أسماعنا .

هل تصيح الدواجن عادة فى هذا الوقت من الليل ؟

"يقول الناس انها تكاد تموت جوعا ، لعلها تشكو الجوع" .

قال تاكاشى باشمئزاز واضح "ان شباب الوادى لا يمكنهم فعل أى شيء ذى قيمة دون قائد . انهم عاجزون عن اخراج أنفسهم من أى مأزق بجهودهم هم . حين عدت الى الوادى ، ياميتسو ، كان هذا أول ما أدركته عن الغرباء الذين كانوا يعيشون هنا طوال الوقت .

الفصل الرابع

أحلام داخل أحلام

في صباح أول يوم لنا في الوادي تناولنا الافطار حول المدفأة في الحجرة التي كانت تفوح منها نكهة الخشب بجوار المطبخ الفسيح في المبنى الرئيسي ، والذي كان به موقد غاز ومغطى بألواح ثقيلة . ظهر أولاد جين الأربعة دون أن يلحظهم أحد في البداية في مزانق المطبخ ، وقفوا ينظرون الينا بعيون واسعة على نحو غير عادي في وجوههم النحيفة التي تشبه مثلثات مقلوبة . وحين دعتهم زوجتي ليأكلوا معنا ، أصدروا آنة تعبر عن عدم الرضا تحولت بشكل غير مفهوم الى رفض واضح . عندها فقط أعلن الابن الأكبر أن جين تريد التحدث معي .

كنت قد قابلت جين في الليلة السابقة . وكما قال تاكاشي انها شديدة الضخامة وهي على كل حال لم تكن دميمة . كانت عيناها الحزينتان تمتلىء بالدموع المائلة الى البياض التي تشبه عيون السمك كعدسات في وجهها الشاحب الغليظ الذي يشبه القمر . لم يبق ما يذكرني بجين التي عرفتها في الماضي سوى اللمعان الذي يشع في عينيها . كانت تفوح منها رائحة حيوانية ، لدرجة أن زوجتي شعرت بالاغماء وكان لابد من نقلها ، واضطررنا نحن إلى الانسحاب الى المبنى الرئيسي . بينما اطلق هوشيو وموموكو ، اللذان أرادا أن يريا جين بحرية ، العنان لعيونهما في أن تتجول بحرية في أنحاء جسد جين بفضول مما أثار كراهية وعداء أولادها . اللذان كانا يمسكان بأنفيهما ويقرص كل منهما الآخر من جنبه حتى يمنعا نفسيهما من الانفجار في الضحك . ربما ان رفض الأطفال الأربعة دعوة

زوجتى للاكل هذا الصباح كان بسبب وجود هذين المراهقين غير المهذبين وهما يجلسان فى صمت يتبادلان الابتسامات فى ثقة وغرور . وحين انتهت الوجبة ، أخذ تاكاشى زوجتى والشابين لمشاهدة المخزن من الداخل ، بينما ذهبت أنا مع الأطفال الى المبنى الخارجى حيث تعيش جين وأسرتها . فحييتها وأنا أقف فى المدخل بقولى :

"أهلا ياجين ، هل نمت جيدا" ؟

برز وجهها المثير للأسى من الظلال كما فعل فى الليلة السابقة . كانت جين ترقد على ظهرها محاطة بأوان قذرة وهى تنظر بغير ارتياح ، الى الهواء كان ذقنها يستند على كيس الدهن البارز فى رقبتها . ظلت صامتة ظاهريا . وعلى ضوء الصباح الذى عبر على كتفى واستقر على حجرها الرحيب أمكننى أن أتبين انها تجلس بميل فوق مقعد صُنع فى المنزل بلا أرجل كسرج حصان مقلوب . فى الليلة الماضية حين حسبته جزءا من جسد جين السمين كانت تبدو كشىء مثير للسخرية . ظل زوجها الذى كان يجثو الى جانب المقعد وكأنه على وشك النهوض . وفى الليلة الماضية ظل صامتا بوجهه الحزين المكتئب ، وعلى استعداد أن ينهض بخفة ويطعم جين بالعجائن كلما صدرت منها اشارة خاملة بأنها تريد أن تأكل . فلربما لم تمنح شهية جين لها مهلة ولو لخمس دقائق .

أما بالنسبة لى ، فان الأمر بدا وكأنه عرض يقدم من أجلنا كدليل عملى على ضيق الحال الذى وجدت نفسها فيه .

ومع الوقت ، طردت جين قدرا كبيرا من الهواء من رئتيها وقالت وهى تحملق فىّ بازدراء : "كلا لم أنم جيدا ! فلم أر سوى أحلام شريرة تنبىء بأنى قد صرت بلا منزل" . فأدركت على الفور لماذا أرادت جين أن تقابلنى . ولماذا كان زوجها راكعا الى جانبها ، وهو ينظر بحزن الى وجهى .

قلت إننا لن ننقل سوى المخزن ونأخذه إلى طوكيو فلا داعى لهدم المنزل .

فاستمرت جين فى ممارسة الضغط قائلة : "هل ستبيعون الأرض" ؟

أجبت : "سأترك الأرض والمنزل الرئيسى والبناء الخارجى حتى تسوى مسألة المكان الذى ستعيشين فيه" .

فلم تظهر جين وزوجها أى علامة على الارتياح ، الا أن الأطفال الأربعة ، الذين جاءوا كى يقفوا خلف والديهم ، ويراقبونى ، أخبرونى بابتسامة صدرت عنهم أن العائلة قد خفف عنها عبئها الان على الاقل .

فشعرت بالارتياح وسألت : "ماذا ستفعل بشأن قبر العائلة ياميتسوبورو" ؟

"اظن أن علينا أن ندعه كما هو" .

قالت : "أعتقد أنك تعرف أن رماد س فى المعبد" .

غير أن كل هذا النقاش كان قد أرقها ؛ ذلك أن ظلالاً داكنة توحى الى حد ما بالتقزز تجمعت حول عينيها ، وارتعش صوتها وكأن ثقوبا لا حصر لها من الهواء قد تشكلت فى حلقها . ولم يكن هناك أى مجال لانكار أنه فى مثل هذه الأوقات تكون غريبة بشكل يتعدى القبح الآدمى . فأدرت عينى مفكرا بشعور من الرعب أن جين قد تموت فى نهاية الأمر بنوبة قلبية . أخبرت تاكاشى عن توقعها للموت وأنها قلقة من مسألة ما اذا كان جسدها الميت سيمكن ادخاله المحرقة .

علق تاكاشى بتعاطف : "ان جين شديدة السمنة بحيث لا تستطيع القيام بأى عمل . غير أنها مضطرة أن تأكل كميات ضخمة من الطعام يوميا وتزداد سمنة على سمنتها وهى تشعر بأن حياتها كلها لا معنى لها . انه من قبيل الالهام أن يسمع المرء امرأة فى الخامسة والأربعين شديدة البدانة تقول عن أيامها التى لم تنفقها سوى فى الأكل انها لا معنى لها . وهذه ليست حالة عابرة بالنسبة لها - فهى على تمام الاقتناع ، من جميع وجهات النظر ، بأن وجودها عديم الفائدة . ومع ذلك فعليها أن تواصل أكل هذه الجبال الحمقاء من الطعام من الصباح الى الليل . "يوجد الآن شخص ما لديه أسس واقعية للتشاؤم" .

قلت لجين وأنا أخرج من المطبخ "سأحضر اليوم رماد س . من

المعبد . فأننا أريد أن أرى صورة الجحيم التى توجد فى المعابد" .

فغمغمت من وراء ظهرى ولننا أخرج بصوت أجش : "لو أن س . كان على قيد الحياة ، لما باع المخزن . ولكن ماذا فى الامكان أن ينتظر المرء من ميتسوبورو وهو كبير العائلة" ؟

تجاهلتها وذهبت أبحث عن الآخرين فى المخزن الذى يقع فى مؤخرة الفناء . كانت الأبواب مفتوحة ، وتلك الأبواب الداخلية المصنوعة من الألواح والسلك . كان ضوء ما بعد الظهيرة يملأ الحجرتين السفليتين مما جعل سواد الخشب وبياض الجدران التى تحيط به فى تناقض حاد . خطوت الى الداخل وفحصت اثار السيوف المتعددة التى احدثت خدوشا فى الخشب . مازالت تبعث بنفس الرسالة الخشنة التى كانت تخيفنى أثناء طفولتى . كانت هناك لوحة معلقة مكتوب عليها الحروف الأبجدية الرومانية بحبر صينى لا تكاد ترى بسبب الورق الذى اصفر بفعل الزمن والتى علمنى "س" منذ عشرين عاما ، كيف اقرؤها ، كان من الصعب تمييز التوقيع "جون مانجى" الذى كان فى الزاوية اليمنى السفلى . فلقد قابل جدنا الأكبر هذا الطريد عند عودته من أمريكا حين انزلق من الغابة وشق طريقه الى ناكونوهاما فى كوتشى . وحسب ما قاله "س ." فان جدنا الأكبر جعل مانجيرو يكتب له هذا فى تلك المناسبة .

جاء من أعلى صوت خافت وكأن أحدا يعد الوقت . فانطلقت على السلم الضيق فاصطدم رأسى بالطرف الصلب لعارضة خشبية . فتألمت لدرجة الأنين ، وطارت جزئيات حمراء حارة داخل ظلمة عينى التى لا ترى مثل شظايا انفجار فى غرفة ملبدة بالسحب الذرية . كما أعاد هذا الىّ الاحساس بالمحرمات التى كانت تمنعنى من دخول المخزن .

وقفت مذهولا للحظة ، ثم مددت يدا كى أمسح خدى ؛ رحت أضغط على رأسى بمنديل حين أطل على وجه تاكاشى من الطابق الأعلى . وقال مشاكسا :

"حين تكون زوجتك وحدها مع رجل آخر ، فهل تحذرهم دائما بالطرق

على الجدار والانتظار ، ياميتشو . فى هذه الحالة ستكون الزوج المثالى للزناة" !

سألته : "أليس حارساك الشخصيان هنا" ؟

فأجاب : "انهما يعنيان بالسترويين . فمن كانوا دون العشرين فى الستينات لا يهتمون ببناء الأسطح الخشبية التقليدية . قلت لهما ان هذا هو المخزن الوحيد من نوعه فى منطقة الغابة ، غير أن هذا لم يزد من اهتمامهما" .

أظهرت ملحوظته هذه سذاجته التى يحس بها حين يستعرض الهندسة أمام زوجة أخيه التى وقفت فى الخلفية .

صعدت الى اعلى فوجدت زوجتى تنظر الى العوارض الخشبية المصنعة من الخشب التى تدعم إطار السقف ـ كانت منتبهة اليها ، بحيث لم يمكنها ملاحظة الدم المتدفق من الجرح الذى أصيب به رأسى ، بينما كنت أشعر بالامتنان لذلك بما أننى كنت دائما فريسة لاحساس غير عادى بالخجل كلما صدمت نفسى فى شىء . وبعد فترة ، زفرت باعجاب واستدارت حولها .

"ياله من خشب عظيم مدهش ! اذ يبدو عليه أنه يمكن أن يدوم لمائة عام أخرى" .

لاحظت حمرة تعلو وجهيهما . مما جعلنى أحس بصدى خافت لكلمة "زناة" التى استخدمها تاكاشى وكأنها معلقة فى مكان ما فى ثنايا المخزن . غير أنى أخبرت نفسى بأن هذا الشعور لا أساس له : ذلك أن زوجتى كانت مستيقظة لما حدث للطفل حتى أنها منذ ذلك الوقت ابادت أى تلميح للجنس فى مهده . فكان تناول أى موضوع يتعلق بالجنس بالنسبة لكلينا معناه أننا نفرض على نفسينا شعورا بالتقزز والبؤس لم يكن أينا مستعداً لمواجهته . لذا فان الايحاء بالجنس كان سرعان ما يتبدد .

واستمرت تقول : "مع وجود كميات غير محدودة من هذا الخشب فى الغابة ، فى امكانك بناء مخزن بدون أى تكاليف تذكر" .

فأجابت بصوت حاولت أن يكون عاديا وعرضيا بقدر ما استطعت : "لا تصدقى ذلك . اذ يبدو أن بناء مخزن كهذا وضع عبئا كبيرا على كاهل جدنا الأكبر" . لم أكن راغبا أن أدعها تعرف ما أبذل من عزم حتى لا تعرف كم أتألم من الجرح الذى أصبت به . واستطردت قائلاً : "يمكننى أن أقول ، إن البناء غير عادي . وحتى لو توافر الكثير من الخشب ، فعليك أن تتذكرى أن البناء تم فى وقت كانت موارد القرية مستنزفة تماما . لذا فأنى على ثقة تماما أن الجميع وجدوا هذا الأمر خاصا جدا . فلقد حدث تمرد من جانب المزارعين فى شتاء العام الذى شيد فيه .

"هذا أمر غريب" .

"واتصور أن جدنا الأكبر تنبأ بوقوع انتفاضة وهذا ما حدا به أن يجد أنه من الضرورى أن يقيم بناء مقاوما للحريق" .

رد تاكاشى : "أن جدنا يصيبنى بالسأم ياميتسو . اذ كان شديد المحافظة ، شديد الحرص ، بعيد النظر الى حد كبير . وأنا على ثقة أن أخاه الأصغر كانت له نفس مشاعره نحوه . وإلا لما خرج على أخيه وأصبح زعيما للمزارعين . فلقد كان أحد الذين قاوموا ، أولئك الذين ترى عيونهم اتجاهات العصر" .

فسألته : "ألا تعتقد أن عينيه كانت تطل على الاتجاهات بقدر ما كان يتطلع اليها أخوه ؟ فلقد قطع طول المسافة الى كوتشى لمجرد التقاط آخر المعارف من الغرب" ؟

قال تاكاشى معترضا : "من المؤكد أن الأخ هو الذى ذهب الى كوتشى" ، هذا ما كان يريد أن يظنه ، لذا كان يتجاهل أن ما يقوله خطأ . ألم بى شعور خبيث باللذة فى أن أخرب ذاكرته الخاطئة" .

فقلت : "كلا . لقد كان جدنا الأكبر هو الذى ذهب أولا الى كوتشى ، وليس أخوه . وكل مافى الأمر أن بعض الناس يقولون إنه بعد الانتفاضة ، هرب أخوه ولم يعد أبدا . واذا صح أن أحد الأخوين غادر الغابة ، وقابل چون مانچيرو ، وأعاد المعرفة الجديدة ، اذن فمن الممكن اثبات أن هذا

الأخ هو جدنا الأكبر . فلقد بقى جون مانچيرو فى كوتشى لمدة عام واحد قبل أن يعود الى اليابان . وكان ذلك من عام ١٨٥٢ الى عام ١٨٥٣ . وفى الوقت الذى حدثت فيه اضرابات عام ١٨٦٠ ، كان أخو جدنا الأكبر فى الثامنة أو التاسعة عشرة من العمر ، اذن فاذا كان قد ذهب لكوتشى عام ١٨٥٢ ، أو ١٨٥٣ فهذا معناه أنه غادر القرية فى العاشرة من عمره تقريبا . وهذا غير ممكن" .

قال تاكاشى مهتزا ببعض الاصرار : "هذا الأخ الأصغر هو الذى قلع النباتات من عمق الغابة ، ودرب مجموعة من الحمقى من أبناء المزارعين كى يقوموا بالانتفاضة . ولابد أن تكون طرق التدريب مبنية على أسس من المعرفة بأشياء غربية أحضرها معه حين عاد من كوتشى . وليس هناك احتمال أن جدنا الأكبر انحاز الى جانب الذين قاموا بقمع التمرد ، يمكن أن يعلم شقيقها الأصغر اساسيات حرب العصابات . أو تراك تعتقد أن الجانبين المتعارضين قد تآمرا كى يثيرا الاضطرابات" ؟

"ربما" ، قلت بلا مبالاة "ربما" رغم أنى استطعت أن أسمع صوتى يزداد حدة بسبب التوتر . فمنذ كنا أطفالا كان علىّ أن أكافح ميول أخى الى اسباغ مشاهد من البطولية على الأخ الأصغر لجدنا الأكبر .

صاحت زوجتى فى دهشة وعيناها تنظران الى رأسى "ماذا حدث ياميتسو ؟ انك تنزف . كيف يمكنك أن تشتبك فى مناقشة تلك الحكاية القديمة ورأسك ينزف" ؟

اجاب تاكاشى متوتراً : "ثمة شىء يمكن أن يؤلمه حتى من الحكايات" .

وكانت هذه هى أول مرة يبدى نحوها علامة على سوء الطبع . فأخذت المنديل الذى كانت تمسك به ، ومسحت رأسى ، ثم بللت اصبعها باللعاب ومسحت على الجرح . راح أخى ينظر وكأنه يتفرج على لقاء غامض بين اللحم . ثم هبطنا ثلاثتنا السلم فى صمت ، كل منا يحتفظ بمسافة بعيدا عن الآخرين ، وكأنه يريد أن يتجنب الاحتكاك الجسدى . لم يكن المخزن

مُتربا ، الا أنه بعد قضاء بعض الوقت بداخله تنسد فتحات الأنوف ، وكأن غلالة رفيعة تعلقت بها فى الداخل .

فى وقت متأخر من ذلك اليوم ، ذهبت أنا وزوجتى وأخى والمراهقان الى المعبد كى نستخرج رماد "س ." وسبقنا ابناء جين الى هناك كى يخبروهم بقدومنا ، حتى يخرجوا صورة الجحيم التى أهداها جدنا الأكبر للمعبد ويعرضوها كما كانوا يفعلون فى يوم ميلاد بوذا . وحين وصلنا الى الستروين التى تقف أمام مكتب القرية ، رأينا الأطفال يسخرون من الشريط الذى كان مربوطا على أذنى اليمنى . فتجاهلنا هم جميعا فيما عدا زوجتى ، التى بدت تستمتع بالأمر بأكمله مع الشفاء . فهى لم تشرب منذ الليلة الماضية ، راحت تتسلى بالاهانات التى نزل بها الأطفال على الستروين بعد أن اخذت تمشى .

وأثناء دخولنا أرض المعبد ، وقف الكاهن الذى كان يذهب الى المدرسة مع "س ." فى الحديقة يتحدث الى شاب . رأيت رأسا يلمع بشعر ابيض قبل الأوان تتوج وجها بساما طيب الطبع ، لقد تزوج من مدرسة من المدرسة الابتدائية غير أنها فرت الى المدينة مع زميل سابق ، ولكنها لم تفعل ذلك قبل أن تحدث فضيحة عرفها سكان الوادى جميعا . وتمكن من الاحتفاظ بابتسامة طفل عليل . وهى حقيقة كان لابد لها أن تحدث أثرا على كل من يعرف نتيجة هذا الحظ العاثر الذى يمكن أن يحدث لأى شخص يعيش فى مجتمع فى أحد الوديان . على أى حال لقد اصابته الازمة بالذبول ولم يفقد تلك الابتسامة ولو مرة .

كانت ملامح الشاب الذى كان يتحدث اليه تتناقض مع ملامح الكاهن . فيمكن تصنيف معظم الوجوه فى وادينا الى نوعين ، غير أن الوجه الذى كان يراقبنا ونحن ننزل من الستروين كان فريدا من نوعه . قال تاكاشى شارحا لى ولزوجتى : "هذا هو رئيس مجموعة الشباب الذين يربون الدواجن" ، ولما خرج من الستروين ، راح يناقش معه شيئا ما بصوت منخفض ؛ ويبدو أن الشباب كانوا ينتظرون مقابلته فى المعبد . فاضطر بقيتنا أن ينتظر فى الخلفية ، نتبادل الابتسامات الغامضة ، أثناء هذا

الحوار الخاص . كان رأس الشاب ضخما ومستديراً وكانت الخوذة العريضة تبدو كأنها جزء من رأسه . وكانت عظام خديه البارزة من الجانبين ، وكذلك الذقن المربعة تذكر المرء بقنفذ بحرى متنكر فى شكل إنسان . بل أكثر من ذلك ، كانت عيناه وشفتاه ملتصقتين بالقرب من أنفه بطريقة توحى بأن الوجه قد سحب الى الخارج بقوة عنيفة ، مما زاد من رغبتى فى أن أنغلق على ذاتى .

أحضر تاكاشى هذا الشاب الى الستروين ، وهو يتحدث طوال الوقت بنفس الصوت المنخفض . وكان الشابان المراهقان لا يزالان فى السيارة ، عرينهما المفضل . ووضع تاكاشى الشاب فى المقعد الخلفى وأعطى أمرا لهوشيو الجالس أمام عجلة القيادة ، فانطلقت الستروين فى اتجاه مدخل الوادى .

قال تاكاشى شارحا وهو يشعر بالزهور الساذج بأن جميع ماتم من اتصال مع الشباب كان من خلاله قائلا : "ان عربة النقل التى يحملون فيها البيض قد تعطلت ، لذا جاء كى يطلب من هوشى أن يصلح المحرك" . ومن الواضح أن هذا أرضى مشاعره الطفولية بالمنافسة .

تساءلت : "ألم يكن من المفروض أن تموت الدواجن من الجوع" ؟

أجاب الكاهن نيابة عن تاكاشى بقوله : "هذه هى المشكلة ـ فان الشباب رتبوا أولوياتهم ترتيبا خاطئا" ، قال هذا بابتسامة حيية باعتباره أحد سكان الوادى ، كان يخجل من نفسه مثل جماعة الشباب . واستمر يقول : "كان بيع البيض يسير على نحو سيىء فلا يستطيعون أن يجدوا النقود التى يشترون بها الطعام . وعليهم أن يواجهوا الموقف ، غير أن كل ما يستطيعون التفكير فيه هو عربة نقل لحمل البيض . واذا ما تعطلت العربة ، فسينتهى كل شىء" . صعدت فدخلنا قاعة المعبد الرئيسية وتفحصنا صورة الجحيم . ذكرتنى أنهارها وغاباتها المتوهجة الأوراق بذلك الفجر الغائم بعد مائة دقيقة التى قضيتها فى الحفرة . وعلى الأخص تلك البقع الداكنة التى كانت تلطخ أمواج النهر الملتهبة التى اتصلت اتصالا مباشرا فى الذاكرة بتلك البقع التى تلطخ أوراق الشجر . سرعان ما

انشغلت بصورة الجحيم فى تدفق من نهر الموتى سلام راح يصعد الى السماء وصار شعرى مشدودا وكأن رياحا عاتية قد اجتاحته . بعضها كان خافيا ما عدا بعض الأرداف النحيفة والسيقان المتعلقة فى الهواء . واعطتنى الأجساد التى عبرت عن هذا الألم انطباعا بالمشاركة فى نوع من الرياضة الصارمة ، بدا أنها قد اعتادت الألم . فالأشباح التى كانت تقف على احدى الضفاف ، بأعضاء ذكرية كئيبة المنظر .

شرحت للكاهن شعورى نحو الصورة : "لقد ظل الموتى فى الجحيم يعانون لوقت طويل حتى أنهم اعتادوا العذاب" . فوافقنى الكاهن على ذلك قائلا : "وقد يتخذون مظهر المعاناة لمجرد الحفاظ على النظام السليم للأمور : فكما تعرف فان الطريقة التى تُحسب مدة المعاناة فى جحيم بوذا تبدو غريبة متقلبة . حيث ان اليوم الواحد فى هذا الجحيم الحارق يتألف من ستة عشر ألفا ألف سنة من الأيام والليالى ، كل منها يساوى ألفا وستمائة سنة فى دنيا البشر . وهذا وقت طويل جدا ! ثم إن الموتى فى هذا الجحيم عليهم أن يتحملوا ست عشرة سنة من تلك الأيام والليالى الأكثر طولا . وهو وقت يكفى لأكثر الأشباح تخلفا كى يعتاد على هذه الأشياء" !!

"هل ترى ذلك الشيطان الذى يشبه الكتلة الصماء ، ذلك الذى يجعل كل شىء يحصل عليه فى أفضل وضع" . فقالت زوجتى : "ان جسده مغطى بثقوب سوداء" . "لست أدرى ما اذا كانت هذه هى ظلال عضلاته أو أنها جروح . أنت على صواب ياميتسو ، ذلك أن الموتى قد اعتادوا على الشياطين لدرجة جعلتهم لا يشعرون بالخوف" .

لقد سايرتنى فى آرائى ، الا أنه لم يبد عليها ما يؤكد أنها استمدت من الصورة الاحساس بالانعتاق العقلى . لاحظت أن تاكاشى قد استدار بعيدا ، ووقف صامتا ، مواجها الكآبة الحزينة فى المكان المقدس بالمعبد .

استدرت اليه بلا تكلف وسألت : "ماذا تظن ياتاكا" ؟

فتجاهل سؤالى وقال فجأة وهو ينظر حوله : "لم لا نحصل على رفات "س " ونذهب دون أن نشغل أنفسنا بالصور" ؟

فقال الكاهن : "لقد دأب تاكا على الفزع من صورة الجحيم حتى حين كان طفلا" . ثم أعاد الحوار للتحدث عن القروى الشاب الذى حضر ليقابل تاكاشى ، واندفع فى نقد الحياة اليومية فى الوادى قائلا : "مهما كانت المسألة التى تواجه أهل الوادى فهم يرفضون أن يتخذوا وجهة نظر بعيدة المدى . فسرعان ما يغرقون ويبدأون فى التحرك على غير هدى .

فى ذلك الوقت ، كان تاكاشى قد عاد من "مستودع عظام الموتى" حاملا لفة موضوعة فى قماش أبيض وتحول ما كان يشعر به من استسلام الى شىء يشبه التخفف والنشاط . وقال : "وجدت البرواز الصلب الخاص بنظارات "س ." فى الأصيص مع رفاته . فذكرنى تماما بشكله حين كان يلبس تلك النظارات" .

ركبنا الستروين التى أعادها أحد الشباب الى المعبد لهوشيو وموموكو .

قال تاكاشى دون مداراة : "ستمسكين باصيص "س" . ياميتسومى ؟ اذ لا يمكن الثقة فى ميتسو كى يفعل ذلك . ذلك أنه غير قادر على حمل رأسه والمشى به دون أن يصدمها" .

لم يكن الانطباع الذى تركه ينم عن الحب والاحترام لى وانما كان يريد أن يبعدنى أنا "الفأر" بقدر الامكان عن "س ." وضع زوجتى وفى يدها الاصيص فى المقعد المجاور له وتحدث عن "س." معها وهو كان يقود السيارة : فرفعت ركبى ، ورقدت على المقعد الخلفى ، راح لعقلى يتأمل بهدوء ألوان الومضات التى كانت على صورة الجحيم . وأخذ تاكاشى يقول : "هل تذكرين زى طلبة الكلية العسكرية الشتوى ياناتسومى ؟ لقد جاء "س" فى عز الصيف مرتديا زيه الشتوى الداكن حاملا سيفا عسكريا ومرتديا حذاء طويلا . وكلما التقى أحد أهالى الوادى ، كان يدق كعب حذائه كما اعتاد أن يفعل الجنود النازيون . مازلت أسمع الوادى يرن على ضربات الحذاء ذى الجلد الثقيل وصوته الرجولى وهو يقول : "قد عاد نيدوكرو س. من الجيش" !

ورغم كل ما قاله تاكاشى ، فلقد كانت ذكرياتى عن "س." بعيدة عن مثل هذه التصرفات التفاخرية . فمثلا ، حين فصل "س." ألقى قبعته وحذاءه

وسيفه من أعلى الجسر فى الماء وخلع سترته ، وتسلق الطريق بظهر منحن واضعا السترة تحت ذراعه . على الأقل ، كانت هذه هى الصورة التى تذكرت بها عودته .

واستمر تاكشى فى حديثه الى زوجتى : "أذكر اليوم الذى ضُرب فيه حتى الموت وكثيرا ما أحلم بذلك اليوم ، وحتى الآن ، لا أستطيع أن أرى المنظر بوضوح" .

قال ان "س" كان يرقد ووجهه الى أعلى فوق الطين . كانت رأس "س" المهشمة العارية ، أشبه بحقيبة مسطحة سوداء يخرج منها شىء أحمر . كان الرأس نفسه قد جف . ولم تكن هناك أى رائحة اللهم الا رائحة الطين الذى لوحته الشمس والحجر .

حتى رأس "س" المهشم لم تكن له راحة . وكانت ذراعاه ترتفعان فوق كتفيه كذراعى راقصة . وتعلقت ساقاه فى الهواء . وبرز جلد الرقبة والذراعين والساق من تحت القميص والسروال القصير الذى يرتديه طلبة الكلية البحرية للقيام بالتدريبات البدنية . وكأنه شىء لفحته الشمس فغيرت لونه مما ألقى مزيدا من الضوء على الطين الملتصق به . وقبل مضى وقت طويل ، لاحظ تاكاشى صفا من النمل يدخل رأس س. من خلال فتحتى أنفه ويخرج مرة أخرى من أذنيه ، كل منها تحمل خرزة من لون أحمر فى فمها . فبدا له أنه بسبب ذلك ولا تخرج الجسد أى رائحة . وربما سيظل "س." يجف حتى يصبح كسمكة جافة . لقد أكل النمل العينين بالكامل خلف الجفون المحكمة الاغلاق تاركا ثقوبا حمراء بحجم البندق يخرج منها ضوء أحمر خافت يرشد أقدام النمل النحيلة وهى تدخل وتخرج عن طريق الأذنين والأنف . كان وجهه شبه شفاف كالزجاج غير النظيف وأمكن رؤية قطرة دم واحدة ..

سألته بشىء من الحدة : "أنت لا تريد أن تقول أنك شاهدت هذا كله" .

فرد قائلا : "من المسلم به أن المنظر أكمل جزئيا من أحلامى . غير أننى الآن لست واثقا من الحد الفاصل بين الأحلام وبين ما رأيته على

الطريق ، على بعد مائة ياردة من الجسر ، يوم ضرب س. حتى الموت . فالذاكرة تتغذى على الأحلام ، كما تعرف" .

لم يكن لدى شخصيا أى حافز داخلى على الحفر فى ذاكرتى بحثا عن موت "س." ولكن من أجل صحة تاكاشى العقلية ، رأيت أن أشير الى أن جزءاً من ذاكرته يعتمد على ما تختلقه أحلامه .

قلت له : "ياتاكاشى ان الذكريات التى تستحضرها باستمرار ليست سوى أحلام على طول الخط . فلابد أن صورة "س." مجففا قد تكونت من رؤية شىء آخر . فالرؤية التى تستحضرها لرأسه مهشمة بالكامل بعد ان صار أسود بسبب مادة مسحوقية قد أخرجت أحشاءها وسطحت" . وهكذا رحت أضع اشياء ضد ذكرياته . فقلت : "من غير الممكن تماما أن تكون قد شهدت "س." ميتاً ، والأقل احتمالا أن تكون قد رأيته ممدداً على الطريق . ذلك أن الوحيدين الذين رأوه فى ذلك الوقت هم أنا حين ذهبت بعربة يد كى أحضر جثته ، والأشخاص الكوريون الذين ساعدونى فى رفعها . لعل الكوريين ضربوه حتى الموت ، وبعد وفاته عاملوا الجثة بحب شديد وكأنه قريب لهم . ولذلك أعطونى قطعة حرير بيضاء . فغطيته بها وهو راقد فوق العربة ، ووضعت فوقها بعض الحجارة الصغيرة حتى لا تزاح عن الجثة ، ثم دفعت العربة الثقيلة عائدا الى الوادى .

كان الوقت شفقا حين أحضرته الى الوادى الا أنه لم يخرج احد من منزله ، حتى الأطفال اكتفوا بالنظر من الداخل ، اذ كانوا يرتعدون أن تكون لهم أى علاقة بالجثة بسبب المصيبة التى تمثلها" .

تركت العربة أمام مكتب القرية وذهبت الى المنزل . فوجدتك هناك ، واقفا خلف المطبخ وفى فمك قطعة حلوة كبيرة وبقع من قطرات داكنة حول شفتيك . فكان منظرك كأحد الممثلين الجائلين القدماء والدم يجرى على أسنانهم بعد تجرع السم . كانت أمى مريضة تلازم الفراش وترقد أختى الى جانبها تقوم بدور المريضة أيضا . بكلمات أخرى لم يكن فى وسعى أن أجد العون من أى فرد فى العائلة . ثم ذهبت لجين ، التى كانت تقطع خشباً للتدفئة فى الحقل . فى ذلك الوقت ، كانت فتاة قوية نحيفة تتدفق بالصحة .

وحين نزلنا الى مكتب القرية وجدنا أن قطعة الحرير البيضاء قد سرقت من فوق العربة وتعرت جثة "س." . مازلت أستطيع أن أرى جثته منكمشة وبدا كأنه طفل نائم . حاولت أنا وجين أن نصعد به الى المنزل عن طريق رفعه من الساقين ومن تحت الذراعين ، الا انه كان شديد الثقل . وتلطخنا بالدم . لذا طلبت جين منى أن أعود لأخرج قطعة القماش التى كنا ننشرها للتدريب على الغارات الجوية . كان الليل قد حل حين صعدنا بجثة "س." الى المنزل عن طريق الممر الذى يلف تحت الجدار ، وأخذناها مباشرة الى المخزن ؛ وهكذا لم يمكننى أن أرى كيف أمكنك رؤية أى شىء" .

كان تاكاشى يحملق بانتباه الى الطريق أمامه مركزا على القيادة : "فلم أتبين أى علامة انفعال سوى رعشة خفيفة وحمرة خجل تعلو رقبته ، والأنين المخنوق الذى يتصاعد من وقت لآخر من حنجرته . سرنا بالسيارة فى صمت . ثم قالت زوجتى وكأنها تعزى تاكاشى :

"ولكن أليس غريبا ان يظل تاكا واقفا فى المطبخ طوال الوقت ، وأنه لم يظهر أى اهتمام بجثة "س." حين حملت على العربة الى المنزل" ؟

قلت : "الآن اتذكر" ، لقد أخبرته ألا يخرج من المطبخ . وأعطيته الحلوى كى أجعله يحافظ على وعده ، والسبب الذى جعلنا نتجشم حمل الجثة عن طريق الممر هو ألا ندعك تراها فى المطبخ ، أو أن تراها أمى وأختى اللتان كانتا ترقدان فى الفراش فى الحجرة الأمامية" .

قال : "من المؤكد أنى أتذكر موضوع الحلوى . لقد كان "س." هو الذى أعطاها لى . فقد كان يستخدم يد خنجره كى يكسر قطعة من كتلة كبيرة استولى عليها فى الغارة الأولى التى شنها الجيش على القرية الكورية . كان خنجرا بحريا . وبعدها تماما ذهب لشن الغارة الثانية وضرب حتى الموت . على أى حال ، كان يرى ان الحلوى بمثابة غنائم الحرب وكانت معنوياته عالية حين أعطاها لى . أظن أنه كان يستخدم يد الخنجر عن عمد كى يجعل من اللحظة مؤثرة بقدر الامكان بالنسبة لى ، أنا أخوه الصغير ولنفسه أيضا . مازلت أراه فى أحلامى ، وهو يمسك بالخنجر ، ويده الى أسفل فيهوى بها على قطعة الحلوى . واراه يقوم بتلميع خنجر

متلألىء بابتسامة ساحرة على وجهه" . كان يتحدث بعاطفة وكأنه يصدق أن ما يقوله سيشفى على الفور أى جراح نتجت عن أرائى التى صححت ما قال .

شعرت بلذة فى مراقبة المخالب التى أغرتها تصحيحاتى الى أن تخرج من ذاكرة تاكاشى . وبعد أن كبت شعورا بالتقزز من نفسى ، انطلقت بهمة فى تعرية الهالة البطولية من صورة "س." تلك الصورة التى شيدها تاكاشى فى عقل زوجتى .

قلت : "هذا هو حلم تاكا الذى يكمن فى الذاكرة : لقد تأصلت هذه الاختراعات عن حياتك فى عقلك بحدة الأحداث الحقيقية . صحيح أنه فى الغارة الأولى سرق "س." وأصدقاؤه خمورا مهربة وحلوى من القرية الكورية : غير أن "س." كان على خلاف مع أمنا منذ أن عاد من الجيش وحاول أن يودعها مستشفى للأمراض العقلية تحت الملاحظة ، مما جعله يخفى الحلوى فى حزمة من القش فى الجرن ، ذلك لأنه كان خجلا من أن يجعل أمنا تعلم ، أنه سرقها . أنا شخصيا سرقت قطعا منها حين لم يكن أحد موجودا . أكلت بعضها وأعطيت بعضها لك ياتاكا . لم يكن له أن يتمتع بروح معنوية عالية ، بعد الغارة الأولى . لسبب بسيط وهو أن رجلا قد قتل فى القرية الكورية : وكان هدف الغارة الثانية أن يكون هناك ضحية بين اليابانيين من الوادى ، مما ينهى الأمر دون نقله الى الشرطة . باختصار كان "س." يعرف أنه الشخص الذى وقع عليه الاختيار .

كانت لوفاته آثار عميقة علينا أثناء نمونا ، ولهذا فان لدينا أحلاما مختلفة عن هذه المسألة . والآن مادمنا نناقش الأمر ، وإذ شعرت بوخز الضمير على هذه الشدة مع تاكاشى كنت أقدم وسيلة للتوفيق . يبدو أن موته كانت له آثار مختلفة علينا نحن الاثنين .

غير أن تاكاشى كان غارقا فى التفكير . كان يفتش فى أركان الذاكرة الباهتة وفى عالم الأحلام عن شىء ما قد يقلب ذاكرتى بضربة واحدة . ولسوء الحظ ، مع ذلك ، فان الصراع بيننا قد أطلق العنان لانزلاق زوجتى فى حالة من القلق ، التى عاملناها حتى ذلك الحين كمجرد متفرجة .

"لماذا اشترك "س." فى الغارة مادام كان يعرف أنه سيقتل ، ولم قتل فى حقيقة ؟ فمن المفزع التفكير فيه وهو راقد فى الظلام حلف المخزن . ان التفكير فيه وهو شاب ينتظر قدوم الغارة الثانية شىء يؤلمنى . ومما يزيد من ذلك ، أنى رأيت المخزن من الداخل هذا الصباح . فلا أستطيع منع نفسى من تخيل الأمر كله كما وقع . بل أستطيع أن أرى منحنى ظهره بوضوح تام" !

قلت : ""لماذا كان "س." هو الشخص الذى قتل بدافع الانتقام ؟ هل لأنه قتل الكورى فى الغارة الأولى" ؟

قال تاكاشى بجدية الأمر ليس كذلك . لقد قتل فقط لأنه كان زعيم الجماعة . أعرف ذلك دون أن يخبرنى . يبدو أنى أتذكر حلما رائعا "س." فى الزى الشتوى لطالب بحرى يقف على رأس جماعة من الوادى وتنشب معركة مع خيرة الرجال من القرية الكورية" .

أجبته : "ياتاكا أن التشويهات الموجودة فى ذاكرتك ، توحى بحالة سيئة من التمنى . لا يعنى هذا أننى لا أستطيع التعاطف ، بل إن "س." لم يكن قط زعيم شباب الوادى . بل باعتبارى أخا صغيرا فى العاشرة كان فى امكانى تمييز ذلك . لقد اعتادوا على السخرية منه . لقد كان "س." أضحوكة . ولا أظن أن أيكما استطاع أن يفهم حقيقة القوة المخيفة الموجودة فى هذا النوع من الضحك الحاقد فى قرية وسط التلال . ربما كان "س." هو الرجل الوحيد الذى عاد الى الوادى بعد الحرب دون أن تعجب به امرأة . صحيح أنه وجد لنفسه مكانا كرجل فى مجتمع القرية . الا أنه كان أصغر عضو فى جماعة المحاربين القدماء الذين حملوا عبء شن حملة على القرية الكورية . كان صغيراً وضعيفاً وهياباً أيضا . بالاضافة الى أن السبب الحقيقى وراء الغارة على القرية الكورية هو أن الفرسان الكوريين السود المتنكرين قد كشفوا أكثر من مرة ، عن أرز كان المزارعون قد أخفوه وأخذوه لبيعه فى المدينة . فحث رئيس القرية وغيره من الرجال البارزين عن عمد الشباب حتى وصلوا الى نقطة كانوا مضطرين عندها أن يفعلوا شيئا ما . وكان المزارعون يخفون بعض ما كان لديهم من

أرز . وأى شكوى للشرطة ستكون فى غير صالحهم فعلقوا آمالهم على سفاحى القرية الذين كانت لديهم القوة للوقوف أمام الكوريين . وكانت الجماعة تتألف فى معظمها من أولاد المزارعين لذا كان اشتراكهم فى الغارة بسبب الفوارق الطبقية . أما مزرعتنا فكانت قد أفلست حتى قبل الاصلاح الزراعى الذى أتى بعد الحرب . فلم يكن لدينا قدر كبير من الحبوب والأرز المخبأ : وقامت جين باتصالات مع الكوريين لشراء أرز من السوق السوداء . ولكن "س." مع ذلك ، انضم الى الحرب . كان ضحية حين قتل أصدقاؤه المتوحشون رجلا كوريا . كانت أمنا مريضة ولم تأت كى ترى الجثة فى المخزن . وقالت إن "س." كان مجنونا حين حاول أن يأخذها الى مستشفى الأمراض العقلية . كانت غاضبة جدا من الفعل المجنون اليائس الذى فعله حتى أنها صارت تكرهه . ولذلك لم نقم جنازة له . فقدمت جين طلبا الى جمعية كبار الجيران التى ظلت باقية من آثار أيام الحرب فقاموا بحرقه نيابة عنا . ولهذا ظل رماده فى المعبد دون أن يطلبه أحد منذ ذلك الوقت . ولو أننا أقمنا جنازة سليمة لكان من السهل وضع الرفات فى مقبرة العائلة .

قالت زوجتى لتاكاشى : "هل كان مضطرا الى فعل ذلك" ؟ غير أنه لم يجب . اذ كانت شفتاه محكمتى الاغلاق ، لسبب بسيط وهو أننى ذكرت موت أختنا .

قلت : "لا أظن أنه كان مضطراً ، فهو الذى تطوع للقيام بهذا الدور . غير أن ذلك لم يمنعهم من ترك جثته حيث كانت حتى كان علىّ أن أذهب بالعربة لاحضارها" .

ولكنها ظلت تضغط متسائلة : "لماذا كان يجب أن يفعل ذلك ؟ لماذا" ؟

بدت مرتعدة . لذا قلت : "لم يكن فى وسعى أن أعرف بعد ما انتهى اليه الموضوع . فالآخرون الذين اشتركوا فى الغارة فروا بعد أن تأكدوا من أن "س." قد مات ، من الطبيعى ، أنهم لم يكونوا مريدين أن يربطهم بعائلة "س." أى علاقة فيما بعد ، لذا كان من المستحيل الحصول على

التفاصيل منهم . ولا أعتقد أن الكثير منهم مازال فى القرية الآن . لقد ذهب أحدهم الى المدينة وأصبح مجرما . فلقد قرأت خبرا كبيرا عنه فى الصحيفة المحلية حين كنت فى المدرسة الثانوية . واعتقد أنه هو الذى قتل الكورى فى الغارة الأولى ، لذا نظرت الى الصورة الفوتوغرافية التى نشرت فى الصحيفة وتعرفت عليه فى الحال . يبدو أن القتل عادة لدى البعض .

كنت أحاول أن أوجه الحوار الى اتجاه أكثر عمومية الا أن زوجتى كانت قد تملكها الرعب بحيث لم تفلح معها مناورتى . وبدلا من ذلك . ظلت تضغط على تاكاشى الذى كان يريد أن يظل صامتا .

ألحت قائلة : "تاكا ، ماذا عن ذكريات أحلامك ؟ ولماذا كان عليه أن يفعل ذلك" ؟

بدأ كلامه بعزم وصبر على غير عادة تاكاشى الذى عرفته منذ الطفولة المبكرة ليس لأن هذا جاء باجابة لتساؤل زوجتى . ذكريات أحلام ..

فى أحلامى لم يخالجنى أدنى شك فى السبب الذى جعل "س." يضطر أن يلعب هذا الدور . فقد ولد "س." فى أوهامى كى يكون بطلا . وفى أحلامى لا أحتاج ان أسأل "س." اية أسئلة . وفى الواقع ، منذ عشرين عاما كان فمى محشوا بالحلوى ـ كما يقول ميتسو ـ وهذا معناه أنى لم أكن أستطيع أن أسأله عن السبب ، حتى اذا أردت ذلك .

فقالت : "لماذا ينبغى أن يفعل ذلك" ؟ ولم يكن صوتها موجها لى أو لتاكاشى ولكنه يطارد أصداء فى الفراغ فى داخلها : "لماذا .. لماذا يجب أن يفعل ذلك" ؟!

ثم أخذت تكرر : "من البشاعة تخيله مكوما فى ظلام المخزن" . أنا واثقة من أنى سأحلم بذلك الليلة ، ولن أستطيع أن أخرج الأمر من رأسى مثل تاكا" ..

طلبت من تاكاشى أن يقود الستروين الى محل الخمور الذى تحدث عنه الكاهن . وعدنا الى المساحة المفتوحة أمام مكتب القرية ورحنا نتكلم فى

السيارة . وبعد أن اشترينا زجاجة من الويسكى . وفى المنزل بدأت زوجتى فى الشراب . جلست صامتة متجاهلة وجودى أنا وتاكاشى منتصبة فى مواجهة المدفأة حتى وصلت الى حالة النشوة . انها تشرب أمام تاكاشى منذ عودته الى اليابان غير أن ذلك كان دائما داخل الاطار العائلى ؛ لم يكن سكرها يجعلنى أرى فى عينيها ذلك الظلام المرعب داخل نفسها . بدأت حبات من العرق تنتشر على جبهتها الضيقة ، وحول عينيها وشفتها العليا المشتعلة ثم الى رقبتها . لقد أظهر اللون الأحمر فى عينيها أنها خارج نطاق عالمنا . كانت تهبط ببطء الى تلك الأعماق التى يفعل فيها الويسكى فعله ولم تبد أى اهتمام بما يحيط بها .

استمرت زوجتى تشرب فى صمت ، بينما تمددنا أنا وتاكاشى على الجانب الآخر من المدفأة ، نصغى الى اسطوانة قديمة من مجموعة شقيقتنا المتوفاة على جهاز فونوغراف قديم سهل الحمل . يعزف أحد فالسات شوبان فى آخر تسجيل لاحدى حفلاته الموسيقية الأخيرة فى حياته .

قال تاكاشى فى هدوء : "ان الطريقة التى تصغى بها الى البيانو غير عادية . فلم تفتها نغمة واحدة . اذ استطاعت أن تستوعب كل صوت كان يخرج من البيانو مهما كانت سرعة العزف" .

بدا لى أن هذه أول مرة سمعته يذكر فيها شقيقتنا منذ وفاتها . فسألته : "هل كانت قادرة اذن على استيعاب كل هذه الاسطوانات ؟

ثم قام بلفتة نحوى دون توقع ، وأضاف قائلا : "يبدو أن زوجتك بها شىء خاص أيضا" .

أذكر كيف استخدم نفس التعبير بالنسبة لصديقى الذى طلا وجهه باللون القرمزى وشنق نفسه . لقد كان "س." "خاصا" الى حد ما . لقد أظهرت كلماته أنه فهم أن هناك شيئا ما فى أعماق كل من ماتوا فى قبضة خوف ولم يستطيعوا نقل خوفهم الى أى إنسان غيرهم .

الفصل الخامس

امبراطور السوبر ماركت

ذات صباح قارس البرودة تتجمد فيه اليد حتى فى المطبخ ، سحبنا الماء من بئر خارجية مربوط بها جردل ويقع فى الحديقة الخلفية لا يفصله عن جانب التل سوى حديقة توت صغيرة كنا نسميها فى وقت من الأوقات "سيداوا" واحتكر أخى أول جردل ملىء بالماء بأن غسل وجهه ورقبته وما وراء أذنيه بسرعة فائقة . أخذ يدعك صدره وكتفيه . فقلت لنفسى بينما أنا أنتظر دورى لاستعمال الجردل أن تاكاشى ، الذى كان يكره البرد حين كان طفلا ، لابد أنه قد أعاد تشكيل شخصيته . وكان على ظهره ندوب خفيفة حيث تحطمت الأنسجة بضربات من آلة غير حادة . ولما رأيتها الآن ، لأول مرة ، شعرت بانقباض فى معدتى وكأن المنظر أحيا ذكرى تكبدها جسدى .

كنت مازلت فى انتظار دورى حين أتت مomوكو ومعها القنفد البحرى مربوطا وهى قادمة من المطبخ الى الحديقة الخارجية . وبالرغم من البرد القارس ، ارتدى ذلك الشاب الغريب الملامح جينز خفيفا وقميصا داخليا ذا كمين طويلين غطيا أصابعه . وقف يرتعش ولم يحاول أن يتحدث الى تاكاشى طوال وجودى . بدا شاحبا من ارهاق فى أعماق كيانه .

تخليت عن فرة الاغتسال وذهبت الى جانب المدفأة . ولم يعد اخفاقى فى غسل وجهى يضايقنى .

سألت زوجتى "ألا يحس ، الشباب بالبرد" ؟ كان صوتها خفيضا حتى

أنه لم يتمكن تاكاشى والآخرون أن يسمعوه . انه يرتعش بشكل فظيع . ويود أن يعطى الجميع الانطباع بأنه من النوع الرواقى غير العادى ، لذا فهو يرفض أن يرتدى معطفا أو سترة حتى فى منتصف الشتاء . وهذا فى حد ذاته يفسد المظهر الذى يتخذه وهو تجاهل الآخرين ، كما يساعد على جعله حالة استثنائية .

"لو أن هذا يكفى لجعله زعيما لاحدى الجماعات ، فلابد أن تكون تلك الجماعة بدائية ، أليس كذلك" ؟

فرددت عليها قائلا : "أجل ، ولكن من ناحية عملية ، فان الشخص الذى يتخذ هذا المظهر ليس بالضرورة بسيطا من حيث تركيبته النفسية . وهذا هو ما يجعل السياسة شديدة التعقيد أمام أطفال القرية" .

وقبل مضى وقت طويل عاد تاكاشى الى المطبخ ، يسير الشاب الى جانبه بشعور مبالغ فيه من القدسية . خطا الشاب العتبة وبدا وجهه العريض يحمل نظرة مخيفة حتى أنى بهت !

وأحسست أن زوجتى قد شعرت بما شعرت به ، حين سألت بصوت خجول : "هل وقع شىء سيىء ياتاكا" ؟ فلم يجب اجابة مباشرة ، وانما وقف الى جانب المدفأة وكان وجهه ممزقا بين شعورين متصارعين عنيفين . بدا وكأنه كان يكافح احساسا غير عادى . ثم قال ، بعد أن تفحص وجهى وبعينين مليئتين بالزهو وبصوت مرتفع : "الجوع والبرد قتلا الدجاج ، عدة آلاف منها ماتت" . ثم ضحك ضحكة قصيرة .

فلم أقل شيئا ، اذ كنت غارقا فى التفكير فى تلك الآلاف من الدجاجات التعسة التى ماتت جميعا . ثم امتد تصورى الى القنفذ وأصدقائه وهم يرتعشون بلا توقف رغم ادعائهم عدم المبالاة بالبرد ، أثار الذعر التام لمصيبتهم شعورا داخليا بالاشمئزاز والحزن .

"اذن لقد جاءوا كى أذهب وأقابل الامبراطور وأناقش ما يمكن عمله بشأن الدجاجات الميتة . ولا أستطيع أن أدعهم لمصيرهم . لذا فأنا ذاهب الى المدينة" .

فقلت : "الامبراطور ؟ آه أظنك تعنى صاحب سلسلة السوبرماركت . لا أستطيع أن أتخيل أنه يستطيع أن يحول الدجاج الميت الى صفقة مربحة من نوع ما . ما لم يحولها الى كم ضخم من مكعبات الشوربة" .

فرد قائلا : "إن معظم المال المدفوع لحفظ الدجاج كان يأتى من الامبراطور . كانت جماعة الشباب تريد أن تكون مستقلة عن السوبرماركت ، غير أن الحاجة الى شراء الدجاجات واطعامها وشحن البيض جعل من الصعب عليهم ابعاد نفوذ الامبراطور . أما الآن وقد انمحت جميع الدجاجات ، فان خسارة جماعة الشباب هى خسارة للامبراطور أيضا . لذا فهم يتطلعون الىّ كى أتفاوض معه وأن أبعد عنهم أى اتهامات بعدم المسئولية قد يرفعها ضد الجماعة . وبالطبع هم جمهرة من الحمقى ولا أتردد فى أن أراهن على أن بعضا منهم ، ممن هم أكثر خيالا ، لا يزالون يأملون ان يخرج بفكرة تتيح طريقة مربحة من نوع ما للتخلص من دواجنهم الميتة" .

قلت : "لو أن الدجاجات ماتت متجمدة بمعدات خاوية فمن الممكن أن يكون كل جزء فيها صحيا شأن الأطعمة والخضراوات المجمدة التى تزرع باستخدام الكيماويات . قد أجعلهم يعطوننى اثنتين أو ثلاثة من أقلها نحافة مقابل ذهابى الى المدينة كى أعطى لجين بعض البروتين . فماذا تظن" ؟

قالت زوجتى : "ان جين تقريبا لا تأكل أى بروتين رغم شهيتها المريضة . وهذا ضار لكبدها" .

أثناء الافطار السريع ، عقد تاكاشى حوارا مطولا مع هوشيو بخصوص الوقت اللازم لرحلة الى المدينة فى عربة النقل الخاصة بالجماعة وكذلك المسافات بين الأماكن التى توجد بها مؤن من الجازولين . واتخذ حوارهما وتيرة سريعة . ذلك أن لـ "هوشيو" معرفة عملية وتفصيلية بالسيارات ؛ ولم يكن على تاكاشى سوى أن يسأل سؤالا كى يحصل على اجابة دقيقة ، وفى صلب الموضوع . وبينما أخذ هوشيو يشرح عيوب محرك العربة ، وكذلك احتمال حدوث عطل ميكانيكى أثناء القيادة لعدة ساعات خلال

الغابة ، اتضح الأمر أكثر فأكثر مما جعلهما يقرران أن يذهب هوشيو معه الى المدينة .

عندما قالت مومركو : "هوشى خبير فى اصلاح الناقلات القديمة . وتستطيع معه أن تقود أى سيارة الى أى مسافة دون أدنى قلق . وكلما كانت السيارة قديمة أمكنه اصلاحها . لذا فسيكون ذا فائدة عظيمة لك" . وكى أفيها حقها يجب أن أقول إنها مع هذا الجهد أطلقت العنان لتنهيدة تنم عن الحسد الطفولى ، قائلة :

"لكم أعجب ماهى الأفلام المعروضة فى العالم المتحضر ؟ وأعجب ما اذا كانت بريجيت باردو مازالت موجودة" ؟

فقال تاكاشى : "سنأخذك معنا" .

وأضاف قائلا بصدق لما شاهده من فرحة تغمرنى : "أولئك الفتيات المراهقات يشغلن أنفسهن بكل شىء ويشددن أعصابهن .

قالت زوجتى : "قد السيارة بعناية ياتاكا ، اذ يوجد جليد على الطريق خلال الغابة" .

رد قائلا : "وهو كذلك . وسأكون حريصا أكثر فى طريق العودة حيث إنى سأحضر نصف دستة من زجاجات الويسكى ؛ شىء أفضل قليلا من النوع الذى تحصلين عليه فى القرية ، وماذا عنك ياميتسو ؟ أتريد أن أقوم بأى شىء" ؟

"لا شـىء" .

قال تاكاشى ساخرا مستهزئا من كآبتى "ميتسو فى غنى عن أى شىء . من الآخرين أو منه هو نفسه" .

لقد لمس فىّ عدم وجود أى شعور بالتوقع . وعلى حد علمى .

استأنفت زوجتى قائلة : "بعض البن من فضلك ياتاكا" .

فأجابها : "سأحضر قدراً كبيراً من المؤن . ذلك أنى سأتقاضى مقدما

من ثمن المخزن من الامبراطور . من حقكما أنتما أن تنالا نصيبكما من هذه النقود" .

لذا قالت : "أريد ـ اذا كان ذلك ممكنا ـ جهازا لإعداد القهوة وبعض البن الطازج المطحون ياتاكا" . بعد الانتهاء من تناول الافطار ، نزل تاكاشى وحارساه الى الستروين وانتظروا فى الساحة الموجودة أمام مكتب القرية . فتوقفت أنا وزوجتى عن وجبتنا وراقبناهم وهم يذهبون من الحديقة الامامية .

وقالت : "سرعان ما اعتاد تاكا على شباب الوادى ، انه ليس مثلك ، فأنت مازلت تغلق غرفتك عليك كما اعتدت أن تفعل حين كنا فى طوكيو" .

فأجبت : "تاكا يحاول أن يزرع جذورا هنا أما أنا فلا يبدو أن لدىّ جذورا كى أزرعها" .

وشعرت بالاشمئزاز من الشفقة على الذات التى كانت ترن فى صوتى .

فقالت : "يبدو أن هوشيو يعتقد أن تاكا ذهب الى أبعد مما ينبغى فى صداقته مع الشباب" .

قلت : "لكنه يتعاون مع تاكا فى العمل من أجل جمعيتهم أليس كذلك" ؟

فردت بقولها : "انه يتعاون بحماس فى أى شىء يقوم به تاكا . ومع ذلك ، يبدو أنه يحس بعدم الرضا هذه المرة . وأعجب اذا كان غيورا من أصدقاء تاكا الجدد . لو كان الأمر كذلك ، فاتوقع أن يشعر بنوع من النفور المحرم نحو الأولاد الآخرين . رغم أنه لم يمض وقت طويل منذ كان يحيا فى مزرعة . اعتقد أنه يعرف الفلاحين معرفة قوية .

ثم سألتنى : "هل تشعر بنفس الشىء" ؟ غير أنى لم أجب .

وارتفع الزئير الصادر عن الستروين المتهالكة وهى تحمل تاكاشى والآخرين متجهة الى الجدار الحجرى حيث كنا نقف ، وتلاشوا فى الفضاء المستطيل الذى تلفه الغابة العالية ، تاركين أصداء متعددة تتردد عبر الوادى . ثم بعد أن اختفت السيارة بنفس سرعة اختفاء اصدائها علت راية

صفراء مستطيلة فى هواء الصباح المبكر لواد صار فارغا من اى دليل على الحركة . ورفرف صارى أحد الأعلام فوق مخزن صناع الخمور . وهى عائلة متأصلة منذ القدم مثل عائلتنا أى كعائلة آل نيدوكورو ، وهى واحدة من العائلتين اللتين هوجم منزليهما فى أحداث شغب المزارعين التى وقعت عام ١٨٦٠ . كان صناع الخمور قد غادروا الوادى ؛ وتم شراء مخزنهم وأزيل احد جدرانه كى يقام سوبرماركت .

قلت وأنا أتفحص ذاكرتى المرتبكة عن الكيفية التى كان الوادى يبدو بها . كى أتأكد أن الراية كانت ترفرف كل يوم حتى الآن : "لا أعتقد أنى رأيت هذه الراية من قبل" .

فردت : "أظن أنهم رفعوها لأنه يوجد أوكازيون اليوم . اذ إن جين تقول إنه فى أيام التخفيضات يأتى الناس للتسوق" . هناك ليس فقط من المنازل التى توجد على حافة الغابة ، ولكن أيضا من القرية المجاورة . انهم يحضرون بواسطة الأوتوبيس على طول الطريق المجاور للنهر" .

قلت وأنا أجفل من منظر الراية وهى ترفرف فى نسمة هبت توا : "يبدو أن الامبراطور يُحَكِم عقله" .

فردت : "أجل أليس كذلك" ؟ غير أنها كانت قد انشغلت مسبقا بفكرة مختلفة .

لذا استطردت قائلة : "لنفرض أن جميع الأشجار فى هذه الغابة أصابها التلف بسبب البرد وتعفنت حيث هى ، كيف بالله يمكن للناس فى المنخفض أن يتحملوا الرائحة" ؟

كنت على وشك أن أتمعن فى الغابة المحيطة بنا حين دفعنى توجس ما ان ابدى عدم الموافقة فظللت أنظر الى الأرض ، حيث كانت الأبر الثلجية قد بدأت تتكسر . شعرت بأن ذكرى ما تنبعث من جديد داخلى ، ذكرى الرائحة الخانقة المنبعثة من الأوراق السميكة لشجر الزينة التى تتعفن من البرد الشديد .

فألححت عليها بارتعاش قائلا : "حسنا ، اذن ، فلننتهى من الافطار كالمعتاد" .

وما إن سارت خطوة الى الأمام حتى تكسرت قطع الجليد الحادة تحت قدميها .. ففقدت توازنها على الفور وسقطت مما جعل يديها وركبتيها تبتلان بالماء والطين المتجمد . فى هذه اللحظة بالذات زادت الرائحة المتجددة فى فتحات أنفها من سوء توازنها . فقد أسقطتها أشباح بعض زهور الزينة التى ماتت فى منزلنا بطوكيو .

فمنذ زواجنا ، كانت تزرع نباتات مطاطية ، فى وعاء ذى جدار زجاجى قامت بصنعه على الجانب الجنوبى فى غرفة طعامنا . وفى منتصف الشتاء ، حين كانت الأرصاد تتنبأ بطقس بارد كانت تجعل نار الغاز مشتعلة طوال الليل فى حجرة الطعام وتستيقظ فى كل ساعة كى تدع الهواء الدافىء يدخل الى وعاء حفظ النباتات . واقترحت عدة حلول معتدلة مثل ترك العازل بين المطبخ وحجرة الطعام مفتوحا قليلا ، أو وضع مدفأة تعمل بالفحم الا أنها كانت تخاف بشكل مبالغ فيه من اللصوص ومن النار منذ طفولتها ، بحيث إنها لم تفكر حتى فى هذه الاقتراحات . وبفضل هذا الاجتهاد العصابى ، اختنق الوعاء من الأرض حتى السقف بنباتات شديدة الغزارة والتوحش . أما فى هذا الشتاء ، وقد صارت تشرب الويسكى حتى تنام ، كان من العسير عليها ، أن تفكر فى الوعاء . كذلك كان يصيبنا الفزع لدى التفكير فيها وهى تتعامل مع فرن الغاز فى ساعات السحر حين تكون مخمورة . وحين أعلنت التنبؤات فى المذياع عن قرب موجة البرد الأولى فى الشتاء انتظرناها بنفس الصورة التى تنتظر بها قبيلة ضعيفة جيشا قويا .

وفى وقت مبكر ، ذات صباح ، بعد ليلة باردة جعلت النوم صعبا ، دخلت حجرة الطعام ونظرت داخل الوعاء من خلال الزجاج لأجد أن أوراق النباتات عليها بقع كبيرة داكنة . ومع ذلك لم تتبين عيناى أى شىء ينذر بسوء ؛ كانت جميع الأوراق تالفة ، غير أنها لم تكن قد ذبلت بعد . وحين فتحت الباب الزجاجى ، أدركت مدى الضرر الحقيقى الذى وقع لزهور الزينة التى نزرعها . ودفعتنى الى الوراء الرائحة الطاغية التى تشبه رائحة كلب مريض ملأت كل المكان . بدت الزهور أشبه بعملاق يموت واقفا ، وأخذت كتل زهور الأوركيد العريضة الأوراق تتهاوى تحت قدمى كحيوان

مريض . فخانتنى روحى . وعدت الى حجرة النوم اذ لم يكن فى امكانى أن أفعل أكثر من ذلك وغطت فى النوم ، غير أن عقلى كان مسكونا بالرائحة التى تغلغلت فى جميع مسام جسمى . وحين استيقظت قبل الظهيرة ، وجدت زوجتى تأكل افطارها ، غير أن رائحة الكلاب المنبعثة منها أعادت الىّ مباشرة تلك الدقائق التى قضيتها فى وعاء حفظ الزهور ، بينما كانت هى فاقدة الوعى . ولم تترك فى حياتنا أى بادرة من امارات الدمار التى حاقت بمنزلنا منذ بدأت زوجتى تنزلق لأول مرة فى أعماق الخمر ، وبعد ان تغلبت على نفورى ، ألقيت نظرة أخرى من خلال الوعاء الزجاجى فوجدت تحت ضوء الشمس القوى ان البقع السوداء انتشرت فوق جميع الأوراق . وكان من الواضح تماما أن النباتات تموت .

قلت فى نفسى نعم ، لو أن جميع الأشجار الموجودة فى الغابة التى تلف الوادى أتلفها الصقيع ، فان القرويين سيحاطون برائحة مليون كلب مريض . أشعرتنى هذه الفكرة أننى أفقد توازنى فوق أبر الجليد المتكسرة . وبعد أن عدنا نحن الأثنين الى المنزل ، وانتهينا من افطارنا فى كآبة تختلف تماما عن الجو الذى كان سائدا قبل ذلك ، حين كان تاكاشى فى وسط جماعتنا .

وبعد الظهر ، أحضر ساعى البريد خطابا من أسرة موموكو وأخبرنا أن هناك طردا فى انتظارنا فى مكتب البريد . عبارة عن مقعد قرأت زوجتى عنه اعلانا فى احدى المجلات فطلبت أن تشتريه . وحسب الكتالوج ، كان الكرسى بلا مقعد . اذا وضع على مرحاض يابانى يصبح فى امكان مستخدمه أن يقوم بعملية الاخراج على الطريقة الغربية ، دون ضغط على الركبتين . كانت تفكر فى اهداء واحد من هذه المقاعد لجين ، وبذلك تريح "أسمن امرأة فى اليابان" من الضغط الذى لابد أن جسدها الضخم يفرضه عليها فى ذلك الوقت . ومن المسلم به ، أن هناك بعض الشك فى ما اذا كانت المواسير التى ركب منها المقعد يمكنها أن تتحمل مائتى رطل وأكثر ، لكن هناك بعض الشك فيما إذا كانت جين يمكن اقناعها أن تستعمل مثل هذا الشىء . غير أن وصول هذا المقعد المريح شحذ اهتمامنا ولما كنا قد شعرنا بملل مرضى من البقاء فى المنزل فى انتظار الآخرين ، انطلقنا عبر الطريق المفروش بالاحجار .

توقفنا أمام السوبرماركت ، ورحنا ننظر الى صخب الناس غير العادى . فذكرنى ذلك باجواء عيد القبر المقدس أثناء السنوات التى قضيتها فى الوادى . وبعيدا قليلا عن زحام الناس عند أبواب السوبرماركت ، انهمك بعض الأطفال وهم يرتدون أفضل ما لديهم من الكيمونو فى لعبة قديمة ، وهى ركل الحجارة فارتبط مرحهم بذكرياتى عن العيد . وكانت احدى الفتيات ترتدى كيمونو قرمزيا به تصميم للعنقاء ذهبى اللون . كما كانت ترتدى حول رقبتها ياقة قرمزية من فراء غير أصيل . وفى كل مرة كانت تركل الحجر ، يصدر الجرس ضوضاء ذات رنين يرعب الأطفال الذين معها . وظهرت راية بيضاء لامعة على المخزن ، الذى هدمت جدرانه وحل محلها البلاستيك . **هذا المخزن الذى يتحدث عنه الجميع ، يعلن الآن عن تخفيض كبير خرافى ! ولا يجب ان يفوت هذا التخفيض الأخير فى هذا العام احداً ! وكان المخزن دافئا فى الداخل .**

قالت زوجتى التى كانت قد ذهبت من قبل مع موموكو لشراء بعض المؤن : "كل ما يعنيه هذا أن لديهم بعض المواقد الكبيرة حول المكان" .

ولم تظهر من النسوة اللاتى انتهين من التسوق أى اشارة تدل على أنهن سيغادرن المكان ، بل تلكأن أمام الواجهة الزجاجية العريضة التى تمتد بين بوابتى الخروج والدخول ، الصقت احدى النسوة جبهتها بالواجهة تحاول أن تنظر الى ماوراء الدهان الأبيض ، كما خرجت زوجة أحد المزارعين ترتدى بطانية متعددة الألوان فوق كتفيها ، ثم رأس امرأة من أمريكا الجنوبية حاملة حقيبة مليئة بالمشتريات . فتصاعدت كمية من التنهدات المختلفة من النسوة اللاتى كن فى الخارج . وبينما مدت النسوة الموجودات حولها قرد مخالب كى تلمس البطانية ، تملصت زوجة المزارع ، وكانت صغيرة الحجم نسبيا ، وهى تطلق ضحكة عالية كالصرخة من فرط الاثارة وكأنهن يدغدغن جسدها . وبما أنى عشت بعيدا عن الوادى لفترة طويلة ، شعرت بانطباع أنهن غريبات عن القرية ، ولكن هذا لم يكن هو

الحال ؛ اذ لابد أن هذا النوع من السلوك قد تطور تلقائيا بين سكان الوادى .

إبتعدنا فى صمت حين رأينا الكاهن الشاب خارجا من المعبد خلف النسوة ، ويحمل حزمة من المشتريات يسندها على صدره . فازدادت حمرة الخجل على وجهه المبتسم وهو يقبل نحونا . قال وقد كساه الحرج الشديد "جئت كى أشترى كعك الأرز من أجل العام الجديد" .

قلت متسائلاً : "كعك الأرز ؟ هل توقف أهل الابراشية عن احضاره الى المعبد" ؟

فرد قائلا : "لا توجد عائلة فى الوادى تجد أرزا كى تصنع كعكها ففى هذه الأيام ، كما ترى . فالناس إما يحصلون عليه من السوبرماركت فى مقابل الأرز الخاص الذى يصنع منه أو أنهم يشترونه نقدا . وهذا نموذج صادق على الطريقة التى تتحطم بها الوحدات الأساسية فى الوادى ، قطعة قطعة . انها الطريقة التى تتحطم بها خلايا عود من العشب . اذ لابد أنك قد رأيت عودا من العشب تحت المنظار المكبر حين كنت فى المدرسة ، ياناتسومى" .

قالت : "أجل" .

فاستأنف حديثه قائلا : "لو تتذكرين ، فان كل خلية فى ساق العشب ذات شكل ثابت . وحين تنهار فهذا يعنى اما أن الخلية أصيبت أو أنها ميتة . وعندما تتزايد الخلايا التى لا شكل لها ، تنطلق أعواد العشب . ويحدث نفس الشىء مع الحياة فى الوادى ، أليس كذلك ؟ فلا يمكن أن يتوقع المرء استمرارها على هذا النحو حين يفقد كل عنصر شكله . غير أنى لا أستطيع أن أقول لأهل القرية إنه عليهم أن يعرقوا ليزرعوا أرزهم كما كانوا يفعلون ، مستخدمين نفس الآلات القديمة التى كان آباؤهم يستخدمونها . ذلك أنهم لن يعتقدوا أنى أقول ذلك من أجل كعك الأرز" ! ثم ضحك ضحكة قصيرة .

وكان لهذا التشبيه أثره المباشر علينا ، وكل ما صدر عنا هو الابتسامة الهزيلة التى افترت عنها شفتا زوجتى استجابة لضحكة الكاهن . وخرجت

امرأتان أو ثلاث من السوبرماركت فحيتهن الأخريات اللاتى كن ينتظرن فى الخارج ، غير أن فلاحة فى منتصف العمر بدا عليها خجل . تعجبت وقالت بصوت أجش : "ياله من شىء" ! كانت تنظف لعبة زرقاء من البلاستيك وهى تقطب جبينها وتقهقه فى نفس الوقت .

قالت زوجتى مستغربة : "ان عصاة جولف لا فائدة لها فى هذا الوادى ، أليس كذلك ؟ انها مجرد لعبة . وأعجب لم تشترى مثل هذه الأشياء" .

رد الكاهن : "انها لم تشترها فالأشياء التى حصلوا عليها دون أن تكون فى حقائب تعتبر هبات . اذ يوجد "يانصيب" يمكنك من خلالها أن تفوزى بجميع أنواع الجوائز الحمقاء . ولهذا فان اولئك اللاتى فرغن من شراء حوائجهن يتلكأن لمجرد أن يرين ما تلقى به الرياح على الأخريات" .

وأثناء سيرنا أنا والكاهن نحو مكتب البريد وناتسومى بيننا ، تناقشنا فى الكارثة التى حلت بالدجاج وجمعية الشباب . كان يعلم من قبل عن موت الطيور ، غير أن وجهه علاه الشحوب حين عرف أن تاكاشى ، ذهب الى المدينة كى يناقش طرق التعامل مع الكارثة مع الامبراطور .

"اذا كان فى نيتهم أن يطلبوا من تاكاشى أن يفعل ذلك ، فلم لم يتصلوا بالامبراطور قبل موت الدجاج ؟ ولكن لا عجب فكل ما يفعلونه دائما يكون بعد فوات الأوان" !

فجازفت بالقول بوصفى مراقبا محايدا : "ربما كانوا يريدون أن يظلوا مستقلين عن الامبراطور بقدر الامكان" .

فرد قائلا : "حتى لو اضطروا الى خلق موقف يجبرون فيه على الخضوع التام له ؟ ان السبب الحقيقى لفشلهم فى الواقع ، أنهم لم يريدوا توقيع عقد بأن يسلموا كل البيض مباشرة الى السوبر ماركت ، وحاولوا التمسك بحقهم فى مد المبيعات والطرق الى الأسواق الأخرى . هذه فكرة شاذة ، ذلك أن الأرض والمبنى اللذين احتفظوا فيهما بالبيض كلاهما ملك لصاحب محال السوبرماركت . اذن فالأرض التى كانت تقع فيها المستوطنة الكورية قد بيعت بعد الحرب الى الكوريين الذين كانوا يقومون بأعمال

السخرة فى الغابة ، ولكن قبل مضى وقت طويل احتكر أحدهم الأرض عن طريق شرائها من الباقين . وظل ينمو حتى كانت النتيجة هى الامبراطور الذى تراه اليوم" .

شعرت بصدمة . اذ إن عائلة جين أو أى من معارفنا القدامى فى الوادى لم يقل شيئا عن حياة الامبراطور السابقة حتى بعد أن عرفوا أننى وتكاشى سنبيع المخزن الى صاحب السوبرماركت .

قالت زوجتى : "كل ما آمل فيه أن يكون تاكا على وعى بالظروف أثناء التفاوض مع الامبراطور إذ أننى أحس بالقلق عما اذا كانت جماعة الشباب قد أبلغوا تاكاشى القصة بالكامل" .

كان من الواضح تماما أنها تحس بالشك ازاء قنفذ البحر لأنه تحدث مع تاكاشى بصوت منخفض ، متجاهلا أيانا بحزم .

وعموما ، كان لدى اشياء كثيرة تشغل فكرى بحيث لا يمكننى أن أضيع وقتى فى التعجب بشأن الاحباطات التافهة التى يواجهها تاكاشى للتعاون مع الامبراطور . ان ماكان يشكل عبئا على فكرى هو صمت القرويين التام بخصوص طبيعة الامبراطور .

قلت : "حتى اذا كان حصل على الجنسية اليابانية ، فان اعطاء رجل من أصل كورى لقب "امبراطور" يوحى لى بضغينة دفينة وهذا هو نفس الشىء الذى سيفعله أهل الوادى . غير أنى أعجب لم لم يخبرنى أحد" .

فقال الكاهن : "هذا أمر بسيط ياميتسو . فأهل الوادى لا يريدون أن يسلموا فى هذه المرحلة بأن كوريا تتحكم فيهم اقتصاديا . كان يعمل بالسخرة فى الغابة منذ ما لا يزيد على عشرين سنة . وأظن أن هذا الشعور يكمن بداخلهم ، وهو ما جعلهم يطلقون عليه عمدا لقب "الامبراطور" . ذلك أن الوادى متحلل بشكل يدعو لليأس" .

رددت موافقا وبهدوء : "قد تكون على حق" .

اذ إن ثمة شيئا مقززا يبدو أنه يكمن فى صميم العلاقة بين القرويين والامبراطور غير أن ذلك الشىء لا يمكن تحديده . ومع ذلك قلت : "لكن لا

يوجد أى شىء يشير الى التحلل ، فيما رأيته منذ عدت الى الوادى" .

فرد الكاهن : "لقد اعتادوا على ذلك . كما تعلموا فن اخفائه عن الغرباء" .

سألت : "ترى ما نوع هذا الامبراطور" ؟ هل تسأل هل هو شرير أم لا ؟ علىّ أن أقر ياميتسو اننى لا اضمر له شيئا . أما أهل الوادى فيعرفونه من حيث التعاملات ، انهم لا يعرفون أى شىء أسوأ منه . وتعد مسألة الدجاج مصداقا على ذلك . أحيانا ما أدهش وأتساءل عما يُخطط للناس هنا فى الوادى ، الان لا يذهب تفكيرى الى أبعد من ذلك . ولا أستطيع أن أقول أى شىء" .

فأجبت : "هذا غير سار تماما . فهو يزيد من وعيى بأن ثمة شيئا ما خطأ بالوادى" .

فرد "أما بالنسبة لنا فانه شىء أكثر من ذلك" .

واستقرت عيناه علىّ لمدة لحظة بنظرة حادة ، واستمر فى حديثه بحزن : "لا أستطيع شرح ذلك ياميتسو . الشىء الوحيد المؤكد هو أن الوادى يتحلل" .

وأمسك جيدا كعك الأرز بين ذراعيه وسار بخفة رغم أنه كان يخشى عما قد أسأل عنه بعد ذلك .

وسرت بسرعة فى الطريق . ولما كنا قد تركنا زوجتى خلفنا ، فقد جاءت تجرى . حصلنا على طرد المقعد من مكتب البريد وعدنا مرة أخرى . توقفت زوجتى عند السوبر ماركت واشترت كعك الأرز لنا ولعائلة جين . ورغم أننى لم أخل من شعور بالغضب لدى تخيل المخزن وهو يعاد تشكيله بحيث يصبح "سوبرماركت" ، الا أنها على الأقل ، لم تجد ذلك عقبة كأداء . وخرجت وهى تحمل ضفدعة خضراء من البلاستيك فازت بها .

قالت شاكية بخيبة أمل : "تصور أن هذا هو أول شىء أحصل عليه فى أول ياناصيب أفوز فيها منذ تزوجنا" !

وحين نزعنا اللفة عن المقعد ، وجدنا جهازا بسيطا مصنوعا عن طريق ثنى أنبوبتين على شكل حرف (يو) ومتصلتين بدعامات . أعطتنا الفكرة أن اقناع جين أن تستخدم مثل هذا الشيء لم يكن أمرا سهلا . فقد ترفض الوقوف خارج المخزن أو تظن أن هذه محاولة جادة كى أسخر منها . لذا تركت شرح المقعد السهل لزوجتى . وأثناء ذلك استدعيت أطفال جين الى الحديقة الأمامية ، وأشعلت النار فى الحبل والورق المقوى اللذين لف فيهما المقعد . وكنت وأنا أفعل ذلك منشغلا بابعاد شرارات مزعجة من التكهنات حول الامبراطور الذى كان علىّ أن أقابله فيما بعد .

كان الأطفال قد عرفوا بالفعل أن مزرعة الدجاج الخاصة بجماعة الشباب قد أزيلت . وحسب ما قاله أولاد جين ، كان الشباب يقومون بدوريات فى بيوت الدجاج توخيا أن يأتى أهل الوادى ويسرقوا الطيور الميتة . وما كان فى وقت من الأوقات مستوطنة كورية أصبح كخلية نحل قذرة ، مدفونة تحت مأوى الدجاج وأرفف ازالة فضلاتها ، وصارت المنطقة كلها محاطة بالأبخرة الكريهة . فى ذلك الصباح سقطت المخلوقات التعسة ميتة ، كل منها فى مكانها الضيق . وكان أطفال جين مع الأطفال كى يلقوا نظرة ، فطردهم الشباب الذين يقومون بأعمال الدورية . فقال ابن جين الأكبر على سبيل الشكوى : "لقد كانوا شديدى الجنون حتى ليظن المرء أننا نحن الذين فعلنا ذلك وبالله عليك من يفكر فى سرقة عدد من الدجاج الميت . مالم يكونوا غاضبين لأنهم فعلوا ذلك هم أنفسهم" . قال ذلك بمزيج من الاعتدال والخداع .

فضحك أطفال جين النحاف بصوت مجلجل . وكان من الواضح أن ضحكهم الساخر يخفى نفس الشعور باللامبالاة نحو جماعة الشباب وفشلهم فى تربية الدواجن كما كان يشعر البالغون فى الوادى . ولأول مرة شعرت بالشفقة على أولئك المحاصرين بين الامبراطور - الذى صرت الآن أرى فيه ماردا ماكرا - وبين شيوخ الوادى الذين لا يلقون مكرا . لقد حدث نفس الشيء مع المحاربين القدماء الذين انتهت أنشطتهم العنيفة بموت "س." أقصد الاتجاه الذى اتخذه الشيوخ نحوهم ، أولئك الذين استغلوهم لاغراضهم الخاصة والتى كانت مبنية على وعى عميق واحتقار . ولم أقدر

حقيقة ذلك الى أن خرجت الى العالم الخارجى حيث يمكننى النظر الى حياة القرية اليومية بموضوعية وأن أصل إلى نفس السن التى فيها "س." والفرق الوحيد ، أنه فى الماضى كان الأطفال يقفون ضد الكبار وهم يؤلهون الشباب ، بينما أطفال اليوم غير مبالين بجماعة الشباب وبالكبار أنفسهم .

وأخمدت النار نفسها ، تاركة مكانا دافئا أسود فى التربة المتجمدة . وبلا داع داس الأطفال على النار . قالت زوجتى وهى تدخل فى المبنى الخارجى : "تستطيعون أن تدخلوا الآن . هناك بعض كعك الأرز من أجلكم" .

غير أنهم تجاهلوا دعوتها التى تنم عن حسن النية ، وأخذوا يدوسون على بقايا الحريق . كان شعورهم بالذات حادا جدا ، كما كان لديهم قدر أكبر مما ينبغى من الكبرياء بالنسبة لأى شىء ذى علاقة بالطعام . وأعجب فيما اذا كانوا شديدى النحافة لأن كره أمهم لشهيتها الحادة جعلها تشعر أن كل الطعام يحمل أشواك المعاناة مما غرس فيهم نبذا للطعام هم أيضا .

قالت زوجتى : "لقد سُرت جين ولم تغضب . وعندما رأته فى البداية قالت انكم تسرون منها ، غير أننى تمكنت من افهامْها بأنى التى طلبته لها لقد استعملت كلمة «تسخرون» فعلا" .

قلت : "نعم من الممكن أن تستعملها ، فلقد كانت كلمة تستعمل يوميا هنا فى الوادى حتى زمان طفولتى . فكلما قلت نكتة ، كانت أمى تقول يالها من سخرية من والدى . ولكن ما رأيك ؟ هل تظنين أن هذا الاختراع المثير للجدل قد يكون ذا فائدة لجين" ؟ فردت : "أظن ذلك . سيكون عليها أن تكون حريصة على أن تسقط من أحد الجانبين وتؤذى نفسها ، غير أن المحاولة الأولى على الأقل ، كانت ناجحة" .

ثم توقفت عن ذكر المزيد من التفاصيل مراعاة لوجود الأطفال ، الذين يحومون حول المكان بآذان مفتوحة ، وقالت دون انذار : "سألتنى جين فأخبرتها عن الطفل ، لن تكون بهذا الهدوء حين تسمع ما قالته جين عن الأمر ، وليس هذا معناه أنى صدقت ماقالت" . وبينما هى تتكلم ، بدت أنها

تغالب حاجزا معينا" .

قالت جين انها لتعجب ما اذا كان تشويه الطفل راجعا الى الوراثة من جانبك" .

اجتاحتنى موجة من الغضب الحارق . وللحظة كان يكفى كى يطهر عقلى من الظل المشئوم الذى ألقى علىّ به الامبراطور . فناضلت كى أنظم دفاعاتى ، واحمر وجهى بالتوجس غير المركز ، وكأننى واقع تحت هجوم من عدو غير محدد الهوية .

فاستمرت قائلة : "ان الأسس التى بنت عليها شكلها أسس تافهة حقا" . قالت بسرعة وهى تحمر استجابة للخجل الذى انتشر فوق وجهى كله . اكملت : "فى احدى المرات ، حين كنت أصغر من الذهاب الى المدرسة الابتدائية ، أصبت بنوبة سيئة من التشنجات" . فقلت : "لقد أصبت بنوبة حين كنت أشاهد مسرحية المدرسة" .

قلت هذا بشعور من الراحة ، مع أنى كنت ما أزال أحس بحرارة الغضب المتلكىء فى كل ركن من أركان جسدى . وكانت منطقة أطفال جين يلفها طنين من الضحك . وربما ساعدت ضوضاؤهم الصبيانية مع ما بها من عزم على اهانتى أنا وزوجتى على حساباتنا النفسية ، لأنه حين وبختهم انسحبوا بسرعة ، وهم ما زالوا يضحكون دون أدنى غضب ويبحثون عن أمهم وكعك الأرز . أما نحن ، فعدنا الى المدفأة . وشعرت بأنى لابد من اخبارها عن طبيعة الأرواح الشريرة التى زارتنى ، دون انذار ، حين كنت طفل صغيرا أشاهد مسرحية المدرسة وأنه يجب أن أحطم بذور الشك التى ستنمو بداخلها بالتأكيد الليلة حين تثمل ، مالم أفعل ذلك .

كان أبى فى شمال شرق الصين يقوم بعمل ذى طبيعة غير محددة وظل لغزا ، ليس بالنسبة لنا فحسب كأطفال ، ولكن بالنسبة لجدتى ، التى كانت مازالت على قيد الحياة فى ذلك الوقت وكذلك بالنسبة لأمى . وكان عليه أن يبيع ما يكفى من الحقول كى يجد النقود ليتجنب الضيق ويقضى ما يزيد على نصف العام فى الصين ، من أجل هذا العمل . وكان أخونا الأكبر فى جامعة طوكيو ، وكان "س" فى مدرسة متوسطة فى مدينة مجاورة ، لذا

كانت العائلة فى الوادى ، تتكون من جدتى وأمى وجين والأولاد أنا وأخينا الأصغر وأختنا الوليدة . وعليه فلقد ذهبت أنا والأطفال وجين فى ذلك اليوم ، تلبية لدعوة حضور مسرحية المدرسة التى كانت مهداة لأبى . جلست أنا وتاكاشى على جانبى جين ، التى كانت تحمل الرضيعة على ظهرها ، وكانت سيقاننا تتدلى من فوق المقاعد الخشبية فى منتصف الصف الأمامى فى أكبر حجرة دراسة فى المدرسة الابتدائية . ويمكننى أن أتذكر المنظر بجلاء وكأن لى عيناً ثالثة معلقة فى سقف حجرة الدراسة منحتنى نظرة خاطفة .

فعلى بعد ياردة أمامنا أقيمت خشبة مسرح بضم منضدتين الى بعضهما ، وعلى هذه الخشبة قام التلاميذ الأكبر سنا بتمثيل مسرحيتهم . فبدأت بعدد منهم يرتدون مناشف قطنية حول رءوسهم ، واذا حكمنا بناء على أساس عدد الأطفال فى الفصل المتفوق فلا يمكن أن يكون هناك ما يزيد على الأربعة عشر على خشبة المسرح ، الا أنهم بدوا لعينى كطفل كأنهم زحام صغير يسيرون الى زراعة الحقول . كانوا باختصار مزارعين فى الزمن السحيق . سرعان ما نحوا جواريفهم وبدأوا يتمرنون على القتال مستخدمين فئوساً ومناجل كأسلحة . وظهر زعيمهم ، وكان شابا ظهر تحت قيادته الفلاحون المسلحون المدربون على المعركة التى من المقرر أن يقطعوا فيها رأس أقوى رجل فى العشيرة . وكانت هناك لفة ضخمة تمثل الرأس ، وانقسم الفلاحون الى مجموعتين يتدربان على القتال معا . وفى الفصل الثانى ، ظهر رجل فى زى رائع وحذر المزارعين من قطع رأس الرجل المرموق ، غير أنهم كانوا فى حمأة القتال حتى أنهم لم يصغوا اليه ، فأخبرهم أنه سيأخذ الرأس هو نفسه . ومر شخص يرتدى قناعا من خلال المكان المعتم حيث كان ينصب الفلاحون كمينا ودون انذار هوى عليه الشخص ذى الزى الرائع بسيفه . وقام بدور الرجل المقنع تلميذ يرتدى قطعة من القماش داكنة فوق رأسه وكرة سوداء مثبتة فى أعلى ، مما جعله شخصا مرعبا أكثر طولا من غيره من الممثلين . وتدحرجت الرأس "الحقيقية" للرجل الذى قام بهجوم بالسيف على خشبة المسرح بصوت مرتفع . وعندها نادى مهاجمه على الفلاحين الذين كانوا مختبئين : "أواه رأس أخى" !

وأزاح الفلاحون الغطاء وتعرفوا على قائدهم الشاب ، وبكوا بمرارة من فرط الشعور بالعار .

لقد أخبرتني جين من قبل بحبكة المسرحية ، وقد رأيت المسرحية عديدا من المرات أثناء اجراء التدريبات ، لذا كنت على دراية تامة بآليات المنظر عن تلك اللحظة التي سقط فيها الرأس "الحقيقي" على خشبة المسرح وهي مصنوعة من سلة من الخيزران المملوءة بالحجارة لقد اثارتني رأس أخي كي أروي الأمور بشكل صحيح ، وانهرت صارخا على الأرض وأصابني الصرع ففقدت الوعي . وحين استعدت رشدي ، كنت قد حُملت الى المنزل وكانت جدتي الى جانب فراشي تقول لأمي : "ان الوراثة شيء قوي ، حتى في حفيد ثالث" . كنت من الخوف بحيث احتفظت بعيني مغلقتين وجسدي متصلبا ، ومتصنعا أني مازلت فاقدا للوعي .

"أتذكرين حين ظهرت أول ترجمة حين تلقيت خطابا من مدرس متقاعد في المدرسة الابتدائية ؟ لقد كان وُكيلا للناظر وقت المسرحية . وكان يدرس مادة الرياضيات ، ولكنه كان أيضا يدرس التاريخ المحلي ، وهو الذي كتب المسرحية . غير أن الحرب بدأت في ذلك الشتاء . وفي السنة التالية ، تحول التعليم الى المدارس القومية واثيرت ضجة حول المسرحية . كما قال في خطابه ، فخفضت درجته الى مدرس عادي . فكتبت اليه أسأل هل قتل جدنا الأكبر أخاه الأصغر ، وحصلت على رد يؤيد الرأي القائل بأن جدنا الأكبر سمح لأخيه الأصغر الذي كان زعيما للانتفاضة أن يهرب الى كوتشي . وكذلك سألت عن ظروف موت أبي ، غير أنه في اجابته قال إن أمي التي كانت تعرف شيئا ما عن تلك الظروف لم تكن راغبة في فهم مغزاها فحسب بل إنها بذلت كل ما لديها من جهد كي تنساها" .

قالت زوجتي : "أني لأعجب هل يحاول تاكا مقابلة ذلك المدرس" ؟ . فوضعت حدا للحوار بأن قلت : "صحيح أن تاكا مهتم بالكشف عن الأسرار والحقائق الخاصة بالناس الذين ماتوا في عائلتنا ، الا أني أشك في أن المؤرخ سيكون قادرا على اشباع تذوق تاكا لما هو بطولي" .

عند نشوب الحرب ، أخبرنا أبونا بأنه سيتخلى عن عمله في الصين وأنه

عائد الى الوطن ، ثم اختفت آثاره لمدة ثلاثة أشهر حين سلمت شرطة شيمونيسكى جثته الى أمى . لقد حامت الشبهات حول ظروف موته ، وتكاثرت الشائعات : فمن قائل لقد دهمته أزمة قلبية على ظهر المعدية ؛ أو أنه ألقى بنفسه من فوق المعدية وهم يدخلون الميناء ؛ أو مات أثناء تحقيق الشرطة معه . أما أمى فعند عودتها الى القرية بعد أن ذهبت تتسلم جثته ، رفضت أن تقول أى شىء عن موته . وبعد الحرب ، كان أخى "س" من التوتر بسبب الرفض الصريح الذى كان يلقاه فى كل مرة كان فيها ينخر من أجل الحصول على تفاصيل عن موت أبى من عقلها حتى أنه قدم الدافع المباشر على الأقل لخطته أن يأخذها الى مستشفى للأمراض العقلية ويجعلهم يفحصونها .

وعند الشفق هبت نسمة مفاجئة فى مدخل الوادى فهزت المنخفض الذى يشبه شكل المغزل محضرة الى البيوت الموجودة فى الوادى رائحة غريبة كأكوام من مادة حيوانية تحترق ، محدثة قلقا وغثيانا جسديا . فخرجت أنا وزوجتى الى الحديقة الأمامية ونحن نضغط المناديل على أنوفنا وأنوفنا ونظرنا نحو الوادى ، غير أن كل ما أمكننا رؤيته هو دخان أبيض صغير يتصاعد فى الهواء . وحتى هذا لم يكن واضحا تمام الوضوح ، وسرعان ما اختفى فى الشبورة لم يدع شيئا فى جو الشفق الأحمر سوى شظايا من الدخان حاولت أن تعلو فوق طبقة الشبورة الكثيفة كى تتكسر وتتبدد .

ولم يكن الدخان أبيض كاللعاب الا حين كانت الغابة تشكل خلفية له .

خرج زوج جين وأطفالها من المبنى الخارجى وكانوا يقفون مجتمعين على بعد خطوات خلفنا ، كما كانوا أيضا يشاهدون أقصى ما يمكن رؤيته من الجو . وكان الصبية منشغلين فى شم الهواء فى محاولة لتحديد نوع الرائحة . وكانت أنوفهم الصغيرة كالأصابع تؤكد وجودها بضوضاء فى الكآبة التى تتعمق فى اضطراب . وأمام مكتب القرية ، أيضا ، ظهر عدد من الأشخاص السود الذين كانوا ينظرون إلى الفضاء .

كان الظلام قد حل حين جاء تاكاشى وحرسه الى المنزل . وكانوا جميعا

أيضا قذرين ومرهقين ، غير أن هوشيو كان صامتا بينما كان تاكاشى وموموكو فى حالة معنوية عالية . وحافظ أخى على وعده ، وأحضر نصف دستة من زجاجات الويسكى لزوجتى ، التى رمشت عيناها لا إراديا لدى النظر اليها . كما أحضر سترة جلدية لهوشيو ، وجونلة لموموكو . ولكن بالرغم من ملابسهم الجديدة ، الا أن نفس الرائحة الغريبة التى خيمت على الوادى كانت عالقة بهم بشكل أكثر قربا كغشاء واق .

سأل تاكاشى متعمدا اساءة رد فعلنا عن الرائحة التى كانت تفوح منهم : "لماذا تنظران أنتما الاثنان بهذا الشكل ؟ إن أى شخص قد يظن أننا قتلنا فى حادث فى أعماق الغابة وأن أشباحنا عادت كى تتلبسكما . من المسلم به أننا قد جئنا بسرعة فائقة فى طريق يغطيه الجليد وتظلله الشبورة ، نقود عربة نقل قديمة ذات كوابح عاطلة ولكن هوشيو تعامل معها كعبقرى . فسار فى ذلك الطريق الوعر بأقل قدر من العناء ، ككلب يضرب بمخالبه على طريق من الجليد . من الواضح أن عصرا آليا ينتج سلالة خاصة من الرجال توجه حاستهم السادسة الى المحركات" .

كان من الواضح أنه يحاول أن يرفع من روح هوشيو ، الا أن الفتى المراهق رفض أن يظهر أى استجابة مواتية . وذلك يرجع الى أن أعصابه كانت مجهدة أو أن ثمة تجربة قاسية قد أفرغت طاقاته الغضة .

قلت على الفور : "قد لا تكون شبحا ياتاكا غير أن رائحة قذرة تفوح منك" !

فضحك ضحكة قصيرة وقال : "ومنذا الذى لا تفوح منه رائحة قذرة بعد حرق عدة آلاف من الدواجن ؟ لقد خلعنا جميع الألواح من مساكن الدجاج وقمنا بحرق كل شىء من دجاج متصلب وفضلات لينة . ومن هنا الرائحة ! فأنا واثق من انها قد تغلغلت فى دمنا" . "ألم تتلقوا أى شكاوى من الناس" ؟ "يمكنك أن تراهن على ذلك ! غير أننا تركناهم يتكلمون وفى نهاية الأمر ، حضر شرطى ـ بعد أن كان الأمر يبدو كألعاب نارية . ولكن حين رأى أربعا أو خمسا من الجماعة يسدون نهاية الكوبرى ، احتفظ بصمته وعاد مرة أخرى الى منزله . لذا اكتشف الشباب أن لديهم من قوة

الأعصاب ما يكفى لمواجهة الشرطة .

قد تكون عدة آلاف من الدجاج ماتت وتبددت فى الدخان ، ولكن بفضلها صارت الجماعة أكثر حكمة . وعلى ذلك ، لم يكن الأمر كله تبديدا وضياعاً .

انفجر هوشيو فجأة وكأنه لم يعد يطيق صبرا قائلا : "لم تكن بكم حاجة لإرهاب الشرطى كى يذهب ، وما الهدف من ذلك على أى حال ؟ لقد تغلبوا عليه لانه كان وحده ، ولكن لو أن التعزيزات وصلت ، لما كانت أمامهم أى فرصة" .

ذكرنى هذا باصراره على التحدى ، فى تلك الليلة حين كنا ننتظر تاكاشى فى المطار . كان واضحا أن هوشيو من الشباب الذين يصرون على أفكارهم التافهة ليس فقط عن الهه الأبوى (تاكاشى) ولكن حين تكون هذه الأفكار ضده أيضا .

"ولكن ياهوشى ـ ما أن يبدأ الجليد فى التساقط ، وتقطع وسائل الاتصال بين المدينة والقرية التى توجد على الساحل ، لن يوجد سوى شرطى واحد تتعامل معه على أى حال . أراهن أنك حين كنت طفلا صغيرا كانوا يهددونك بأنهم سيخبرون رجل الشرطة مالم تتصرف على نحو حسن" .

فأجاب هوشيو بعناد "انى لا اقول يجب ألا تتقاتلوا مع رجال الشرطة . ففى شهر يونيه ذاك كنت أساندك مهما كنت تفعله ، ولكن لماذا ندخل فى متاعب من أجل حفنة من مزارعى الدجاج ؟ هذا هو ما يغضبنى" .

حتى ذلك الوقت كانت موموكو تقرأ خطابات من عائلتها ، وفجأة نظرت الى أعلى وتدخلت فى الحديث بصوت كأنه يغنى وكأنهما مجرد أطفال : أتعرف ان هوشى يتحدث بهذه الطريقة لأنه يريد أن يحتكرك ؟ ياتاكاشى . لا داعى للجدال ، ذلك أن هوشى سيصرخ كفتاة . فلنتناول العشاء ونذهب الى الفراش . فلقد طهت ناتسومى شيئا جيدا" .

صار الشاب شاحبا ووبخ موموكو ، غير أن الإثارة عقدت لسانه ، وهكذا انتهى الجدل عند هذه النقطة .

ورغم تأكدى مسبقا بسبب تردد تاكاشى فى أن يندفع فى تقديم تقريره عن الاجراءات الرئيسية من الاجابة ، الا أنى سألت : "وماذا عن المفاوضات مع الامبراطور" ؟

رد قائلا : "لا تقدم . يبدو أن الشباب يفضلون أن يقطع كل عملهم كى يتجنبوا الوقوع فى حبائله أكثر من ذلك . ولم يقدم سوى اقتراح عملى وحيد هو أن نحرق الدجاج جميعا . وأتصور أنه كان يخشى أن يأكل أهل الوادى الدجاج ميتا وتنخفض مبيعات المواد فى متجره . وحين عدت وقلت أننا سنحرق الدجاج نظر الى بعض القرويين نظرة ساخطة ومن هنا يبدو أن مخاوفه كان لها ما يبررها . ومع ذلك ، لو أردت رأيى ، فان مجرد الاجراء التافه وهو صب الجازولين على عدة آلاف من الدجاج وحرقها كان له فعل ما ، على الأقل ، لتحويل كسلهم وعقولهم الخاملة الى اذهان أكثر حدة وصلابة بسبب الكراهية" .

سألت بقلب مثقل أنى لأعجب من نوع النهاية السعيدة التى تخيلوها حين أرسلوا بك الى المدينة" ؟ فقال : "لم يكن هناك اى شىء فى عقولهم . اذ ليس لديهم خيال على الاطلاق . بل ربما كانوا يتوقعون منى أن استخدم خيالى نيابة عنهم . غير أن "هدفى من الذهاب الى المدينة لم يكن كى اقدم خيالى على طبق . كنت أريد أن افتح عيونهم على الحقائق وأن أجعلهم يدركون الجوع اليائس فى معداتهم" ! ثم ضحك وقال : "هل كنت تعرف أن الامبراطور انحدر أصلا عن المستوطنة الكورية ! لقد أخبرنى ذلك بنفسه اليوم . قال انه كان فى المستوطنة يوم قتل "س" لذا صار لدى سبب شخصى للانضمام للشباب ضده" .

قلت وأنا أحاول أن اعاود الحوار مع هوشيو كى أمنع ملاحظاته من أن أمواج جديدة من القلق داخلى بالنسبة للسوبرماركت فقلت : "ولكن - ياتاكا لدى انطباع أنك اذا أردت ، أن تجد المبررات للانضمام مع جماعتك ضد ذلك الشرطى القروى المسكين ، فيمكنك أن تجد أى عدد من تلك المبررات سواء كانت عامة أو خاصة ، بالنسبة لى فان طريقة هوشى أكثر عدلا من طريقتك" .

سأل بتعبير بلغ من اليأس حدا جعلنى أحس بالبرودة بينما كنت أراقبه .. عادل ؟

فجأة راح فى صمت عميق ، وعليه فان مومكو ، التى ظلت لوقت مضى تغمغم "فلنأكل" فى جهد منها كى تحملنا على الذهاب الى المائدة ، انتهزت الفرصة أخيرا ووجهت اليه الحديث مباشرة . "لقد قرأ الجميع فى بيتنا الكتاب الذى ترجمه ميتسو عن الحيوانات الغريبة ، وهم يقولون إنهم أكثر سعادة الآن وأنا أسكن تحت نفس السقف مع مثل هذا العالم البارز . فميتسو عضو حقيقى فى الهيئة الاجتماعية ، أليس كذلك" ؟

قالت زوجتى معلقة ، بعد أن ابتلعت كأسها الأولى من الويسكى : "قد يكون ميتسو انسحب من الحياة الاجتماعية ، ولكنه لايزال عضوا فى الهيئة الاجتماعية . ويجب أن يكون هذا واضحا لشخص مثلك ياتاكا فأنت النمط المعاكس تماما" .

قال تاكاشى وهو يحول عينيه عنى : "صحيح ، فهذا واضح تماما . فجدنا الأكبر وأخوه وزوجتاهما كانوا من مثل طراز ميتسو . لقد مات معظم الآخرين فى عائلتنا قبل الأوان ، غير أنهم عاشوا عيشة مريحة ومسالمة حتى الشيخوخة . أتدرين ياناتسومى ، سيبلغ ميتسو التسعين قبل أن يصاب حتى بالسرطان . واذا ما حدث هذا فستكون حالة معتدلة" !

فرددت وأنا متردد فى أن أستسلم : "لو أردت رأيى ، فانك لشديد التلهف على أن تجد أنماطا فى خط عائلتنا" .

غير أن أحداً لم يعر اهتماما باستثناء هوشيو . فاستطردت قائلا : "وما لم تجد نفسك فى ذلك النمط ، فان جميع جهودك ستكون قد وجهت نحو عالم وهمى ولم تقدم مساعدة حقيقية من أى نوع كان" .

وبعد العشاء ، أعطى تاكاشى لزوجتى نصف المقدم الذى حصل عليه من الامبراطور ، غير أنها كانت مخمورة بالفعل فلم تبد اهتماما . وكنت علي وشك أن أضعه فى جيبى حين قال : ما رأيك ياميتسو أن تساهم بخمسين ألف ين لفريق كرة القدم الذى أقوم بتشكيله كى أدرب جمعية الشباب ؟ لقد

اشتريت عشر كرات من المدينة ؛ انها فى الستروين . غير أن النفقات تتراكم" .

سألت فى خسة : "هل الكرات غالية الى هذا الحد" ؟

كان تاكاشى عضوا فى فريق كرة القدم فى الجامعة . فرد بقوله : لقد اشتريت الكرات من مالى الخاص . غير أن بعض الأعضاء يذهبون الى القرية المجاورة كل يوم للعمل كعمال ، كما ترى . ومالم أعطهم بدلا لبعض الوقت ، فلن يطيقوا النظر الى كرة القدم .

الفصل السادس

رياضة غريبة

بينما كنت نائما ، استطعت أن أسمع فى الظلام الذى كان يلفنى ، صوت الخيزران يتشقق فى البرد . ثم استحال الصوت الى مخلب من الصلب وترك جرحا بسيطا على رأسى النائم . وأخذت احلامى تغير المشاهد ، فتدفقت سلسلة من الصور تتناول انتفاضة الفلاحين فى الوادى دون أن تقطعها ذكريات عن أحد الأيام قرب نهاية الحرب حين كانت تتم تعبئة أحد البالغين من كل بيت فى الوادى كى يذهبوا لقطع الخيزران فى مكان شاسع كان ينبت فيه . ثم عادت تلك السلسلة فى تتابع جديد أدى مرة أخرى الى تلك السنة المصيرية ١٨٦٠ . ثم غصت مرة أخرى فى أعماق النوم ، يلفنى قلق أن أدع الأحلام السيئة المألوفة تستمر الى ما لا نهاية عن أن أستيقظ وأرى الامبراطور ، بجسده الكورى البدين وتعبير وجهه الذى لايمكن فهمه ، وجميع أنواع القلق الأخرى التى نشأت كى تسبب لى المتاعب ..

كان حلمى الجديد يقع فى الفترة الزمنية بين عام ١٨٦٠ والأيام الأخيرة للحرب . انشغل الفلاحون ـ وهم يرتدون الكاكى المعروف ، وهو لبس المدنيين وعلى ظهورهم خوذات من الصلب ولكن شعورهم مصففة على النمط القديم ـ فى قطع كميات ضخمة من رماح من الخيزران . فكان الرجال الذين يمسحون على الحراب ويحملونها فى معركة ١٨٦٠ هم نفس الرجال الذين كانوا يبذلون عام ١٩٤٥ جهد الخندق الأخير ضد الطائرات الهابطة . لقد كانت أمى هناك معهم ، تفسد جذور الخيزران بينما كانت تلوح بفأسها . كانت خائفة من أى نوع من الآلات الحادة ، حتى أن مجرد

امساكها بفأس كان يكفى كى يجعلها مغشيا عليها . لذا راحت تعبث بالخيزران على غير هدى ، والعرق يتصبب على وجهها الشاحب شحوبا شديدا وعيناها مغلقتان . واقترب الخيزران اقترابا شديدا حتى أن وقوع حادثة كان أمرا محتما . وعلى حين غرة ، حركت أمى الفأس وضربت بظهر يدها فى الخيزران الذى كان خلفها . فنظر الفأس وضربها على أم رأسها بصوت مرتفع . واخفت الفأس على غير تعجل فى النبات النامى ووضعت يدها على رأسها ، ثم رفعتها الى عينيها ناظرة الى البقع الحمراء التى تشبه الكعك الملون . وقفت مثبتا قدمى على الأرض باشمئزاز وذعر غير ان أمى ، بدت وكأنها تستعيد حيويتها وقالت لى بشعور بالظفر : "لقد أذيت نفسى ! والآن يمكننى أن أعفى من التدريب" . وبعد أن تخلت عن الفأس والخيزران التالف وتحركت الى اسفل المنحدر كانت تبدو وكأنها تنزلق على ركبتيها فوق النبت الجديد .

وبينما كنت أرقد أنا وأمى فى المخزن ، صعدت كتيبة من القرويين طريق الحصا وهم يحملون حراب الخيزران على اكتافهم . وكان قائدهم هو تاكاشى ، وبما أنه كان الوحيد فى القرية الذى رأى أمريكا بالفعل ، فلا شك فى أنهم نظروا اليه باعتباره الشخص الذى يمكن الاعتماد عليه أكثر من غيره فى قيادتهم برماحهم ضد القوات الأمريكية التى كان من المقرر أن تنزل فورا الى الساحل وتهاجم البلدة . غير أن هدف الكتيبة الأول كان هو المخزن الذى كنا نختفى فيه أنا وأمى .

قالت أمى : "يمكن أن يسووا المنزل الرئيسى بالأرض ، أما المخزن فلن يحرقوه ! فهو لم يحترق عام ١٨٦٠ .

كان فى يدى مسدس عتيق ، الا أننى رغم إلحاح أمى لم تكن لدى أدنى فكرة عن كيفية استعماله فدمر المنزل الرئيسى فى وقت لا يكاد يذكر ، وأشعلت النار فى البناء الخارجى ، واستطعت أن أرى شكل جين المفرط فى السمنة يتدحرج على ضوء اللهب ، وقطع أى طريق للهرب ، ورأيت السائل يسيل من جسدها المتعب . أما تاكاشى قائد الدهماء الذى تطابق تطابقا تاما مع الأخ الأصغر لجدنا الأكبر عام ١٨٦٠ ، فقد أخذ يوجه التحديات لى ولأمى ولأرواح العائلة بينما كنا نختبىء فى المخزن اما

الآخرون الذين تجمهروا حوله فكانوا أعضاء فى جمعية الشباب والذى قام بتدريبهم على كرة القدم . وكان قنفذ البحر والشباب الآخرون يرتدون أزياء تتألف من "بيجامات" مخططة وعلى رءوسهم عمامات سوداء لامعة . وبصوت حاد انتقانى الدهماء للهجوم : "ما أنت الا فأر !"

حتى الآن كان وعيى فى الحلم يتكون من مقلتين صحيحتين كانتا تنظران الى الوادى من أعلى وتنزل تحتهم سلك قصير من الأعصاب أقرب الى مكبر الصوت . غير أن صراخهم هشم مقلتى كما تهشمت ذاتى الجسدية وأنا أجلس عاجزا فى المخزن والمسدس على ركبتى .

استيقظت على صوت الخيزران وهو ينشطر فى البرد وأنا أئن . وحتى فى ذلك الوقت ، ظل الاكتئاب الذى سببه الحلم ينخر فى جسدى ، فاشتقت بشكل يائس الى حفرتى المستطيلة ـ التى للأسف ـ يحتلها صهريج حديدى ويغطيه غطاء من الخرسانة . كانت زوجتى ترقد متصلبة ومازالت نائمة الى جانبى ، ساخنة كطفل صغير بسبب ماتبقى من آثار بقايا الكحول ، أما الآن وقد استيقظت أخذ جسدى يبرد بالتدريج . وفى مكان أبعد فى الوادى ، بعيدا عن الجزء المركزى للتجويف ، يغوص النهر فى ثقوب خفية فى الغابة تضغط من الجانبين ، حتى ليبدو للناظر من على الأرض المرتفعة عند مدخل الوادى وكأنه قد أغلق عند هذه النقطة . ومن ذلك المكان عند الاتجاه الى اعلى المجرى يتحول حوض النهر الى صخرة مكشوفة ، وتتجمع مجموعة كبيرة من أيكة الخيزران فتغلق الجانبين ، مما يجبر طريق الحجر على ترك جانب النهر ، ويصعد بانحدار الى أعلى التل . ويسمى سكان المنخفض الناس الذين يعيشون فى تجمعات المنازل الصغيرة المتناثرة هنا وهناك على الطريق المتصاعد "أهل الريف" . وتشكل أيكة الخيزران حزاما كبيرا يوصل عند الزوايا اليمنى الفتحة التى شكلها بروز المنخفض المغزلى بالغابة ، مما يفصل بين المنخفض والريف .

فى كل صباح حين كنت أصحب أمى ـ التى كانت كما فى أحلامى ، تخشى الفئوس والآلات الحادة الى مجموعة أشجار الخيزران الكبيرة مع غيرها من الكبار ، كان صوت انشطار الخيزران يتردد صداه حولى فارضا

نفسه على ، معيدا الى الحياة ذكرى غضب البالغين الشديد فان خوفا لايمكن تحديده يملأ عقلى الصبيانى . ولم أسمع عن انتفاضة المزارعين فى عام ١٨٦٠ الا بعد نهاية الحرب فى حصة دراسات اجتماعية فى المدرسة . واهتم المدرس بالتأكيد على كيفية قطع رماح الخيزران التى استخدمها المزارعون كأسلحة من مجموعة الشجر الكبيرة ، وفهمت أخيرا ما الذى جعل رئيس القرية وغيره من الكبراء يغضبون كل هذا الغضب . ذلك أن تلك الأشجار كانت أكبر شىء لا جدال فيه كذكرى لانتفاضة عام ١٨٦٠ ، وهى التى كانت ذكراه أثناء الحرب ينظر اليها كوصمة على جبين جميع سكان الوادى . اذ إنه لسوء الحظ قد جعل أهل الوادى يعملون فى قطع الخيزران نفس تلك المجموعة من الأشجار ويجعلون منها اشكالا متماثلة ايقظت من جديد الشعور القديم بالعار . وكان رئيس البلدة وغيره من ذوى الميول الاصلاحية أرادوا أن يزيلوا ظلا من العار علق بهم وذلك بتشكيل الرماح من الخيزران بكل طاعة من أجل الدولة خجلا منهم من أن يكون أجدادهم قد قاموا بقطع الخيزران كى يستخدموه ضد النظام الذى كان قائما فى ذلك الوقت .

كذلك اعادت كلمات أمى فى حلمى ، بعد مايزيد على عقدين ، كلمات سمعتها فى احدى المرات فى الواقع . فبعد وفاة أبى ، ترك أخى الأكبر الكلية ، وبعد ذلك بفترة وجيزة التحق بالجيش ، بينما تطوع "س" كى يصبح طالبا فى البحرية الجوية ، وبناء عليه فان أمى التى سببت لها هذه الأحداث شعورا بالاضطهاد ، بدأت من وقت لآخر تتصور ان القرويين قد يهاجمون بيتنا ويشعلون فيه النار . يجب أن نستعد للهرب ونستقر فى المخزن بمجرد رؤية الجماعة المغيرة . وحين اعترضت على ذلك اخبرتنى عن الأذى الذى لحق ببيتنا عام ١٨٦٠ ، آملة أن تنقل بذلك مخاوفها الى ابنها الطفل .

عزت أمى انتفاضة المزارعين عام ١٨٦٠ الى جشع المزارعين وعجزهم . واتضح هذا حين تقدم المزارعون بطلب قرض الى سيد العشيرة الذى كانت له قلعة وأراض ودخل يبلغ ثلاثمائة وخمسين ألفا من أجولة الأرز فى العام عند النقطة التى يتدفق فيها النهر خلال الوادى ويجرى الى

لم ينكر المدرس الذى تبادلت معه الرسائل رأى أمى عن أصول الانتفاضة كما لم يؤكدها تأكيدا جازما . فلما كان يفضل المعالجة الأكاديمية ، فانه علق أهمية كبرى على أنه حوالى عام ١٨٦٠ ، كانت هناك انتفاضات ليس فقط فى قريتنا بل فى المنطقة بأثرها ، وأنه من الممكن النظر اليها جميعا على أنها أعراض على العودة الى النظام السابق ، وهو ماحدث فى عام ١٨٦٨ . وكان الظرف الوحيد الخاص الذى أمكنه تبينه فى عشيرتنا ، هو أنه قبل ١٨٦٠ بما يقرب من اثنتى عشرة سنة حين تولى سيد العشيرة منصبه كوكيل لوزير الأضرحة والمعابد قد زاد من أموال اقطاعياته ومن ذلك الوقت فصاعدا فرض ضريبة يومية صغيرة على جميع سكان المدن الواقعة فى اقليمه تحت اسم "المدخرات الكلية" ، أما الفلاحون فقد أخذ منهم فى البداية ما أسماه "مقدم ضريبة الأرز" ثم أخذ بعد ذلك "مقدم تكميلى" وفى نهاية خطابه الحق المؤرخ المحلى اقتباسا عن احدى الوثائق المعاصرة التى قام بجمعها ويقول هذا الاقتباس : "حين يعانى الينج ، يعاد اليانج ، وحين يعانى اليانج ، يعود الينج الى الحياة . فالأرض والسماء تدوران باستمرار ، ولا يذهب شىء دون أن يعود مرة أخرى . والانسان هو سيد الخليقة ، فحين تكون الحكومة غير حكيمة والناس يعانون ، فلم لا يحدث تغيير ؟" والأمر الأكثر احتمالا ان افكارا ثورية كهذه ملهمة لتاكاشى عنى وربما ينبغى لتاكاشى أن يقابل ذلك المؤرخ المحلى كما قالت زوجتى ، ما لم يكن قد خضع للسرطان أو لنوبة قلبية مع مرور الوقت... أما عنى ، فأنا غير قادر على الانضمام الى الدهماء ، سواء كان ذلك فى أحلامى أو فى الواقع . بل قد ألجأ الى المخزن ، ولن يكون فى امكانى أن أقاتل ببندقية فاذا كنت أفهم طبيعتى فان أى شىء يمت بصلة بالانتفاضة بعيد أكثر منى كل البعد . رغم أن تاكاشى جاء كى يكون من النمط المعاكس لكل مافى هذا المعنى من دقة ولقد حقق أحلامه ، على الأقل . فى أحلامى .

جاء صوت من ناحية المبنى الخارجى . ربما تكون المرأة الشرهة التى هى فى منتصف العمر ، وقد أفزعها كابوس ، تستيقظ فى الظلام كى تطعم نفسها بمزيد من الطعام كان الوقت لايزال سحراً . وحين مددت يدا فى الظلام ، بحثت عن زجاجة الويسكى التى تركتها زوجتى وعلى الفور ، مست

البحر . ورفض طلبهم ، وعليه فإن عائلة نيدوكورو وهم من متوسطى سادة القرية أقرضوهم مبلغا مساويا لما طلبوه . الا أن المزارعين قد شكوا من أن معدل الفائدة مرتفع على نحو غير معقول . فبعد أن قطعوا لأنفسهم رماحا من أيكة الخيزران ، قاموا بمهاجمة بيت نيدوكورو وسوى المبنى الرئيسى بالأرض . ثم قاموا بإغارة على المخزن الخاص بصناع الخمر بالوادى ، وصاروا ثملين الى حد لا يحتمل واستمروا فى مهاجمة العائلات الثرية وأخذ عددهم يزداد كلما تقدموا الى أن وصلوا الى القلعة . ولو أن جدنا الأكبر لم يحتم داخل المخزن وصمد وحده ، مطلقا النار من البندقية التى أحضرها من كوتشى ، لاستولى المشاغبون على المخزن أيضا . واتخذ أخوه الأصغر لقب "رئيس" الوادى كله باعتباره شخصية محورية ضمن جماعة الشباب التى حثها المزارعون الأكبر والأكثر مكرا على عمل شىء ما بل أنه لم يذهب شخصيا لمفاوضة سيد العشيرة على القرض فحسب ولكنه تزعم أعمال العنف حين رفض القرض . وهكذا كان يعد من أسوأ المنشقين ، الذى أشعل النار فى بيته ، على الأقل فى أعين الأعضاء الآخرين من عائلة نيدوكورو . ولقد ورث أبوك الذى فقد حياته وممتلكاته من أجل عمل غامض غير مربح فى الصين ، نفس شعرة الجنون الكامنة فى العائلة . أما عن اخوتى ـ فان أخى الأكبر الذى تسلم عملا بعد فترة وجيزة من تخرجه من كلية الحقوق ، فلم يكن سيئا ، الى حد كبير مادام لم يذهب الى الجيش طواعية ولكن "س" الذى خرج عن مساره الطبيعى كى يتطوع ، قد ورث عن أبيه نفس الدم مثل الأخ الأصغر لجدنا الأكبر . وأعلنت أمى أنه لم يكن ابنها . وكانت دائبة القول : "أما عن جدك الأكبر ، فقد كان رجلا عظيما . "فحيث كان الدهماء مسلحين بالرماح الخيزرانية فحسب ، كان جدنا الأكبر مستعدا ببندقية . لقد بنى مخزنا ابى أن يهدم أو يحرق ، وأطلق عليهم النار من الطابق الثانى . فمن منا يمكن ان يشبه جدنا الأكبر ؟ أنا أم تاكاشى ؟

لو ظللت صامتا ورفضت الاجابة عن مثل هذا السؤال التربوى الواضح ، فلتستمر أمى فى الضغط على الى أجل غير مسمى ، ولو أنى أعلنت بتردد أنى سأكون مثل جدنا الأكبر فانها ستصدر استجابة صامتة وابتسامة هزيلة شاكة .

يدى شيئا باردا مثل قوقعة "الكابوريا" أشعلت الكشاف الذى بجانب فراشى فوجدت علبة سردين فارغة . اهتممت ألا اجعل الضوء يومض على وجه زوجتى النائمة ، فحركت الدائرة الصغيرة المضيئة الى أن وجدت الويسكى ، ثم شربت مباشرة من الزجاجة على ضوء الكشاف . وحاولت أن اتذكر هل كانت تأكل "سردين" فى الليلة السابقة حين كانت تشرب ولكن دون أن أوفق . صار الآن شربها للخمر امراً ثابتا ضمن حياتى اليومية . وأكثر من مرة ، أمكننى رؤيتها تسكر من شرب الويسكى بأقل قدر من الاهتمام وكأنها تدخن سيجارة .

حملقت فى علبة السردين وأنا أشرب الويسكى . وفى وسط الفتحة التى تشبه الظفر التى أحدثتها الفتاحة بالعلبة ، أدركت ان زوجتى كانت تأكل السردين وتأخذ رشفة من الويسكى بشفتين مبللتين بالزيت وبقايا من السمك ، ثم تلعق الأصابع الثلاث التى استخدمتها فى التقاط السمك . وفى احدى المرات كانت أصابعها ضعيفة بحيث إنها كانت تطلب منى أن أفتح لها علب السردين . ولم تقو أصابعها الا حينما اكتسبت عادة الشرب وحدها ، الأمر الذى لم يكن له من فعل سوى زيادة الشعور بالانهيار المثير للشفقة . وبعد أن أغلقت عينى أخذت جرعة كبيرة من الويسكى كى ألقى بشعور الشفقة الذى شعرت به نحوها بعيدا فى الحفرة ، وألقى معه الغضب العاطفى غير المحدود الذى تصاعد داخلى ، منذرا بأن يخرج عن امكانية التحكم فيه . أحرقت تلك المادة حنجرتى ، معدتى ، والسواد الموجود داخل رأسى فرحت فى نوم بلا أحلام .

فى الصباح التالى ، اتجه تاكاشى وحرسه الشخصيان الى المدرسة الابتدائية التى كانت فى عطلة فى ذلك الحين كى ينضموا الى شباب القرية الذين كانوا من المقرر ان يتجمعوا فى الفناء للتدريب على كرة القدم . واذ تركنا وحدنا أنا وزوجتى ، شعرت باحساس من الفراغ المحبط وكأننا نحن الاثنين ينبغى أن نبدأ فى عمل شىء ما . وأصبحت هذه الحالة المزاجية من القوة حتى أنى استدعيت أطفال جين لمساعدتى على نقل بعض أشياء تكاشى من المنزل الرئيسى الى الطابق الثانى من المخزن ، وبدأت بداية جديدة فى العمل فى الترجمة التى كنت أقوم بها أنا وصديقى الميت .

والكتاب هو عبارة عن تاريخ مسل كتبه أحد علماء الطبيعة الانجليز يحكى عن طفولة قضاها على شاطىء بحر ايجة . وكان هذا من الكتب التى كان صديقى يفضلها وهو الذى اكتشفه أولا . وحين بدأت العمل ، قررت زوجتى أن تقرأ طبعة قديمة لأعمال سوزيكى ناتسومى ظهرت حين كنا نبحث عن الشواية فى الغرفة الاحتياطية فى المنزل الرئيسى ، وبهذا أمكننا أن نشغل أنفسنا بشىء بشكل ما . لقد وعدت جدة صديقى الصلبة أن تقوم بجمع مسودات الترجمة التى قام بها ، مع ملحوظاته وأوراقه الأخرى ، وتعهد بها الى . غير ان الأقارب اعترضوا ، وأحرقوا كل ماكتبه صديقى بعد الجنازة . اذ كانوا يخشون أن يقفز خارج المخطوطات والملحوظات التى تركها شخص آخر بوجه مدهون وجسد عار وبمؤخرته خيارة . ويهدد أولئك الذين بقوا . وحتى يجب أن أقر بأنى لم أستطع أن اكبت الاحساس العميق بالراحة الذى أشعلته داخلى تلك النار الضعيفة المنبعثة من الكراسات والأوراق . غير أنها لم تكن كافية كى تحررنى من التهديد بظهور مارد . وبينما رحت اتصفح الكتاب وجدت عددا من الثغرات تترصد لذاتى غير الواعية . ففى هامش أحد الأقسام الذى يصف سلحفاة يونانية ذات شغف بالفراولة قام صديقى بعمل رسم لسلحفاة يبلغ بوصة مربعة ، كان قد نسخها من كتاب مصور للحيوانات . وكشف هذا الرسم عن الجانب المرح من تعقله فى قمة ما به من رقة وطفولة . وبدت فقرة أخرى كان قد وضع تحتها "خطا" وكأنها ترسل لى رسالة بصوت صديقى : "فلنقل وداعا ، اذن" هذا ما بدأ يقوله ، لكن صوته ارتعش وتقطع ، وشقت الدموع طريقها خارج عينيه وسالت على الخدين المجعدين .

أنشج حتى كاد يخرج بطنه الكبير وهو يقول : "فلتصبنى اللعنة لو بكيت ! ولكن الأمر يشبه لى أن يودع المرء لحمه ودمه . اذ كنت أشعر وكأنك لحمى ودمى" . وبدا أن زوجتى ، التى كانت تقرأ كتابها ، الذى ألفه سوزيكى ، فى صمت أيضا قد وجدت الكثير من الأشياء التى تثير مشاعرها .

فقبل مضى وقت طويل ، تقدمت نحوى وبدأت فى الاستعانة بالقاموس الذى كنت استخدمه .

وبحثت عن بعض الكلمات الانجليزية التى اقتبسها سوزيكى ثم قالت :

"هل كنت تدرى أن سوزيكى يستخدم الكثير من العبارات الانجليزية فى اليوميات التى كتبها بينما كان فى شوزينجى يعانى من قرحة فى المعدة ؟ وكلها تبدو ملائمة لك فى هذه الأيام ، ياميتسو ؟ استمع : الصمت المعتل ، وحالة الهزال ، وعدم الألم ، والسلبية والطيبة والسكينة ، والهدوء .." .

قلت متعجبا : "انعدام الألم ؟ هل تظنين أن هذا يصف حالتى ؟ قد أكون أفرغت وغسلت تماما حتى لم تعد لدى طاقة سوى للطيبة ، ولكن هل تظنين حقا أنى فى حالة من السكينة؟" فردت "هذا هو ماتبدو على الاقل ، ياميتسو" . قالت هذا الكلام باصرار سكير فى حالة هدوء . فلقد كنت ثابتا أثناء الأشهر الماضية أكثر مما كنت عليه منذ أن تزوجنا" .

بذلت جهدا كى أراوغ هذه الرؤية المفزعة وما أثارته بداخلى باعتبارها قد بلغت الثبات الممكن أن يتأتى لحيوان بل والوصول فى نهاية الأمر الى سلبية النبات التامة .

فلقد قرأت فى احدى المرات ، أنه فى العصور الوسطى كان الرهبان الذين يريدون تحويل أنفسهم الى ممياوات ينقصون مما يتناولونه من غذاء بالتدريج ، بحيث إنه حين يكونون متأهبين الى الذهاب الى قبورهم لا يكون عليهم سوى التوقف عن التنفس فيبدأ اللحم فى الجفاف . وبنفس هذه الطريقة الى حد كبير لعبت دور الكائن غير الحيوانى أثناء اقامتى فى الحفرة فى خلال تلك التجربة التى مررت بها فى ذلك الصباح الباكر فى الخريف ، اذ كنت أتعمد دعوة الموت أن يحضر دون أقل قدر ممكن من الجلبة . وبمرور الوقت ، عدت الى الدنيا ، وأقنعت نفسى بأنى قد بدأت أحيا حياة عادية .

بدا أنى فى عينى زوجتى ، مازلت نفس الشخص الذى كنته حين جلست بلا حراك فى قاع الحفرة التى حفرت لصهريج الصديد ، وردفاى مبتلين وأمسك بالكلب بخجلى الذى تغلغل فى كل شعيرة فى جسدى ، باعثا أمواجا من البؤس الحار خلال الفأر الذى كنته .

قلت : هل تشعرين أنك بدأت حياة جديدة ؟
"لم تسأل وأنت تعلم أنى أشرب الويسكى كما كنت أفعل دائما ، ألست تعرف ذلك ؟ بل إنى لا اكاد أحتفظ بهذا سرا حتى اذا ما أردت ذلك ـ ذلك أن الويسكى الذى يحصل عليه المرء هنا فى الوادى من القوة بحيث إن الرائحة تفضح الشخص" .

لقد أسأت فهم سؤالى على أنه نوع من التهكم لا هدف منه سوى ايذاؤها ، لذا كانت كلمات متحدية كالأسلاك الشائكة .

"من المؤكد أن تاكاشى كان يعنيك أنت وليس أنا بوجوب البدء فى حياة جديدة ؟" .

قلت موافقا وأنا أنكمش على ذاتى : "أنت على حق . انها مشكلتى . غير أن ثمة شيئا واحداً اريد أن اتفحصه يتعلق بتناولك الخمر" .

"أظنك تريد أن تعرف ما اذا كنت أنظر الى ادمانى للخمر على أنه تجربة ستمر من تلقاء ذاتها أو يتحتم على أن أتعايش معه حتى أموت ـ كعلامة على الانهيار من الشباب الى الشيخوخة .

ندمت بحدة على ما تفوهت به . اذ كان يحمل من الضغينة قدرا أكبر حتى منى أنا . فصمتنا نحن الاثنين لبرهة ، ثم ثبتت على عينين حمراوين من الدموع ، ولو لمرة ، وليس من الويسكى ومليئتين بالكراهية الحزينة قالت : "حين يأتى الوقت ، لن يكون هناك مجال للرجوع ، فلربما سنكون أكثر عطفا ولو قليلا كل منا نحو الآخر" .

أجبتها : "لم لا نذهب ونشاهد الآخرين وهم يلعبون كرة القدم ؟" . متجنبا ملحوظتها باحساس من الاشمئزاز من الذات . قالت وهى تخطو عائدة الى المبنى الرئيسى : "اذن سأعد بعض لفافات الغداء لميتسو والفريق" ، "لو أنى فقط أقوم بعمل ما فان آفاق حياة جديدة قد تصبح أكثر لمعانا ـ وقد تنقشع شبورة الفضيحة فى الوادى قليلا ، ايضا" .

كانت بهذا تسخر منى ومن نفسها ، ذلك أن ما أشارت اليه على أنه (فضيحة) هو الشائعة التى كانت تنتشر فى الوادى أن زوجة ثالث أبناء

قلت : هل تشعرين أنك بدأت حياة جديدة ؟

"لم تسأل وأنت تعلم أنى أشرب الويسكى كما كنت أفعل دائما ، ألست تعرف ذلك ؟ بل إنى لا اكاد أحتفظ بهذا سرا حتى اذا ما أردت ذلك ـ ذلك أن الويسكى الذى يحصل عليه المرء هنا فى الوادى من القوة بحيث إن الرائحة تفضح الشخص" .

لقد أسأت فهم سؤالى على أنه نوع من التهكم لا هدف منه سوى ايذاؤها ، لذا كانت كلمات متحدية كالأسلاك الشائكة .

"من المؤكد أن تاكاشى كان يعنيك أنت وليس أنا بوجوب البدء فى حياة جديدة ؟" .

قلت موافقا وأنا أنكمش على ذاتى : "أنت على حق . انها مشكلتى . غير أن ثمة شيئا واحداً اريد أن اتفحصه يتعلق بتناولك الخمر" .

"أظنك تريد أن تعرف ما اذا كنت أنظر الى ادمانى للخمر على أنه تجربة ستمر من تلقاء ذاتها أو يتحتم على أن أتعايش معه حتى أموت ـ كعلامة على الإنهيار من الشباب الى الشيخوخة .

ندمت بحدة على ما تفوهت به . اذ كان يحمل من الضغينة قدرا أكبر حتى منى أنا . فصمتنا نحن الاثنين لبرهة ، ثم ثبتت على عينين حمراوين من الدموع ، ولو لمرة ، وليس من الويسكى ومليئتين بالكراهية الحزينة قالت : "حين يأتى الوقت ، لن يكون هناك مجال للرجوع ، فلربما سنكون أكثر عطفا ولو قليلا كل منا نحو الآخر" .

أجبتها : "لم لا نذهب ونشاهد الآخرين وهم يلعبون كرة القدم ؟" . متجنبا ملحوظتها باحساس من الاشمئزاز من الذات . قالت وهى تخطو عائدة الى المبنى الرئيسى : "اذن سأعد بعض لفافات الغداء لميتسو والفريق" ، "لو أنى فقط أقوم بعمل ما فان آفاق حياة جديدة قد تصبح أكثر لمعانا ـ وقد تنقشع شبورة الفضيحة فى الوادى قليلا ، ايضا" .

كانت بهذا تسخر منى ومن نفسها ، ذلك أن ما أشارت اليه على أنه (فضيحة) هو الشائعة التى كانت تنتشر فى الوادى أن زوجة ثالث أبناء

آل نيدوكورو مدمنة خمر عديمة النفع . ولقد سمعت ذلك بنفسها ، فى السوبر ماركت . فأوحت الطريقة التى اعترضت بها على ما قلت بأن ارادتها فى مكافحة انحدار الذى يطرأ عليها لم تتبدد بالكامل بسبب الكحول . وكان على أن أمد لها يد العون ، غير أن انحدارا مشابها كان ينذر بأن يسحقنى أنا أيضا. فركزت على الترجمة ، محاولا أن اتجاهل أصوات أجداد عائلتى الذين ملأوا المخزن بصيحاتهم "فأر فأر !" كان يبدو أنى على البعد قادر على تحمل صرخات تعكر الدم أو صوت كرة تركل ولكنها قد تكون ضوضاء فى رأسى .

وبعد الظهيرة ، حضر أصغر أبناء جين ، على غير موعد ، كى يقول ان الكاهن حضر من المعبد ليرانى . وحين عدت الى المنزل الرئيسى ، وجدت أن المطبخ ملبد ببخار الماء به رائحة عشب الخيزران . كانت زوجتى تنزل غلاية قديمة من فوق أحد البرادات الكبيرة على المدفأة بينما كان يراقبها اثنان من أبناء جين صاح أولاد جين قائلين لزوجتى وهم يحذرونها ، بينما كان خداها وأذناها يشتعلان بالحمرة حين مدت يدا الى محتويات الغلاية قائلين : "ستحرقين نفسك !" وحين عادت أصابعها الى شفتيها زاروا بضحك يدل على حسن النية . فقلت بشعور بالراحة وأنا أنضم الى الدائرة المحاطة بالبخار حولها : "ماذا تفعلين ؟" .

"زلابية الأرز بأوراق شجر الخيزران لقد أحضر الأطفال الأوراق لى من الغابات" .

بدا أن هذا الطعام قد تم طهوه على نحو جيد . "أتذكرهم يا ميتسو ؟"

قلت "لقد اعتاد أهل الوادى أن يأخذوها حين كنا نذهب لقطع الأشجار من الغابة . لقد كان والد جين فى الأصل يعمل فى قطع الأخشاب لذا كانت وصفتها حقيقية" .

وأعطت كل منا واحدة من زلابيتها التى كانت فى حجم قبضة رجل مرتين فقمت أنا والكاهن بتقطيعها على أحد الأطباق الى قطع قبل أكلها ، أما أولاد جين فقد أمسكوا بالزلابية فى أيديهم ، وأخذوا يدحرجونها على أكف مبتلة ، وهم يقضمونها بمهارة من الحواف مما أفسد من شكلها .

كانت تتكون من كرات من الأرز الشهى أعطيت طعما بسبب صلصة الصويا محشوة بعجينة عيش الغراب الطازج . وكانت أوراق شجر الخيزران التى لفت فيها جافة ومائلة الى البياض من الحواف ولابد أن الأطفال قد بذلوا قدرا كبيرا من الجهد وقدرا شديدا من الخوف كى يقوموا بجمعها فى هذا الموسم .

وحين شاهدت الطريقة التى كانوا يأكلون بها الزلابية ، لم يكن فى وسعى أن اصدق أن كره أطفال الوادى التقليدى دخول الغابة فى الشتاء قد تغير أيضا .

قلت على سبيل النقد : "هذه الزلابية جيدة غير أن بها طعم الثوم" . حين كنت أعيش هنا لم يكن الناس يضعون شيئا قط فى أى طعام ، ناهيك عن الثوم . "كانت تأخذ ما تبقى من الغلاية ناقلة أياها فى صناديق طويلة فارغة كانت مألوفة لدى منذ الطفولة . لقد أخرج كلا من الغلاية والصناديق من المخزن بناء على اقتراح جين .

صاحت. "ماذا ؟ لقد اقترحت على جين أن أضع بعض الثوم بصفة خاصة ، لذا أحضرت خزينا حين ذهبت لشراء المرتدلة" .

قال الكاهن : وفى يده كسرة من الطعام ، "هذا نموذج للطريقة التى تغيرت بها الحياة فى القرية . فمنذ الحرب ، لم يلعب الثوم أى دور فى حياة القرية على الاطلاق . حيث لم يكن الناس يعرفون أن هناك كل هذا القدر من النبات . ولم يكتشفه القرويون الا حين بدأت الحرب ، اذ عرفوا عنه القليل بسبب المستوطنة التى بناها الكوريون الذين كانوا يعملون فى الغابة . لقد عرفوا الثوم لأول مرة بسبب احتقارهم لأناس أمكنهم أكل مثل هذه الجذور ذات الرائحة . "أنت تفهم ما أعنيه ، أليس كذلك ؟ياميتسو . حسنا حين أخذ أهل القرية الكوريين كى يقوموا بأعمال السخرة فى الغابة ، أخبروهم عن عمد بعض الهراء عن عدم السماح لهم بدخول الغابة ما لم يأخذوا معهم بعض الزلابية . وكانت هذه هى طريقتهم فى أن يجربوا تعاليهم . فبدأ الكوريون أيضا فى صنع الزلابية ، وراقت لهم فكرة وضع بعض الثوم كى يلائم ذوقهم . وكان لهذا تأثير عكسى على القرويين ، ذلك أنهم بدأوا فى

استعماله لاعطاء مذاق للزلابية التى كانوا هم أنفسهم يصنعونها . وهذا لا يدل على شىء سوى أن افتقار الأهالى الى المبادىء سبب تغيرات فى عادات الوادى . اذ ان القرية لم تعتد أبد على استخدام الثوم كوسيلة لاعطاء نكهة ، أما الآن فهو أكثر السلع مبيعا فى السوبر ماركت .

ردت زوجتى بشكل عدوانى : "أنا لا يهمنى ذلك ، طالما يعمل الافتقار بشكل جيد فى ما أقوم بطهيه حتى اذا كنت أسير ضد التقاليد" .

قلت : "لقد عمل هذا الافتقار بشكل جيد . واذا سمحت لى بالتقييمات العاطفية المعتادة ، فهى ليست أفضل مما اعتادت والدتى أن تطهوه" .

قال الكاهن وهو يستدير نحوى : "لكنى لم آت هنا من أجل وجبة مجانية . واستطرد : المسألة هى أنى عثرت على يوميات أخيك الأكبر التى تركها "س" . معى ، وعليه قمت باحضارها" .

قلت : "تعال نتحدث فى المخزن . فأنا لست ذاهبا الى تدريب كرة القدم ، لذا ليس لدى ما أفعله" .

لم أكن أقوم بمجرد محاولة التسرية عنه ، بل كنت حقا أريد أن أتحدث . "هل حدث أن كنت مهتما بانتفاضة عام ١٨٦٠ ؟" .

"نعم . لقد درستها لفترة قصيرة ووضعت بعض الملحوظات عنها بنفسى . لعلك تعلم أن ثانى أهم دور فى الانتفاضة ـ بالطبع بعد الدور الذى قام به أجدادك ـ قد قام به أحد أسلافى فى المعبد ، رغم أنه لا يوجد من يمت له بصلة دم .

اخذت زوجتى تعطى تعليمات لأولاد جين ، متجاهلة حساسية الكاهن المنشغل بأموره . اذ كان عليهم أن يأخذوا بعض الزلابية الى أمهم وأن يخبروا هوشيو ، الذى كان فى فناء المدرسة الابتدائية ، أن يحضر لأخذ الطعام فى الستروين . ثم صاحت بتحد تام فى اللحظة التى كنت أنا والكاهن نغادر المبنى الرئيسى قائلة : "سأذهب كى أشاهد التدريب على كرة القدم بعد الظهيرة ياميتسو . اذ إنى أريد أن أسمع ماسيقولونه عن الزلابية" .

وانطلقت أنا والكاهن ، ونحن نحس بالاحراج الى المخزن ، لقد كان أخى الأكبر كائنا منعزلا ، عادة ما أقام بعيدا عن المنزل ، اما فى دار ضيافته فى المدينة أو فى مساكن فى طوكيو ، وكان نادرا مايعود حتى أثناء العطلات . ولم يكن لدى ذكرى محددة الوضوح سوى الانطباع غير السار الذى خلقه كبار القرية الذين أخذوا يلقون عظات أخلاقية عن عدم جدوى الاستثمار فى تعليم الابن تعليما عاليا اذ إنه قد توفى بعد ترك الجامعة بعامين . اخذت اليوميات . وداخلنى شعور بأن الكاهن انتابته خيبة الأمل الى حد ما لأنى لم أبدأ فى قراءته فى التو واللحظة . وحقيقة الأمر أن شهادة أخى الأكبر كانت أبعد من أن توحى لعقلى بالفضول النشط ، بل إنها ، جعلته يتجمد خوفا من نذر مشئومة وان كانت غير دقيقة بعد . عزمت على أن أتصرف وكأنى غير مهتم باليوميات تماما فقلت : اعتادت أمى على أن تقول إن جدنا الأكبر أبعد الدهماء عن طريق اطلاق النار من بندقية من نافذة الطابق الثانى بالمخزن . وهذه النافذة ، فى الواقع ، لها شكل ثغرة ، وهذا يجعل القصة لا تبدو محتملة الوقوع حتى أميل على العكس ، الى الشك فى صحتها .

فقالت : "ماذا تعنى نوع البندقية التى أحضرها جدنا الأكبر من كوتشى" ؟

"أنى لأعجب ما اذا كان من الممكن أن فلاحا يعيش فى عام ١٨٦٠ يمكن أن يتسلح ببندقية" .

قال الكاهن "ان لفظة فلاح لا تكاد تنطبق على هذه الحالة ذلك أن جدك الأكبر كان أغنى سيد فى المنطقة ، فلا غرابة فى أن يمتلك بندقية" . والأمر الذى يبدو أكثر احتمالا مع ذلك ، أنه لم يحضرها من كوتشى بنفسه ، وانما زوده بها شخص ما من كوتشى تسلل الى القرية قبيل بدء أعمال الشغب .

"لقد كانت نظرية أبى أن رجلا من كوتشى كان يقيم فى المعبد وحث جدك الأكبر واخيه من خلال كاهن تلك الفترة كى يبدأ أعمال الشغب . وقد يكون هذا الشخص ساموراى من عشيرة نوزا غير أنه لا يوجد دليل قاطع

على ذلك . وفى كلتا الحالتين فقد عقد صلة بينه وبين جدك الأكبر وأخيه ، ومن المحتمل أن يكون قد جاء عبر الغابة فى ملابس أحد الرهبان . فى ذلك لم يكن الوادى متأثرا بعوامل القلقل بل كل العشيرة . مما يكون قد أعطى مجالا لأنشطة أحد العملاء أرسلته قوى توجد فيما وراء الغابة ، نوع من القوى التى يمكن أن تكسب من أى شىء من المحتمل أن يعكر صفو النظام الحاكم . أتصور أن الكاهن وجدك الأكبر كانا يتشاطران الرأى فى أن شيئا لن يريح فلاحى الوادى سوى قيام انتفاضة . "لم ينحز الكاهن الى أى من الجانبين ، بينما كان السيد فى جانب النظام القائم ـ غير أن دمار الجماهير كان يعنى هبوطهما أيضا . لذا فان السؤال الحقيقى الذى كان ينغص عليهما حياتهما ، هو مانوع الانتفاضة التى يجب اثارتها وأين .

وكما ترى فان أسهل شىء هو ايجاد متنفس للطاقات العنيفة التى كانت آخذة فى الاحتشاد . وأخذت زوجتى فى اعطاء التعليمات لأبناء جين ، كى تتجاهل ردود أفعال الكاهن شديد الحساسية ازاء نفسه .

لقد قامت الانتفاضة قبل أن تسوء الأمور جدا حتى أن الهجوم انصب على السيد نفسه ، ولكى يجعلا أعمال العنف فى أقل مستوى ممكن فى الوادى بينما يحولون الآخرين الى مدينة القلعة .

أما الآن ، فان انتفاضة ما فى حاجة الى مجموعة من الزعماء غير أنه مهما كانت درجة النجاح التى يمكن أن تحرزها انتفاضة كهذه ، فان زعماءها من المؤكد أن يتم القبض عليهم ويتم اعدامهم .

ومن هم الذين يختارون مجموعة يتم القبض عليها وتعدم ومن هم الذين يكون لهم أن يختاروا هذه الجماعة التى سيكون قدرها فى نهاية الأمر أن يضحى بها ومع ذلك يمارسون التحكم فى المزارعين ، ليس فى الوادى فحسب وانما فى المنطقة بأثرها حتى مدينة القلعة أثناء الانتفاضة ؟ وكانت هذه هى النقطة التى لاحظها الناس بالنسبة لفرقة الشباب التى كان أخو جدك الأكبر يقوم بتدريبها .

ثم استكمل كلامه قائلا "يبدو لى أن الأخ كانت لديه اتفاقية سرية بأن

يهرب الى كوتشى بعد الانتفاضة ويعبر من هناك الى أوزاكا أو ايدو لقد استمعت الى نظرية السكان فى هذا الشأن أليس كذلك ؟ وهى أن شقيق جدك الأكبر غادر الغابة وانتحل اسما مختلفا ، وصار مسئولا كبيرا فى حكومة العودة الى النظام السابق ؟"

قلت : "هذا يعنى ، أنه كان خائنا منذ البداية . وفى كلتا الحالتين ، يبدو أنى أنحدر من سلالة من الخونة ؟"

فرد قائلا "كيف يمكنك أن تقول ذلك ياميتسو ؟ ذلك أن السبب الذى دفع بجدك الأكبر أن يذهب الى حد اطلاق النار من بندقيته أثناء الاغارة أنه بدأ يشك فيما اذا كانت الاتفاقية مع شقيق جدك الأكبر بعدم اشعال النار فى المخزن ستحترم حقا . وحتى اذا اتفقنا على أنه كان لابد من تدمير المنزل الرئيسى - لأن جدك الأكبر قد يعد مسئولا فى نظر مسئولى العشيرة لو أن منزل نيدوكورو لم يهاجم على الاطلاق - بل إنى أشك فى أن هذا التوجس هو الذى جعله يطلب ان يحضر السلاح من الخارج دون أن يسلمها للشباب . كذلك فان الشباب ، فى الواقع قد احتلوا المخزن فيما بعد . ونتيجة للانتفاضة ، التى استمرت لمدة خمسة أيام وليال ، تم الغاء نظام الضريبة المقدمة تماما كما طالب بذلك المزارعون ، كما أعدم الباحث الكونفوشيوسى الذى أوصى بها وعقب نهاية الانتفاضة احتمى شقيق جدك الأكبر والجماعة التى تشكلت حوله فى المخزن وتحدوا ضباط العشيرة الذين كانوا يقومون بالتحقيق . ولما كانوا مسلحين ، كانوا هم الذين خدشوا الأشغال الخشبية تاركين علامات السيوف التى طالما أوحت لعقلى حين كنت صغيرا بخيال التعطش للدماء وذلك من فرط الاحباط الذى أصابهم بسبب حصارهم فى المخزن . وبما أن المزارعين لم يقدموا طعاما وماء للجماعة التى كانت تتزعمهم حتى اليوم السابق ، فوجد الرجال المحاصرون أنفسهم معزولين . فاستسلموا وتم اغراؤهم بالخروج من المخزن ، وقطعت رءوسهم على المرتفع الصغير الذى يشكل الساحة أمام مكتب القرية .

استطرد : كان جدك الأكبر مسئولا عن خداع الشباب العطاش الجياع بحيث خرجوا من المخزن . اذ جعل بنات القرية يرتدون أفضل ملابسهن

وأنشأ مطبخا مؤقتا أمام المخزن ، ثم أحضر المحققون لالقاء القبض على الشباب بعد أن راحوا فى نوم كنوم المخمورين . وظللت جدتى تروى القصة بزهو كدليل على اتساع حيلة أسلافها . أذكر أن أمى قالت أنها حين جاءت الى الوادى لأول مرة كعروس أن احدى الفتيات التى استعملت فى خدعة جدى الأكبر كانت لا تزال على قيد الحياة .

قال لا تظن أنى اقيم تشابها مقحما بالربط بين عام ١٨٦٠ وصيف عام ١٩٤٥ .

"هل تعنى أن "س" كان متضايقا لأن شقيق الجد الأكبر كان الزعيم المتمرد الوحيد الذى نجا من الاعدام ، وقررا أن يقتل وحده فى الاغارة التى شنت على القوة الكورية ، كى يقدم النقيض ؟ لو كان الأمر كذلك ، فسيكون هذا هو أرق تفسير الآن لموته" .

قال الكاهن الشاب باحراج باد اذ احمر الوجه الصغير تحت الشعر الذى ابيض قبل الأوان ، "لم أكن صديقا مفيداً جدا . يجب أن تقر بذلك .." .

قلت : "ان تاكاشى يشبه "س" . اذ يبدو أنه يريد أن تتأثر أفعاله بقضية ١٨٦٠ .

فمثلا بدأ اليوم فى جمع شباب الوادى معا للتدريب على كرة القدم ، لمجرد أنه معجب بالطريقة التى قطع بها أخو جدنا الأكبر مكانا فى الغابة وجعل منه أرضا للتدريب كى يعد الشباب للقتال" فأجاب الكاهن الشاب بعد أن استعاد ابتسامته المعتادة : "غير أن نوع الانتفاضة الذى حدث عام ١٨٦٠ لن يكون ممكنا اليوم وقد مضى الزمن الذى يمكن أن تحدث فيه مباراة قتل بين المستوطنة الكورية وأهل الوادى دون أى تدخل من الشرطة كما حدث بعد الحرب . ففى عصر مسالم مثل العصر الحاضر ، لن يستطيع أحد حتى تاكاشى أن ينصب نفسه زعيما لأعمال شغب ، لذا فلا ينبغى أن أقلق قلقا حقيقيا" .

قلت وأنا أستغل الابتسامة كى أخرج أحد قرون الاستشعار : "على فكرة . هل هناك شىء فى هذه اليوميات يسىء الى رجل مسالم ؟ لو وجد

مثل هذا الشىء فيستحسن ان اعطيها لتاكاشى .

أخذت اليوميات من فوق كتاب بينجوين الخاص بصديقى الميت ، واضعا أياها فى جيب معطفى ، ونزلت مع الكاهن الى ملعب المدرسة الابتدائية حيث كان تاكاشى يتدرب على كرة القدم مع رفاقه الجدد . وفى ريح شديدة البرودة هبت بلا هدف على الوادى تحت سماء زرقاء ، كان الشباب يركلون الكرة فى صمت ، وبحدة خانقة فى الهدف .

وقف أهل القرية حول حافة الملعب غارقين فى صمت جاد متجهم على عكس الحيوية المرحة التى تميز أطفال المدينة وهم يشاهدون الرياضة . وكان تاكاشى وهوشيو يقفان فى الوسط يعطون تعليمات يتحركون بسرعة حول المكان ، ولم يقوما بأى حركة لايقاف التدريب ، حتى حين أشرنا لهما أنا والكاهن . ومالبث ان جاءت زوجتى وموموكو بالستروين كى يتحدثا الينا وقاموا باستدارة واسعة حول المجموعة التى كانت فى الملعب .

قلت : "أليس هذا منظرا مرعبا ؟"

"لماذا يلقون بأنفسهم فى خضمها بكل هذا الحماس فى الوقت الذى لايبدو عليهم حقا أنهم يستمتعون بها" .

"ان الشىء الوحيد الذى يعرفونه هو أن يلقوا بأنفسهم فى أى شىء .

قالت زوجتى محاولة ان ترفض وجهة نظرى : "سنأتى ونشاهد التدريب كل يوم من الآن فصاعدا" .

تدحرجت الكرة خارج دائرة الشباب فى اتجاهى . فحاولت ركلها كى تعود اليهم ، غير ان قدمى لم تمس سوى الهواء ، ودارت الكرة بجنون قبل أن تستقر على بعد مسافة قصيرة فقط .

راقبت المرأتان اللتان كانتا فى الملعب الكرة بين قدمى بعدم مبالاة تام ، دون أى ابتسام .

ابتسم الكاهن ابتسامته المعتادة وكأنه يمسح عنى حرجى ، غير أنها لم تفعل سوى زيادة غضبى .

وبعد العشاء فى تلك الأمسية ، رحنا جميعا نرقد حول المدفأة ، اتجه تاكاشى الى ، ورغم أنه أخفض من صوته.حتى لا تسمعه زوجتى ، التى كانت مخمورة ، قال بنغمة تنم عن برودة العاطفة : "ميتسو ـ هناك أشياء فظيعة فى هذه اليوميات" .

قبل أن أسمع كلماته التالية ، نما فى داخلى شعور بالتقزز .

وفى احدى الصفحات كتب "على جزيرة ، من الصواب أن تغتصب امرأة شابة طالما اتبع الشخص الخطوات الصحيحة بعد ذلك ـ والكلمة الصحيحة التى يعنيها هى قتلها بالطبع . وفى الصفحة التالية، يمكنه أن يكتب بنبرات شفوية عالية ، فيقول ان من يستطع أن يصعد جبل "أوجى" فلابد أن يبدأ من أول محطة . ثم يصف بالتفصيل فى بيت حين أعدم قائد الوحدة أحد الأهالى الذى زعم أنه جاسوس .

قال الكاهن : من الظاهر أن قائد الوحدة الذى أثره فى البداية قال إنه كانت لديه وسيلة تجنيد ، ثم أخذ الأمر على عاتقه وحين أدار سيفا يابانيا لأول مرة فى حياته قطع رأس ابن البلدة ، أتريد قراءتهاياميتسو ؟" .

فقلت بقسوة : "لم أكن لأهتم بأقل منك بيومياته ياتاكا ولا أريد قراءتها .

قال : انها شىء يستحق الاهتمام به .

الفصل السابع

موكب من الماضى

حين استيقظت فى الصباح التالى ، أدركت أننى كنت أنام وحدى كما كنت أفعل فى طوكيو ، وأنى اتقلب استجابة للآلام المتناثرة بين أجزاء جسدى المختلفة ، وبذلك الوجع البائس فى أعماق ضلوعى دون أن يداخلنى الشعور بالذعر الدنىء من أن ترانى زوجتى لو كانت ترقد الى جوارى ، مما أعطانى احساسا جسديا مؤكدا بالراحة . كنت أرقد بكل ما بى من ضعف باد تماما للعيان دون اكتراث بعيون الآخرين كما كنت أفعل حين كنت أنام وحدى .

فى البداية ، حاولت تجنب التعرف على الذكرى التى كانت الإلهام الأصلى لذلك الوضع الذى اتخذته .

أما الآن فقد سلمت أنها كانت ذكرى ذلك الشىء الغريب شديد الحطة الموجود فى كوخه الخشبى ، ذلك الشىء الذى نظرنا إليه نظرة تخلو من أى تعبير حين ذهبنا الى المؤسسة كى نسترد طفلنا .

تساءل الطبيب عما اذا كان الطفل لن يموت بفعل الصدمة اذا ما تغيرت بيئته مرة أخرى . الا أن السبب الحقيقى الى حدا بنا أن ندعه هناك هو أننا قد نموت من فرط الاشمئزاز والصدمة التى يوحى بها الينا ذلك الشىء المرعب . فقد كان سلوكنا ، غير مبرر ، فلو أنه مات ، وعاد الينا كشبح ضعيف ضائع كى يفترسنا حتى الموت ، لم أكن أنا شخصيا لأقوم بأى محاولة للنجاة .

فى الليلة الماضية ، اذ كرهت مؤكدا زوجتى ، فكرت أن تهجع مستخدمة الأبواب المنزلقة مما جعلها تنام الى جانب المدفأة مع تاكاشى وحرسه الشخصيين . وجعلها عقلها الذى أشعله الويسكى تفكر مليا فى حوارنا الذى دار فى المخزن عن الحياة الجديدة والتحلل ، والموت . ظل هذا الحوار يحمل مضامينه الا أننى اتخذت موقفا حاسما . فألححت عليها قائلا : « فلنذهب الى الفراش ! ويمكنك الاستمرار فى الشراب هناك . غير أنها رفضت بصوت أكثر وضوحا مما أردت نظرا لطبيعة الموضوع ، فرغم أنها كانت مخمورة تماما الا أنها شاءت أن تتحدث بصوت مرتفع لفائدة تاكاشى والآخرين . وقالت : « أنت تتحدث عن العودة الى الحياة العادية وبأن يكون لنا طفل آخر وكأنك ليست لك علاقة مباشرة من أى نوع بالأمر . مع أن الأمر يعنى أن تبدأ من جديد أيضا . وهى مسألة ليست لديك أى نية فى القيام بها . ولماذا ينبغى على أن أطيع أوامرك وأزحف بين البطاطين كحيوان مدلل وفى ؟ »

تركتها وذهبت وحدى للفراش كى أحصل على شعور خاص بالراحة .

لم يبد تاكاشى أى بادرة للتدخل فى صراعنا التافه . أما عنى ، فلم تكن بى رغبة فى أن أتاثر بهذا الشبح الذى هو أخانا ، كما لم أشأ لليوميات أن تزعجنى على الأخص .

فضلت أن أتجاهلها باعتبار ذلك سردا عاديا عن زمن الحرب وتجاربه . وكان من الافضل أن أذهب الى الفراش وفى خيالى فجوة أن أستحضر شكل شقيقنا وقد تفجر منه الدم فى ميادين القتال . ولأول مرة منذ عدة شهور ، ألقيت برأسى داخل البطاطين وتشممت دفء جسدى .

كنت أمرغ نفسى فى أمعائى كى أغلق دائرة مريحة من لحمى . وكان الوجع الخفيف فى أجزاء جسدى المتعددة وكذلك الاحساس بالافتقار الى شىء قد تحول الى شعور غامض باللذة ، أما الألم والاحساس بالافتقار فكانا على الأقل شيئين يخصانى وحدى .

احتفظت برأسى مختبئا داخل الظلام الدافىء فى البطاطين متحملا

صعوبة التنفس ، محاولا أن أتصور نفسى ميتا بسبب تسلل رائحة جسدى فى فتحات أنفى ورأسى مدهونة باللون القرمزى وشرجى محشو بالخيار . وأخذت خطوط المنظر العريضة تتشكل كلما تزايدت حدة واقعيتها ...

وحين كنت على حافة الاختناق وأصبح وجهى منتفخا بالدم دفعت برأسى بقوة الى الهواء اللطيف خارج البطاطين كى يحيينى صوت تاكاشى وزوجتى وهما يتحدثان بنبرات منخفضة وراء الأبواب المنزلقة .

وكان صوت تاكاشى به نفس خفة ونشاط الليلة السابقة . وتمنيت لو أن زوجتى كانت تصغى ووجهها متجه الى الظلال : ولم يكن ذلك راجعا الى أنى أردت أن أحتفظ بعلامات التدهور سرا وقد صارت واضحة على وجهها المستيقظ قريبا ، ولكن فكرة أن عينى أخى تقحم هكذا فى (عائلتنا) كان لها أثر مدمر حتما على احترامى لذاتى .

كان يتحدث عن الذاكرة ، وعالم الأحلام وماشابه ذلك من أشياء . وبالتدريج تآلفت الشذرات فصارت نواة احساس ذكرنى بالجدال الذى دار فى الستروين .... خائب الأمل التشوهات أصدقك القول لم يكن لى أن أجيب . أتذكرين ؟ لقد أفزعنى هذا من أى نضال وتركنى فى حالة من الشك ومساءلة الذات ، ولكن بم أخبرنى فريق كرة القدم ؟ .

« هل شفيتى باناتسومى ؟ » « ... تاكا ان ذاكرتك .. من ذاكرة ميستو » . قالت ذلك زوجتى بصوت مسطح لا حياة فيه . كان الصوت دليلا أن زوجتى كانت تركز على ماكان يقوله ، دون أدنى شىء يدل على عدم الانتباه .

« كلا لست أقول أن ذكرياتى تحسب الحقائق . كذلك لم أقم بتشويهها أيضا . ففى انهاية الأمر ، من المؤكد أنه كانت لى جذور هنا فى وقت من الأوقات . لذا فان انهماكى فى مطامح المجتمع فى الوادى من الصعب تسميتها نزوة فى شخصيتى ، أتظنين ذلك ؟ فبعد أن ابتعدت عن القرية ، ترابطت الذكرى مع حلم المجتمع كى يشكلا نوعا من الثقافة النقية فى عقلى .

فلقد رأيت بالفعل ، وأنا طفل فى مهرجان الهياكل العظمية روح « س . » يرتدى سترة طالب البحرية يقاتل رجال المستوطنة الكورية على رأس جماعة من الشباب ، الا أنه ضرب حتى الموت فى النهاية ، وجر من سترته وترك راقدا ووجهه نحو الأرض بسرواله القصير .

لقد اخبرتك أن ذراعيه كانتا مرفوعتين وكأنه يرقص وساقاه متباعدتان كساقى فارس يتخطى الحواجز . أخذ مباشرة من لحظة سكون مفاجئة فى رقصة النيمبوتسو وهو يقوم باحدى قفزاته القوية .

كانت الرقصة تؤدى فى وضح النهار فى منتصف الصيف لذلك فان ضوء الشمس الأبيض الذى يضىء ذاكرتى حتى هذا جزء مما مررت به فى مهرجان الهياكل عظمية حقيقى . فكما ترين ، لم تكن ذكرى للاغارة الحية فى المستوطنة الكورية ، وانما تجربة فى عالم الرقص ، حيث تعاد فيها الفصول فى شكل مرئى من خلال الانفعالات الجمعية للناس فى الوادى . ولقد أخبرنى الأولاد فى الفريق أنه حتى بعد أن غادرت الوادى ، رأوا روح « س . » تقوم بنفس الرقصة وكل مافعلته هو مزج رقصة النيمبوتسو فى عمليات ذاكرتى مع مناظر فعلية للاغارة ، ويعنى هذا بالتأكيد أنه مازالت لدى جذور تربطنى بالعواطف الجمعية للوادى .

لابد أن ميتسو قد شاهد الرقصة معى حين كنت طفلا ، وباعتباره أكبر سنا ، فلابد أن لديه ذاكرة أكثر وضوحا من ذاكرتى ، الا أنه أثناء الجدال الذى دار فى السيارة تعمد الهدوء الذى يلائم منطقه . فلديه جانب ماهر يحميه . فسألت زوجتى : « كيف كانت رقصة النيمبوتسو ، ياتاكا ؟ وهل تعنى كلمة أرواح ، أرواح الموتى ؟ غير أنه قد حدث لى انطباع أنها استوعبت معنى ماكان يقوله ، كما فهمت اكتشافه للروابط التى تربطه بعواطف الوادى فى أحلامه .

رد قائلا : « لم لا تسألين ميتسو ؟ فسيغار لو أنى الشخص الذى يخبرك بكل شىء عن الوادى انى أفكر فى أن أحضرهم ليعيشوا هنا أثناء التدريب . لقد كان دائما من عادات الوادى أن يتجمع الشباب فى العام الجديد ويبقوا لبضعة أيام .

وبعد ظهر ذلك اليوم ، طلبت منى أن أخبرها عن عادات مهرجان الهياكل العظمية فى الوادى . ومن الطبيعى أنها لم تذكر كلمة « غيرة » التى استعملها تاكاشى ، لذا صمت بدورى بخصوص تسمعى لحوارها معه فى وقت مبكر من ذلك الصباح وأخبرتها عن رقصة النيمبوتسو .

كان التشوزبى أكثر الكائنات الشريرة التى نزلت على الوادى جالبة المتاعب معها ، هو أكثرها تمثيلا . فهو عدو يرفض أهل الوادى التعامل معه بأى شكل ، وكان نوع آخر من الشر يزور المنخفض أيضا أو قل الأشرار الذين لم يمكن التعامل معهم بالرفض البسيط والطرد ماداموا كانوا يعيشون بين أهل الوادى أنفسهم .

وأثناء وباء التيفوس قرب نهاية الحرب ، تم تأدية رقصة مدهشة تكريما (للأرواح) فمن بين موكب مهرجان الهياكل العظمية فى ذلك العام نهض شخص فى منتصفها يشبه الغبار الكثيف الأبيض مما سبب ذعرا شديدا لدى أطفال الوادى .

وربما كان ذلك الشكل يمثل روحا شريرة لقملة ، بالطبع ليس قملة حقيقية ، وانما روح أحد أسلاف القرية الذى عاش حياة قاسية ، أو روح رجل طيب مات ميتة تعسة ، مظهرا نفسه ذلك العام على هيئة قملة كى يجلب المصيبة على الوادى .

كان هناك قروى واحد خبير فى رقصة النيمبوتسو وكان يكرس دائما عبقريته لاعداد موكب المهرجان . وكانت مهنته صنع التاتامى (وهى عبارة عن نوع من البساط فى ارتفاع الحاشية ويصنع من نوع من النبات الجاف) فى الأوقات التى يكون مشغولا فيها فى ورشته ، كان ينادى بصوت مرتفع تملؤه الاثارة على المارة كى يطلب رأيهم فى فكرة أو أخرى .

حين كان يصل موكب المهرجان الى الحديقة الأمامية بمنزلنا تتشكل حلقة رقص فيصعدون الى المخزن الى أن يعطى كل شخص شيئا يأكله ويشربه . كنت فى وضع متميز بالمقارنة مع غيرى من اطفال الوادى .

« سألتنى هل بدأت عادة أداء رقصة النيمبوتسو مع الانتفاضة ؟ »

« كلا ، بل كانت توجد قبل ذلك ـ وأتصور أن (الأرواح) كانت موجودة فى الوادى منذ استقر الناس هنا . والعقود عديدة بعد الانتفاضة ، لم تكن (روح) أخى جدنا الأكبر ليست سوى روح مبتدئة ، ولقد أشار أحد دارسى الأدب الشعبى الى (الأرواح الجديدة) على أنها مجرد تلاميذ أو مبتدئين وتنطوى الرقصة على عدد من الحركات العنيفة وارتداء أزياء معينة . انها عمل شاق . فبالاضافة الى تدريب (الأرواح) نفسها لابد أنها تشكل جهدا عنيفا على شباب القرية الذين يرتدون الأزياء للعب الأدوار المختلفة . خاصة حين يكون هناك نوع أو آخر من المتاعب يؤثر فى الحياة فهم فى هذه الحالة يرقصون بشكل مغالى فيه » .

قالت بشكل ملتو : « أود أن أراهم فى احدى المرات » .

« سترين تاكاشى والآخرين فى تدريب كرة القدم كل يوم ، وعندئذ سيكون لدينا شكل جديد من رقصة النيمبوتسو فى حد ذاته . حتى لو أن (الأرواح) لن تتلبسهم وتعطيهم الكثير من التدريب وتصلب أعوادهم ، وبذلك يتحقق نصف أثر الرقصة على الأقل . وعلى أسوأ تقدير ، فان هذا يعنى أنه بعد كل هذا التدريب على كرة القدم لن تنقطع أنفاسهم حين يؤدون الرقصة فى الصيف . وكل ما آمل فيه أن تستهدف دروس تاكاشى فى كرة القدم أساسا تحقيق أهداف سلمية ، وليست من نوع التدريب الذى كان أخو جدنا الأكبر يقدمه للشباب على أرض الاستعراض التى مهدت فى الغابة ... »

فى اليوم السابق على رأس السنة ، رأيت دليلا فعليا على أن تدريب تاكاشى كان له أثر مفيد على الحياة فى الوادى . وبعد الظهر ، كان الهواء الدافىء يتسلل من خلال النافذة المثبتة فى جدار المخزن الصلب ، ويلفنى كماء فاتر مذيبا الكتل الكبيرة من الجليد رأسى وكتفى وجانبى حتى صرت شخصا يحمل قاموسا وكتابا (طبعة بينجوين) وقلما تاركة شخصا يندفع فى الترجمة وطرأ على ذهنى ، بشكل غامض ، بينما كنت أتقدم فى مهمتى لو أن الأمور صارت على هذا النحو قد أحيا الى أن أموت بفعل الشيخوخة ، دون أن أكابد قط معاناة العمل ، ودون أن أقوم بأى عمل ذى

أهمية خاصة . وفجأة صدمت أذنى الدافئتين الخاملتين عبارة : « رجل فى النهر » .

أيقظت جسدى المبتل بالماء مستندا على شماعة الوعى نزلت السلم مسرعا محدثا جلبة . ومن المعجزة أننى لم أسقط . وعند فى أسفل السلم . انتابنى شعور بما فعلت ، فتوقفت راجعت نفسى : اذ من غير المحتمل أن ينجرف أى شخص فى منتصف الشتاء حين يكون النهر جافا تقريبا . سمعت بالقرب منى أصوات أطفال جين يتردد صداهم بنفس العبارة : « رجل فى النهر ! » وعندما خرجت الى الحديقة الامامية شاهدت الأولاد يجرون ككلاب الصيد وراء فريستهم ، ثم اختفوا عن النظر . اثارت مهارتهم التى احتفظوا بها وهم يجرون ، من على الطريق ذكريات حية عميقة داخل نفسى ، ذكريات أقدام تجرى وناس يغرقون . وفى كل عام ، فيضانات فى أواخر الصيف ، وأوائل الخريف وخاصة بعد خلع الأشجار أثناء الحرب بلا تمييز .

ولم تكن هناك ثم طريقة لانقاذ الضحية وهو ينجرف الى أسفل مجرى الماء . فيروح الجميع يتسابقون على طول الطريق الحصى ، عابرين الكوبرى على أمل لاجدوى منه فى اللحاق بالفيضان فى حركته السريعة . وتستمر المطاردة الى أن ينهار الرجال من فرط الاجهاد . وفى اليوم التالى ، حين يهدأ النهر وينخفض يتحرك الكبار الذين يرتدون ملابس رجال الاطفاء بخمول كى يضيعوا ما استطاعوا من وقت ، يبدأون فى الرحلة الصعبة غير المؤكدة منقبين بعصى من الخيزران حتى يكتشفوا الجثة الغارقة .

وكنت قد اكتشفت بالفعل أنى كنت مخطئا فى أمر الصيحة بيد أن كل مابقى هو أنها أيقظت داخلى ـ رغم الاسترخاء الذى كان عملى فى المخزن قد سببه ـ أنى كنت تقريبا عضوا فى الوادى . فأثارتنى هذه الفكرة . فقررت أن افترض أنى سمعت بالفعل صيحة « رجل فى النهر » كى أخفف من حدة الاثارة .وأن أقبل هذه الكلمات كما هى . وفى كلتا الحالتين ، كان لدى كثير من الوقت . لذا تصرفت كأحد أطفال الوادى كما فعل أطفال جين

وجريت على طريق الحصى وكانت قدماى مسطحة بالقياس للطريق المنحدر ، مما جعل الاحتفاظ بتوازنى شيئا شاقا . وحين زدت من سرعتى عند الساحة الموجودة أمام مكتب القرية كنت افتقر الى القوة وكان تنفسى صعبا ، وأصاب التنميل ركبتى . وأخذت أجرى حتى وصلت الى « الكوبرى » وذقنى يمتد الى الأمام كشخص متأخر كثيرا فى أحد سباقات المسافات البعيدة ، ولما كنت أتنفس بصعوبة ، فان قلبى كله كان يضغط على ضلوعى . وبينما كنت أجرى ، كانت النساء والأطفال يسبقوننى ويختفون من أمامى ، فتذكرت أنه قد مضت عدة سنوات منذ جريت لآخر مرة .

وبعد ذلك ببعض الوقت لمحت جمهرة ترتدى ملابس ذات ألوان زاهية واقفين عند نهاية « الكوبرى » .

فى الأيام الخوالى ، اعتادت مجموعة من القرويين أن تحمل كميات من السردين ، غير أن تدفق الملابس المصنوعة من خرق الصوف ووجود السوبر ماركت قد غيرت ذلك كله . وكان صمت رهيب يلف الناس الذين كانوا يسيرون أمام الجماعة . فخطوت فوق كتل العشب الذابل كما فعل الأطفال ، فرأيت العملية التى أمام دعائم الكوبرى . وانهارت الأرض تحت ضغط الماء حتى أنها بدت وكأنها مرتبطة « بالكوبرى » بالعديد من المفاصل فى كل الاتجاهات كأصابع ملتوية . وكانت كل من المفاصل المكسورة ، رغم ارتباطها بدعاماتها ، كتلة من الخرسانة التى تتحرك بحرية ، وأى قوة تهز أى جزء منها تحولها الى شىء خطر يتأرجح . وكان طفل يرقد فى صمت غريب ، فى أحد هذه الكتل الخرسانية وقبعة منسدلة على عينيه . ولربما كان فاقدا للوعى بالفعل ، ذلك أن أثر السكون كان شديد القوة . أمسك الطفل بكتلة الخرسانة بينما كان ينزلق بين الفتحات الموجودة بين خشب الكوبرى المؤقت غير أن وزنه على صغره جعل الخرسانة تتأرجح فلم يكن أمامه من بديل سوى التعلق به بلا حراك تماما .

حاول الشباب أن ينقذوا الجسد المتحجر . فأسقطوا حبلين من الدعامات التى كانت تسند الكوبرى المؤقت بجانب العمود الرئيسى . وكان

أحد الرجال يجذب أحد الحبلين ، وهو يقف عارى القدمين فى منطقة ضحلة ، كان الحبل مربوطا بأحد الألواح أو الدعامات كى يمنعها من مس العمود . وكان شابان آخران يركبان فوق اللوحين ، يتحركان بالتدريج ويقتربان أكثر من الصخرة الضخمة المستديرة وقد أمسكا بالطفل كالأسير . وشقا طريقهما على الألواح ، محاولين تهدئة الضوضاء التى أحدثها الناس . وبينما وصل الشاب الذى كان يقف فى الأمام مباشرة تحت الطفل ، أمسك به رفيقه الواقف خلفه ، مباشرة حول وسطه بكلتا ذراعيه ، محتفظا فى نفس الوقت بتوازن جسمه عن طريق لف ساقيه حول الألواح . وبعد ذلك انتشل الرجل الأول الى بر الأمان وكأنه ينتزع ورقة من فوق شجرة . فتصاعد زئير المشاهدين . وفى تلك اللحظة ، أخذت قطعة الخرسانة التى كان يتعلق بها الطفل تتحرك وتتقافز حتى اصطدمت بالجسم الرئيسى المكسور محدثة صوتا عاليا ارتفع رنينه خلال الوادى والغابة . فنهض تاكاشى مباشرة بعد أن كان يرقد على بطنه ويوجه حركات الشابين من فوق الكوبرى المؤقت فوق الكتلة الخرسانية مباشرة . ثم أعطى تعليمات لأولئك الذين كانوا يمسكون بالحبل أن يجذبوا الشبان الثلاثة على الألواح بحيث يكونون فى مستوى الكوبرى المؤقت . فأحدثت موجات الصدمة الناتجة عن الالتقاء صوتا عنيفا مستمرا داخلى . ولقد نبع أثرها جزئيا ، من احساس عميق يكاد يكون مريضا بالراحة عند ادراكى أن قريبا لى اجتاز أزمة كبرى بأمان ، غير أن هذا الشعور سرعان ما ابتلعه شعور أكثر حدة باليأس من قسوة الحياة حين تأملت فيما كان من الممكن أن يقع لو أن عملية الانقاذ لم تنجح واصطدم جسد الطفل بسطح قطعة الخرسانة ، تتأرجح كشىء ثقيل معلق على حبل ، فانكسر رأسه ، والأكثر من ذلك أن عقوبة احداث قسوة مدعاة للاشمئزاز كانت ستلحق وتاكاشى باعتباره المسئول الرئيسى عن هذا القتل ، كان من المحتم أن يجر الى أسفل كتلة الخرسانة بينما كانت تتأرجح كشىء ثقيل فوق حبل غسيل فتقسم رأسه . وربما وقعت ، عقوبة أكثر قسوة واثارة للاشئمزاز على الرجل الذى قام بقتل أحد أعضاء المجتمع فى نعومة اظافره . ومهما طمأنت نفسى بأن تاكاشى قد نجح ، الا أنى لم أستطع أن أكبت طعم

الخوف المر الذى تصاعد فى حلقى . وتعجبت بينى وبين نفسى متسائلا : لماذا وضع تاكاشى نفسه عن طواعية فى مثل هذا الخطر ؟ غير أنى لم أكن أشعر بغضب واضح . والتف الزحام حول الطفل الذى تم انقاذه بعد ان ابعدهم أعضاء فريق كرة القدم كى تمضى عملية الانقاذ بفاعلية . وعندما استدرت واتجهت نحو القرية تذكرت وجه تاكاشى الحزين أيام كان يصر على أنه لم يكن يرتعد من أى نوع من أنواع العنف أو الألم الجسدى بل من الموت نفسه ، غير أنه كان يغشى عليه بمجرد النظر الى قطرة من الدم تخرج من اصبعه . فلنفرض أنه رأى جسد الطفل يتهشم أمام عينه ، على بعد قدم بينما كان يرقد على بطنه على الكوبرى المؤقت وسال الدم على وجهه مباشرة ـ ألن تخرجه من جو الواقع مجرد عملية تقيؤ ؟

ارتفع حولى خليط من الضحكات وصيحات الحرب . سرت الى الأمام على عجل ، وأنا أتنفس بصعوبة غير أن تاكاشى هو الذى قد تورط فى أخطر المواقف فى هذه المرة رغم أن هذه الحادثة قد تمنحه هو وفريقه قدرا من السلطة فى الوادى . وقد تعطيه ، بعض الثقة وتجعله يشعر أنه قد زرع جذورا ثابتة هناك . ذلك أن واقعية ماكان يتشكل فى كلمته قد يؤثر فى زوجتى مقنعا أياها بعدم احتمال حدوث أى شىء لى . ولأول مرة اكتسبت كلمة (غيرة) التى استخدمها بالنسبة لى فى الكلام مع زوجتى معنى ومحتوى محددا . فقبيل مغادرتى ، لمحت الستروين تقف خلف الجموع التى كانت تشاهد الحادث . ولو أنى شققت طريقى بين الناس ووصلت اليها ، لأمكن أن أنضم الى زوجتى والآخرين . غير أنى تجاهلت السيارة وأدرت ظهرى للجموع . وأشعرتنى شرارات مشتعلة من كلمة (الغيرة) مشحونة الآن بمعنى جديد ، بأنى لم أرد أن أنضم الى زوجتى فى مشاهدة نجاح تاكاشى ....

لقد لحق بى الرجل ذو الساقين الطويلتين على دراجة عتيقة جدا ، وهو يركب وكأنه يتدرب من أجل مسابقة للسير البطىء على دراجة ، ثم وضع أحد ساقيه على الأرض بطريقة سهلة ثم نظر حوله قائلا : « إن أخاك زعيم حقا ياميتسوسابورو » الا أن صوته لم يبد عليه أنه قد تأثر بشكل حقيقى . فتكلم بالطريقة التى يستعملها أى شخص من ذوى الحيثية فى الوادى . اذ

أنهم من فرط حذرهم ، كانوا يضعون قناعا من الحياد البارد يحاولون من ورائه أن يختبروا مشاعر الشخص الآخر بحذق . ففى الوقت الذى غادرت فيه الوادى ، كان هذا الرجل معاونا فى مكتب القرية . أما الآن . فقد صار سمينا وأصبح لون بشرته يوحى بأن لديه متاعب فى الكلى ، غير أن الدراجة التى كان يتجول بها وهو يبحث عن رد فعلى بطريقة غامضة ، كانت هى نفسها طريقة جهاز مكتب القرية القديم .

قلت بهدوء وتقزز : « لو أنه فشل ، لقتلته الدهماء دون محاكمة »

ادرك الرجل أنى لست جاهلا بأساليب وحيل الحوار الأساسية بين كبار السن فى الوادى . فأصدر نوعا من الزمجرة دون أن تكون ملزمة بأى شىء سوى ازدراء خاص غير واضح . فاستطردت قائلا : « لو أنه كبر فى الوادى ، لما قام بفعل طائش كهذا . فلقد كان هذا مجلبة للمتاعب تماما مثل السير حول حافة فخ عن عمد . كل ماهنالك أنه لايعرف أهل الوادى » .

وفى مكان ما خلف الابتسامة الغامضة كان يتلكأ ايحاء بالخجل وعدم الثقة . « ان أهل الوادى ليسوا جميعا بهذا السوء »

سألته وأنا اسير الى جواره وهو يدفع دراجته : « اذن لماذا يتركون الكوبرى دون اصلاح ؟ »

وراح يردد الكوبرى آه

ثم توقف عن الكلام رافضا الاستمرار لبرهة . وأضاف بنبرة تهكمية : « فى أوائل العام القادم سوف نندمج مع المدينة المجاورة . وحتى يتم ذلك ، فلا داعى لأن تقوم القرية باصلاحه بنفسها » .

« وماذا سيحدث لمكتب القرية لو تم الانضمام ؟ »

قال : « حسنا ، أولا لن يكونوا فى حاجة الى معاون »

وكان هذا أول رد فعل مباشر يصدر منه .

بدا لى أنه رغم أن القرية تقف على حافة الافلاس الاقتصادى ككل ، الا أنه توجد ، على الأقل ، عشر عائلات ، لم تخضع لسطوة السوبر ماركت

وانما تستمتع بطريقتها فى الحياة الاستهلاكية - مع أن هذه العائلات العشر قد تكون غارقة فى الدين للسوبر ماركت بجزء من مصروفات الهوائى وتكاليف أجهزة التليفزيون « لا أحد يدفع مصروفات الهوائى . فهم يقولون إنهم لايستطيعون أن يشاهدوا برامج الجنس بهوائى السوبر ماركت » .

« ماذا يشاهدون إذن ؟ هل يشاهدون البرامج التجارية أو الاعلانات التى تأتى من المدينة ؟ »

« كلا ففى حقيقة الأمر تصل أفلام الجنس على خير وجهه » وأبدأ علامات خفيفة من اللذة والسرور » « لايزالون يقومون برقصة النيمبوتسو ؟ »

« لا ، فلم يقوموا بها طوال هذه السنوات الخمس الأخيرة » .

استمررت فى السير : وأنا أبتسم بهدوء ، كى أحتفظ بردود أفعال جسدى تحت سيطرة عقلى . وأصبح طريق الحصى فجأة محفورا تحت قدمى وينسحب ببطء من تحتهما بتعب . وعيون النساء والأهالى العجائز التى كانت تراقبنا من خلف الأبواب الزجاجية القذرة التى كان ينزل منها الطين الجاف من أمطار سقطت منذ وقت طويل ، اكتسبت تلك العيون حدة عيون الأغراب . وكان موظف مكتب القرية الذى يسير الى جانبى يمثلهم جميعا . بدت الغابة غارقة فى الكآبة والجو ينبىء بسقوط الجليد . ولكن على حين غرة ، أصبح المنظر بأكمله غريبا عنى تماما . وعملت بهدوء على الاحتفاظ بابتسامتى الثابتة ، عملت بالهدوء المطلق الذى رأيته فى عينى طفلنا الذى أخفق ، على المدى الطويل ، أن ينشىء أى صلات للتفاهم مع العالم الواقعى . وحبست نفسى ، دون أن يكون لى أى اهتمام بأى شىء فى الوادى ولم أشأ أن يزعجنى أى شىء فيه . لم أكن هناك على طريق الحصى ، لم أكن هناك بالنسبة لأى من الأغراب الذين كانوا يسكنون على طول ذلك الطريق ...

قال الموظف وهو يجول بدراجته « اذن لابد أنكم ذاهبون ! »

ثم قاد دراجته برأس منحن وصعد الى أعلى المنحدر وابتعد . وواصلت

المسير ببطء ، وأنا أبتسم فأنا رجل خفى يخطو على درب غير مألوف . وبعض الأطفال الذين لم يصلوا الى الكوبرى وقت وقوع الحادث حملقوا فى لكننى لم أعد غاضبا من الشبه بين وجوههم القذرة مع ذاتى السابقة ، كذلك لم أشعر بضيق خاص وأنا أمر أمام مخزن صانعى الخمور الذى ألغى كى يتم عمل السوبر ماركت . كان المخزن مهجورا اليوم ، وراقبتنى الفتاة التى كانت تجلس خلف مكتب دفع النقود وأنا أمر وكانت عيناها متبلدين .

فجأة قفز تاكاشى أمامى وقال : « عليك أن تبدأ حياة جديدة ياميتسو . فلماذا لا تدع كل شىء تفعله فى طوكيو وتأتى معى الى شيكوكو ؟ لن تكون هذه طريقة سيئة للبداية » .

عندئذ فقط عادت إلى القرية فى الوادى كواقع لأول مرة منذ مايزيد على عشر سنوات . لذا كان على أن أعود الى الوادى بحثا عن كوخى المصنوع من الجريد . غير أن مظهر اليقظة الذى أتخذه تاكاشى خدعنى على غير توقع . وكأن (حياتى الجديدة) فى الوادى ليست سوى حيلة حاكها تاكاشى كى يستبق رفضى ويمهد الطريق أمام نفسه لبيع المنزل والأرض لغرض غامض يشتغل داخله فى هذه اللحظة . فمنذ البداية ، لم تكن الرحلة من أجلى . مادمت لم تعد لى جذور ، أو أنى حاولت أن أزرع أى جذور جديدة وحتى الأرض والمنزل كان وجودهما كعدمه ، فلا عجب أن أخى كان يحاول اغتصابهما منى بأقل قدر من أعمال الدهاء .

حين عدت الى المنزل الذى باعه أخى للامبراطور ، حزمت ما أملك فى احدى الحقائب . لم يكن تاكاشى قد باع المبانى فحسب وانما باع الأرض أيضا لقد تسلم أضعاف المبلغ الذى أبلغنى به أنا وزوجتى كمقدم . والأدهى من ذلك ، أنه استرد ما يزيد على نصف نصيبى من المقدم (الزائد) كمساهمة فى فريق كرة القدم . أستطيع أن أراه يروى لأعضاء فريقه بزهو ساذج كيف أنه لم يستحوذ على المنزل والأرض منى فحسب ، وانما جعلنى أساهم معه بنصيب من المقدم الزائف . ولاشك فى أن مساهمتى فى الفريق كانت مادة لنهاية مرحة للملهاة التى تفوق تاكاشى بوصفه الوغد الماكر ، على رجل الفضيلة بطىء الفهم الذى كنت مستهدفا

أن ألعب دوره . ذهبت لاحضار كتاب بينجوين والمعاجم ، والكراسات والأوراق من المخزن ، وحزمتها فى نفس الحقيبة ، ثم جلست متسقرا فى انتظار عودة أخى وحرسه بما فى ذلك أحدث مجند ، أى زوجتى .

سأعود الى طوكيو ، حيث فى كل صباح استيقظ فيه أحس ذلك الوجع المستمر فى جسدى ، ويتقلص وجهى وصوتى باطراد حتى يصبح فمى حادا كفأر حقيقى وأبدأ فى الحديث بهمسات حادة منخفضة ، وربما أحفر حفرة فى الحديقة الخلفية ، ولكن هذه المرة لهدف وحيد ، وهو أن أزحف الى داخلها فى الفجر . ستكون لى حفرتى التى أتأمل فيها تماما كما يملك الأمريكيون أكواخهم النائية .. غير أن كوخى سيساعدنى على الاقتراب من الموت بكل مايمكن من هدوء . ولن أحاول أن أؤمن لنفسى قاعدة أعيش فيها عمرا أطول من الآخرين ، لذا فلن يكون للجيران أو بائع اللبن سبب يحملهم على ازدراء عاداتى غير التقليدية . ومن المسلم به ، أن قرارى هذا سوف يعزلنى بشكل فعال عن امكانيات لحياة جديدة فى المستقبل أو العثور على (كوخ من الجريد) ولكنه سيمنحنى فرصة كى أحصل على فهم أعمق لتفاصيل حياتى فى الماضى .

حين عاد تاكاشى والآخرون ، كنت نائما بجوار المدفأة . ولابد أن الطريقة التى كنت أنام بها قد أعطت تلميحا قويا بالهدوء الحزين الذى كان يملأ عقلى ، لأنى سمعت وأنا أستيقظ موموكو تشكو : « بينما كان تاكا والآخرون يقومون بمثل ذلك العمل العظيم ، كان عضو ما من الهيئة ينام فى سلام فى الدفء كقطة متقاعدة ! »

تساءلت وأنا أجلس : « القطة المتقاعدة ليست سوى فأر ؟ لقد اختلطت عليكم استعاراتكم » فاحمر وجه موموكو خجلا بسذاجة وصار كالطماطم . واستمرت قائلة كى تخفى حرجها : « ان تاكا والآخرين ... » غير أن زوجتى استوقفتها قائلة : « ميتسو يعرف جيدا ماحدث » قالت زوجتى ... « لقد كان يشاهد تاكا والآخرين من خلف الزحام . ومع ذلك لم يحيى الفريق فلقد جرى أن ينطق بكلمة . فلا عجب أنه نام » .

لاحظت أن تاكاشى كان منتبها الى حقيبتى التى كانت بجانب المطبخ « لقد رأيت معاون المكتب يسير وراء ميتسو على دراجته ، قال ذلك بعناية

وتقص . « ولاحظت ذلك لأنه هو وميستو قد ذهبا دون أن يريا الطفل الذى تم انقاذه » لقد أراد أن يسألنى عن صفقة المنزل والأرض . ماذا عن ذلك يا تاكا ؟ هل صنعت منها ثروة ؟ » قلت ذلك وأنا أعيد استرجاع الحيلة المتعالية فى طريقتى فى الطفولة حين كنت أسأل اسئلة محرجة عمدا كى أغضبه .

هز تاكاشى رأسه كحيوان جارح مفترس وحملق فى . ولكن حين أعدت النظر اليه دون غضب . نحى نظرته بتخاذل ، هز رأسه كطفل قلق ، وقال بصوت خجول : « هل أنت عائد الى طوكيو ياميتسو ؟ » فقلت « هذا صحيح فلقد لعبت دورى ، أليس كذلك ؟ » قالت زوجتى مقاطعة : « سأبقى هنا ياميتسو . اذ أريد أن أساعد تاكا والآخرين فى التدريب » .

نظرت أنا وتاكاشى الى زوجتى ، كل منا من جانب ، ونحن مندهشان بنفس الدرجة بعدم توقع هذا التصرف . لم أفكر فى امكانية رحيلها حين حزمت حقيبتى ، غير أنى لم أتوقع أيضا أن تظهر مثل هذا العزم الأكيد على أن تبقى مع تاكاشى والآخرين ، فقال تاكاشى : « على أى الأحوال ، لن يكون فى استطاعتك أن تغادر الوادى لفترة ياميتسو » . قال ذلك وهو ينحى حقيبتى باصبع قدم حذائه الرياضى الذى كان يرتديه من أجل التدريب على كرة القدم .

ولأول مرة منذ أن علمت بحيلته ، انساب الغضب من رأسى الى بقية جسمى ، كقطرة من الحديد المنصهر ، الا أنه سرعان ما اختفى . فقلت : « حتى لو كان الجليد يلفنا ، فسأنام فى المخزن مستقلا عنكم جميعا » وبلهجة المتنازل أضفت : "يمكنكم استخدام المبنى الرئيسى كما تشاءون" « وفى صوتى كرم هزيل نجم عن الحنق الذى قد تلاشى . « كى تسكنوا فريقكم أثناء التدريب » قالت زوجتى : « لو أنك ستصبح مستقلا يا ميتسو ، فسيكون على أن أحضر لك وجباتك . فسأل هوشيو : « ألن يكون الجو باردا فى الليل والصباح الباكر فى المخزن ؟ » كان يصغى الى حوارنا بصمت مكتئب ، دون أن يشارك فيه ، وكأن نجاح تاكاشى فى وقت مبكر من ذلك اليوم ، جعله يشعر بالشك على نحو ما . وقال تاكاشى مستعيدا طاقته : « لقد أخبرنى الامبراطور أنه استورد بعض المواقد الزيتية كى يعرضها فى السوبر ماركت ، مع ثقته بأنه لن يبيع اى واحدة ،

وسأشترى واحدة . لا حاجة بك الى أن تقلق بشأن التكلفة ، على الأقل » .

كان أعضاء فريق كرة القدم يقفون أمام المنزل وربما أحجموا عن دخول المطبخ حين تعرفوا على العنصر الشاذ ، الذى هو أنا ، جالسا الى جانب المدفأة . سمعت صوت معدن يتم طرقه ، على سندان . وبينما كنت أخرج حاملا حقيبتى الى المخزن ، منزلى الجديد وجدتهم واقفين على كعوبهم حول السندان . فلووا رءوسهم بتكاسل كى ينظروا الى ، غير أن وجوههم بقيت ثابتة وخالية من أى تعبير ، وكأنهم يحاولون منعى من قراءة أى معنى هناك .

استمررت فى طريقى الى المخزن دون أن أستفسر عم يحدث . لقد صرت غريبا بالنسبة لأى شىء قد يحدث فى الوادى .

عندما نظرت من خلال النافذة الضيقة بالمخزن ، استطعت أن أرى الغابة غارقة بالفعل فى القتامة تتناقض مع جدار الغروب الشاحب فى الجو الشاهق فى أعلى كما يتناقض مع اللون الأزرق الشاحب لما يعلو ذلك من جو أكثر بعدا يلفه . وبدا الجو الى حد ما أكثر لمعانا من الجليد والسحب التى نظرت اليها أثناء النهار ، الا أن الشعور بالجليد كان مازال قويا فى الهواء . كان هوشيو يصلح المصباح فى الحديقة الأمامية كى تزود الشباب بالضوء وهم يقومون بعملهم . وكانت المطارق تحدث رنينا على الحديد وفجأة بدأ لون الغابة يذوى . فقد بدأ الجليد يتساقط فى الأجزاء العليا وكان ينحدر نحو الوادى . فشعرت باكتئاب لايوصف يسربلنى . والآن وقد فرغت من الأشياء التى تقع خارج ذاتى ، أدركت أن اكتئابى شىء شخصى . ولو أنه تطور فسأعود لما كنت عليه حين كانت تتحرك أصبعى حين وجدت نفسى أجلس فى حفرة مرة أخرى عند الفجر وبين ذراعى كلب حار تفوح منه الرائحة . وتغلبت على مرة أخرى ذكرى الارتعاش والوجع اللذين أبيا أن يذهبا حتى بعد أن عدت الى حجرة نومى فى ذلك الصباح .

ولم يعد الوادى يخبىء حياة جديدة أو كوخا من الجريد . فعدت وحيدا حزينا مرة أخرى ليس أمامى أى أمل فى المستقبل المنظور ، وصرت فى قبضة اكتئاب أعمق من ذلك الذى كنت مصابا به قبل عودة أخى الى اليابان . وشعرت بالمعنى الكامل لذلك الاكتئاب .

الفصل الثامن

الحقيقة التى لاتقال

عندما دخل تاكاشى وهوشيو المخزن وهما يحملان موقد الزيت ، الذى كان ملفوفا تماما رأيت جليدا كالمسحوق جافا وصلبا كالرمل ، واقعا على أكتافهما . وكانت زوجتى وموموكو اللتان كانتا تشعران بالاثارة بسبب الجليد قد تأخرتا فى اعداد وجبة المساء . وحين ذهبت الى المبنى الرئيسى لتناول العشاء ، كانت الحديقة الأمامية جميعها مغطاة . حتى أننى حين نظرت الى أعلى وصدمتنى عناصر الطبيعة فى وجهى بدا لى أنى أهوم فى مركب فى بحر من الجليد المتساقط فكان من الصعب على أن أحافظ على توازنى . فلذعت قطع من الجليد الدقيقة عينى فسقط الدم بطريقة آلية . وبدا لى أنى أتذكر أنه فى الأيام الخوالى كان الجليد فى الوادى يأتى على شكل قطع ثلجية رطبة كبيرة بحجم الكرة . وكنت أختزن العديد من الذكريات المتنوعة المرتبطة بالجليد ، غير أن استرجاعى لتلك الذكريات وأنا فى الوادى كان مشوشا ، ومدفونا تحت مجموعة من الذكريات عن المدن التى عشت فيها . وأيا كان الأمر ، فان مسحوق الجليد الذى شعرت به على جلدى فى تلك اللحظة كان أبعد مايكون عن الجليد الذى كان يسقط فى تلك المدن الغريبة .

ازحت قطع الجليد التى كانت قد استقرت على جسدى باكتراث هادىء بينما أخذت أسير .

كنت فى طفولتى ، أندفع فى لهفة كى أستمتع بالجليد فى الوادى . وكان يبدو أن مذاقه هو مذاق جميع المعادن فى طبقات الجو العليا الذى

يغطى الوادى الى الأرض التى كنت أطؤها .

لقد ترك تاكاشى والأخرون الباب مفتوحا وكانوا يشاهدون على الضوء الخافت للمصباح المعلق قطع الجليد البيضاء وهى تشق الظلام . وكانوا جميعا على وشك أن ينتشوا بالجليد أما أنا ، فكنت رائق الذهن .

وسألت زوجتى : « ماذا عن موقد الزيت ؟ » لم يكن هناك مايشبهه من حيث اللون فى المخزن » . ورغم أنها قد تكون منتشية بالجليد ، الا أنها لم تكن قد بدأت فى احتساء الويسكى تلك الليلة . « أنا لا أنوى أن أتخذ من المكان سكنا دائما . فأنا أود أن أترك المكان غدا عندما يقل الجليد لذا لن يكون هناك وقت للقلق على مسألة ما اذا كان الموقد يوافق الحجرة أم لا . « فاستدارت الى أخى عندما أحسست أننى لم أعرها الا قليل الاهتمام وقالت : « تاكا ، ألا تظن أنه من الغريب أنهم يحضرون مواقد مستوردة من اسكندنافيا طوال كل هذا الطريق الى مكان كهذا ؟ » فقال تاكاشى : « بعرضهم لسلع لا يأمل أحد فى شرائها هنا ، فالأمبراطور يحك أنف جميع أهل القرية » .

وبدا لى أن تاكاشى استطاع أن يستخدم هذا النوع من النظريات كى يثير بعض الشباب فى فريقه لاقناعهم بفكرته . وفقدت حماسى فى التفكير فى علاقات تاكاشى بالوادى . فأكلت فى صمت ، وكأنى لست موجودا بجوار المدفأة المفتوحة على الاطلاق . وبدا حرس تاكاشى فى المجرى الطبيعى للأحداث أنهم يدركون التغير النوعى الذى طرأ على ، فكانت المحادثات تمر فوق رأسى كأنها تمر فوق الفراغ دون مقاومة ودون أى احساس بالحرج .

وكان تاكاشى من وقت لآخر ، يحاول أن يجرنى فى الحوار باعتباره الوحيد الذى كان منزعجا من صمتى ، ولكنى كنت أرفض الطعم . ولم يكن هناك دافع خفى لرفضى هذا ، وانما كان معناه أنهم أخفقوا فى جذب اهتمامى .

قبل ذلك حين أحضرنا رماد « س . » نجحت ذاكرة تاكاشى المشوشة

فى استفزازى بحيث أخرج عن صمتى غير أن ذلك حدث لأنى أنا أيضا كنت أحاول أن أربط فى داخلى تفاصيل الماضى المجسدة والحاضر فى الوادى ومنكبا على أن أجد طريقا لحياة جديدة هناك . أما الآن ، فقد فقدت هذه الدوافع . وأدركت لأول مرة الحادثة التى لم أفهمها من قبل . اذ إن تاكاشى كان يتحدث وكأن الحوار مثلث أجلس فيه فى الجانب المعاكس . ولكن لم تكن بى رغبة فى أن أكون عاملا فى علاقة ثلاثية الجوانب . فكنت منعزلا تماما أواجه اكتئابا متناميا يتسلل الى أعصابى كما يحدث فى الكوابيس .

« ألم تقل ياميتسو ، أنه فى الليلة التى قتل فيها س . كنت أنا أقف جامدا تماما فى المطبخ المظلم آكل الحلوى ؟ » (ظللت صامتا متجاهلا النداء الذى كان يبدو فى عينى تاكاشى ، لذا حرك نظرته بتخاذل نحو ناتسومى وتحدث اليها بدلا منى . فبين لى ذلك أنه كان متضايقا من الحيلة التى لعبها ، واعتبر نفسه مذنبا . ذلك أن تصرفه لم يسبب لى أذى ، بل على العكس ، فبفضل أخى الأصغر وجدت نفسى قادرا على أن أرى أشياء غير ذاتى الداخلية) « لقد تذكرت ـ يا ناتسومى ـ تذكرت بوضوح ماذا كان يدور بداخلى وبخارجى مثل ذلك الطفل فى ذلك المشهد . كنت أقف فى المطبخ أمتص حلواى بسعادة . وكنت أحرك لسانى بسعادة فاتحا مكانا بين شفتى وفمى كى أمنع اللعاب من أن يسيل من أركان فمى . الى حد ما فان ميتسو يحاول أيضا أن ينعش ذاكرته . لقد قال ان اللعاب البنى مع الحلوى المتحللة كانت تتساقط من فمى كالدم ، غير أن هذا لايمكن له أن يحدث . اذ كنت حريصا على تجنيد كل مالدى من طرق فنية فى تناول الحلوى كى أعنى بأن تكون نوعا من السحر ... »

« لقد كان الوقت شفقا ، ولكنى حين نظرت الى باب المطبخ الى الداخل المظلم كانت الأرضية تبدو بيضاء بل أكثر بياضا حتى من الجليد الذى يسقط اليوم . وكان ميتسو قد أحضر لتوه جثة « س . » وكانت أمى فى الغرفة الأمامية ، اذ كانت فى موقع يمكن سيد البيت أن يظل جالسا وهو يلقى بالتعليمات لأولئك الذين يقفون فى الخارج .

« لذا ورغم أنى لم أكن سوى طفل ، الا أنى وجدت نفسى محاطا بالعنف المفزع : وفى نهاية الأمر ، فإن الجثث والجنون تمثلان العنف فى أعلى أشكاله . ولقد اقتدت الى ركن لايمكنننى الهرب منه ، مهما بلغت من المهارة . بامتصاص الحلوى بهذه الدرجة من العناية ، كنت فى حقيقة الأمر ، آمل أن أجعل شعورى يتركز فى جسدى ، تماما كما يدفن الجرح نفسه فى ورم منتفخ . عندها فكرت فى قطعة سحرى . ولو أن الأمور سارت على مايرام ـ بمعنى آخر لو أنى استطعت ألا أسقط من فمى قطرة واحدة ـ لكنت دائما أتعجب من الطريقة التى كان يتمكن بها اجدادنا من الحياة بعد العنف الذى كان يحيط بهم ، ويسلمون لواء الحياة لى ، أنا سليلهم . فمهما يكن من أمر ، فلقد يحيون فى عصر همجى ، ومن غير المعقول التفكير فى العنف الجماعى الذى كان على الناس الذين انحدرت عنهم أن يكافحوه حتى أتمكن من أن أكون الآن على قيد الحياة .

أضافت زوجتى قائلة بنبرة توحى بنفس الانفعالات الكامنة فى اعتراف تاكاشى : « فلنأمل أن تستطيع أنت أيضا أن تتغلب على نصيبك من العنف وتقوم بدورك فى استمرار الحياة » . فقال : « حين كنت أرقد على بطنى فوق الكوبرى المؤقت اليوم أراقب حياة ذلك الطفل معلقة فى الميزان ، كنت أفكر فى مشكلة العنف ، وأتذكر كيف كانت الأمور بالضبط ، بينما كنت آكل الحلوى فى المطبخ . وليس هذا حلما آخر من أحلامى » .

اخذت أراقب ذبابة كانت تتحرك بين أطراف أصابعى كعقدة فى أحد الشرايين . ثم انسحقت الذبابة بأقل قدر من الضغط . وأصبحت أصابعى مبتلة ببقاياها ، وشعرت كأن أصابعى لن تكون نظيفة مرة أخرى .. فارتفع الرعب حولى ، غير أن كل ما فعلته هو أن مسحت أطراف أصابعى فى سروالى . واستمررت فى الدوران هناك ، ثم صرت ساكنا تماما بجسم مشلول ، وكأن الذبابة الميتة شىء يمسك بمركز الحركة فى جهازى كى يثبته فى مكانه . وتطابق وعيى مع اللهب الذى يشع خلف نافذة الموقد المستديرة حتى أن جسدى من هذا الجانب لم يزد على أن يكون هيكلا فارغا . وكان من مدعاة السرور أن أقضى بعض الوقت على هذا النحو ،

أتخلى عن مسئوليات الجسد .. وأصبح حلقى جافا وحارا ، وبدأ يحرقنى . وجعلتنى فكرة اضطرارى أن أضع غلاية ماء فوق الموقد المسطح أدرك أنى استسلمت على غير وعى منى بأن ابقى عددا كبيرا من الأيام بالمخزن بدلا من الرحيل الى طوكيو غدا فى الصباح الباكر . وفى هذه اللحظة ، أخبرتنى أذناى بأن الجليد قد أتى ليبقى .

ففى الغابة تتبين الأذن قدرا مدهشا من الأصوات ، بسبب اعتيادها على الصمت ، وتنميتها للقدرة على الاستجابة لأنواع أدق من الضوضاء . فمع أن الوادى ، فى ذلك الوقت ، لم يصدر أى صوت بما فى ذلك من معنى حرفى ، على الاطلاق فإن الجليد قد نشر عباءة من الصمت فوق المنخفض والغابة الشاسعة التى تحيط به .

قالوا ، إن جيى الناسك ، مازال يحيا حياته المنعزلة فى أعماق الغابة . لكنه اعتاد على صمتها يوميا ، من المؤكد أنه سيجد شيئا جديدا وغير متجانس فى الغياب التام لأى صوت فى تلك الليلة الجليدية . ولو أنه تجمد حتى الموت فى تلك الغابة ، فهل سيجد أهل هذا الوادى جثته ؟ وما ترى تلك الأفكار التى تمر بذهنه وهو يرقد فى الظلام الساكن تحت الجليد المتراكم فى مواجهة موت قبيح غير اجتماعى . هل تراه سيكون صامتا ، أم تراه سيغمغم لنفسه بلا توقف ؟ على حد علمى ، فقد يحفر لنفسه حفرة مستطيلة عميقة مثل الحفرة التى كانت لى لمدة يوم ، ويأوى اليها فى الغابة ، ولعنت نفسى مرة أخرى لأنى ملأت حفرتى بأى شىء واضح وضوحا شديدا مثل وعاء الصديد ، ولم أقدر الحفرة كما قدر الناسك أعماق الغابة فهو فى المكان الأقدم وأنا فى المكان الأحدث ، وكلانا يجلس فى الرطوبة تعانق ركبتاه صدره ، منتظراً زوال الخطر .

عند منتصف الليل ، كانت هناك أصوات فى الجو يحدثها سقوط الجليد على الأرض. كما بدت الأصوات ، فقد كانت تلتصق فى التربة على هيئة سلسلة من الضربات المكتومة الضعيفة دون أقل تذبذب . وكان يمسح بقعة بيضاوية كالمرآة فى النافذة الزجاجية المعتمة ، لقد تمت مثل تلك التحسينات الحديثة فى المخزن بما فى ذلك النوافذ الموجودة فى الخلف ، نحو نهاية الحرب ، بالاضافة الى الاضاءة الكهربية ، ودورة المياه بجانب

المخزن ، استعدادا للمهجرين ، الذين صدتهم اشاعات عن جنون أمى ، فلم يحضروا بالفعل على الاطلاق ، نظرت الى أسفل ، فرأيت تاكاشى عاريا تماما ، يدور فى هيئة دوائر فى الجليد ، الذى كان قد استقر على ارضية الحديقة الأمامية . كانت السماء مازالت تمطر جليدا . وكان الأثر ساكن الحركة بشكل غريب ، وكأن الخطوط التى خطتها قطع الجليد فى تلك اللحظة ستظل بلا تغيير ، دون أن تسمح بأى حركة أخرى ، مادام الجليد قد استمر فى السقوط من خلال الفضاء الى الوادى . ذلك أن اتجاه الزمان كان محددا بسقوط قطع الجليد كما كانت طبقات الجليد تمتص الصوت . زمن يحوى كل شىء ، اذ كان تاكاشى وهو يجرى عاريا تماما فى الجليد مثل شقيق جدنا الأكبر . وكانت كل لحظة من تلك السنوات المائة محتشدة فى تلك البرهة من الزمن .

توقف الشخص العارى عن الجرى ومشى لبرهة ، ثم ركع فى الجليد وأجرى يديه فوق سطحه . رأيت ردفيه وظهره الطويل المحنى ، مرنا مرونة ظهر الحشرة بما لها من مفاصل لا تعد .

فجأة صدرت عن تاكاشى سلسلة من الأنات الحادة وأخذ يتدحرج فى الجليد .

وقف والجليد عالق فى جسده العارى وسار عائدا الى المنطقة التى كان يلقى عليها المصباح مزيدا من الضوء تتدلى ذراعاه كما تتدلى ذراعا غوريلا . لم يقم بأى محاولة لاخفاء عضوه المنتصب أكثر مما كان يحاول اخفاء عضلات ذراعيه عند المفاصل . وعندما دخل من الباب المفتوح ، خرجت امرأة شابة كانت تنتظر داخل المطبخ ولفت جسده العارى فى بشكير كانت تمسك به . ولكنها لم تكن زوجتى بل كانت موموكو . ودون تراجع ، أمسكت البشكير كى تتلقاه بينما كان يقترب دون اخفاء انتصابه ، وهو يرتعش من البرد . وفكرت أنها أشبه بالأخت الصغرى لاحد العذارى . ودون أن يتحدثا ، دخلا الى الداخل وأقفل الباب عليهما . دون أن يتركا شيئا خلفهما سوى موجز اللحظة الساكنة على الجليد ، فكان أن أغلقت مائة عام فى لحظة . وشعرت أنى اخترقت الأعماق الخفية داخل تاكاشى الى مستوى لم تبلغه عيناى من قبل ، بالتأكد من وجود مثل تلك الأعماق ،

ما لم يكن يفهم مغزاها على الأقل . وتعجبت فيما إذا كانت العلامات التى كان جسده العارى قد تركها على الجليد سوف يلفها جليد جديد فى الصباح . وفى العادة ، لا يترك سوى كلب أو غيره من الحيوانات ، عضوه المنتصب عرضة بهذا الوضوح وبلا هدف يذكر على هذا النحو المثير للعطف ، ولابد أن تجارب تاكاشى فى عالم الظلام ، وهى غير مألوفة لدى ، قد أعطته وقاحة كلب وضيع . وكما لا يمكن للكلب أن يعبر عن حزنه بالكلمات ، فإن شيئا ثقيلا معقدا كان يكمن فى عقل تاكاشى لا يمكن الكشف عنه بأى لغة مشتركة بينه وبين الآخرين .

ذهبت للنوم واستيقظت قرب الظهيرة : كانت ليلة العام الجديد . سمعت ضحك مجموعة كبيرة من الشباب قادمة من المبنى الرئيسى . كان الجو باردا ، لكنه ليس قارس البرودة ، اذ كان الجليد مازال يتساقط ، ومنازل الوادى ، حين ترى بعيدا أسفل فى شكل مصغر ، قد جعلها الجليد من البساطة بحيث إن المنظر لم يعد يهدد باقتلاع الأشياء المتلكئة فى أعماق الذاكرة . وبنفس الطريقة ، قلل الجليد من واقع الغابة المظلم المفترس المنبث فى كل مكان . وبدا أن الغابة تتراجع ، ورغم أن المنخفض بدا ممتلئا بالجليد الجارف ، فإنه صار أكثر اتساعا . وشعرت أننى أحيا فى مكان ذى خاصية تجريدية مريحة . وبدت البقعة التى كان أخى يتدحرج فوقها على الجليد فى الليلة السابقة شبيهة بنموذج لموقع أثرى . وأعاد الجليد الذى سقط حديثا التجاويف والمرتفعات بأمانة دون أن تزعجها علامات الأحذية . فنظرت الى تلك العلامات لبرهة ، مصغيا الى الضحك الذى كان يرتفع من المطبخ مما جعل المنزل يبدو كدار ضيافة للطلبة .

وحين توجهت الى المنزل الرئيسى وذهبت الى الداخل ، صمت ، فجأة ، شباب فريق كرة القدم الذين كانوا يجلسون حول المدفأة .. شعرت أنى عنصر غريب يقحم نفسه داخل الدائرة العائلية السعيدة الملتفة حول تاكاشى. فكانت زوجتى وموموكو مشغولتين بالعمل بجانب الموقد ، فتحركت نحوهما أملا أن أجد النجدة هناك ، فوجدتهما لا تزالان منتشيتين بأول جليد فى الوادى .

فقالت موموكو بمرح برىء : "لقد أحضرت حذاءك ياميتسو ! فلقد

ذهبت لشرائه من السوبر ماركت هذا الصباح ، اذ تسلموا كمية كبيرة من الأحذية معدة للجليد ، ويقولون إن عربة النقل التى أحضرتها قد غرزت على الجانب الأخر من الكوبرى ، يا لهم من مساكين اذ اضطروا الى تركها" وسألت زوجتى : "ألم تشعرى بالبرد فى المخزن ؟ وهل تعتقدين أنك ستكونين على مايرام فى الحياة هناك لفترة ؟" وكانت عيناها حمراوين كالدم من الجليد ، غير أنها قد نمت عن بعض الطاقة فى مكان ما وهى طاقة كانت مفتقدة حين كانت عيناها تحمران من الشراب . ومن الجائز أنها لم تتناول أى قدر من الويسكى فى الليلة الماضية . بل ونامت نوما عميقا . فرددت عليها بصوت مكتئب مسطح : "أظن أنى سأكون على مايرام" ، وشعرت أن اجابتى قد أثارت كلا من الازدراء والرضى فى نفس الشباب المتحلقين حول المدفأة ، فهم كانوا فى انتظار هذه الاجابة بفضول يخلو من أى عاطفة ، فربما لم أزد فى أعينهم عن مجرد مخبول متبلد باعتبارى الشخص الوحيد فى الوادى الذى لم يثره يوما قدوم الجليد .

قال تاكاشى موجها حديثه الىّ بصوت لا ينم عن قلق : «أتعرف كيف تعد الطائر الذيال ، ياميتسو ؟ فقد خرج هذا الصباح والد الصبى الذى انحشر على "الكوبرى" أمس واصطاد بعضا منها لنا » .. فأمام الفريق ، كانت ذاته فى المقدمة ، تلك الذات التى تضع قناعا من الثقة فى النفس والسلطة وليست الذات التى كانت تتدحرج على الجليد وهى عارية ككلب . سأحاول بعد أن أتناول شيئا ما . وتخلى الشباب عن تسامحهم ، وخرجت منهم زفرة اشمئزاز . فى أحد الأوقات ، لم يكن أى رجل فى الوادى يحترم نفسه يعد الطعام بنفسه . وكنت أشك ، فى أنه حتى الآن ، مازال هذا التقليد باقيا . اذن فلقد نعم الشباب بمشهد قائدهم وهو يدير أخاه الأكبر فى اصبعه الصغير مرة أخرى . وكانوا جميعا ، وقد انتشوا من الجليد ، فى حالة معنوية عالية ، ومستعدين لأى قدر من الترفيه الخفيف . وبنفس الطريقة ، فان أهل الوادى يمكن أن ينتشوا بالجليد . وقد يظلون هكذا لما يقرب من عشرة أيام ، يكونون أثناءها فريسة للالحاح المستمر فى أن يقوموا بالمسيرات فى الانجرافات الخارجية غير مكترثين بالبرد الذى يجرف نار النشوة داخلهم . ولكن ما إن تنتهى هذه الفترة حتى يبدأ صداع ما بعد الخمر ، وحينها يتمنى الجميع بنفس الحدة أن يبتعد عن الجليد .. وليس

لدى سكان تلك المنطقة أى قدر من الصلابة التى يتمتع بها الناس الذين يعيشون فى بلاد الجليد الحقيقى ، ذلك أن النار التى فى داخلهم سرعان ما تنطفىء من تلقاء نفسها ، تاركة إياهم عاجزين امام هجمات البرد ويبدأ الناس فى الوقوع صرعى للمرض . هذا هو نمط لقاء القرية مع الجليد ، وفيما بينى وبين نفسى تمنيت لو أن افتتان زوجتى به لايختفى ! وجلست على الأرضية الخشبية المرتفعة ، أمام المطبخ ، تماما كما كانت عائلات المستأجرين القدامى تفعل فيما مضى من سنوات ، حين كانوا يأتون لتقديم احتراماتهم فى نهاية العام .

وبدأت تناول افطارى المتأخر موجها ظهرى الى المدفأة . فقال تاكاشى ملتقطا خيط الحديث الذى اختنق بدخولى : "ان سبب نجاح الانتفاضة أن المزارعين كانوا ينظرون الى الشباب كحطام مرعب وكمجموعة من الخارجين على المجتمع الذين قد يقومون بأعمال الحرق أو يبدأون فى النهب دون اعادة نظر فيما يفكرون فيه . وكانت هذه النظرة الى الشباب سائدة ليس فى قريتنا فحسب بل فى جميع القرى المحيطة . ولن يدهشنى أن المزارعين كانوا أكثر خشية من زعمائهم الخارجين على القانون من خشيتهم من العدو الذى كان داخل أبواب القلعة فى المدينة" .

من الواضح أنه كان يعيد خلق صورة لانتفاضة عام ١٨٦٠ فى عقول شباب القرية ويحتفظ بها طازجة فى ذاكرتهم .

سألت زوجتى بصوت منخفض حين جاءت بالطعام : "هل كان وصف تاكاشى للانتفاضة هو الذى جعل الشباب يضحكون بكل هذه السعادة" .

ان أكثر شىء سبب لى الحيرة هو أن دور الشباب فى انتفاضة ١٨٦٠ - على الأقل كما فهمته - كان بارزا ومميزا بحيث لا يصلح مدعاة للضحك بكل هذا القدر .

فقالت : "لقد استطاع تاكاشى أن يخترع بعض الطرائف المسلية . فأنا أحس بأن ثمة شيئا يمتلىء بالحيوية بداخلى ، فهو يرفض أن يؤمن بأفكار مسبقة عن الانتفاضة ، أو أن ينظر اليها باعتبارها شيئا كئيبا فحسب ، كما تفعل أنت" ، فتساءلت : "هل فيما حدث عام ١٨٦٠ كل هذا

القدر من الطرائف اذن ؟" فردت بعنف : "من المؤكد ، أن هذا شيء لا أسأل أنا عنه" . ومع ذلك ضربت مثالا : "أخبرهم كيف أن رؤساء العمال والموظفين على طول الطريق الى مدينة القلعة أجبروا على الركوع على جانب الطريق ، بحيث يتمكن كل فلاح من أن يكيل لهم ضربة على رءوسهم بقبضة عارية وهو يمر بهم . فجعلهم ذلك يضحكون بالفعل" .

ثم راح تاكاشي يقول : "أسلم بأن الشباب كانوا شديدى القسوة ، غير أن قسوتهم ساعدت على نحو ما فى أن تعطى الفلاحين العاديين نوعا من الأمن ، فأنت تعرف ، حين أصبح من الضرورى أن تقتل أو تجرح عدو اللحظة ، كان دائما فى امكانهم ترك الأمر للشباب دون تلطيخ أيديهم . وكان معنى هذا الترتيب أن تشارك كل مستويات المزارعين فى الانتفاضة دون أى خوف من أن يتهموا بالحرق العمد أو القتل فيما بعد . وفى هذه الانتفاضة بالذات كان الفزع من تلطيخ أيديهم بالدم قد تم التخلص منه منذ البداية . وباستثناء تلك الضربة الواحدة على رءوس مشرفى العمال فان كل اعمال العنف المباشر وغيره من الأعمال التى لا تسر كانت مسئولية الشباب ، الذين كانت الطبيعة قد جعلتهم ملائمين لتنفيذها بأقصى درجات القوة والبساطة . وفى طريقهم الى مدينة القلعة كان الشباب يلحقون الضرر بأى قرية ترفض الانضمام اليهم ، فلقد كانوا يشعلون فى أول منازل تقابلهم ويتخلصون فى مرح من أى مزارعين كانوا يندفعون الى خارج هذه المنازل ، أو من أى شخص يحاول منعهم من اشعال الحريق . أما القرويون الذين تصادف أنهم نجوا من الموت ، فكانوا من الفزع بحيث إنهم انضموا الى القضية . ومع أن كلا الجانبين من الفلاحين ، فإنه من الناحية الأخرى كان المتمردوين الشباب - الذين كانوا نصف مجانين - يستخدمون العنف كى يجبروا المزارعين المحترمين على الاذعان لمشيئتهم .

وكان المزارعون يرتعدون منهم ، ونتيجة لذلك لم يوجد شخص واحد - ابتداء من الوادى على طول الطريق الى مدينة القلعة - لم تدسه الاقدام ، فحينما كان يتم تجنيد قرية جديدة ، كانوا يختارون بعض الشباب لتشكيل تنظيم جديد هناك ، ولم تكن هناك قواعد تحكم ذلك ، اذ لم يكن عليهم سوى أن يقسموا يمين الولاء لجماعة الشباب من هذا الوادى ، أى المجموعة

الثورية الأصلية كما كان هذا هو الحال ، وأن يوافقوا على أداء أى عمل من أعمال العنف دونما تردد ، لذا تشكلت الانتفاضة من شباب هذا الوادى . الذين يمكن أن نطلق عليهم مقر القيادة .

وحينما كان يتم تحرير احدى القرى حديثا ، كانت تشكل مجموعات من الشرطة كى يبلغوا عن جرائم ترتكبها البيوت الموسرة التى كانوا يغيرون عليها .

وكان اقتناعهم بأن جميع البيوتات الثرية لابد أن تكون متهمة باساءة التصرف فى كل الحالات ، وفى الأماكن القريبة من مدينة القلعة ، حيث سمع الناس شائعات عن الانتفاضة ، فأرغم بعض مشرفى العمال على إخفاء مالديهم من أشياء قيمة أو وثائقهم أو دفاتر حساباتهم فى المعابد المحلية ، فسارع زعماء المتمردين بزيارة صبية القرية فى معسكرهم كى يبلغوهم عن حالات كهذه ، مستمتعين بحريتهم التى اكتسبوها حديثا من نفوذ الأشخاص الأكبر سنا الذين كانت لهم آراء مهذبة محافظة . ولم تعن المعابد التى كان ينظر اليها المزارعون برهبة باعتبارها مهتمة بالأمور المتعلقة بالحياة والموت وكذلك لم يعن كبار مشرفى العمال الذين ظل المزارعون المحترمون لأجيال مضت ينظرون اليهم باعتبارهم مصدرا للسلطة ، أى شىء بالنسبة لأولئك الشباب . ثم تملك هؤلاء الصبية المساكين الجائعين ، الذين لم يعاملوا قبل ذلك كبشر ، زمام السلطة فى أيديهم وشكلوا زعامة جديدة فى القرية . ويمكنك تفسير السبب فى اختيار شباب المنحرفين بأنهم يؤدون الأعمال التى لا يقبل أداءها من هم فى موقع ملائم فى القرية ، والذين كانوا يعاملون دائما على أنهم خارج حياة القرية العادية . لذا لم يكونوا مثل الناس الأكبر سنا الذين كانوا يعاملون مثل غيرهم من نفس القرية وكان لديهم شك لا يتزعزع فى الأغراب . ففى حالتهم ، لم يكن فى امكانهم تكوين أى نوع من العلاقة سوى مع الغرباء ، كانوا يقومون بأمور ـ تشمل الحرق العمد والقتل ـ مما يؤكد أنهم لن يقبلوا فى مجتمع القرية فور انتهاء الانتفاضة مرة أخرى . مما اعطاهم سببا مهنيا فى أن يتأكدوا من استمرارها . اذ كانوا يحسون بالأمان فى ارتباطهم مع عصابات من الأغراب ، واعتنى الصبية من وادينا ، فى الواقع ، بمصالح هؤلاء المنحرفين عناية جيدة .

وقرب نهاية الانتفاضة ، وقعت حادثة سجن فيها عدد من الشباب الذين تخلفوا كى يغتصبوا بنات التجار . ومع ذلك ، لم تقبض عليهم السلطة التى ستأتى من القلعة . بل إن الدهماء قد اندفعوا بمجرد الوصول الى البوابة الرئيسية التى كانت تعقد بها المفاوضات مع من هم بالداخل ، غير أنهم لم يستطيعوا أن يستمروا فى الهجوم الى داخل القلعة ، لذا كان الاتجاه العام بينهم هو ألا يفعلوا أى شىء الى أن يغادر الدهماء المدينة . وبعد أن بدأت غالبية الفلاحين فى الذهاب ، ظل عدد من الرفاق يتجولون فى الشوارع خلسة وكأنهم مترددون فى الرحيل . ويبدو أنهم لم يزوروا مدينة القلعة من قبل ، وكانوا يتفجرون بالاحباط الجنسى . ويبدو أنه لسبب أو آخر قد استولوا على ملابس داخلية حمراء لبعض النساء نهبوها من مكان ما . وهنا طرأت عليهم فكرة الاغارة على أحد البيوت التى لم ترحب بالمشاغبين فى المدينة ، واغتصاب الفتاة . فاندفعوا الى بيت أحد تجار القطن . وللأسف فإن موظفا كان قد أدرك أن الفلاحين الآخرين قد بدأوا فى الرحيل ، وأتته فكرة جريئة وهى القبض على هؤلاء الرفاق وهم فى ملابس النساء . وكان هذا الرجل كبير الخفر ، فجند العاملين تحت امرته ونجحوا بالفعل فى أسر الصبية . واستطاع أحدهم أن يفلت ، ويبلغ عما حدث ، فأمرت جماعة الوادى بدخول مدينة القلعة مرة أخرى . وذهب الأولاد من وادينا ، معرضين أنفسهم لخطر كبير ، لانقاذ من حاولوا اغتصاب المستقبل . وسوى منزل تاجر القطن بالأرض ، الذى كان سببا فى كل هذه المتاعب ، كما عوقب الموظفون وكذلك حرق بيت الحارس !

انتهيت من تناول وجبتى ، وجمعت الأطباق القذرة ، ووضعتها فى الحوض ، حيث قابلتنى زوجتى بتعبير دفاعى متجهم . قائلة : "اذا كنت تعارض فيما يفعله تاكا ، يستحسن أن تفاتحه فى الأمر هو والشباب ، ياميتسو" . فأجبت : "لست من يفعل ذلك . فأنا لا أريد أن أتدخل فى أنشطته الدعائية وكل مايهمنى أن أعد الطيور للطهو فأين هى ؟" فأجابت مومكو ، أجابت نيابة عن زوجتى : "لقد علقها تاكا على مشجب خشبى خلف المنزل . انها طيور جميلة سمينة كالخنازير ». كانت هى وناتسومى يقطعان كميات كبيرة من الخضراوات فى سلة من الخيزران كبيرة ، معدتين

غذاء غنيا بما يكفى من الفيتامينات ، لاحتياجات فريق نهم من لاعبى كرة القدم .

واستمر تاكاشى يقول : "فى أول الأمر لم يكن للشباب والمزارعين أهمية الا أنهم أثناء الانتفاضة حصلوا على الاحترام ، مع أنه قد يكون احتراما سطحيا أكسبه إياهم سلوكهم العنيف . وأيا كان الأمر ، فقد وجدوا أنفسهم أبطالا شعبيين ، فى كل أنحاء البلاد . لذلك ، ففى الفترة القصيرة التى أعقبت الانتفاضة والتى كانوا مازالوا أحرارا أثناءها ، تصرفوا كأنهم الطبقة الأرستقراطية فى الوادى وليسوا حثالة كما كانوا من قبل . ولفترة ما ، كان باستطاعتهم ، فى الواقع أن يجعلوا الفلاحين يحملون السلاح ويستطيعون الخروج بهم من الوادى حين يشاءون .

واحتفظت جماعات من السفاحين ، فى أماكن أخرى بحصون خاصة بها كانوا يتحكمون منها فى قراهم . وحين تشتتت الانتفاضة ، انتزعت جماعة الوادى تعهدا من المشاركين من القرى الأخرى مؤداه أنه لو بدأت سلطات العشيرة فى اتخاذ تدابير قمعية ، فانهم سيعيدون تنظيم قواتهم على الفور وأن أى قرية تتردد فى أن تقوم بذلك ، ستكون من أوائل القرى التى يتم تدميرها . فأجبرت مثل هذه الظروف سلطات العشيرة على تأخير ملاحقة زعماء الانتفاضة .

وأثناء تلك الفترة السعيدة ، لم يعش شباب القرية على الطعام والشراب اللذين كانوا يقومون بنهبه فحسب ، وانما كانوا منشغلين فى التغرير ببنات وزوجات أهل القرية . ولم تستطع النساء أن تبلغ عمن غرر بهن . «فى نهاية الأمر ، بدأ تنظيم القرية على مجموعة من الغافلين . فلقد كانت نسبيا فترة فوضى بالنسبة لمجتمع القرية ، حيث كان الشباب يتجولون بسلاحهم ويتمتعون بسلطتهم . وكانوا يدهسون بلا رحمة من يدخل معهم فى نزاع ، وأنا على ثقة فى أن بعض من وجدوا أنهم ليسوا مرغوبين من جانب النساء ، كانوا يغتصبونهم فى الوقت الملائم . لذا فحين عادت الحياة الى مجراها الطبيعى ، وجد الفلاحون أن لديهم مجموعة جديدة من السادة الطغاة . وفى الوقت الذى جاء محققو العشيرة الى الوادى ، كان الشباب قد قطعوا صلاتهم مع بقية السكان . وفى النهاية ، عزلوا أنفسهم فى

المخزن لمقاومة السلطات ، غير أن أهل الوادى خانوهم ، اذ تراجعوا عن جميع وعودهم بالعون .." فارتفعت زمجرة حانقة من الحلقة التى كانت حول المدفأة ، اذ يبدو أن الشباب ، كانوا مع الصبية المزارعين ، بسذاجة تدعو للشك ، فى انتفاضة ١٨٦٠ . وكان لحيلة تاكاشى فى أن يعزو زعامة الانتفاضة الى جميع أفراد جماعة الشباب فى الوادى وليس لأخى جدنا الأكبر ، أثر قوى عليهم .

وقفت أدفىء نفسى أمام موقد المطبخ ، ثم ذهبت الى خلف المنزل حيث وجدت ستة من الطيور معلقة على المشاجب الخشبية مرتبطة بلوح كانت تعلق عليه الأرانب والطيور فيما مضى من أيام ، إذ كان أكثر الأماكن طراوة فى ممتلكاتنا ، فى عز الصيف ، وكانت القطط تلقى بنفسها تحت صف المشاجب . كان تاكاشى يحاول أن يتبع النظام فى كل تفصيلة من تفصيلات الحياة اليومية كما كانت تسود فى الماضى ، حين كان الرجال مازالوا يعملون معا فى يسر باعتبارهم جماعة . وأظهرت الطريقة التى كانت الطيور تعلق بها بواسطة القش حول رقابها اهتماما مهووسا بالطريقة التى كان يتبعها جدى وأبى . بل كانت الطيور محشوة بأعشاب البحر فى مؤخرتها بعد إزالة الأمعاء !

كان تاكاشى أصغر من أن يكون على وعى بما يحيط به أثناء الفترة التى كان آل نيدوكورو يحيون فيها حياة محترمة ، ويبدو أنه كان يقوم بقدر كبير من الدراسة والعمل الشاق كى يعيد خلق طريقة الوادى التلقيدية فى الحياة ويمر بها مرة أخرى ككل .

وضعت الطيور الضخمة على الجليد وبدأت أنزع الريش ماعدا الذى سقط . كان اللحم الموجود تحتها باردا وجامدا غير أنه كان يسير عند اللمس . استمررت فى انتزاع الريش بأصابع أخذت تزداد تنميلا باطراد . وفجأة تكسر الجليد واتصلت أطراف أصابعى بشكل مزعج بما تحته . وظهر اللحم الأحمر مع سواد خفيف بعد أن أصابه التلف من خلال الشق المتسع بسرعة وقمت بنزع بقية الريش فى الذيل من الجسم الذى صار الآن عاريا ، وأخذت أدير الرقبة مرة فمرة حتى اقتلعت الرأس بالقوة . ولكن حين بدا ان الرقبة على وشك أن تخلع ، أحسست بمشاعر رافضة للقيام

بما تبقى من جهد صغير مطلوب . فرفعت قبضتى عن الرأس التى عادت الى مكانها بحدة ، بعد أن طعننى الطائر بخفة على ظهر يدى . مما جعلنى أرى رأس ذلك الطير لأول مرة كشىء مستقل .

بعد أن وضعت الطيور المنزوعة الريش على الجليد ، عدت الى المطبخ بحثا عن مادة أشعل بها نارا ، محركا رأسى من جانب لآخر بزاوية مائة وثمانين درجة ، كما يفعل شخص ذو عين واحدة ، فى حالة وجود قطط أو كلاب بالقرب منه . وكان تاكاشى يقول : "من الطبيعى تماما أن الشخص الذى وشى بزملائه قد طرد من المجموعة . ولو أنه هرب فى اتجاه مدينة القلعة لقبض عليه حالا ، ولو أنه بقى فى الوادى ، فلن يحميه أحد ولاقتص منه المزارعون الذين كان يسىء معاملتهم عندما كان فى مركز القوة ، لذا فان أمله الوحيد كان أن يجوس فى الغابة حتى يصل الى كوتشى ، وأما مسألة نجاح هربه ..

"هل الطيور مغطاة جيدا ياميتسو ؟" سألنى هذا السؤال قاطعا محاضرته تماما كما لو كنت طلبت من زوجتى علبة كبريت كى أهرب بحزمة القش القديم التى سحبتها من تحت الأرضية . فشككت فى أن لديه ثقة فى الحقائق التى كان يرويها . عن نفسى ، لم يكن فى الامكان التمكن من كل هذا القدر من المعرفة التفصيلية عن اعمال الشباب وحياتهم اليومية عقب انتفاضة ١٨٦٠ .

حفرت تجويفا فى الجليد ، وألقيت بحزمة القش داخل الدائرة وأشعلت فيها النار . احترق جلد الطيور أولا مطلقا رائحة خانقة . وعلى الفور تقريبا ، انقلبت اجساد الطيور بحيث كانت متعاكسة بخيوط بنية داكنة من الحيوان المنصهر وصار لون الجلد نفسه باهتا فى الدخان ، حيث كان الدهن يتناثر هنا وهناك . فأعاد للذهن مباشرة شيئا أسود يحترق ، "وكان جسده محترقا ومتورما حتى أن التفاصيل لم تعد واضحة مثلها مثل دمية خشبية حفرت بلا اتقان" .

كان هناك شخص ما يقف خلفى ، ينظر بحدة مماثلة الى نفس الأشياء التى كنت أنظر اليها . فاستدرت ورأيت تاكاشى تعلوه حمرة الى جوار المدفأة التى توقعت أن تصهرها قطع الجليد المتساقطة لدى أول احتكاك .

وشعرت بيقين بأن الطيور بأحشائها المحروقة قد أثارت داخله نفس الذكريات أيضا .

"أخبرني صديقي الذى مات أنك قد أعطيته منشورا عن الحقوق المدنية حين التقيت به فى نيويورك . وقال إن المنشور كان يحمل صورة لرجل أسود حرق حيا" .

"هذا صحيح ، كانت صورة مفزعة انها من ذلك النوع من الأشياء الذى يخبرك بشىء عن الطبيعة الجوهرية للعنف ».

"وقال شيئا آخر ، وهو أنك قد هددته بأنك ستقول الحقيقة ولقد كان قلقا جدا،لأنه كان لديه انطباع آخر بأنك لديك حقيقة أخرى ، فى عقلك غير تلك التى تحدثت عنها ، ولكنك لا تستطيع أن تفصح عنها . فما هى ؟ - إذ إنه لم يحصل على الاجابة أبدا ، غير أن الشك الذى مات معه كان على أساس متين" .

فضاقت عيناه وكأنهما صارتا نصف مغلقتين ليس فقط بفعل ضوء الجليد المنعكس على خديه الاخذين فى الشحوب ، وانما أيضا بفعل شىء يتصاعد فى داخله .

قال : "هل أخبرك بهذه الحقيقة ؟" وشعرت باليقين أنه استخدم نفس الصوت الذى يتحدث به الان حين قال نفس الشىء لصديقى فى نيويورك . «انها عبارة قالها شاعر شاب . وكنت أقتبسها دائما وأبدا فى تلك الفترة . كنت أفكر فى الحقيقة المطلقة ، التى اذا ما قالها انسان ، لا تدع له بديلا سوى أن يقتله الآخرون ، أو يقتل نفسه ، أو يجن ويتحول الى مارد . انها نوع من الحقيقة التى بمجرد أن يبوح أحد به تجعله يقبض على قنبلة قد اشتعل فتيلها بلا رجوع ، ماذا تعتقد باميتسو - هل تعد شجاعة اخبار الآخرين بهذا النوع من الحقيقة ممكنة لانسان عادى من لحم ودم ؟"

"انى أتخيل شخصا ما فى موقف يائس يقرر أن يقول الحقيقة ، غير أنى لا أظن انه بعد أن يبوح بها ، قد يقتله الآخرون أو يقتل نفسه أو يجن ويتحول الى مارد - بل انه سيجد طريقة ما يستمر بواسطتها فى الحياة » ، قلت ذلك على أمل الوصول الى الغرض من وراء ثرثرة تاكاشى غير المتوقعة .

"كلا ـ فهذا صعب صعوبة الجريمة الكاملة" .

قال تاكاشى بالحزم الذى يتحدث به شخص كان يتمعن فى الأمر منذ وقت طويل . «فلو استطاع الرجل الذى يفترض فيه أن يستمر على قيد الحياة دون أن يلحق ايا من هذه الأقدار ، فسيكون ذلك دليلا مباشرا على أن الحقيقة التى يفترض أنه قد قالها ليس صاحبها فى الواقع من ذلك النوع ـ الذى اشتعلت فى يده القنبلة ـ أى الشخص الذى يعنينى أمره" "هل تعنى ، اذن ، الذى يبوح بهذا النوع من الحقيقة ، الذى تتحدث عنه ليس أمامه مفر" . سألته هذا السؤال فى غضب . غير أنى حينئذ وجدت فكرة توفيقية . "وماذا عن الكتّاب ؟ فمن المؤكد أن هناك كتابا قد قالوا الحقيقة واستمروا فى الحياة" .

سقط الجليد على الطيور ، بأجسامها ذات اللحم الثقيل . تناولت كل اثنين منها فى كل مرة وضربت الواحد بالآخر ، بحدة كى أسقط الجليد من فوقها . فأحدثت صوتا مكتوما أصدر أصداء كريهة فى حفرة معدتى .

"قال صديقى إنه شعر بالشك فى اليوم الذى قلت فيه إنك ستقول الحقيقة تماما قبل أن يفزعك حين أتى فجأة من خلفك وانت تتفحص صورة ذلك الجسد المحروق . وكان على حق «ألم يكن كذلك ؟ لقد كنت تجلس أمام منضدة ذلك المتجر وتتخيل أنك تقول حقيقتك وأنك ستستحيل الى جثة سوداء بسبب ذلك" .

"نعم ، لقد داخلنى شعور بأنه قد فهم الى حد ما . وأنا أشعر أنى شخصيا أفهم الطريقة التى تم اختيار الانتحار بها" .

كان يتكلم بلا مواربة مما أيقظ داخلى العاطفة التى كنت أحس بها فى المطار . "قد يبدو من المضحك أن اكون على يقين من شىء يتعلق بأحد أصدقائى ، غير أنى أخذت أفكر فيما يتضمنه ما حدث منذ سمعت به من ناتسومى . قبل أن يطلى نفسه باللون الأحمر ويشنق نفسه عاريا"

وفهمت ما كان يعنيه تاكاشى .

"لو جاء الوقت الذى يتعين على أن أقول فيه هذا النوع من الحقيقة ، فأود أن تسمعها أنت ياميتسو . فهى من النوع الذى يكون له مفعوله الكامل ، ما لم أذكرها لك" لقد كان يتحدث بلهفة ساذجة كطفل يعرف أنه يفعل شيئا خطرا .

"أتعنى أن ترويها لى كقريب مقرب ؟"
"أجل"

"أتعنى أن الحقيقة التى تقصدها تخص أختنا ؟" سألت هذا السؤال وأنا أغالب شكا خانقا . للحظة جمد جسد تاكاشى ، ثم حملق فىّ حتى أنى ظننت أنى خشيت من ان يندفع فى وجهى . ولكنه كان يركز نظره بحدة شديدة كى يعرف ماذا يكمن وراء كلمتى ، وبعد برهة استرخى جسده وحوّل نظره . نظرنا فى صمت الى الجليد الذى كان يستقر على جثث الطيور ، فلسعنا البرد حتى النخاع . كان تاكاشى يرتعش تماما مثل رفيقه ذى الملامح الغريبة والملابس الخفيفة ، وكانت شفتاه زرقاوين . كنت متلهفا أن أعود الى المطبخ ، غير أنى أردت أن أنهى حوارنا بشكل ودى . فعلى أى حال ، لقد أنقذنا تاكاشى من حرجنا بينما كنت فى أسوا حال .
"ان السبب الذى دعانى الى ان أقنعك بالحضور الى الوادى ، لم يكن مجرد دهاء . لم يكن كذلك ، حتى أنى حين بعت المخزن والأرض واستطعت أن أخبرهم فى المكتب أن أخى الأكبر فى البيت وأخبرنى أن آتى وأقوم بالترتيبات . كان ذلك لأنى أردتك أن تكون شاهدا حين أروى الحقيقة . وآمل أن تاتى هذه اللحظة وأنا وأنت معا" .

قلت : "انّ الأرض والمنزل لا يهمان الآن . غير أنى لا أعتقد أيضا أنك ستخبر أى شخص كان بأى حقيقة فظيعة ، هذا ، إذا كانت لديك حقيقة كامنة فى داخلك ، وبنفس الطريقة ، لا أظن أنى سأجد حياتى الجديدة ، أو كوخى المصنوع من الجريد .."

وعدنا جنبا الى جنب والبرد يتغلغل فى عظامنا الى المنزل .

كان الوقت غداء ، وكانت موموكو تضع الحساء للشباب الذين تحلقوا

حول المدفأة . وستكون هذه هى الوجبة الأولى تحت نفس السقف بالنسبة لتاكاشى واصدقائه وهم يحيون ويتدربون معا كما كان يفعل الشباب فى تجمعات الجيل السابق .

كان هوشيو منعزلا عن الدائرة السعيدة التى شكلها رفاقه الجدد ومعه عدد كبير من كرات القدم التى يقوم بتنظيفها . سلمت جثث الطيور لزوجتى ، وارتديت حذائى الكبير ، ثم شققت طريقى خلال الجليد الى المخزن .

الفصل التاسع

حرية المنفى

ومرت الأيام ، غير أن الجليد الناعم أخذ فى السقوط ، خائنا الأمل الذى كنت أخفيه فى أن يتحول الى قطع كبيرة مثل الزهور بل ظل بعيدا عن هذا الأمل .

وظللت معتكفا فى المخزن مركزا على ترجمتى ، دون أن أخرج قط الى الجليد . وكانت وجباتى تحضر الى هناك ، والوقت الوحيد الذى عدت فيه الى المبنى الرئيسى كان حينما احتاج إلى أن أجدد الماء فى الغلاية على الموقد . وفى أى وقت كنت أذهب فيه ، غالبا ما أجد تاكاشى وصحبه فى حالة من البراءة الطفولية ، مخمورين بالجليد دون أن تبدو عليهم أى بوادر من التعب أو التهالك الذى يصاحب الصداع الذى يعقب الشراب . ومسحت كميات جديدة من الجليد جميع آثار التدهور فيما قد استقر بالفعل مجددا باستمرار الانطباع الأول ، لذا لم تكن هناك أى فرصة أمام الأتباع المخلصين فى المبنى الرئيسى كى يشفوا من افتتانهم بالجليد . وبمرور الوقت ، اكتشفت أنى أستطيع أن استخدم الجليد المنصهر فى غلايتى وانقطعت حياتى بشكل حاسم عن المبنى الرئيسى . وقضيت ثلاثة أيام فى الجليد ، أحس بشعور الشخص المسترخى البعيد عن أى مراقبة ، وهو شعور قوى ، وبدأت تعبيراتى وحركاتى تهدأ وتبطىء .

وفى وقت مبكر من صباح العام الجديد ، أزعجت جين وعائلتها حياة الناسك التى كنت أحياها . وحدث الاقتحام عند الفجر . حين أيقظنى ابن جين الأكبر وقال إن امه تريدنى ، باعتبارى الرأس الحالى لعائلة

نيدوكوروكي أذهب وأسحب « المياه الأولى » ، كان جسدى مشدودا وهو يقدم لى منشور اعلان مكتوبا على ظهره بخط نصف مقروء وبه خريطة مرسومة . وأخفت العتمة فى بئر السلم وجه الصبى وحاولت أن أشق الطريق كى أحضر « المياه الأولى » التى استخرجتها جين نفسها ولكنى عدلت عن هذا ، وعدت الى أعلى ولففت نفسى فى معطفى . ووقف الصبى التعس الذى كان من الواضح أنه أمر باصطحابى فى هذه الحملة ، يرتعش ككلب مبتل أثناء انتظاره . وحين نظرت الى المنزل ، رأيت تاكاشى وزوجتى ينامان جنبا الى جنب بالقرب من المدفأة التى كانت بعض الجمرات فيها مازالت تعطى لونا أحمر متوهجا . وكان هوشيو تاكاشى يرقد وراء تاكاشى ، وموموكو تحت نفس البطانية مع زوجتى ، غير أن ذراع تاكاشى الذى كان ممدودا بوضوح كى يلمس جانب زوجتى تحت البطانية ، أعطى الانطباع أن الاثنين كانا ينامان وحدهما تماما . وبينما كنت أقف عند مدخل المطبخ ، وأنا منشطر نفسيا الى قسمين ، بين الاحراج وبين عدم قدرتى على أن أرفع عينى بعيدا ، أخرج أطفال جين من الأرض دلوا عميقا ـ وهو الدلو الذى كان مقدرا له أن يلعب دورا مقدسا وان كان قصيرا ـ من جانب الموقد . ثم غصنا فى الظلام الذى يملؤه الجليد . وأخبرنى الجليد الذى كان يصطدم بوجهى أن الجلد يحترق . وأنه مختلط بالدم ، غير أن استجاباتى كانت ثابتة عند نقطة السكون التام . وتذكرت بحزن الاحساس المميت الذى نما كالسرطان بينى وبين زوجتى ، واستحالة أى نشاط جنسى بيننا . وقلت لنفسى إنه من المؤكد أن هذا شىء مرغوب فيه على المدى البعيد بحيث يمكننا أن ننتهز أى فرصة للهرب جارين أقداما متثاقلة كمحاربين مرهقين ، من ذلك الوحل المستحيل . ومع ذلك لم أكن أسلم بامكان وجود علاقات جنسية بينها وبين تاكاشى ، وكل ماحدث هو أن عقلى المفرغ من كل شىء سوى الاكتئاب جعلنى أشعر بحاجة ماسة إلى أن أسرع من خلال الظلام ، وكان يستحوذ عليه من آن لآخر خيال غامض بأن شدة القوة المغناطيسية تلك التى شاهدتها بكل هذا الشعور الرواقى مكبوتة فى عضو تاكاشى المنتصب ، بينما كان يقف عاريا يغطيه الجليد بثت نفسها ـ أى تلك القوة ـ فى زوجتى النائمة من خلال الأصابع التى كانت موضوعة بين فخذيها ورفيها .

وكان الجليد منتشرا على الطريق الهابط من ضفة النهر الى الطريق الرئيسى من خلال الوادى شديد الليونة . ولابد أن ابن جين قد راقب بحدة أمه وهى تتفحص تقاويمها ورسوم الاتجاهات التى توجد لديها ، بحيث استنتجت منها الطريق الموصل الى (المياه الأولى) لأنه شق طريقه من خلال الجليد الذى يصل الى الركبة بثقة تامة . وحين أصبح النهر على مرمى البصر ، توقفت فى طريقى ، حيث صدمنى منظر الماء الأسود المحشور بين الجليد . وعلى الفور ، فان شذرات الخيال الطافية فى الفضاء داخل عقلى الذى لم يكن قد استيقظ يقظة تامة ، تكثفت وهوت على الأرض . « أنت غريب ، ليست لك أى صلة بالوادى » ظللت أردد هذه العبارات لنفسى كتعويذة كى أبعد الأشياء المرعبة التى هددت المياه السوداء بأن توقظها داخل نفسى . غير أنه رغم احتمال نجاحى فى نفى كل ما للمياه السوداء من معنى ، كان النهر الأسود المسجون داخل الجليد هو المنظر الذى يسبب لى أكبر تهديد ، كان على أن أواجهه منذ عدت الى الوادى . وبما أن ابن جين قد افترض ، أنى قد حشرت ، خوفا من أنى قد أفقد موطىء قدمى فى الجليد الآخذ فى العمق فقد انتظر لبرهة ، ولكنه فى النهاية أمسك بالدلو من يدى ، ونزل الى حافة الماء وحده ، وانحدر حتى ركبتيه فى المنحدر الجليدى . وتبع ذلك صوت خرير مياه متلصص بل مذنب تقريبا ، ثم خرج الولد بجهد الى أعلى المنحدر ومعه المياه التى سحبها من النهر ، ورأيته يحمل ، بالاضافة الى دلوى علبة لبن مجفف وجدها فى مكان ما وملأها من ماء النهر ، فقلت له : « كان فى امكانك أن تحصل على بعض من مياهنا الجديدة لو شئت » غير أن الصبى غطى العلبة فجأة بكلتا كفيه وكأنه يحميها من الهجوم .

أدركت أى فكرة عنيدة تشكلت توا فى رأسه الصغير . ذلك أنى لم أقم بنفسى بسحب (مياهى الأولى) بل جعلته يحصل لى عليها . وقد جعلها ذلك شيئا زائفا ، بينما كانت المياه التى ملأت علبته (مياه أولى) حقيقية . طالما سحبها هو بنفسه . حتى الآن ، كانت عائلة جين تتقاسم (المياه الأولى) مع آل نيدوكورو كما أنى لو نزلت الى حافة المياه كى أسحبها بنفسى ، فلربما قنع بنصيب من مياهنا (الحقيقية) على أى حال ، فما

دمت وقعت فى الفخ وسمحت بأن تسحب بزيف على اسمى ، طرأت له فكرة أن يسحب بعضا من المياه لنفسه وأن يأخذها الى منزله . لو ان ابن امرأة سمينة بشكل يائس بحيث لايمكن علاجه فى مقدوره أن يكون مع ذلك متصوفا ، اذن لابد من وجود حقيقة ما قوية تكمن فى تلك العملية . والآن وقد صحا عقلى صحوا تاما ، بدأت أشعر أنه كان من الحمق أن أنزل الى النهر فى الفجر ، فخطوت عائدا فى حالة مزاجية سيئة . ذلك أن مهمة سحب (المياه الأولى) كانت ستلائم تاكاشى أكثر .

سلمت الدلو لابن جين أمام المنزل الرئيسى كى لا أضطر إلى أن أرى الناس وهم نائمون هناك مرة أخرى ، وأخبرته أن يأخذه الى المطبخ ، وعدت أدراجى الى المخزن . غير أن أوجاع كتفى شوهت الأحلام التى حلمت بها أثناء غفوتى التى استأنفتها ، فعانيت من كابوس صحت أثناءه وكتفاى فى قبضة يدين ضخمتين خرجتا من مياه النهر الخلفية .

وقبل الظهر ، حضر الصبى كى يستدعينى كى أقابل جين التى حضرت على رأس كل أطفالها النحال لتقدم تحايا العام الجديد . وحين نزلت ، وجدتها أكثر سمنة عن ذى قبل ، جالسة على حافة الأرض المرتفعة فى المدخل ، فى مواجهة للجليد الثقيل الهابط ، كانت اشبه بنصف كرة ضخم قد تدحرج من مكان غير محدد على الاطلاق . خطوت الى أسفل المدخل كى أكفيها مؤونة أن تدير جسدها ، ووضعت نفسى جنبا الى جنب مع العائلة بجانبها وكانت إلى حد ما مائلة على أحد الجانبين . وكان وجهها المضاء من كل الأنحاء بالضوء الذى لا ظل له والمنعكس على الجليد ، يتفجر بالشباب . وسرت رعدة فوق صفحة وجهها المشدود الخالى من التجاعيد الجامد كالمعدن ، غير أنها لم تفعل شيئا سوى النظر الى واستمرت فى التنفس بصعوبة وألم دون أن تتكلم . ذلك أن مسيرة بضع ياردات من المبنى الخارجى قد فتت من عضدها حتى صارت أشبه بخنزير البحر العليل ، ورفضت عائلتها أن تقول شيئا مادامت هى لاتزال صامتة ، ولما كنت قد نزلت الى المدخل فى حالة من التوتر الغامض ، فلقد وجدت نفسى فى حيرة من أمرى على نحو غريب . كانت العائلة ترتدى تقريبا الملابس التقليدية للعام الجديد باستثناء جين نفسها ، التى كانت مدثرة

بنوع من الحقيبة السوداء التى لاشكل لها ، ليس لها مقدمة أو مؤخرة أو جزء علوى أو جزء سفلى ، أما أنا ، فكنت لاأزال أرتدى القميص والسويتر الثقيلين اللذين ذهبت بهما للنوم ، ولم أكن حتى قد حلقت ذقنى ، فبدأت أقلق من أن تحس جين بأن تجشمها الجهد خصيصا كى تقدم تحية العام الجديد لم تلق إزاءه الاعتراف المناسب . وعموما ، وبعد فترة بدت وكأنها لانهاية لها ، أنفقت فى استردادها لتنفسها ، جلت حنجرتها بصوت مبحوح ، وبهزال ، وبدأت تتحدث مستعرضة قدرا كبيرا من حسن النية :

« عام جديد سعيد عليك ، ياميتسوسابورو » « وعام سعيد عليك ياجين » . ثم بدأت تعلن مباشرة : « ان البعض يأملون ! فى أنفسهم ، ماذا عساه أن يكون سعيدا بالنسبة لمخلوقة بائسة مثلى . فلنفرض أن القرية بأكملها اضطرت الى الجلاء مرة أخرى ، فكيف لى أن أنجو . أود أن أعرف ؟ انى سأترك حتى تنهشنى الكلاب أو أموت جوعا » .

فسألت « لم تثيرين هذه القصة القديمة الآن فمن المؤكد أن آخر مرة خرجت فيها القرية بأكملها كانت قبل انتفاضة عام ١٨٦٠ ؟ » ولكنها استمرت تقول بصوت يملؤه الحمق العنيد : « ألا تصدق ذلك ، لقد رأيتهم يذهبون مباشرة بعد الهزيمة ، حين جاءت قوات الاحتلال فى سيارات الجيب . ألا تذكر ؟ اذ فر الى الغابة كل الأصحاء ، تاركين الشيوخ والعجزة فى الوادى . هذا هو ما أتحدث عنه » .

قلت : « ولكنك على خطأ ياجين . فأنا أعرف ذلك لأنى كنت فى الوادى حين وصلت أول سيارة جيب . لقد أعطانى شخص ما علبة من الهليون غير أن الكبار لم يستطيعوا معرفة ما اذا كان هذا شىء للأكل أو ماهو بالضبط ، لذا تركتها فى النهاية فى حجرة المدرسين فى المدرسة الابتدائية » .

فأصرت فى هدوء قائلة : « كلا ، بل ذهب جميعهم بعيدا ! »

وتدخل زوج جين الرزين فى الحديث قائلا : « لقد بدأت جين تفكر بشكل مضحك ، يا ميتسوسابورو . » الا أن ملحوظته ضايقت الأطفال ، الذين أظهروا علامات من القلق المؤلم كان باديا لأى شخص محايد .

لم أستطع أن أمنع نفسى من تذكر ، كيف أنه فى الكابوس الذى حلمته

بالهجوم على المخزن ، ظهرت جين كشخص ليس لديه أى أمل فى النجاة . ومع ذلك بينما راقبتها جالسة هناك ـ كان بها مما يوحى بالعافية الذهنية مايكفى ليكذب ما بجسدها من عدم تناسق ـ بعينيها الصغيرتين الغائرتين مثل السرة فى لحمها ووجها الذى أخذ يزداد ضيقا فى مواجهة الجليد الذى يصيب لمعانه المرء بالدوار ، والشفتين اللتين امتصهما لحم الفكين ، والأذنين القذرتين وكأنها مقابض تلتصق بالبدر . فكان مظهر الاضطراب العقلى الذى اشتبهت فيه ماهو الا حيلة جديدة دبرت كى تمنعنى من عرض المبنى الخارجى للبيع . ومع ذلك ، ولسوء الحظ ، كان عليها أن توجه مكروها نحو تاكاشى وليس نحوى ، فلقد باع تاكاشى بالفعل أراضى آل نيدوكورو ومبانيهم بما فى ذلك منزل جين . ولو كان هناك أى شىء يؤهل تاكاشى للعب دور الشرير الفعلى ، فان ذلك الشىء هو السقطة التى سمحت له بأن يخون بمثل هذه السهولة الخطط التى تثير الشفقة لامرأة فى منتصف العمر حكم عليها أن تنحشر فى ذلك الوادى المنسى بسبب حجمها غير العادى .

قالت : « ستقدم قرية أوكوبو للكلاب ، اذ فقد الناس احساسهم بالتهذيب . ولتأخذ الليلة الماضية ، على سبيل المثال ، فقد كانت ليلة رأس السنة ، غير أن معظم الناس فى الوادى حشروا أنفسهم فى المنازل التى بها أجهزة تليفزيون ، مما عطلهم عن القيام بالاستعداد للعام الجديد أو القيام بأى شىء آخر . انى أسمى هذا شيئا مقززا » .

فسألت الأولاد : " هل ذهبتم وشاهدتم التليفزيون ؟ »

فأجاب الابن الثانى بفخر : « لقد ذهبنا وشاهدنا استعراض العام الجديد . بعض المنازل كانت تشاهد التليفزيون خلسة ، ومعظم الأطفال كانوا ينتقلون من مكان لآخر ولم يذهبوا الى منازلهم حتى أبعد الجميع أجهزتهم فى الغرفة الخلفية » .

عدت الى الطابق الأعلى من المخزن بينما قامت جين وعائلتها برحلتهم الطويلة المريحة خلال الجليد نحو المنزل الرئيسى ، فى طريقهم الآن كى يقدموا التحية لتاكاشى والآخرين . حين نظرت من النافذة ، كان جسد

جين أشبه بالرجل الجليدى المتأرجح . استطعت أن أرى قمة رأسها المستدير الآخذ فى الصلع من المنتصف . وشاهدتها بعد قليل مرة أخرى ، يسندها عدة رجال فى طريق عودتها الى المبنى الخارجى .

وفى صباح الرابع من يناير ، ذهبت الى الوادى لأول مرة كى أطلب مكالمة تليفونية للخارج . وكان الجليد يسقط لعدة أيام ، غير أن الطريق الضيق المؤدى الى الساحة المفتوحة أمام مكتب القرية ، لم يكن من الصعب التفاهم معه ، طالما كان هناك أساس من الجليد المتماسك تحت الطبقة الرقيقة الجديدة على الطريق . وقد شغل أعضاء فريق كرة القدم الشباب الاثنى عشر الساعات الأولى من العام الجديد - التى قضاها الشيوخ فى السكر حتى الثمالة - شغلوا تلك الساعات بالتدريب النشيط . وحين جريت ، ومررت بالسوبر ماركت ، رأيت منظرا يثير الاضطراب بشكل غامض ؛ إذ كان المحل مغلقا مؤقتا بباب ضخم مصنوع كدبابة ، وعدد من زوجات المزارعين من الريف واقفات جامدات تحت الأفاريز ، وكل منهن يصحبها طفل . وكانت السلال الفارغة التى يحملنها فى أذرعهن توحى بأنهن ينتظرن أن ينفتح المحل كى يشترين شيئا ما . لابد أنهن انتظرن فى صبر حيث أن الأطفال كانوا يدورون حول الجليد فى تعب . وكان السوبرماركت مغلقا منذ اليوم الأول فى العام الجديد . وكانت الأبواب ، فى الواقع عليها الأقفال ، ولاتوجد بالقرب منها أى علامة على وجود عمال . لم يجب أن تقف النسوة بسلال تسوقهن الفارغة ؟ ومررت بهن ومازلت فى عجب .

لاحظت وانا فى طريق عودتى رجلين يواجه كل منهما الآخر ، أمامى ، يمد كل منهما يديه بتجهم نحو رأسيهما كل بدوره . فاقتربت ورأسى مطأطأ الى أسفل كى أحمى وجهى من الجليد الذى تحمله الريح ، التى كانت تهب بكاملها على فى طريق العودة فلم أعر أى اهتمام لما كانا يقومان به من طقوس . كنت أكثر اهتماما بالريفيات اللاتى يقفن بلا هدف أمام المدخل الرئيسى المغلق بشكل حاسم . اقتربت ووجدتهن لاتزالان هناك ، بل إن عددهن قد تضخم فى وقت وجيز جدا فصار أكثر من عشر . أما الأطفال الذين كانوا يمشون حول المكان أو يدورون فى الجليد منذ برهة قد تعلقوا

بأرجل أمهاتهم فى ذعر . وأحسست بأن شيئا مايحدث ، توقفت ورأيت الرجلين ، يتعاركان عراكا شديدا . فلم يكن لدى بديل سوى الوقوف هناك ، وبشعور عميق بالحرج أصبح أقرب الى الخوف بسبب المسافة القصيرة بيننا ، أخذت أراقب هذا التبادل الصامت للكمات الذى يوحى بأنه أحد الطقوس المكتوبة مسبقا .

كان كلا الرجلين ، وهما من أهالى الوادى المحترمين فى منتصف العمر ، يرتديان سترات وقمصانا بلا ربطات عنق ـ وهو الشكل العادى لملابس الاجازة فى الوادى ـ يشربان بإفراط . وكان وجهاهما بلون النحاس الأحمر ، وتشع منهما الحرارة ، ولم يكونا يحركان نصفيهما السفليين على الاطلاق ، ويبدو أن ذلك كان سببه الخوف من أن يطأ منطقة من الأرض بها جليد غير صلب وعميق ، وبالتالى من أن يفقدا مواطىء أقدامهما وليس بسبب مجرد الاصرار الجاد . كما كانا يتبادلان الدور فى ضرب الواحد منهما للآخر بقبضات محكمة ، فى كل مرة لكمة : فى الأذن والذقن والرقبة . وكانا يهاجمان بعضهما بعضا بحمق الكلام الصامت صمتا تاما .

وبينما رحت اتطلع اليهما ، كانت نشوة قد بدأت فى الانحسار عن وجه الرجل الأقل حجما . وشعرت أنه لدى اللكمة التى سيتلقاها ، ستنفجر صيحة كالعرق فوق جلد وجهه المتوتر الجاف الشاحب . الا أنه عند هذه النقطة ، استل بجنون شيئا من جيب سرواله الخلفى وأمسك به بقوة فى يده ، وهاجم فم مهاجمه . فصدر صوت أحد القواقع البحرية وكأنها تنشق بالسنارة وطارت شريحة مثل الزبد الأحمر نحوى . اندفع من جانبى الجريح ورأسه مطأطأة وهو يغطى الجزء السفلى من وجهه الذى كان مازال أحمر كالنحاس بفعل الشراب ، فجرى مهاجمه خلفه بكل مايملك من سرعة . وسمعت بجوار أذنى مباشرة ، أنين الضحية المؤلم الضعيف والتنفس الثقيل الصادر عن الرجل الذى يطارده ، ثم استدرت كى أراهما يختفيان على البعد . فأخذت أدور ببصرى على الأرض بحثا عن ذلك الشىء الذى سقط فى الجليد . وجدت شيئا يشبه حجم حبة المشمش مصنوعا من الحجارة وفى أسفله شىء يشبه برعم شجرة أصفر . فمددت يدى ، والتقطته بين أصابعى ثم ألقيت به على الأرض مرة أخرى ، ذلك أن أمعائى أصابتها نوبة تقلص . فلقد كان سنة مخلوعة ، وجزءاً من اللثة .

كانت النسوة لايزلن واقفات أمام السوبرماركت يحملقن بلا هدف فى الفضاء . وظل الأطفال يتعلقون بأهداب معاطف أمهاتهم ، اذ لم يكونوا قد تغلبوا على خوفهم بعد . وأخذوا يسترقون النظر الى وكأنى أمثل تهديدا جديدا . كذلك مازال الناس فى البيوت المجاورة ، الذين لابد ، أنهم شاهدوا كل شىء بينما كانوا ينظرون بإمعان من بين الكآبة الراقدة خلف الأبواب المنزلقة الزجاجية ، ظلوا مختفين ، ولم يتحركوا أى حركة الى الخارج .

فررت من الموقع على عجل ، شاقا طريق هروبى من خلال طريق الحصى بنفس الاحساس بالتعجل العاجز الذى يفر به المرء من شىء مرعب فى أحد الكوابيس ، وكنت كثيرا ما أتعثر فأبتعد عن منتصف الطريق وأسلم نفسى الى أماكن لم يطأ أحد ما علاها من جليد بعد .

لقد بلغت حدا من الانزعاج جعلنى ، ولأول مرة منذ أقمت فى المخزن ، أشعر بدافع ملح لأن أروى تجربتى لتاكاشى . فناديت عليه كى يأتى الى الخارج وأنا أتجه نحو المنزل الرئيسى . وكان الشباب المقيمون هناك يعملون بطريقة استراتيجية فى المطبخ ، فترددت فى الدخول . غير أنه رغم أن تاكاشى أصغى بانتباه لما كنت أرويه له ، فإنه لم يتأثر بقلقى العميق . « فلقد حدث الكثير من أنواع الشجار منذ أول يوم فى العام الجديد فى الوادى ، ياميتسو » ، واستمر قائلا : « لقد كان كبار القرية مشدودى الأعصاب فى الأسابيع الأخيرة . ومما يزيد الأمور سوءاً هو أنهم ليس لديهم مايقومون به أثناء عطلة العام الجديد سوى شرب الأنواع الرخيصة من الخمور ، كذلك فان أكثر الشباب عنفا ، والذين كانوا فى السنوات العادية موجودين هنا يتدربون بكل مالديهم من جهد . لذا فان الرجال الأكبر سنا ، والذين كان ينبغى أن يكونوا أكثر تعقلا ، اضطروا إلى أن يقوموا بالعراك بدلا منهم . وهل لاحظت أنه حتى حين يبدأون فى عراك لايحرك أحد ساكنا كى يوقفهم ؟ ذلك أن معارك الكبار أكثر توريطا من معارك الشباب ، فمن الصعب على الأغراب أن يتدخلوا . لذا تستمر معاركهم الى أجل غير مسمى » . غير أنى قلت باصرار ، وأنا غير مقتنع بالطريقة التى وضع بها تحليل تاكاشى فى اطار الحياة اليومية العادية : « ليكن مايكون ،

فأنا لم أر فى حياتى شخصين من الوادى يضربان بعضهما بعضا بكل هذا العنف الى أن يفقد أحدهما احدى أسنانه وجزءاً من لثته معها . فلقد كانا يتلاكمان فى صمت مطلق .»

« قد تكون على صواب ، فعلى حد ما أذكر ، لم يكن لك أن تر مثل هذا العنف السافر فيما مضى من أيام ، هنا وعلى الأخص فى الصباح . وفى وقت ما ، حتى بالنسبة لشجار أقل خطورة ، من ذلك ، كان الأطفال يجرون الى قسم الشرطة . أما فى هذا الصباح ، جلس الجميع داخل بيوتهم ، وأخذوا يتفرجون » .

« ان رجل الشرطة ليس فى القسم ، اذ تسلم برقية تستدعيه للذهاب الى المدينة فى وقت متأخر من الليل يوم بدأ الجليد ينزل ، ذلك أنه لاتوجد أوتوبيسات قادرة على اجتياز المكان ، وهوت أسلاك الهاتف مع الأشجار التى سقطت بفعل الجليد . وعلى ذلك ، لا يدرى أحد هنا كيف يقضى رجل الشرطة عامه الجديد » .

تبينت رغبة ممكنة فى اثارة الشك فى الطريقة التى كان تاكاشى يتحدث بها ، غير أنى كبتت ذلك الاغراء للحصول على المزيد من المعلومات . كنت أود أن أظل منعزلا عن أى شىء يفعله تاكاشى وفريقه . ذلك أن أداء لعبة تاكاشى عن طريق التورط فى التلميحات المحيرة التى كان يتصدق بها على أجزاء صغيرة يعد أمرا خطرا ومملا . وبالاضافة الى ذلك ، فلقد تخليت عن التفكير فى انتقاده على الاطلاق ، مهما حدث . فقلت على سبيل تغيير الموضوع : « من المؤكد أن السوبرماركت مغلق بسبب عطلة العام الجديد ، غير أنه كانت هناك مجموعة من النسوة أمام المدخل الرئيسى . وانى لأعجب لِمَ يقفن » .

قال ، ربما كى يحرك شكوكى مرة أخرى . « أوه هل بدأن فى الوقوف هناك بالفعل ؟ سوف نقدم نوعا من الاستعراض فى السوبرماركت بعد ظهر اليوم . لم لا تأتى وتتفرج ياميتسو ؟ »

قلت وأنا أنظر الى الأمام « لا أشعر برغبة فى ذلك »

فقال تاكاشى : « ياله من ناسك صغير ، أليس كذلك ؟ فهو مقتنع منذ

البداية بأنه لايريد المجيىء ، دون أن يسأل حتى عن نوع الاستعراض » .

قلت : « هذا صحيح . فليست لدى أى رغبة فى الخروج عمّا أنا عليه كى أشاهد أى شىء يحدث فى هذا الوادى » .

« اذن فليست لديك رغبة ايجابية أن تشاهد أى شىء هنا ، ناهيك عن المشاركة فى أى شىء ، بالطبع . يمكنك ألا تكون هنا أصلا » .

فرددت قائلا : « انتبه الى ما أقول ، أنا أقيم هنا ضد ارادتى ، بسبب الجليد ، وأيا كانت غرابة الأشياء التى تحدث هنا ، فكل ما أطلبه هو أولا أن أخرج من هنا ، ثم أنسى كل شىء عن هذا الثقب فى الغابة مرة واحدة والى الأبد » .

ابتسم تاكاشى وكأنه يسخر منى ، ثم هز رأسه فى صمت ، وتراجع الى المطبخ . وداخلنى شعور بأنه حريص على أن يبعد عينى عن العمل الذى يقوم به الشباب فى المطبخ . غير أنى لم تكن بى رغبة فى التدخل فعدت الى المخزن .

حين أحضرت مومكو وجبة غدائى ، حاولت أن تراودنى كى أنظر من نافذة المخزن كى أرى الرايات الجديدة على سطح السوبرماركت . ولما سحرنى ذلك التوتر الطفولى ، لم أجد الشجاعة فى أن أرفض . وكان نوعان من الرايات يرفرفان فوق المخزن الذى أصبح الآن يشكل السوبرماركت . أحدهما باللون الأصفر والآخر بالأحمر . وجعل الجليد المتساقط باستمرار فى الحارة المنظر بأكمله أشبه بدار سينما قديمة . وحين استدرت بعيدا عن النافذة ، وجدت مومكو تراقبنى بانتباه وعيناها مليئتان بترقب . ومن الطبيعى أنى لم تكن لدى أى فكرة عن دلالة نوعى الرايات . فقلت : « انى لأعجب لم أنت مسرورة بهذه الرايات ؟ »

رددت مومكو سؤالى وهى ترتعش وفى عينيها نظرة برية تقريبا ممزقة بين ماهو محرم والرغبة فى أن تروى كل شىء .

« لماذا ألست مسرورا بها اذن ؟ »

قلت : « حين أعود الى طوكيو سأرسل لك بعض الرايات اللطيفة حقا

ياموموكو » . قلت ذلك كى أشاكس هذه العضوة الصغيرة من حرس تاكاشى ، وأبدأ فى تناول غدائى . « لو نزلت الى الوادى فى الساعة الرابعة ، فقد تكتشف ماسيحدث ، ياميتسو ـ تذكر الساعة الرابعة ـ أراهن أنك ستريد أن تعرف ماذا يختمر . غير أنى لا أستطيع أن أخبرك ، اذ ليس فى امكانى أن أخذل الفريق » .

لم أستطع أن أمنع نفسى من الابتسام لها ، إذ بدا عليها وكأنها ارهابية من الطراز القديم وهى فى ثوبها الهندى الجلدى الذى ظلت ترتديه بزهو رغم الجليد دون ملابس داخلية كما فعلت فى أول يوم فى المطار .

بعد ظهر ذلك اليوم ، ارتفعت صيحة عظيمة متكررة من العديد من الحناجر قادمة من قاع الوادى . صيحة قوية تمزج بين الالحاح والاثارة التى تجلب البهجة وتغرى أكثر جوانب النفس خجلا ، وكأنها تتغلغل فى مخاط غشاء المخ . فأثار الصوت ذعرا لامبرر له بداخلى ، وكأنى ضبطت متلبسا وأنا أجلب العار على نفسى بارتكاب عمل اباحى استعراضى . وجدتنى أسأل بصوت مرتفع : « ما الأمر ؟ ماذا حدث بحق الجحيم ؟ » وعلى الفور شعرت كأن شيئا لا اسم له قد يجيبنى من احدى جنبات المخزن ، ولكنى صحت : « لا ! لا ! » تضخمت الصيحات ، وأخذت تكبر فى هيئة موجات . ثم مات الصياح بعد برهة ، وحل محله تضخم صوتى أعمق ، استمرت الأصوات فى الارتفاع والانخفاض بنغمات متساوية ، مما أمكننى من الاستمرار فى الترجمة ، ولكن ما إن بدأت تلك الأصوات تتدخل بما فيها من تقطع وعدم تحديد ، لم يعد فى وسعى التركيز ، وبعد مرور بعض الوقت ، نهضت وذهبت الى النافذة ، واذ شعرت بالبرودة تشع من عينى وخدىّ الخجلين ، نظرت بتدقيق من خلال الزجاج الذى غطاه السحاب فى الفضاء فوق الوادى ، حيث كان المساء قد دنى بالفعل . عند ذلك الوقت ، كانت آثار من الجليد الرقيق للغاية تسقط . وكانت الغابة ترقد فى ظل عميق حول الوادى ، الذى بدا كأن شبورة لبنية مائعة تملؤه وحتى الجو بسحبه الجليدية كان أشبه بيد ضخمة ذات لون بنى داكن يمسح الوادى من تحته . ولما أجهدت عينى المدربة كى أتبين رايات السوبر ماركت ، أخذت تظهر بالتدريج من خلال الشبورة ، بدت منها مشغولات من الصينى تقع تحت ماء موحل .

لم تكن لدى أى فكرة عما يحدث فى السوبر ماركت ، غير أن ذكرى النسوة اللاتى ظللن دون حراك أثناء الصراع بين الرجلين ظلت عالقة دون أن تهضم فى عقلى ، صارت مهددة الآن من جديد بسبب الصيحات القادمة من الحارة .

وقبل مرور وقت طويل عدت الى مكتبى ، متعبا باحساس قلق بعدم الكفاءة . فلقد نجحت فى الاحتفاظ بالحذر الذى فرضته على نفسى بعدم النزول الى الوادى ، غير أن هذا الحذر لم يمنعنى من التفكير فى أن شيئا شاذا لابد أن يكون قد حدث هناك ، كما كان من الواضح أن ذلك الشىء له صلة بتاكاشى وفريق الكرة . ولما كنت عاجزا عن العودة الى ترجمتى ، أخذت مفصلا من ذيل الثور المتبقى من وجبة غذائى من العصيدة التى تناولتها وأخذت فى رسمها بتفاصيل دقيقة .

فى الساعة الخامسة ، أسدل الظلام أستاره ، خارج النافذة ، غير أنى استطعت أن أسمع جلبة كثيفة مختلطة بصيحات من الاثارة . كما سمعت على فترات يزداد تكرارها ، ضوضاء تفجرات من ذلك النوع الذى يحدثه الناس حين يكونون سكارى . وحضر أولاد جين ، الى البيت ، وهم يتحدثون معا بسرعة وحيوية بأصوات مرتعشة من فرط النشوة . فى الأحوال العادية ، كانوا يخفضون أصواتهم فى خجل وهم يمرون أمام المخزن تقديرا لما أقوم به من عمل ، غير أنهم فى هذه المرة لم يكن فى وسعهم الاهتمام بالرجل الجالس فى حالة من العزلة ، إذ أعطوا ، شأنهم شأن الكبار ، الانطباع بأنهم شاركوا فى نشاط له تبعة مفيدة لمجتمع القرية .

وقبل مضى وقت ، طويل ، عاد تاكاشى وفريقه الى المنزل وكانت الحديقة الأمامية مليئة بالجلبة لبرهة ، بسبب كثرة الأصوات . واستطعت أن أسمع أحيانا صيحات مختلطة ممزوجة ترتفع من الوادى وكأن العديد من جماعات السكارى تتشاجر حتى فى منتصف الليل فى نفس الوقت .

أحضرت زوجتى العشاء . وكانت ترتدى حول رأسها عباءة من نفس النوع المزين بشكل يخلو من الذوق الذى رأيت جمهرة النسوة ترتدينه .

ربما كانت تأمل فى أن تقدم نسخة من سحر فتيات الوادى الشابات المتبلدات ذهنيا . غير أن العباءة لم تفعل سوى ابراز جبهتها العريضة جيدة الشكل ولا تضفى عليها سوى طابع من النضج . وفوق ذلك ، لم تكن قد بدأت فى تناول الويسكى بعد فى هذا المساء .

قلت : "أصغر قليلا من سنك ، أليس كذلك ، أعنى هذا الذى ترتدينه ؟ أم أن روح فريق كرة القدم العالية تعيد الشباب" ؟

كنت أود أن أبتلع لسانى قبل أن أدلى بهذه الملحوظة التى تشى بالغيرة .

قالت بطريقتها التى أصبحت ملازمة لها حين لا تكون مخمورة : "هل رأيت الرايات ؟ لقد كانت ايذانا ببدء حفل يقدم فيه الامبراطور هدية لجميع العملاء ، كان الجميع يتزاحمون لتسلم هداياهم وقد أعطونى هذه العباءة . وهذا هو السبب فيما أثير من ضجة وجلبة . وعند المساء كان الرجال يخرجون بأشياء كبيرة مما زاد من الصياح . اخذ بعض الرجال زجاجات الخمور وراحوا يشربون حتى صاروا مخمورين . لقد شققت طريقى بصعوبة بالغة بين النساء . لابد أن تشكر طالعك اذ لم يضبطك أعضاء الفريق متلبسا بهذا القول" .

كانت وهى تقول ذلك توحى بانطباع من الشباب والقوة ذكرنى بما كانت عليه فى الماضى .

ثم لاحظنا اقتراب الكاهن ، فقالت : "يبدو أنه قادم كى يعرف رأيك فيما حدث اليوم . رغم أنه سرعان ما فر الى منزله ، مع ذلك ، حين هدده الشباب بأسلحتهم البشعة . هل مازلت تثق فى قوتك الجسدية ياميتسو" ؟ كانت بذلك تسحب منى احترامى لذاتى ، تماما كما ينزع المرء اللحم من قوقعة من الأعماق - وهو الاحترام الذى قمت بتقطيعه الى قطع صغيرة بقدر ما أمكننى واحتفظت به بعيدا دون أن يرانى أحد - وأخرجته فى النور بغرض واحد وهو احداث خسائر . أشعلنى الغضب بحيث عدت الى الحياة . فقلت : "ان كل شىء يحدث فى هذا الوادى ليست له أى صلة من أى نوع بى . ولا يرجع هذا الى مقت لتاكاشى وكذلك لا يرجع الى عكس

ذلك ، كل ما هنالك أنى تخليت عن أى رغبة فى انتقاد أى سلوك يسلكه هو وفريقه . وأيا كانت الأمور التى قد تنمو هنا ، فأنا انوى مغادرة الوادى بمجرد عودة المواصلات الى وضعها الطبيعى ، وأن أنسى كل شىء" . كنت أتحدث بقوة وتأكيد كى أطمئن نفسى بأن هذا هو شعورى بالفعل . وحتى اذا جاءت تلك الصيحات التى توحى بالرغبة المخجلة من الوادى مرة أخرى غدا ، مع ما تسببه من ازعاج ، فلقد انتويت تجاهلها ومواصلة الترجمة ، فهى حوارى الداخلى مع صديقى الذى قتل نفسه . ففى كل مرة كنت أبحث فيها عن لفظ ، كنت أسأل نفسى ماذا عساه كان سيستخدم بالنسبة لهذه النقطة ، وأستمتع بالاحساس اللحظى بالتواصل مع الموتى . فى أوقات كهذه ، كان صديقى أقرب لى جسديا من أى شىء على قيد الحياة .

قالت زوجتى : « أنى أنوى البقاء مع تاكاشى ، ربما يجذبنى سلوكه لأنى أنا نفسى لم أخرق القانون أبدا . فكل شىء فعلته كان داخل اطار قوانين الدولة ، بما فى ذلك الوقوف مكتوفة اليدين وأنا أرى طفلى يتحول الى شىء أكثر قليلا من حيوان » .

قلت : « أوافقك تماما ، فقد عشت أنا شخصيا بهذه الطريقة ، واذا شئت الحقيقة ، فليست لدى الرغبة ، لأنتقد أى شىء يفعله أى شخص . كل ما هنالك أنى أنسى أحيانا » .

ثم ممرنا بفترة صمت محرجة ، كل منا يبعد عينيه عن الآخر ، ثم قالت بخجل وهى تقرب وجهها من ركبتى : « اذن فقد كانت ذبابة كبيرة ملتصقة هناك ، ياميتسو . لم لا تنتزعها » ؟ أصبح صوتها أنثويا ، عليه مسحة من رقة شخص يحس بالخجل من نفسه . وبحالة مزاجية من العذوبة التى لا نهاية لها ، محوت البقعة الرقيقة الآخذة فى الجفاف من على ركبتى ، بأحد أظفارى . احسست أننا مازلنا رجلا وزوجته ، ولا بديل أمامنا سوى الاستمرار معا ، فى حياتنا المشتركة بهذه الطريقة الى ما لا نهاية . لقد كانت تسيطر علينا حالتان عقليتان شديدتا السوء ومن خلال هاتين الحالتين كنا متشابكين معا بما لا يمسمح لنا بالطلاق .

فهمست وهى تنظر الى البقعة : « ألم يكن شوبنهاور هو القائل ، يمكنك

سحق ذبابة غير أن ذلك الشيء فى حد ذاته لا يموت » ، لقد كانت هذه هى أول كلمات قالتها تبين أنها بدأت تعبر عما تحس به من توتر لم يعد خافيا .

فى وقت متأخر من تلك الليلة ، وأنا أرقد نصف نائم ، سمعت صرخة مرتفعة من صوت فتاة ، بدا الصوت كأنه يخرج من رأسى ، ولم أستطع أن أتبين ما اذا كانت هذه الصرخة تعبر عن الخوف أو الغضب الشديد . ولكن حين ربطتها بمهارة ، بذكريات نقطة ما فى مكان ما بين ذكريات النهار ، وعالم الأحلام ، تخليت عنه وأعددت نفسى للعودة الى النوم . ومع ذلك ، وعند الصرخة الثانية تراجعت كل من الذكريات والأحلام ، ورأيت موموكو بتفاصيل حية ، كما يحدث فى الصور التى تظهر على الشاشة ، كانت فاغرة فاها ، تصرخ بكل ما أوتيت من قوة . وجاء من المنزل الرئيسى مايدل على أن عددا كبيرا من الناس فى حركة مخيفة ، اتجهت الى النافذة التى رأيتها بصعوبة فى الظلمة . فنظرت فى اتجاه المنزل . وفى الحديقة الأمامية وقف تاكاشى يقف مرتديا قميصا داخليا وسروال تدريب مع شاب يرتدى كيمونو قصير . وكان أعضاء فريق كرة القدم يقفون تحت الأفاريز فى صف عاقدين اليدين ، ويرتدون سترات متشابهة . وأظهر الشاب الذى كان مواجها لتاكاشى ، كل العلاقات التى تدل على أنه قد أخرج من المجموعة . وكان يفسر مافعل فى انحطاط ، وباستفاضة لتاكاشى . وبدا أن أخى الذى كان ينحنى الى الأمام وذراعاه معلقتان الى جانبه يصغى بانتباه لما كان الشاب يقوله ، غير أنه فى الواقع ، لم يكن يقوم بأى محاولة على الاطلاق لفهم اعتذارات الرجل الأضعف . بل كان يثور على فترات غير متوقعة ، ويكيل ضربة قوية للشاب على أحد جانبى رأسه ، وكأن شيئا شديد القسوة سرى خلال جسده من الوسط وانزوى على شكل وميض من البرق الأرجوانى وسمح الشاب لنفسه بأن يضربه تاكاشى مرات متتالية دون مقاومة ، وأخذ يغشى عليه فى هزال حتى فقد موطىء قدميه فى الجليد فى النهاية وانقلب الى الخلف . ثم هوى تاكاشى فوقه حيث كان يقع واستمر فى ضربه . فضغط على معدتى بقسوة بالذعر الجسدى لدى رؤيتى لقريب لى يقوم بعمل من أعمال العنف . فأرخيت نظرى وفى فمى حزن مر المذاق ، وتراجعت خلال الظلام الى أغطيتى . ولم يعد هذا الأخ الذى

استمر فى ضرب شاب أصغر سنا على وجهه مجرد هاو فى فنون العنف . اذ كانت قسوته المتشنجة ومثابرته على الانتقام هى العلامات التى تميز المجرمين .

وتعجبت فيما اذا كان شيء ضار قد حدث لعينى السليمة الوحيدة بعد قضاء العديد من الأيام معرضة لضوء الجليد . فخلق الخوف من الاصابة بالعمى فراغا دام لحظة كانت مفيدة كمهدىء لمخى المنهك المستهلك . وعلى غير توقع ، مكننى التوجس الجسدى من أن أتخلص من سم عنف أخى وأخرجه من ذهنى . واستسلمت للقلق الخالص وأنا أنظر الى تتابع الضوء والظلام القادمين من النافذة . على كل ، قبل مضى وقت طويل ، كان الضوء الذى كان يعبر من النافذة الطويلة الضيقة أصبح من اللمعان حتى أنى أدركت أنه ليس بوهم سببه ضعف فى الابصار وانما كان ببساطة سببه ضوء القمر المشرق فى الخارج . نهضت مرة أخرى وذهبت كى أنظر الى الغابة التى يغطيها الجليد تحت ضوء القمر .

وتحت ضوء القمر ، كان المصباح المعلق فى الحديقة الأمامية يبعث حلقة من الضوء المائل الى الاصفرار . رأيت فجأة الشاب الذى ضرب ضربا مبرحا ، يتحرك على الجليد . حوله لفة من البطاطين . يبدو أن الفريق قد لفظه الى الأبد . فانكمس بلا حراك كسوسة خشب ورأسه منحن بين كتفيه الغائرتين بشكل غريب . ففقدت الاحساس بالنشاط والخفة الذى أيقظته فى الغابة التى يضيئها القمر . فدفنت رأسى وجسدى كله فى دفء الأغطية الحميم المظلم ، استطعت أن أسمع اصطكاك اسنانى ثم خطوات أقدام تدور حول المخزن وتختفى على البعد ، نحو الطريق المؤدى الى الغابة . فأخبرنى صوت تكسر الجليد الخفيض فورا أن هذا ليس خطو أحد الكلاب يصعد الى الغابة بحثا عن أرانب برية تأوى فى الجليد .

فى الصباح التالى ، كنت لا أزال نائما حين جاءت زوجتى ومعها افطارى . وأخبرتنى عن الحادث الذى وقع فى وقت متأخر من الليلة السابقة بصوت مليىء بالبغض لهذا التفجر للعنف السافر . ففى خرق لقواعد فريق كرة القدم ، شرب الشاب زجاجة صغيرة من الخمر الرخيص كان قد احضرها خلسة من السوبر ماركت ثم بعد أن أخذ موموكو داخل

حجرة صغيرة فى جزء بعيد من المنزل الرئيسى حاول أن يغرر بها . ومع أنه كان مخمورا وكان الوقت متأخرا ليلا ، فإن موموكو ذهبت معه مرتدية قميص نوم كانت قد اختارته شخصيا فى السوبر ماركت بكل مرح غير أن القميص كان يلائم عاهرة من ألف ليلة وليلة على نحو أفضل . فألقى الشاب بالتردد أدراج الرياح ، وسرعان ما انقض على هذه المرأة الشابة المستفزة القادمة من المدينة الكبيرة . وحين قاومت بشراسة ، وأطلقت سلسلة من الصرخات الشهوانية ، كان فى حالة من الفزع حتى أنه حين كان تاكاشى يضربه لم يكن قد أفاق تماما من دهشته الناتجة عن عدم فهمه لما حدث . وأطلقت الصدمة نوبة من الهيستريا فى نفس موموكو ، التى ذهبت الى الفراش لاصقة وجهها وجسدها فى الجدار فى الحجرة الخلفية ، ولم تظهر بعد فى هذا الصباح . وقد ألقت بعيدا بالروب الذى تسبب فى كل سوء الفهم الخطر هذا ، وارتدت ملابسها ورقدت هناك وكأنها ترتدى درعا ولا تكاد تتنفس ، ورأت زوجتى فى طريقها الى المخزن سلاح الطريد الشاب ملقى حيث وقع على الجليد . وكان مكتوبا عليه اسم « ميتسو » .

قلت لها : « اذا ما حكمنا اهتداء بخطوات قدميه يبدو أنه كان يدور حول المخزن ثم صعد الطريق الموصل الى الغابة . وانى لأعجب الى أين ذهب ؟ »

فقالت وهى تشى بما فى خيالها من تفسير : « ربما يخطط لأن يشق الغابة فى طريقه الى كوتشى ، مثلما ما فعل الصبى الفلاح فى زمن انتفاضة ١٨٦٠ ذلك الصبى الذى ألقى به بعيدا بسبب خيانة الآخرين » .

فجعلنى هذا أشعر بأنها تتعاطف مع المهاجم الشاب أكثر مما تتعاطف مع موموكو . قلت محاولا ازالة ظنونها الرومانسية : « انك لاتدرين كيف أن الغابة كثيفة وصعبة الاجتياز ، ذلك أنه يكون من قبيل الانتحار أن يحاول أحد أن يمر فى وقت متأخر من الليل فى كل هذا الجليد . لقد تأثرت أكثر مما ينبغى بحديث تاكاشى عن الانتفاضة . وحتى اذا كان الفتى قد طرد من فريق كرة القدم ، فلا أظن أن الحياة ستكون مستحيلة بالنسبة له فى الوادى . فليست لتاكاشى القبضة الضرورية على الآخرين . ففى الليلة الماضية ، على سبيل المثال ، بينما تاكا كان يضرب ابن السفاح المسكين

على اساءة تفسيره لدعوة مومكو غير الواعية كان من الممكن أن يثور الزملاء الآخرون أيضا ، ويقلعوا عينى تاكا أيضا بدلا من الصبى »

قالت « ولكن ياميتسو ، ألا تذكر ما قاله لك هوشى فى تلك المرة التى بكى فيها فى المطار ؟ »

قالت بثقة قوية فى النفس « أشك فى أنك لاتفهم تاكاشى جيدا أو تعرف الكثير عنه . ان الطفل البسيط غير المعقد الذى اعتدت أن تعرفه فى الوطن قد اجتاز أشياء لايمكنك حتى تخيلها ، ناهيك عن تفهمها » .

« ولكن حتى اذا شعر الشاب أن من المستحيل عليه أن يبقى فى الوادى من الناحية العاطفية بسبب ابعاده عن جماعة تاكاشى فلقد مضى مايزيد على قرن منذ حدوث الانتفاضة ، ومن المؤكد أن أى هارب يستطيع أن يشق طريقه الى الساحل ، فلماذا يتحتم عليه أن يذهب من خلال الغابة ؟ اذ إن ذلك الصبى يعرف معرفة جيدة أن الفوضى التى دبرتموها سرا فى السوبر ماركت تشكل جريمة . فاذا ذهب عبر الكوبرى الى الطريق المغطى بالجليد الى المدينة المجاورة ، فقد تقبض عليه الشرطة المتربصة هناك ، أو تقبض عليه العصابة التى يقولون إن الامبراطور يستخدمها . على الأقل ، كان فى امكانه اقناعه أن ذلك من الممكن أن يحدث ، انى أبدأ فى الشك فى أنك لاتعرف عمليا الكثير عن الجماعة من الناحية النفسية أكثر مما تعرف عما يجرى داخل تاكاشى .»

ردت بصوت منخفض « بالطبع أنا لاأقنع نفسى بأنه بسبب مولدى فى نفس الوادى مازالت وشائجى به قوية ، أو أنى أستطيع أن أفهم الشباب الذين يعيشون هنا فهما تاما . على العكس لو أن شيئا مايمكن أن يقال فى هذه النقطة . كل ما فعلته أنى قمت ببساطة بالاهتمام ببعض الملحوظات الموضوعية التى تعتمد على التفكير السليم . فلو أن أحاديث تاكاشى تسببت فى خلق احداث جنون جماعى فى فريقه ، فان ملحوظاتى لاتنطبق على هذه الحالة »

غير أنها ثابرت دون كلل : « لا ينبغى لك أن تستبعد شيئا مثل الجنون ، فقط لأنك لست متورطا ، ياميتسو ، فحين انتحر صديقك ، على سبيل

المثال ، لم تنف الجنون بمثل هذه الألفاظ البسيطة ، أليس كذلك ؟ »

قلت مستسلما : « اذن اخبرى تاكاشى أن يرسل فرقة بحث داخل الغابة » .

وخرجت كى أغسل وجهى ، مارا من الخلف كى أتجنب مدخل المنزل الرئيسى ، وكنت فى طريقى للعودة حين قابلت الشباب يرشون الماء باهتمام فى الحديقة الأمامية . وجاء شخص صغير الحجم يرتدى رداء من الجلد الى الحديقة . يجر زحافة على الجليد . وكان الطريد الشاب فوق الزحافة مضمدا حتى الرقبة . وقد خرج تاكاشى لتوه كى يقابلهم . استدار الرجل نصف استدارة ، وكأنه يخشى أن يهاجمه الشباب الذين يدفعون به خارج المنزل بمثل هذه الطاقة ، غير أن تاكاشى كان يمسك به . ولما رفعت عينى فى مواجهة ضوء الصباح كان مظهرى غير سار اذ كانت العين مجرد فتحة صغيرة كانت تشبه الناسك ، كما كنت أذكره قبل ذلك بما يزيد على عشر سنين . كانت رأسه صغيرة تتقلص ، بينما كانت الأذن لاتزيد حجما عن مفصل الابهام لذا فكان حولهم فراغ واسع بشكل غير طبيعى . وكان التوجس يشله وهو محاط بالقبعة التى لوحتها الشمس والرداء المصنوع من صوف الماعز وتغطيه الجروح وشىء ما أميل الى اللون الأصفر .

راح تاكاشى يحكم قبضته على فريقه خلفه ويتحدث الى الناسك بصوت قد يستخدمه المرء لتهدئة ماعز مذعورة . وكان الرجل العجوز يجيب تاكاشى ، وجسده مازال ملويا الى الخلف وعيناه نصف مغلقتين ، وكانت شفتاه تتحركان بسرعة كأطراف الأصابع التى تحاول أن تلتقط شيئا ما ، كان خجلا من كل شىء له علاقة به تحت الضوء المنتشر . وبناء على أمر من تاكاشى ، رفع الرجل المدثر بالأسمال من الزحافة وأدخلها الى المنزل . وتبع الناسك لاعبى كرة القدم الذين كانوا يحملون الرجل بمرح وكأنهم يحملون ضريحا متنقلا فى أحد الاحتفالات الدينية ، ولف تاكاشى ذراعه حول الناسك وهو يحتج بكل حيث اقتيد الى المطبخ ، أخذت أنظر الى حزمة الخيزران التى جمدها الجليد حيث تركت مهجورة على الجليد الأكثر لينا . وكان منظر الحزمة وهى مربوطة بحبل يوحى بأنها تنتظر توقيع

العقوبة على سوء السلوك . « ان ناتسومى تجهز وجبة للناسك ، ياميتسو » .

استدرت فوجدت تاكاشى يقف هناك بوجهه الذى لوحته الشمس وبه حمرة خجل وضوء برى كأنه مخمور فى عينيه البنيتين ، وللحظة داخلنى وهم بأن خلفنا بحر فى منتصف الصيف ، بينما كنا نتحدث . « لقد كان الناسك فى الوادى كالمعتاد أثناء الليل . وكان عائدا فى الفجر حين لمح شابا يسير الى داخل الغابة . فتبع الصبى حتى أجهد وتوقف ، فأحضره مرة أخرى سالما . أتصدق ياميتسو ، لقد كان يحاول أن يعبر الغابة فى كل هذا الجليد ويصل الى كوتشى ! لقد كان يتشبه بالشاب الذى كان فى انتفاضة ١٨٦٠ » .

« لقد وصلت ناتسومى الى نفس الاستنتاج حتى قبل أن يحضره الناسك قلت ذلك وصمتت . فبينما كان يحاول جاهدا أن يشق طريقه فى الغابة يجرفه الخجل واليأس الذى أحس به بسبب طرد رفاقه له ، لابد أنه رأى نفسه كابن الفلاح الذى كانت رأسه مربوطة فى ١٨٦٠ . ولم يكن هناك شىء ، يقنع الشاب الغر وهو فى قبضة الرعب المتصاعد وهو يغوص فى حلكة الغابة فى منتصف الليل ، إن مائة عام قد مضت فعلا منذ عام ١٨٦٠ ، تلك السنة المصيرية . ولو أنه سقط على الطريق ، وتجمد من الجليد حتى الموت ، لقرر أن يموت موتا مطابقا مطابقة تامة لذلك الشاب الذى سيق الى الهرب عام ١٨٦٠ . وكان من الممكن أن تصب كل هذه اللحظات المنفصلة التى وجدت معا فى أعلى الغابة فى رأسه الميت وتتلبسه .

حين عدت الى المخزن ، استطعت أن اسمع صوت تساقط الماء بينما راح الجليد يذوب تحت حرارة الشمس وبدأت أجرى من خلال الطبقة السميكة المتبقية على السطح ، ودرت فى جنبات المخزن الأربع . وتخيلت أنى أستطيع أن أستخدم ذلك الصوت لأدافع عن نفسى ضد كل ماحدث فى الوادى تماما ، كما حمى جدنا الأكبر ممتلكاته بالبندقية من العالم الحديث فيما وراء الغابة .

الفصل العاشر

الخيال المشاغب

كانت موسيقى موكب النيمبوتسو ذات طبول صغيرة وأجراس تسمع باستمرار منذ الضحى . وتستمر بلا توقف وتنقل موقعها ببطء . ولم يكن هناك سوى نفس الايقاع اذا أمكن تسميته بذلك وهو بانج بانج بانج بانج بانج لمدة أربع ساعات . كنت أنظر من النافذة الخلفية للمخزن بينما يصعد الناسك جيى على طريق الحصى الى الغابة . كان يسير ورأسه يميل الى أحد الجانبين ، ورغم استغراقه فى التفكير فإنه كان يصعد المنحدر بانتظام وثبات ويركل الأرض خلفه ساحبا العربة التى كانت تسير فى الجليد وتحمل البطانية الجديدة التى أعطتها له زوجتى بدلا من بطانيته البالية . وبعد ذلك بوقت قصير ، بدأت الموسيقى . وحين حان الوقت الذى صعدت فيه زوجتى تحمل كرات الأرز وعلبة مغلقة من السلمون لطعام الغداء الخاص بى ، بدا الصوت الذى سألتها به عن الموسيقى مبحوحا من فرط الغضب على استمرارها المحتوم ، وكان الصوت غريبا حتى لأذنىّ المندهشتين . فسألت : « هل كانت هذه هى فكرة زعيمكم تاكاشى أن تعزف موسيقى فى غير موسمها بهذه الطريقة ؟ وهل يظن أن الموسيقى ستذكر الناس بانتفاضة ١٨٦٠ ؟ لو كان الأمر كذلك فهى فكرة صبيانية لن يكون لها من أثر سوى اغضاب الجيران . فلا يتأثر بها سوى تاكاشى وأنت والباقون . هل تظنين أن هؤلاء الحمقى ستثيرهم بضعة من الطبول والأجراس » .

فردت بهدوء : « حسنا لقد أغضبتك على الأقل ياميتسو . أنت يا من

تحاول أن تبدو غير مبال بأى شىء فى الوادى . وعلى فكرة ، فان علبة السلمون هى جزء من غنائم الحرب من السوبر ماركت ، إذ عاد السلب مرة أخرى فى السوبر ماركت ، بدأت أعمال النهب مرة أخرى هذا الصباح ويحسن بك ألا تأكلها اذا ماكنت تريد أن تحافظ على نظافة يدك من هذا الأمر . يمكننى أن أذهب وأبحث لك عن شىء آخر .»

فتحت العلبة كى أظهر عدم مبالاتى بتهكمها . فأنا لا أحب السلمون . لم تكن أعمال النهب التى وقعت بالامس فى السوبر ماركت مخططا لها مسبقا . ولكن حسب قول زوجتى ، فلقد كان تاكاشى والآخرون مشغولين ، فى ذلك الصباح ، فى نشر الفكرة التى تقول إنه مادام النهب كان غير قانونى فلايوجد سبب يمنع أهل الوادى من الاستمرار فيه بما أنهم قد بدأوا .

سألت : « ألم يعترض أى أحد على محاولات تاكاشى والآخرين لاثارتهم على هذا النحو ؟ ففى هذا الصباح ، وبعد أن سمعوا عمّا كان يجرى وراء الكواليس ، ألم يعد أحدهم التفكير ويعيد البضائع المنهوبة ؟ » .

« لقد كان هناك اجتماع للقرية أمام السوبر ماركت ، ولكن أحدا لم يقدم مثل هذا الاقتراح ، ولا أظنك تفترض أنهم سيخرجون عما خططوه ، فيعيدون البضائع ، ففى حين كانت فتيات الحسابات يعطين تفاصيل دقيقة عن الأرباح التى كان السوبر ماركت يحققها والبائعات يشهدن على رداءة البضائع ، حتى اذا ما أراد شخص غريب الأطوار أن يفعل ذلك ، فإن الجو العام لن يدعه يفعلها دون أى تعرض من أحد » .

قلت وأنا أمضغ السلمون : « ولكن رد الفعل سوف يبدأ حالا »

قالت بشكل عرضى : « أتدرى ياميتسو ، ينبغى لك أن تذهب الى الوادى بنفسك كى ترى مايحدث ! »

ثم نزلت الدرج . وبصقت السلمون نصف الممضوغ وحبات الأرز فى يدى . وأخذت موسيقى النيمبوتسو تنغص على باستمرار ، معذبة أعصابى ، وتفرغ عقلى من الطاقة . وسواء أحببت هذا أم لا ، فلقد أخذت أذناى تذكرانى بالأحداث غير العادية التى تحدث فى الوادى . ذلك أنه فى

مكان عميق داخلهم ، كانت الانتفاضة واقعا . والآن فان كرهى للموسيقى قد تلوث بشكل لا علاج له باسم الفضول ، ككبد ما إن يمرض لا يمكن شفاؤه . غير أنى منعت نفسى من التحرك من المخزن حتى أجد سببا روتينيا يجعلنى أفعل ذلك ، سببا ما لاتكون له صلة بالفوضى التى يرعاها تاكاشى وزملاؤه . وحتى يحدث ذلك ، فلن أضع قدمى فى الوادى شخصيا ، ولن أرسل بأى مستطلعين . وقد كانت فقط طريقة تاكاشى فى أن يزهو أمامى بأن أنشطته مازالت مستمرة . لذا فان أى عمل من جانبى سيكون التسليم الذى يتلهف اليه بأساليبه النفسية الفظة . لذا سأصمد . وقبل مرور وقت طويل ، أضاف صوت بوق سيارة من الوادى مزيدا الى الضوضاء الموجودة أصلا . ربما كان تاكاشى يقود السيارة هناك ، واضعا سلاسل على اطارات السيتروين ، مقدما استعراضه الساذج لفائدة الأطفال .

لاحظت أن الموقد صار أقل كفاءة ، إذ كاد النفط فى الصهريج ينفد ولقد كنت قد استخدمت ما لدى من احتياطى . وكانت البدائل الوحيدة هى أن أرسل بشخص الى السوبر ماركت كى يشترى بعضا منه ، أو أن أهبط الى الوادى وأفعل ذلك بنفسى .

فى المنزل الرئيسى وجدت زوجتى تعنى بموموكو ، التى لاتزال فى الفراش بعد نوبة الهيستيريا التى داهمتها ، فلم أستطع أن أطلب منهما العون ، إذ نقلت الطريدة الشابة الى العيادة المحلية بسبب شدة الصقيع وانضم جميع أعضاء الفريق الآخرين الى تاكاشى وهوشيو فى الإشراف على أعمال المراوغة الكبرى التى تتم فى الوادى . فكان أبناء جين هم الوحيدون الذين يمكنهم أن يلبوا طلبى . فوقفت أمام باب المبنى الخارجى وناديت ، كان الأطفال يغلقون الباب على أنفسهم داخل الكآبة الباردة مع أمهم السمينة ، مما أكد على تحقق جميع الشروط التى تضطرنى للنزول الى الوادى . ذلك أن أبناء جين لم يستجيبوا لندائى . وكنت على وشك أن أنسحب بعيدا عن الباب المغلق ، حين أدهشنى نداء جين نفسها على بصوت ثابت مرح . ففتحت الباب ، ونظرت الى الداخل وأخذت عيناى تدوران كطير قلق فى الظلام ، وكنت آمل فى أن أجد زوج جين بدلا من جين نفسها .

قلت بلهجة اعتذارية : « أهلا ياجين ، كنت أظن أنى قد أجعل أولادك يجرون الى الوادى من أجلى لوكانوا هنا ، إذ قد فرغ موقدى من الزيت » .

فقالت : « لقد نزلوا الى الوادى منذ ذلك الصباح ، يا ميتسو سابورو » .

قالت ذلك بأسلوبها المعتاد بينما ظهر جسدها البدين الى ناظرى ببطء كسفينة حربية تظهر تحت الشبورة فى البحر . ووجهت عيناها قوتهما نحوى مباشرة كمغناطيسين لامعين ضخمين يبرزان من وجهها المستدير المتورم .

قلت شاكيا دون أن أظهر سوى تعاطف متحفظ مع زوج جين : « هل حضر جمهور تاكاشى للبحث عنه ؟ ولكنه رجل مهذب جدا ـ فلماذا يزجون به فى ذلك الأمر » .

وكان تحفظى له ما يبرره : ذلك أن جين لم تكن فى حاجة الى كى اشاركها الشفقة على زوجها .

« لقد جال الشباب كى يحضر الناس من جميع البيوت فى القرية ، إذ حرصوا على اقحام العائلات التى لم تأخذ شيئا بعد من السوبر ماركت ، حتى يخرج جميع القرية فى النهاية » .

بذلت جهدا كى تبتسم ، فلمعت فتحات عينيها الضيقتين بين اللحم الذى يغطيهما ، لقد ذهبت صعوبة النفس المؤلمة التى كانت عادة ماتضايقها هذه الأيام ، وعادت كى تكون بطلة النميمة ، يساعدها فى ذلك فضول لايرتوى ، واستطردت قائلة : « لقد ذهب الأولاد الى الوادى منذ وقت طويل ، أما زوجى فقد كان لايزال هنا ، لذا حضر اثنان من الشباب الى الباب واخبراه أن يذهب الى السوبرماركت . وحين عاد الأولاد للراحة ، كانوا يقولون ان اى عائلة لم تأخذ شيئا من السوبر ماركت مهما كانت غنية يذهب اثنان من الشباب ويستدعونهم . ومن الواضح أن زوجة ابن رئيس القرية وزوجة رئيس مكتب البريد قد ذهبتا للحصول على بعض الأشياء . كذلك كانت ابنة الناظر متضايقة لأنها حملت على احضار صندوق من المنظفات لم تكن فى حاجة اليه مطلقا ! وهكذا تحقق العدل يا ميتسو سابورو . لقد ألحق الجميع العار بأنفسهم بالفعل . أليس هذا لطيفا ؟ »

قلت وأنا أتجنب ما أحسست به من غموض إنه فخ تنصبه المرأة البدينة ، « ألا يتعاطف أى شخص مع الامبراطور ياجين »

فردت بغضب : « يتعاطف مع هذا الكورى ؟ » حتى الأمس كانت ، شأنها شأن معظم أهل الوادى ، لم تذهب حتى الى حد التلميح الى صاحب السوبر ماركت القدير الذى سبب كل هذا العبء فى الوادى بالقول إنه شخص كورى .

ثم استمرت تقول : « لم يلق أهل الوادى سوى المتاعب منذ حضر الكوريون الى هنا ، وبعد نهاية الحرب ، علا نجمهم فى الدنيا بالاستحواذ على مال الوادى وأرضه . ونحن لانفعل سوى استرداد جزء صغير من ذلك ، اذن ما دخل التعاطف فى هذا الأمر » .

فقلت : « ولكنهم ياجين لم يحضروا الى هنا طواعية . لقد كانوا عمالا بالسخرة جلبوا من بلادهم ضد ارادتهم . وبالاضافة الى ذلك ، وعلى حد علمى ، فهم لم يخرجوا عما ألفوه كى يسببوا المتاعب للناس هنا . وحتى مع التخلى مرة واحدة عن الأرض بعد الحرب حيث اقيمت المستوطنة الكورية ، لم يعانِ أى فرد فى الوادى من أى خسارة مباشرة ، بالتأكيد » .

لم تتعمد تذكر الأشياء على نحو خاطىء ؟ فلقد قتل الكوريون « س ! » قالت ذلك بشك مستعيدة حذرها منى بسرعة .

فقلت : « لقد كان ذلك ثأرا لقتل أحد الكوريين على يد أصدقاء « س » قبيل ذلك . وأنت تعرفين هذا معرفة تامة ، يا جين » .

فأعلنت بحدة غير معتادة ، مثيرة الجدل بعدم عقلانيتها : « ان كل شخص يشعر بأن الأمور بدأت تتحلل منذ مجيىء الكوريين . فليقتلوهم جميعا » .

وصارت عيناها داكنتين من فرط الكراهية . فقلت : « ولكن ياجين لم يسبب الكوريون أى ضرر مطلقا عن قصد للناس الذين يعيشون هنا . والمتاعب التى حدثت بعد الحرب كانت بسبب الطرفين . فلم تقولين مثل هذه الأشياء بينما تعرفين الحقائق تماما كما أعرفها ؟ »

فجأة خفضت رأسها الضخمة فى مواجهة اتهاماتى . ولم تصدر عنها أى استجابة مرئية سوى من حركة رقبتها وكانت تتحرك فى ايقاع مع تنفسها الشاق الذى أصيب مرة أخرى . فتنهدت بموجة من الغضب والاحتقار المحبطين : « لاتكونى مثل أهل الوادى الذين يدفعون غاليا لأنهم تسببوا فى مثل هذا الازعاج الأحمق ، فلا أتصور أن نهب واحد من سلسلة السوبر ماركت التى يملكها الامبراطور سوف يضره كثيرا ، غير أن معظم الناس فى الوادى سيلازمهم احساس بأنهم أشرار بسبب شعورهم بالذنب على ما اختطفوه من مواد . فماذا يعتقدون أنهم يعنون بذلك ؟ ، حتى كبار السن الذين يفترض فيهم معرفة أفضل ، يقحمون أنفسهم فى شىء كهذا عن طريق شخص مثل تاكاشى ، الذى عاد توه من الخارج »

فكررت جين قولها « أنا مسرورة لأن جميع أهل الوادى ألحقوا العار بأنفسهم بمرور الوقت ! »

كانت تتحدث وكأن الأمر لايعنيها شخصيا على الاطلاق رافضة بعناد أن ترفع رأسها وتنظر فى عينى مما أقنعنى بأن كلمة (العار) لها معنى خاص فى معجمها . والآن وقد استطاعت عينى أن تتغلغل فيما يعتمل داخلها من كآبة أمكننى أن أرى بعض أنواع البضائع المعلبة الرخيصة مكدسة فى حلقة حول مقعد جين بحيث يسهل الوصول اليها . وقفت هذه البضائع فى صمود وطاعة فى حالة تأهب ، هم جنود قوة اغاثة مستعدين كى يقاتلوا جوعا لن يمكن علاجه أبدا . انها (عار) جين الخاص ، بل جيش بأكمله من العار . مصطفين أمام الجميع كى يراهم وطبيعتهم واضحة بشكل يعمى عين أى شخص حتى المراقب العارض .

كنت أنظر اليهم دون أن أملك كلمات للتعبير ، حين أخذت جين من بين مرتفعات ركبتيها علبة نصف مفتوحة التصق غطاؤها فى شبه دائرة ، وبدأت فى افتراس محتوياتها التى لايمكن التعرف عليها . فعلت ذلك على سبيل العرض المتحدى للأمانة .

فتذكرت أن البروتين الحيوانى ضار بكبد جين . غير أنى لم أستطع أن أحمل نفسى على أن أقول ذلك فقلت ببساطة : « أتريدين أن أخرج لك بعض الماء أثناء وجودى هنا ؟ »

ردت « لا تتخيل أنى سآكل كل هذا القدر وسأجعل نفسى عطشى » أتدرى ياميتسوسابورو ، بفضل الشغب الذى يثيره تاكاشى ، قد حصلت لأول مرة على طعام أكثر مما أستطيع أكله . انها ليست سوى مواد غذائية معلبة غير أنها أكثر مما أستطيع حقا ! لو أنى أستطيع ابتلاعها كلها ، فلن تكون بى حاجة إلى أن آكل أكثر من ذلك . وأعود الى النحافة التى كنت عليها فيما مضى . وعندها أضعف وأموت »

فقلت على سبيل الترويح عنها ، بأول شعور بالتصالح منذ عودتى الى الوادى : « لاتكونى سخيفة يا جين »

فردت قائلة « ليس هذا سخفا ! فالبؤساء من أمثالى لديهم شعور بهذه الأشياء . وحتى فى مستشفى الصليب الأحمر أخبرونى أن عقلى وخيالى هما اللذان جعلانى آكل كل هذا القدر . فلو أنى أستطيع أن أشعر بأنى لا أريد أن آكل المزيد ، فسأبدأ فى فقد بعض من وزنى فى نفس اليوم . وأعود الى ما اعتدت أن أكونه . وعند ذلك لم يتبق شىء أعمله سوى أن أموت » .

ودون إنذار ، استحوذ على شعور بالحزن الطفولى ، فبعد وفاة أمى ، لم يكن هناك سوى مساعدة جين التى اعتنت بى خلال تجارب المراهقة فى الوادى . وبعد أن هززت رأسى دون أن أتكلم ، قفزت فى الجليد مغلقا الباب على « أسمن امرأة فى اليابان » بعيدا فى الظلام المسالم مع ماتشعر به من سعادة و (عار) بين صف الطعام الكبير الذى قد يضر كبدها ضررا قاضيا ...

تحول الجليد الذى كثر السير عليه فى طريق الحصى الى جليد لين أقرب الى اللون الرمادى وصار زلقا . فسرت عليه بحذر . ولم تكن بى رغبة فى التدخل فى مسألة نهب السوبر ماركت ، إذ قد اتخذت قرارا ببساطة ألا أتورط فى أعمال تاكاشى ، تحت أى ظرف من الظروف . ولو اتضح أن السوبر ماركت قد انحدر الى حالة من الفوضى التامة ، فسيكون من المستحيل على أن أبتاع الزيت بالاجراء العادى ، لذا كانت خطتى غاية فى البساطة ، وهى أن أسلم تاكاشى المبلغ الصحيح من النقود ثمنا لأى علبة من الزيت ربما قد تبقت بعد عمليات النهب ، وأغادر المكان فى الحال ، إذ

إنى ، على الأقل ، لن أشارك فى (العار) الجماعى ، بالاضافة إلى أن مثيرى هذا الشغب الصغير تعمدوا ابعادى عن المحل مما يعنى انى كنت غريبا من البداية ، وهذا لايستدعى أن أشارك فى (العار) .

حين وصلت الى الساحة المفتوحة أمام مكتب القرية ، ظهر أكبر أبناء جين من حيث لا أدرى وأخذ يسير أمامى ككلب يحاول استباق سيده . وكانت المنازل التى توجد على جانبى الطريق ، والتى طالما أغلقت ، مفتوحة على مصاريعها اليوم ، ووقف ساكنوها فى الجليد ، أمام منازلهم ، وهم يتحدثون بحيوية أو يحيى بعضهم البعض بأصوات مرتفعة . وكان الوادى برمته فى حالة من النشوة . حتى الناس الذين جاءوا من (الريف) كانوا يقفون على الطريق فى جماعات متناثرة ، ويشاركون فى المحادثات أو يتنقلون من مكان الى آخر . وكانت أذرعهم مليئة بالأسلاب من السوبر ماركت غير أنهم ظلوا يحومون حول المكان ، دون ابداء أى حركة تدل على الذهاب الى منازلهم . وحين طلبت أم من (الريف) الاذن لابنها كى يستعمل دورة المياه وافقت نسوة الوادى بكل ترحاب . لم أر فى حياتى حتى فى أيام الاحتفالات ، الوادى والريف يمتزجان بمثل هذه الحرية والتسامح ، حتى فى أيام طفولتى . وكان الأطفال يطأون على الجليد على طريق الحصى كى يصنعوا منزلقات أو أثناء تقليدهم لموسيقى النيمبوتسو التى كانت تسمع طوال الوقت . أخذ ابن جين يسلى نفسه ، غير أنه سرعان ماعاد الى جانبى مرة أخرى . وحيانى مختلف البالغين بابتسامات مهذبة بينما كانوا يقفون ويتحدثون .

لقد كانت المرة الأولى ، منذ عودتى الى الوطن التى خففوا فيها من الحواجز فى وجهى بهذه الطريقة . ولم أستطع أن أستجب مباشرة لمفاتحاتهم غير المتوقعة ، وسرت سريعا متخطيا إياهم ، وأنا أومىء بغموض ، غير أنهم كانوا شديدى الانتشاء بامتزاجهم الاجتماعى الذى عثروا عليه حديثا بحيث لم يكن من السهل تهدئتهم . فتعمقت دهشتى الداخلية ، وطرحت أفرع قوية ، ثم أزهرت بأوراق نضرة . وكان رجلا طويلا ، عمل فيما مضى بتدريس التاريخ اليابانى احتياطيا أثناء النقص الذى حدث أثناء الحرب فى هيئة التدريس ، والذى كان قد عمل منذ الحرب

أمينا للجمعية التعاونية للمزارعين ، يلوح بدفتر حسابات فوق رأسه ، ويشرح محتوياته للناس المتجمعين حوله . وكان فريق الشباب يقفون الى جانبه فى انتباه صامت ، مما جعلنى استنتج أنه قد تم ربطه بهم كمستشار للجماعة التى ترعى (الانتفاضة) الجديدة . وبهذه الصفة ، كان يندد بظلم ادارة السوبر ماركت علنا . فلما لمحنى ، انتشرت على وجهه ابتسامة أكثر دفئا ، كانت مزيجا من الغضب المسرحى والتكبر الطبيعى .

نادانى بصوت مرتفع قاطعا محاضرته : « ميتسوسابورو ، لقد كنت أعرض الطريقة التى يزيفون بها حسابات السوبر ماركت . لو أن مأمورية الضرائب وصلها شىء عن هذا ، فسيكون على الامبراطور أن يقبل العرش قبلة الوداع » .

وبدلا من أن يغضب المستمعون لهذه المقاطعة غير المتوقعة ، استداروا كى يلقوا نظرة علىَّ ويقومون بايماءات تحقيرية بسعادة تدل على الاحتجاج على السوبر ماركت المتهرب من الضرائب . وكان بينهم عدد كبير من الأهالى ومما أدهشنى أن نفس الشىء يصدق على جماعات الناس التى رأيتها بينما كنت أسير على طريق الحصى . حتى قبل أمس ، كانت حياتهم تضيع وهم منكمشون فى الظلام خلف نوافذ قذرة بفعل الغبار والرطوبة ، أما اليوم فقد حققوا تحريرهم لذاتهم مع الآخرين واحتلوا من جديد مواقعهم كأعضاء كاملى العضوية فى مجتمع الوادى .

وفجأة أطلق ابن جين صيحة صارخة كى يلفت انتباهى .

صاح قائلا بصوت حاد النبرة ينم عن نشوة الاكتشاف : « هذا هو . هذا هو مدير السوبر ماركت » .

رحت أشاهد الموقف بينما هرول رجل ضخم على قدمين مترنحتين ، ويرتدى سترة من الجلد ، وكان الرأس الذى يعلو رقبته التى تشبه رقبة الثور أصلع بالكامل ، رغم أنه لم يكن ليبلغ الأربعين بعد . وأخذ يضرب فى الهواء كسمكة قد حملت الى الأرض ، ويخطو بثقة وعزم بين الناس الذين أخذوا يلقون عليه كرات الجليد ، ثم تبعهم آخرون فى هذا الفعل ، فصدمت احدى الكرات مفصل قدمه وهو يجرى فقلبته بكل سهولة . جاهد كى ينهض

على قدميه ، وراح يصرخ دون حتى أن يقوم بازالة الجليد العالق به من قمة رأسه الى أخمص قدمه . غير أنهم استمروا فى القاء كرات الجليد بمرح أكثر من ذى قبل . تذوقت فى فمى مرة أخرى الخوف التلقائى لذلك اليوم ، حين شقت عينى فى هجوم قام به أطفال مجهولون ، وشعرت أنى قد عثرت على مفتاح للغز الدائم الذى جعلهم يلقون بذلك الحجر .

أخذ الرجل يصيح فى ضعف وهو يصد كرات الجليد الطائرة بكلتا ذراعيه ، فى حالة من البؤس والغضب .

فسألت ابن جين ، الذى انضم الى الهجوم على الفور ولكنه عاد الى جانبى وهو مازال يقول كلاما غير مفهوم من فرط الاثارة ، سألته : « بماذا يصيح ؟ »

« يقول ما إن يذوب الجليد ، سيحضر الامبراطور على رأس عصابة ويهاجم القرية . انه ينسى أن لدينا أسلحة نرد بها على الهجوم » .

ثم نظر فى علبة الكعك الفارغ التى كان يأكل منها ، وألقى بها جانبا ثم أخرج واحدة أخرى من العلب التى كانت تحشو جيوب معطفه القصير وحشا فمه بحفنة جديدة .

« انهم لايعتقدون ، على ما أظن أنهم سيتغلبون على عصابة . فالعنف تخصص العصابات » .

« سيعلمهم تاكاشى كيف يقاتلون . لقد كان يقاتل اليمينيين ، لذا فهو يعرف الطريقة » .

أعلن ذلك وهو يزدرد مايحتويه فمه بصبر نافد . ثم أضاف بحدة لا توصف « هل قاتلت ، ياميتسوسابورو ؟ » انى لأعجب لم يدعون المدير يتجول حيث شاء .

وبدأ الصبى يقول بلا احترام : « إنه يقول الكثير من الكلام عديم الأهمية حتى أن أهل الوادى توقفوا عن الانتباه اليه والى الامبراطور . انه كورى أيضا ، أتدرى ذلك ؟ »

شعرت بالاشمئزاز من هذه الكراهية التى لامبرر لها والتى يشعر بها

الأطفال الذين ولدوا بعد الحرب ، ولكنى اذا حاولت الدفاع عن المدير ، فمن المؤكد أن الصبى سيجمع عصابته من المتشردين الصغار ويجعلنى أجرى بنفس الطريقة المذعورة .

فقلت على الفور : « لا حاجة بك لأن تأتى معى بعد ذلك . اذهب والعب مع أصدقائك » . فقال والحيرة الحقيقية ترتسم على وجهه الصغير : « لكن تاكا قد أمرنى أن آخذك اليه » . غير أنى رفضت ارشاده لى بشدة ، وفى النهاية ، تركته يقف هناك ، وخداه محشوان بحفنة أخرى من الكعك يخفف بها ما أحس به من احباط .

ولاول مرة منذ كونت جين شهيتها غير العادية ، وجد ابنها النحيل مزيدا من الطعام يفوق ماكانت معدته المنكمشة تطلبه بتردد . فكان شعورا غريبا بالواجب نحو معدته مصحوبا بقلق حتى هو لم يفهمه ، يجعله يأكل ثم يأكل . ولربما سيتقيأ هذا كله فى النهاية .

لقد سحق الجليد أمام السوبر ماركت حتى تحول الى ماء موحل ، وكان طريق الحصى فوضى شاملة ، فكان هذا مذاقا مسبقا للأيام القادمة حين يبدأ ذوبان الجليد بداية جادة ويتحول بأكمله الى وحل . وكان عدد كبير من المجموعات المستقلة يقف أمام السوبر ماركت . بعضهم أناس جملوا أجهزة تليفزيون الى الخارج كما أخرجت أجهزة كهربية من ربطاتها وتعرضت للتعديل .

وعلى شاشات التليفزيون ، كان برنامجان يعرضان . وانكمش الأطفال الصغار أمام الأجهزة مشدودين الى الشاشات . وكان بعضهم فى امكانه أن يشاهد القناتين وذلك بجعل أنفسهم فى وضع متأرجح فى نقطة يمكن منها مراقبة جهازين فى نفس الوقت . أما الكبار ، الواقفون فى المؤخرة ، فقد بدا عليهم عدم الاستقرار ، ولم يكونوا يركزون فى الحقيقة على أجهزة التليفزيون . ذلك أن هذا الاتصال بأناس يسيرون حياتهم اليومية فى مدن بعيدة كان له أثر غريب عليهم ، وهو يأتى فى نفس لحظة حالة الطوارىء فى الوادى .

ووضعت السلع الكهربية التى أخذت من ربطاتها على الأرض الرطبة ،

وكان رجلان فى منتصف العمر يقومان بعمل شىء ما بهذه السلع بواسطة مطرقة وأزميل . كان هذان الرجلان هما حداد الوادى ، وصانع العلب الصفيح فى الوادى ، من الواضح أنهما مستشاران اضافيان استخدمهما الشباب . وكانت جماعات المشاهدين تتشكل فى معظمهما من النساء . ومن الواضح أن هذه هى أول مرة يضطر فيها الرجلان للقيام بمثل هذه المهمة ، ورغم أنهما كانا من أمهر الحرفيين فى الوادى فإن العمل كان يتقدم ببطء . فطبيعة العمل مدمرة اذا ما استخدمنا لفظا معتدلا ، تتلخص فى ازالة لوحة اسم الصانع ورقم الأجهزة . وفى احدى المرات ، ضرب الأزميل بعمق فى أحد السخانات فاطلقت النساء موجة من التنهدات حول العامل الذى انكمش من فرط الاحراج . كان الرجل يحاول ازالة اللوحة من وجه السخان الكهربى . ذلك أن العمل التافه الذى كان منشغلا فى ادائه بعيد كل البعد عن المهارات التى تشكل جزءا مهما من ثقته فى وجوده . وكان هذا التدمير يهدف الى ازالة الدليل على أن الأجهزة نهبت من السوبر ماركت ، استعدادا ليوم يذوب فيه الجليد ، وتأتى فيه القوات مع الامبراطور متسارعة على الطريق الممهد من المدينة الى المنخفض .

وحين تركت الزحام واستدرت الى مدخل السوبر ماركت ، أدركت أن شباب فريق كرة القدم كانوا يراقبون تحركاتى . فكانوا يتناثرون بين الجماعات التى تشاهد أجهزة التليفزيون ، أو يشاهدون الحرفيين ، ويتسكعون بينهم فى الاحتفالية التى يحس بها الجمهور ، ووجوههم غير واضحة المعالم وحزينة ، وعيونهم تراقب باهتمام . وفى محاولة منى أن أسرق نفسى من وضعهم المثير للأعصاب ، دفعت الباب دفعا لكنه لم ينفتح . فنظرت من خلال الزجاج الى الفوضى التامة فى الداخل ، وأخذت أدفع مقبض الباب وأجذبه بغضب متزايد .

« انتهى النهب اليوم ! وستكون هناك جولة أخرى غدا ! » واذ استدرت الى صوت حنجرة ابن جين، ألفيته ، ومازال خداه محشوين بالكعك ، يقف ويحملق مع أصدقائه فى نصف دائرة خلفى تماما . ولما كان شبه متوقع أنى سأقرص أذنه ، أخذ هو وأصدقاؤه خطوة للخلف .

« لم آتِ هنا للنهب ، لقد جئت لشراء بعض الكيروسين » .

« انتهى النهب اليوم ، وستكون هناك جولة أخرى غدا » ردد أصدقاء الصبى هذا النداء كالجوقة بنفس الحبور ، وضحكوا فى استهزاء . فلقد تكيف الأطفال مع أسلوب الحياة الجديد الذى خلقته الانتفاضة ، وصاروا الآن مشاغبين . وبما أنى كنت آمل فى بعض المساندة ، فلقد ناديت عبر رءوس الأطفال المنذرة الى أعضاء الفريق ، الذين كانوا لايزالون يضعوننى تحت المراقبة الخالية من التعبير .

« أريد أن أتحدث الى تاكا ، خذونى اليه » .

رفع الشباب رءوسهم كطلقات الرصاص وكأنهم فى حيرة ولم يقولوا شيئا ، وكانت ملامحهم تزداد تصلبا وقبحا وتخلو من أى تعبير ، مع انعدام الجاذبية التى كانت أصلا تتسم به . فاستحوذ علىّ قلق هيستيرى .

قال ابن جين : « لقد أخبرنى تاكا أن آخذك اليه » . قال لى بثبات وقد عادت اليه ثقته ، ودون انتظار لرد فعل من جانبى ، تقدمنى على الممر المؤدى الى خلف المحل . فسرت وراءه بسرعة المطارد ، وأنا أسير بصعوبة شاقا الجليد العميق الذى كان يدفن الممر . وترصدت لى قطع الجليد الصغيرة ، تضربنى بحذق الى جانب عينى التى لاترى قبل أن تتكسر وتسقط .

وخلف نفس المخزن الذى تحول الى سوبر ماركت ، كان هناك فناء مربع حيث كانوا يضعون فيه ، فى وقت من الأوقات ، زجاجات التخمر الكبيرة فى الخارج كى تجف . واستخدم مكتب السوبر ماركت كمقر للمشاغبين . وكان أحد الشباب يقف فى الحراسة عند الباب . وبعد أن أحضرنى ابن جين كل هذه المسافة ، سار نحو الجليد الذى لم يطأه أحد فى أحد أركان الفناء كى ينتظرنى . وتحت ناظرى الحارس ، فتحت الباب فى صمت ، ودخلت الحجرة ، التى كانت مليئة بالهواء الساخن وبالرائحة الحيوانية لأجساد الشباب .

« أهلا ياميتسو ، لم أظن حتى انك ستأتى » قال تاكاشى ذلك محييا بمرح ، واستطرد : « ففى وقت مظاهرات معاهدة الأمن ، لم تأتِ كى تشاهد ما حدث ، أليس كذلك ؟ » وكان مدثرا حتى رقبته ويحلق شخص ما له شعره .

قلت على سبيل التوبيخ : « ألا ترى أنك تزج بأفكار كبيرة ، اذ تقارن هذا باضطرابات معاهدة الأمن » .

كان تاكاشى يجلس مرتفعا على مقعد خشبى صغير بجانب موقد به مروحة . وكان حلاق الوادى ، يسن مقصه ، والى جانب تاكاشى وقفت امرأة شابة ذات رقبة اسطوانية يوحى مظهرها بعدم الاستقرار الانفعالى . كانت تجمع الشعر المتساقط فى احدى الصحف المفتوحة ، وجسدها البض ملتصق بجسده بما يوحى بالألفة . وعلى بعد مسافة قصيرة ، عند خلفية الحجرة ، كان هوشيو وثلاث من أعضاء الفريق يطبعون شيئا ما على ماكينة ستينسل يفترض أن لهم مبرراتهم المذهبية والواقعية للهجوم على السوبر ماركت .

تجاهل تاكاشى تهكمى ، أما زملاؤه فقد توقفوا عن العمل وانتظروا استجابته . كنت أتصور أنه ربى زملاءه من المشاغبين باخبارهم عن خبراته الخاصة فى يونيه ١٩٦٠ ، عاقدا توازيا مفتعلا بين تلك الأحداث وهذا الشغب الصغير .

أردت أن أقول لأخى الذى كان يبدو عليه مظهر شاب فلاح ذى عقلية بسيطة تحت حرارة الموقد ومقص الحلاق : « فى أحداثنا ، كان هناك العار الذى قمت فيه بلعب دور الطالب النشط النادم . فهل أخذت الدور المعاكس هذه المرة ؟ » غير أنى تمكنت من أن أمسك بلسانى .

سأل تاكاشى زملاءه « وماذا عن الكيروسين ؟ »

فرد هوشيو على الفور ، وهو يعطى محرك ماكينة الاستينسل للشاب الذى كان بجانبه : « سأذهب الى المخزن ، وأرى يا تاكا »

تذكر أن يسلمنى أنا وتاكاشى نسخة من المنشور الذى طبع حديثا وهو يخرج من الحجرة . فلقد كان عضوا كفؤا من أعضاء الانتفاضة باعتباره مساعد القائد . ثم رحت اقرأ المنشور .

لماذا سيكون على امبراطور محال السوبر ماركت أن يعانى فى صمت ؟ لأنه بغير ذلك :

- سيكون ذلك مجلبة للشر بالنسبة لسلسلة محال السوبر ماركت !

- وسيكون الأمر محرجا مع مأمورية الضرائب !

- ولن يتمكن من القيام بأعمال تجارية فى الوادى مرة أخرى !

- فهل فى امكان أى شخص مذنب مثل الامبراطور أن يرتكب عملا انتحاريا ؟

قال تاكاشى بسرعة آملا أن يستبق أى انتقاد قد يصدر عنى على صياغة المنشور : « ان أول شىء ، أن تجعل الجميع حتى الطبقات الدنيا يفكرون على هدى من هذه الخطوط الأساسية . اننا نحتفظ بكروت أقوى وأعمق تحت أيدينا . فهذه القطعة الجنسية ، على سبيل المثال ، التى اعتادت أن تكون ضابط الاتصال الخاص بالامبراطور تتعاون الآن معنا . وهى جريئة غير هيابة فى هجومها على الامبراطور ، خاصة أنها تريد أن تفصل فى الحال ، كى تتمكن من الرحيل الى المدينة » .

تورد وجهها من الحياء بسبب هذا النفاق الحاذق ، وأتخذت وضع من كانت مقدمة على الغناء . فمن الواضح أنها من الفتيات الذى توجد منه واحدة فى كل قرية ، والتى تصبح ابتداء من سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة محط التطلعات الشهوانية لجميع الشباب الذين يعيشون فيما يجاورها من أماكن .

قلت وأنا أحول بصرى عن الفتاة التى توجه انتباهها ليس فقط نحو تاكاشى وانما الى جمع غير محدد : « يقولون إنك منعت الكاهن أن يأتى للتحدث الى » .

« لست أناياميتسو . غير أنه طوال الأمس ، على الأقل ، كان الفريق يفرض رقابة مشددة على جميع المفكرين ، والأشخاص البارزين فى الوادى . فهم فى نهاية الأمر ، اصحاب نفوذ يجب وضعه فى الحسبان . فلنفرض ، أن شخصا مهما فى القرية أخبر الأهالى أن يتوقفوا ، وهم على وشك الهجوم على السوبر ماركت مرة أخرى ، لعل النهب هنا لن يتعدى الهجوم الأول ، أى مجرد حادث عارض . أما اليوم فإن غالبية أهل الوادى قد وضعوا أنفسهم فى المكان الخاطىء فاذا أصبح الأثرياء فى جانب

الصواب ، وليس لهم شأن بما يقع ، فسيجلبون الكراهية على أنفسهم فحسب .

ضحك الشباب الضحكة المطيعة التى يضحكها شركاء الجريمة المنظمين تنظيما رسميا . وبدا أنهم يجدون أن طريقة تاكاشى فى التحدث طريقة جذابة . واستأنف تاكاشى حديثه قائلا : « غير أننا اضطررنا ، منذ جولة النهب الثانية ، أن نشرف على توزيع الخزين الاحتياطى فى السوبر ماركت ، لذا فان عملى صعب أيضا الى حد ما . فعلىّ ، مثلا ، أن أتأكد من عدم وجود فرق أكبر من اللازم فى الأسلاب بين مجموعة من المنازل فى الريف وغيرها من المجموعات . فهل أنت ترى أن هناك منهجا نتبعه فيما نقوم به من نهب » .

ضحك واستمر يقول : « فالفريق يراقب مخزن السلع مراقبة مشددة حتى يبدأ التوزيع مرة أخرى غدا ، اذ سيبقى الشباب هنا الليلة . مارأيك ، ياميتسو ؟ مارأيك فى نهبنا الذى يتم تحت الرقابة ؟ »

قلت : اذا أردت أن تحتفظ باهتمام أهل الوادى أطول وقت ممكن ، فلا يمكنك أن تدعهم يستهلكون مصدر طاقة الشغب فى وقت مبكر أكثر مما ينبغى ، لذا فأجزم بأن بعض الرقابة شىء لطيف .

ولم أبذل أى جهد فى اخفاء ردود أفعالى على الهواء المنتشى الذى يقوله تاكاشى . غير أن تاكاشى كان أبعد مايكون عن الانزعاج ، بل بدا أنه يجد ذلك أمرا مورطا وظل ينظر الى بنفس الطريقة الاستفزازية وهو يقول : « أحب أن يسمى ذلك شغب تاكا . ولكن اتدرى ياميتسو ، لم يتجمع جميع هؤلاء الناس بسبب الجشع المادى أو الأحساس بالحرمان سواء كانوا كبارا أو أطفالا على حد سواء وجعلهم فى حالة تأهب ؟ أظنك سمعت طبول رقصة النيمبوتسو تعمل طوال النهار . حسنا ، ان هذا يساعد على بقاء المرجل فى حالة من الغليان ، انها مصدر الطاقة الانفعالى للشغب . فالنهب ، ياميتسو ، لايصل الى حد الشغب . انه مجرد عاصفة صغيرة تتحرك فى فنجان ، كما يعرف تماما جميع المشاركين . ومع ذلك ، فهم

باشتراكهم يعودون قرنا من الزمان الى الوراء . ويمرون بتجربة انتفاضة ١٨٦٠ عن طريق الاحساس بالاثارة الذى مر به أهل ذلك الزمان . فهو شغب الخيال .

وعلى غير انتظار ، انغلق تاكاشى فى حالة مزاجية حزينة ، فصمت وأخذ يتميز غضبا وشفتاه مضمومتان ، ووجهه منعكس على المرآة الصغيرة المربعة المرفوعة على المقعد الموضوع أمامه ، وكأنه بدأ يسأم حتى من حلق شعره فى المكتب الذى صار الآن تحت سيطرته .

قال هوشيو ، الذى كان ينتظر خلفى حتى يتوقف الحوار : « لقد وجدت علبة كيروسين ، ياميتسو » .

فاستدرت قائلا : « شكرا لك ، ياهوشيو ، سأدفع ثمنها بالطبع . ذلك لأنى غريب ، وعليه فان السوبر ماركت لم يكن يحقق أرباحا على حسابى ، واذا لم يكن هناك أى شخص يأخذ النقود ، فدعها فى المكان الذى كانت العلبة توجد فيه » .

تردد هوشيو ، إذ كان فى حالة من الاحراج ، وكان على وشك أن يأخذ النقود التى مددتها اليه حين لكز صديقاه كتفه بعنف فى نفس الوقت ، إذ التفا كى يواجهاه بيدين مسودتين بحبر الاستينسل . فسقط الى الخلف واصطدمت رأسه من الخلف بالجدار المصنوع من الألواح الخشبية . فوقفت هناك أشعر بأنى أحمق ، بذراعى النحيلتين البيضاوين ، بينما مازلت أمد النقود بضعف . ونهض هوشيو على قدميه فى حالة من الغضب يصدر صوتا كصوت الثعبان بينما كان يضم أسنانه بشدة ثم نظر الى تاكاشى كى يأذن له بالرد على الهجوم . غير أن قديسه الحامى جلس بلا حراك ، يقطب لنفسه فى المرآة وكأنه لم يلاحظ حتى الضوضاء المخيفة التى أصدرها هوشيو وهو يسقط . قالت الفتاه التى كانت تقف إلى جانب هوشيو بسرعة وبصوت مرتفع : « هذا ضد النظم ، ياهوشى » ومما أذهلنى أن هوشيو صار ساكنا تماما وأخذ فى البكاء .

خرجت من المكتب وأنا أغلى من الاثارة المؤلمة . وكانت موسيقى النيمبوتسو مازالت تعزف ، فزادت من دقات قلبى بشكل خطر . إلى حد

جعلنى أجبر على إغلاق أذنى وأنا أسير . وكان الكاهن الشاب فى انتظارى أمام السوبر ماركت . وبشكل لا ارادى ، أنزلت يدىّ من على أذنىّ .

انفجر قائلا : « ذهبت الى المنزل فأخبرنى أحد أبناء جين أنك ستنزل الى هنا » .

أدركت مباشرة أن شعور اللهفة الذى كان يبث فيه الحياة كان تقريبا هو عكس الانفعال الذى كاد يخنقنى . ثم استرخى قائلا : « لقد بحثت فى مخزن المعبد ووجدت الوثائق التى تركتها عائلة نيدوكورو هناك للاحتفاظ بها فى أمان » .

أخذت الظرف الورقى البنى الكبير الذى قدمه . لقد كان ظرفا باليا ، يذكر المرء بأيام الحرب التى كانت تتسم بالتقشف ، كما كان مبتلا وأكل عليه الدهر وشرب . لابد أن أمى قد وضعته فى حيازة المعبد بعد أن وضعت الحرب أوزارها . وعلى كل ، لم تكن محتويات الظرف هى التى تثير اهتمام الكاهن . اذ ردد بلهفة وصوت منخفض : « هذا مثير للاهتمام للغاية ، ياميتسو . انه لشديد الاثارة ! »

« انى أسمى ذلك شيئا فتانا » .

كان رد فعله يختلف تماما عما توقعت ، فنظرت اليه فى ريبة . وبقيت صامتا ، لبرهة ، ومتحيرا أحاول أن أتعمق فى معنى ما قاله . فقال : « دعنا نتحدث ونحن نسير فجميع الناس يصغون ! »

وخطى أمامى بخفة لاتليق بشخص غير مقدام فأسرعت خلفه ، محتفظا باحدى يدىّ تضغط على معطفى ناحية قلبى . فاستطرد : « لو انتشر الحديث عن هذا الأمر ، ياميتسو ، فان جميع محال السوبر ماركت الريفية فى كل أنحاء البلاد قد يهاجمها المزارعون ، واذا ماحدث ذلك ، فان عيوب الاقتصاد ستظهر على السطح مباشرة . ان التاريخ يتحرك ! وكثيرا ما يقول الناس ، ان الاقتصاد اليابانى سيصل الى طريق مسدود خلال عشر سنوات ، غير أنه من الصعب على أمثالنا من غير المتخصصين أن يروا من أين سيبدأ الانهيار ، أليس كذلك ؟ ولكن ها أنت ترى مزارعين غاضبين يهاجمون أحد محال السوبر ماركت دون سابق انذار ، فلنفترض أنه بعد

ذلك ، هوجمت عدة مئات الآلاف من محال السوبر ماركت ، لاشك فى أن هذا سيلقى ببقعة من الضوء على انهيار الاقتصاد وعدم تحمله . وهذا كله شيق للغاية ، ياميتسو »

قلت معترضا : « ولكن هجوما على سوبر ماركت فى هذا الوادى لن يشعل شرارة سلسلة من ردود الأفعال . وستهدأ كل هذه الضجة فى يومين أو ثلاثة وسيعود أهل الوادى الى ماكانوا فيه من رتابة من قبل » .

لقد جعلتنى النشوة التى أحس بها هذا الرجل ، الذى يفترض أنه يمثل الجانب الفكرى المهذب فى الوادى أهوى الى حد الحزن الحقيقى . « ليست بى رغبة فى أن أتدخل فيما يحدث فى الوقت الراهن ، ولكنى أعرف تمام المعرفة أن تاكاشى ليس من النوع الذى يمكنه عمل أى شىء قد يؤثر فى مسار التاريخ . وكل ما آمل فيه ، هو ألا تجعله هذه القضية معزولا شديد البؤس . ومع ذلك ، فمن ناحية عملية ، أشعر أنه هذه المرة ، لم يدع لنفسه أى مخرج . والآن، وقد جعل جميع أهل الوادى يشاركون فى (العار) ، لا أرى كيف يستطيع أن يلجأ اليهم للتعاطف كطالب نشط من أجل الاصلاح . وانى لفى عجب مستمر من السبب الذى حدا به أن ينساق الى هذا الحد ، غير أنى لا أصل أبدا الى نتيجة محددة . والأمر الوحيد الذى أشعر بالتأكد منه هو أن ذاته من الداخل منشطرة الى قسمين . فلن أتدخل فيما يفعل ، غير أنى فقط لا أفهم ماذا جعله هكذا . ولدى شعور ، على الأقل ، أن نقطة التحول حدثت حين انتحرت اختنا ، وأنت تعرف أنها كانت تعيش معه » .

ثم صمتت اذ غلبنى اسى لاحدود له وتعب ، وكأنى أشارك شخصيا فى أعمال الشغب طوال النهار . ورغم أن الكاهن تقبل ماقلته فى صمت ، فإنه اتضح الآن أنه تحت سطح التهذيب والثبات الذى لايهتز ، والذى يبدو على وجهه ، تكمن طبقة واقية من التحدى المنافق تتخذ شكل الطبع الحسن . ففى نهاية الأمر ، تمكن هذا الرجل من أن يتحمل تقلبات النميمة والثرثرة التى ملأت الوادى بعد أن هربت زوجته . وجاء صمته نتيجة الاشفاق على حالتى المتدهورة ، وليس نتيجة التعاطف مع وجهات نظرى . وأدركت أنه بينما كان همى الوحيد هو مصير أخى ، كان هو منشغلا فى صمت ، ويحك

كتفيه وكأنما يفهم فهما عميقا يفوق فهم الرجال والنساء والأهالى من كبار السن والأطفال الذين كانوا مازالوا يزدحمون على الطريق ويبتسمون لنا بود . وحين وصلنا الى الساحة المفتوحة أمام مكتب القرية ، قال الكاهن على سبيل الوداع : « فى الماضى كان الشباب دائما منهمكين فى مشروع أحمق ، ويزجون بأنفسهم فى المتاعب ، ثم ينفضون أيديهم . ولكن فى هذه المرة ، على الأقل ، يحاولون أن يتغلبوا على صعوبة كبيرة معينة بمواردهم الخاصة . أو هل يجب أن أقول ، إنهم خلقوا بمحض إرادتهم موقفا لايمكن حله ، وهو ما أجده مثيرا للاهتمام تماما . فلو أن أخا جدك الأكبر كان على قيد الحياة اليوم ، فأنا واثق أنه كان سيتصرف مثلما يتصرف تاكا » .

برأس محن ، وأنفاس متلاحقة قصيرة وقلق على قلبى ، صعدت طريق الحصى ، الذى صار خطرا بشكل مضاعف ، الآن وقد بدأ الجليد الذى صهرته الشمس فى التجمد مرة أخرى ، زحفت حولى أشكال سوداء ذات حمرة عميقة بينما كنت أذهب ، كان قد بدأ يختفى مع سقوط الجليد ، أخذ يعود مرة أخرى الى الوادى ، لقد جعلت الريح السحب تنقشع لتكشف عن أجواء الشروق . صعدت بين الشجيرات وأنا أرتعش من البرد القارص والجليد يبطىء من حركتى ، إذ كان مازال مستقرا على الأرض مع الخيالات الآخذة فى الانبعاث . وكان جلدى ، الذى بدأ يعرق من حرارة الموقد فى مكتب السوبر ماركت ، يستسلم بسرعة للبرد . واستطعت أن أخمن نوع التعبير الذى كانت ترمز اليه الظلال التى بها مسحة من الاحمرار ، اذ كانت تحفر على جلد وجهى . حككت خدىّ بيدىّ ، ولكن مهما حاولت لم أستطع أن أغير تعبيرها الصارم ، أخذت فى الصعود ، بكسل وبطريقة آلية كقطار فى الشمال ، دائم التأخير ، يتغلب على شعور بالتعب جعلنى أحس أنى لن أصل الى البيت قط . وحين نظرت الى أعلى ، رأيت البيت يسنده المنحدر المغطى بالجليد المظلم ، وهو يشبه كتلة من القطران محاطة بسحابة حمراء ممطرة تملأ الجو .

التفت جماعة داكنة صغيرة من النساء حول باب المبنى الرئيسى . ولقد تخلين عن الملابس البراقة التى ملأ السوبر ماركت الوادى بها ، وكأنهن عدن الى أساليب المنخفض القديمة ، فكن يرتدين ملابس عادية للعمل من

الرأس الى القدم لم تدع أى جزء من جلدهن مكشوفا بشكل مباشر للهواء فيما عدا الوجه . وبينما دخلت الحديقة الأمامية ، استدرن فى وحدة وكأنهن قطيع من البط ، وأخذن فى تفحصى بوجوه تخلو من أى تعبير ، وأخفين حمرة أميل الى القتامة . ثم استدرن الى زوجتى ، التى كانت تقف فى المطبخ ، وبدأن فى ضوضاء من الشكوى . لقد كن ربات بيوت من الريف وأصررن على أن يلقى تاكاشى بأفلام النيجاتيف للصور التى التقطها فى اليوم الأول لأعمال النهب . ذلك أنهن حين وصلن الى بيوتهن وتحدثن عن صور تاكاشى ، طلب أزواجهن وحموهن أن يطلبن على الفور تلك الأفلام لتدميرها . فتخيلت أنهن أول مجموعة من المشاركات فى الشغب اللاتى تعدن النظر فى أفعالهن .

صار لون الشمس الغاربة هو اللون البرتقالى ثم ذوت بسرعة . راحت زوجتى تردد بصوت مسطح يبدو عليه التعب : « لا أستطيع أن أحمل تاكا على تغيير رأيه فليست لدىّ سلطة للتأثير على أفكاره . فهو يتخذ دائما قراراته بنفسه » .

ودون سابق انذار توقفت الموسيقى التى كانت تنمو كالربيع باطراد فى قاع الوادى . وساد المنخفض لون الطوب اللبن كما ساده احساس بالغياب داخل حفرة الغابة السوداء .

صاحت احدى زوجات المزارعين الشابات « ياالهى ، ماعسانا أن نفعل ! »

جعل اليأس الصريح فى صوتها زوجتى تختلج للحظة ، غير أنه لم يكن يكفى لجعلها تغير ماكانت تقول . « انى أنفذ مايقرره تاكا أيا كان . وتاكا يقرر كل شىء . فهو دائما يقرر وحده مايفعل » .

الفصل الحادى عشر

سطوة الذباب

فى الصباح التالى ، كانت الانتفاضة مستمرة ، غير أنه لم يسمع صوت موسيقى النيمبوتسو ، ولف حزن صامت الوادى برمته . وحين أحضرت موموكو لى افطارى ، وجدت أن تجربتها للعنف ، قد ضاع أثرها ، ومما يدعو للغرابة أنها أصبحت تتسم بنوع من النضج . احتفظت بوجهها الى أسفل ذلك الوجه الذى صار شاحبا الآن ، وبه ثبات أنثوى رافضة بعناد أن تواجه نظرتى ، وتكلمت طوال الوقت بصوت صغير متردد خشن . اكتشف حرس تاكاشى أن مدير السوبر ماركت قد راوغ الحراسة الساهرة عند نهاية الكوبرى وهرب من الوادى . وعبر النهر ، على أمل أن يتصل بالامبراطور والعصابة التى تحت سيطرته رغم أن النهر الآن منتفخ بشكل خطر بسبب الجليد الآخذ فى الذوبان ، وانطلق يجرى على الطريق المغطى بالجليد الذى يؤدى الى البحر ، دون أن يعير أى اهتمام لملابسه التى كان يتساقط منها الماء . وفى نفس الصباح ، أحضر الأب الذى أنقذ ابنه تاكاشى من الموت على الكوبرى المنهار سرا بندقية صيد له وعدة طلقات .

قالت موموكو : « لقد أعارها لتاكا كى يصد بها الهجوم حين تأتى عصابة الامبراطور . ولكن اذا شئت معرفة رأيى ، فان وجود البندقية يجعل الأمر أكثر خطورة » . كانت تتحدث بالنبرة المكتئبة الخائفة ، الى حد ما ، التى يتحدث بها شخص لم يعد يجد أدنى قدر من اللذة فى العنف .

وكان تفسيرى للدور الذى يزمع أن تلعبه البندقية مختلفا عن تفسير موموكو ، غير أنى بقيت صامتا خوفا من ارهابها أكثر مما تشعر به من ذعر ؛ إذ كنت متأكدا من أن البندقية لم تكن موجودة كى يستخدمها تاكاشى

جنبا الى جنب مع حرسه أو مع أهل القرية ، ضد الامبراطور وعصابته ، وانما هى سلاح لتلك اللحظة التى يجد نفسه فيها مهجورا تماما من زملائه ، ومضطرا للدفاع عن نفسه فى النهاية وهو وحيد فى واد معاد . أما تاكاشى نفسه ، اذ لم يجد أن أحدا من المزارعين نزل من الريف كى يبدأ النهب مرة أخرى فى ذلك الصباح ، فقد وضع سلاسل فى السيتروين وانطلق كى يقوم بعمل حملة فى المنطقة الواقعة فيما وراء أيكة الخيزران .

بدا أن موموكو لم تكن تسعى للحصول على جواب منى كعضو فى الهيئة ؛ إذ إنها استخدمت السؤال كحجة لتسمع قصة الفيل . فمنذ جعلها الاحتكاك بالعنف غير المتوقع ، تنكمش على نفسها ، أخذت تفكر بحنين فى الرقة التى كان تاكاشى يتحلى بها قبل أن يبدأ فى ادارة انتفاضته الحمراء ، واشتبهت فى أن موموكو تمثل أول عضو فى حرس تاكاشى الشخصى التى تسقط على جانب الطريق .

لم أقرأ أى صحف منذ جاء الجليد ، وحسب علمى ، فان العالم قد يكون معرضا لمزيد من خطر وقوع حرب نووية . ولكن الى حد ما ، فإن الخوف والإحساس بالعجز اللذين أثارتهما هذه الفكرة داخلى ، أبت أن تولد مزيدا من الحدة أكثر مشاغلى المعتادة فى العزلة .

كان الظرف الذى بذل الكاهن جهدا كى يحضره لى يحتوى على خمسة خطابات لجدنا الأكبر من أخيه الأصغر ، ومنشور موقع باسم جدنا الأكبر عنوانه (تاريخ انتفاضة المزارعين فى قرية أوكوبو) . والانتفاضة المسجلة فى المنشور لم تكن هى انتفاضة ١٨٦٠ ، وانما هى انتفاضة أخرى أثارتها فى المنطقة فتوى فى عام ١٨٧١ تلغى العشائر وتقيم نظام المقاطعات . ولم يحمل أى من الخطابات عناوين أو توقيعات ، إذ لابد أن أخا جدنا الأكبر قد قرر أن يحتفظ بموقع حياته الجديدة سرا ، بالاضافة للاسم الجديد الذى اخترعه للاستخدام فى ذلك الموقع .

ومع ذلك ، فان أول الخطابات ، والذى كان بتاريخ ١٨٦٥ أوحى بأنه بعد الهرب من خلال الغابة الى كوتشى، تلقى الزعيم السابق للمتمردين ، كما استنتج الكاهن ، أن يبدأ فى عالم جديد عن طريق عميل فيما وراء القرية .

وأظهر أنه بعد فراره بأقل من عامين ، تمكن الشاب من تحقيق مقابلة مع بطله المراوغ جون مانجيرو ، وحصل بالفعل على تصريح كى يشترك فى مغامرته الجديدة . ومعنى أن يكون للرجل القادم من وراء الغابة مثل هذا النفوذ على جون مانجيرو فيما يتعلق الأمر بالشخص الذى يحميه لابد أن معنى ذلك ، أنه كان عميلا سريا ذا صلة بسلطات عشيرة التوزا . ويروى الخطاب كيف أنه أبحر من شيناجاوا عام ١٨٦٢ كبحار عادى على سفينة صيد الحيتان الخاصة بجون مانجيرو . وفى بداية العام التالى ، وصل قاربهما الى جزر البونين ، ثم واصل الابحار الى موقع صيد الحيتان . وهناك اصطادا حوتين وليدين ، وعادا الى جزر البونين ، إذ كان لديهما نقص فى مياه الشرب ، وهنا تخلى أخو جدنا الأكبر عن العمل جزئيا بسبب دوار البحر العنيف ، ولكن أيضا بسبب القلق الناجم عن الاختلافات المتكررة مع البحارة الأجانب على نفس السفينة . ومع ذلك فلقد كان شيئا له أهميته أن يلقى رجل ترعرع فى أحد الأودية فى أعماق الغابة حوتين على قيد الحياة ، حتى ولو كانا وليدين ....

وكان تاريخ الخطاب الثانى هو عام ١٨٦٧ . أظهر شعورا جديدا بالنشاط والحرية فى الأسلوب ، أن عدة سنوات من الحياة فى المدينة قد أيقظت خاصية من مرح الشباب كانت لا تزال مختنقة أثناء الفترة التى عاشها على سفينة صيد الحيتان فى شخصية الهارب من الغابة . وكان الخطاب يحتوى على مقال مسل قرأه فى يوكوهاما فى أول صحيفة رآها فى حياته . وقد نسخ هذا المقال خصيصا لفائدة أخيه الأكبر فى الموطن فى الوادى فى برارى شيكوكو .

قبيل الظهر ، عزفت موسيقى النيمبوتسو من جديد . واليوم جاءت من موقع ثابت أمام السوبر ماركت ، دون أن تلهم أهل الوادى بأى موسيقى كما حدث بالأمس ، حين نبعت من أماكن عدة كل بدوره . فلابد أن تاكاشى وفريقه يعزفون الموسيقى وحدهم تماما . وكنت أعجب فيما اذا كانت ستتوافر لهم الطاقة كى يستمروا بلا توقف فى موسيقى رتيبة كهذه ، اذا لم تكن هناك استجابة متعاطفة من سكان الوادى العاديين . وداخلنى شعور

الليلة ، ياميتسو ؟ يمكننى أن أنام فى أسفل فأنا لا أهتم بالبرد » .

فسألت وأنا مندهش : « ولماذا ؟ ما المشكلة ؟ »

فانتشرت حمرة فاحشة من الحياء على الوجه الصبيانى البهيج . وضم شفتيه المتشققتين وأخرج ما فى أنفه بقوة ، ثم قال وقد عاد وجهه الى الشحوب بمجرد تنظيف أنفه :

« ان تاكاشى يفعلها مع ناتسومى ، وأنا لا أحب النوم هناك » .

أخذت أنظر الى جلد وجهه الذى جعله الجليد كمن لوحته الشمس ، وهو يجف ، بدا كأنه يتكسر بحيث يبدو كمسحوق أبيض . حتى ذلك الوقت ، كنت ، أظن أنى المراقب الوحيد ، وكنت فى دعة أعزو مظهر هوشيو وحرجه غير العادى الى فقده مكانه فى انتفاضة تاكاشى . وكان هو ، فى الواقع ، الذى يراقب عاريا ، غير أن ملاحظة هوشيو لما يحس به شخص تنام زوجته مع شخص آخر من قلق وتوتر جعلته يتأثر بدوره باحساس لايطاق من العار الذى يكاد يكون شخصيا . فجعل ذلك الادراك كرة العار تطير نحوى مرة أخرى . وبدا أن عينى تمتلىء بفيض من البلل الساخن .

« اذن يستحسن أن تحضر أغطيتك هنا قبل أن يختفى الضوء ، ياهوشى . ويمكنك أن تنام فوق معى . فالجو شديد البرودة فى أسفل » .

يتلاشى التحدى الحار الذى يشع من عينيه ، دون أن يترك سوى احتراس يشوبه الشك . ونظر الى وتعجب وهو يتأرجح بين شك ساذج فى أنى فهمت ماقال وتوجس جبان من أن أهاجمه فجأة . ثم غمغم بحمق وما زالت عيناه مركزتين على تحركاتى ، وبصوت به مزيج من الاشمئزاز والعجز : « لقد قلت لتاكا ألا يفعل ذلك ، وان ذلك خطأ غير أنه استمر فى هذا الفعل » .

وانهمرت دمعة رقيقة على خديه المائلين الى اللون الأبيض والآخذين فى التشقق . فأمرته قائلا : « اذا كان هذا ، ياهوشى ، ليس مجرد خيال أو تمنٍ يستحسن أن تخبرنى بما حدث بالضبط . اما هذا أو فلتصمت » .

بأن المرة التالية التى تتوقف فيها الموسيقى قد تكون هى علامة بدء لحظة رد الفعل ضد الانتفاضة .

حين أحضر هوشيو وجبة غذائى ، كان يبدو عليه الحزن والحمى ، وكانت عيناه تتابع كل خلجة منى بحدة جائعة تقريبا . وبدا كأن شعورا بالعار على إسقاطه من الانتفاضة قد بدأ ينبع من داخل رأسه الى أن نشع من عينيه . غير أنى عجبت للسبب الذى يجعله يحس بهذا العار نحو تاكاشى . فبعد أن تخلى تاكاشى عن هوشيو حين دفعوه الى الخلف فى مكتب السوبر ماركت بسبب خرقه للنظم ، ثم اضطراره إلى السقوط على جانب الطريق ، ذلك أن هوشيو ، فى نهاية الأمر ، قد شارك فى الانتفاضة بمحض ارادته ، وأعطاها معونة عملية باعتباره رجلا فنيا ، رغم عدم وجود أدنى صلة بينه وبين الوادى . وكان عطف تاكاشى هو الرباط الوحيد الممكن الذى ربطه بالانتفاضة . فقلت بينما كانت تدور فى راسى مثل هذه الأفكار بتعاطف ساذج :

« يبدو أن انتفاضة تاكا قد هدأت كثيرا اليوم ، أليس كذلك ؟ »

ولكن هوشيو نظر الى نظرة استنكار صامت ، محاولا أن يبين لى ، أنه على الرغم من أنه قد خرج أخيرا من القضية ، فإنه ليست به رغبة فى الانضمام الى متفرج مثلى فى انتقاد تاكاشى وفريق كرة القدم الخاص به .

قال فى محاولة منه أن يقصر حديثه على التحليل الموضوعى للموقف « لايوجد ما يكفى من أجهزة كهربية كى يتم توزيعها . وحين يأتى وقت تحديد من سيأخذها بالفعل ، فلايوجد من لديه الشجاعة للتقدم » . عموما ، فقد بدأ تاكا هذا كله ، لذا فعليه أن يسير فى الأمر الى نهايته . « غير أن هذا لم يكن له من أثر سوى زيادة مايحس به من توتر . وبلغ فجأة الاحساس بالعار الذى كان يختلج لبعض الوقت على وجهه بغموض ، حد التفجر ، واندفع فيضان من الدم القانى على خديه كمن أصيب بصرع . وحين رفع عينيه فى النهاية وركز نظرتهما على ، كان بهما لمعان ثابت بحيث بدا أن كلّ ما تخفيانه سينسكب فى تفجر مفاجىء . لكنه ابتلع ريقه بصعوبة كطفل وقال : « هل تسمح باستضافتى فى المخزن ابتداء من

كنت أعرف أنه ما لم يصف الأمر بالتفصيل ، فلن يكون فى امكانى أن أتصرف تصرفا سليما . واندفع الدم فى رأسى ، حيث أخذ يدق محدثا ضوضاء غير أن وعيى كان زائغا غير قادر على أن يتوجه سواء الى الغير أو إلى أى رد فعل عملى .

جلا هوشيو حنجرته بصوت ضعيف فى جهد منه كى يعطى صوته قوة ، ثم استطرد قائلا ببطء مركزا على نهاية كل عبارة ، كى يؤثر على بما كان يقول :

« لقد أخبرته ألا يفعل ذلك وأخبرته أنى سأضربه ما لم يبتعد . حصلت على سلاح ، وكنت سأندفع الى الحجرة التى كانا ينامان فيها ولكن حين فتحت الباب كان تاكا يرتدى قميص تدريب واستطعت أن أرى استه عاريا ونظر الى وقال : كنت أظن أنك العضو الوحيد فى الفريق الذى ليس فى استطاعته أن يمسك بسلاح . فلم أفعل سوى الوقوف هناك ، لم أستطع ضربه . لا لا تفعل ذلك لاينبغى لك ذلك . لكن تاكا فعلها ورفض أن يأبه لى » .

ولم تنجح كلمات هوشيو فى أن تستحضر فى خيالى صورة لفعل جنسى بين تاكاشى وناتسومى ، ولكنها نجحت فى تقليب طبقات الذكريات الأكثر ضحالة والأقل نضجا محيية كلمة الزنى التى استخدمها تاكاشى هنا فى المخزن ، بواقعية جديدة ، تلك الكلمة التى بدا أن أصداءها الخافتة أخذت ترن الى ما لا نهاية تحت العوارض السوداء القوية . من بين الزناة ، كنت أظن أن زوجتى قد استأصلت كل ماهو جنسى بداخلها بالكامل ، بحيث إنه قد تمر بها رغبة عابرة ، من أن لآخر لن يكون فى امكانها نقلها الى تربة جنسية يمكنها أن تنمو فيها نموا طبيعيا . ففى احدى المرات ، حين كنا نقف أنا وهى وكتفانا ملتصقان نحاول أن نزيل نباتا من اصيص من حامية ، النباتات المزدحمة اكتشفنا أننا لم يكن بيننا علاقة جنسية منذ أن حملت بالطفل ، وعلى الأخص بعد صدمة ولادته ، تغلبت علينا رغبة مثل الحمى العابرة ، فأمسكت بعضوى بخشونة ، الذى انتصب رغم قماش سروالى الذى قاوم الانتصاب ، ثم قطبت فى اكتئاب وسارت مختفية الى حجرة النوم . وبعد ذلك وهى راقدة على الفراش ، تناولت قرصا من الأسبرين ، وبدأت تعتذر : « فى اللحظة التى لمستك فيها ، عدت الى حمل ذلك الجنين

الضخم مرة أخرى . واستطعت أن أشعر أن رحمى صار كبيرا وضيقا مرة أخرى ينكمش ويؤلم بسبب الاثاة الجنسية » .

لا أظنك تستطيع فهم هذا ، ومع ذلك ، وبينما كنت أصغى اليها استطعت أن أحس فى أسفل بطنى الما يتكىء فى الذاكرة .

قلت فى ذعر : « هل اغتصبها اذن ؟ هل دخلت كى توقفه لأنها صرخت بألم ؟ »

كانت رأسى تسبح فى غضب متجدد . ولكن هوشيو الذى كان حتى هذه اللحظة غارقا فى نشيج استفاق فجأة وتأمل فى كلماتى ، وأحدث كل علامات الدهشة كى ينكر هذه الكلمات . « كلا ، لم يغتصبها . حين كنت لا أزال أنام عند الأبواب المنزلقة كنت أعتقد أنها متعبة للغاية من محاولة ايقافه عن وضع يده على ثدييها وبين ساقيها ، ولكن حين فتحت الباب كانت فى انتظاره كى يبدأ . استطعت أن أرى أحد فخذيها عاريا ومرفوعا فى طاعة على جانبى أسته ، وفى هذه المرة قلت لها سأخبر ميتسو ما لم تكفى ، غير أنها قالت لايهمنى هذا ياهوشيو ولم تتحرك شعرة واحدة من شعرها . وحتى حين بدأ تاكاشى لم تتحرك بشكل يعنى أنها كانت تتألم .

هنا ازدادت واقعية الزنى بالتدريج . بل أيقظ حقيقة الموقف ، فى الحقيقة شهوة مشينة داخلى .

« أغلقت الباب لأنى لم أستطع تحمل تاكا وهو يفعل هذا الفعل ، غير أنه ، ودون أن يتوقف ، لوى رأسه كى يستدير ونظر الى ، وقال ، اذهب غدا الى ميتسو وارو له كل مارأيت . كان صوته مرتفعا جدا حتى أنى فزعت من أنه قد يوقظ موموكو ، فإنها تتناول الأقراص المنومة لأن ما أصيبت به من هيستيريا كان يجعلها مستيقظة دائما ، وما كان عليها سوى أن تنام » .

استيقظ هوشيو فى منتصف الليل وأدركت أن تاكاشى ، الذى كان ينام جواره ، قد تسلل من تحت أغطيته . وسمع صوته الى جوار ناتسومى ، التى كانت تنام مع موموكو خلف الأبواب المنزلقة . وكان تاكاشى يقول : « شعرت كأنى أتمزق الى نصفين ، وكان ذلك هو ذاته ماكان يحدث أثناء رحلاتى فى امريكا بالطبع ».

« ولكن أذنى هوشيو اللتين كانتا لاتزالان فى حالة خدر لم تستطيعا أن تسمعا ماقيل بعد ذلك استماعا جيدا ، اذ سمع فى البداية ، كلمات منفصلة كانت معانيها تتضح بشكل متقطع دون أن يفهم مغزى ماكان يقال . ثم صار بالتدريج ، أكثر استقبالا الى أن تمكن من سماع كل شىء بلا فجوات . وأجبره الاحساس الغريب بأن الأمر ملح ، ذلك الاحساس الذى حل محل النوم فى عينيه ، أجبره أن يفعل ذلك » .

احسست أنى أنشطر الى نصفين . وما لم أعط كلتا القوتين اللتين تشطرانى نصفين معنى ما وأقيمهما ... انى أدرك الآن أننى كنت ممزقا طوال الوقت بين الرغبة فى أن أجد لنفسى المبرر لكونى مخلوقا يحب العنف ، والاحساس الملح بأن أعاقب نفسى على ذلك . فهل فى امكانك أن تلومينى على كونى آمل فى أن أواصل العيش تماما كما أنا بعد أن أدركت الطريقة التى جبلت عليها ؟ ومع ذلك ، وفى نفس الوقت كلما قوى الأمل ، كلما أحسست بالحاح الحاجة الى أن أنظف نفسى من الجانب الرهيب ، مما كان يجعل الانشطار أكثر خطورة . ان السبب الذى جعلنى اختار عن عمد أن أتورط فى العنف أثناء الحملة التى شنت ضد مراجعة معاهدة الأمن ، وكذلك السبب الذى جعلنى أتحالف مع عنف الجانب الظالم ، مهما كان غرضه بعد أن وجدت نفسى مرتبطا بمعارضة الضعفاء الذين اضطروا للمعارضة ، كان السبب فى ذلك ، هو أنى أردت أن أستمر فى أن أقبل نفسى كما أنا ، أى أن أجد التبرير لنفسى كرجل عنف دون الحاجة الى أن أتغير ....

سألت زوجتى بحزن : « لم تقول نفسى ، كما أنا ، يا تاكا ؟ »

سألت هوشيو : « ألم تكن مخمورة ؟ » غير أنه هشم ، على الفور ، الأمل الواهى الذى كان يحتفظ لى بصوتى الملح ، بشكل يثير الشفقة . وقال : « انها لاتشرب قط فى هذه الأيام » .

واستطرد تاكاشى بعد فترة صمت ، وانتظر هوشيو أثناءه بأنفاس متلاحقة : « ذلك مرتبط بنوع التجربة التى لا أستطيع التحدث عنها طالما انتويت أن أستمر على قيد الحياة ، ولكنك لست مضطرة أن تسمعى شيئا عنها بشرط أن تعتقدى حقا أننى ممزق بين شيئين . حسنا على أى حال ،

فان الشىء الوحيد المؤكد هو أنى ذو شخصية منفصمة على طول الخط . فحيثما تهدأ الحياة لفترة قصيرة ، أحس بحاجة ماسة إلى أن أحرك نفسى عن عمد لمجرد الانفصام . والأمر أشبه بادمان المخدرات . ففى كل عام ، يجب أن يكون الباعث على التحرك أكثر عنفا ولو قليلا » .

سألته ناتسومى : « اذا كنت قد ذهبت الى معزل السود فى نفس الليلة التى وصلت فيها الى أمريكا لمجرد تحريك نفسك ، فماذا كنت تتوقع بالضبط ؟ »

« لم تكن لدى أى فكرة عما يمكن أن يحدث . كل ما هنالك هو أنى شعرت شعورا حادا بأنى اذا ماذهبت ، فلربما أتلقى هزة جديدة . وفى النهاية ، قضيت تلك الليلة مع امرأة عجوز سوداء فى سمنة جين . ولكن لايجب أن يخطر ببالك أن مادفعنى الى المعزل أصلا كان هو الجنس ، فلقد كانت رغبة أعمق من الجنس بمعناه المعروف ، الى حد بعيد . حاول سائق سيارة الأجرة أن يمنعنى من النزول من السيارة هناك . وقال إن ذلك خطر ليلا ، وعرض علىّ أن يأخذنى الى مكان آمن اذا كنت أريد أن أنام مع عاهرة سوداء . غير أنى رفضت . ودار بيننا جدال كانت نتيجته اننى خرجت أمام أحد الصالونات . فى الداخل ، كان بالمكان بار طويل رائع ممتد بعيدا الى الظلام ، وكان هناك صف من السكارى يجلسون فى صمت رهيب فى مواجهة البار ، جميعهم ، بالطبع من السود ، فجلست على مقعد بلا مسند ومرتفع أكثر من اللازم ، ووجدت مرآة خلف البار ، وأن جميع السود الذين كانوا حوالى خمسين شخصا ، والمنعكسين على المرآة ينظرون الى بخبث . فشعرت برغبة فى كأس كبير من الفودكا ، وأدركت لأول مرة أن عقلى يتوجع رغبة فى معاقبة الذات . حينما أشرب أى مشروب قوى أصبح ثملا تماما وأشعر بأننى أريد أن أتعارك مع أى شخص . غير أنه اذا ما ذهب شخص شرير شرقى مثلى الى أحد البارات فى المعزل ، خصيصا كى ينبش عن شجار ، فسينتهى الأمر بأن يجعل نفسه يضرب حتى الموت بكل تأكيد . لذا حين جاء النادل العملاق الى ، طلبت جعة الجنزبيل ؛ إذ كنت مرتعدا الى حد العمى ، الى جانب رغبتى فى معاقبة الذات . فأنا دائما ما أرتعد من هذا النوع من الموت بصفة خاصة . انها خصلة كان على أن أكافحها منذ اليوم الذى ضرب فيه « س » حتى قتل » .

قال هوشيو بصوت مشحون ببغض أسود : « كانت هذه هى أول مرة شعرت بالشكوك نحو تاكا ، حين قال انه خائف . لذا تلصصت بنظرى من خلال الأبواب المنزلقة . واستطعت أن أرى ، لأنهما تركا ضوءا خافتا مشتعلا من أجل مومكو ، إذ لاتزال ترتعد من أن تنام فى الظلام . وطوال الوقت الذى كان تاكا يتحدث فيه ، كان يضع يديه على ثدييها وبين ساقيها . كان ذلك حين اعتقدت أن ناتسومى تركته يفعل ذلك لأنها كانت فى غاية التعب بحيث تدفع بيده بعيدا ... »

واستطرد تاكاشى : « ظللت أرشف كأس البيرة الخاص بى ، حتى فرغ . ثم خرجت لأتمشى فى الشارع المظلم . كان الوقت متأخرا ، وكان الكثير من السود يجلسون فى الهواء الرطب على المداخن وعلى منحنيات المنازل الكبيرة المظلمة عتيقة الطراز . أمكننى أن أسمعهم يتحدثون عنى بينما كنت أمر بالقرب منهم ، وسمعت من آن لآخر القليل من الكلمات مثل القذر اللعين ... فأسرعت السير بشكل تلقائى متخيلا السود الضخام الذين يتصببون عرقا وهم يأتون خلفى ، ويشقون رأسى ، ثم يتركوننى أموت حيث أسقط على جانب الممر القذر . ولكننى حتى حين كنت أتصبب رعبا أخذت أنعطف الى شارع خلفى أكثر إظلاما وخطورة . كان ينبغى أن ترى مقدار ماتصبب منى من عرق ، الى حد جعل حتى المرأة السوداء العاملة التى نمت معها تقول انها لم تر فى حياتها يابانيا له كل هذه الرائحة ، رغم أن رائحتها كانت تصل الى عنان السماء . بل إنى احتميت فى افنية مربعات المساكن وجبهتى تشتعل هذه المرة بفكرة أننى قد أطلق على الرصاص ! وعلى مدى كل هذه المسيرة الاجبارية التى قمت بها ، كان الشىء الوحيد الذى تسلط على عقلى هو حكاية تحذيرية سخيفة روتها لنا عضو البرلمان التى ترأست فرقتنا على ظهر الباخرة عبر المحيط الهادى ، آملة أن تضمن حسن سلوكنا فى أمريكا . أتوقع أنها نشرت فى الصحف فى الوطن ، وهى عن موظف أحد المصارف فى طوكيو قد أرسل الى أمريكا ولقى حتفه على يد امرأة أمريكية فى الثمانين من العمر فى الحجرة المجاورة ولم يكن حتى مخمورا حسب ما قالت عضو البرلمان . غير أنى كنت واثقا من أن هذا هو فعل رجل يستخدم الخوف المفرط من الموت كى ينزل به العقاب على ذاته . وبينما كنت أهرول فى ظلام المعزل فى وقت

متأخر من الليل ، كنت مثل ذلك الرجل الذى زحف وهو عار نحو حجرة السيدة العجوز على بعد اثنى عشر طابقا فوق السلم الضيق ، والفرق الوحيد هو أنه فى حالتى لم يكن هناك شخص غريب يستيقظ فيطلق الصرخة التى تسلمنى لحتفى . وبعد برهة تصادف أن خرجت الى شارع أعرض وأفضل أضاءة ، حيث كانت سيارة أجرة تسير نحوى . فأشرت اليها بجنون كطريد رأى سفينة » .

« وما إن تنزاح عقبة ، حتى ينهار كل شىء ولايمكنك ايقاف ذلك : ففى خلال ثلاثين دقيقة ، كنت داخل حجرة العاهرة ، فى أمان ، أروى لها باللغة الانجليزية أكثر أسرارى عارا وأطلب منها أن تتصنع أنها توقع على العقاب الذى أستحقه . ولم أشعر بأى خجل حين رجوتها أن تتصرف وكأنها رجل أسود ضخم يغتصب فتاة شرقية . فقالت : سأفعل أى شىء تطلبه منى ، مادمت ستعطينى النقود .

فقاطعت هوشيو وأنا أكتشف شكواه : « أنت على خطأ اذا شعرت بالذنب ، لأنك لم تستطع أن توقف تاكا . ففى الوقت الذى صحت فيه قائلا : لاتفعلها ، لاتفعلها ! لا ينبغى لك ذلك ، كان الأوان قد فات بالفعل ، وحين رأيتهما يمارسان الجنس ، كانت هذه هى المرة الثانية بعد أن نالا بعض الراحة . فأنا واثق من أنهما كانا قد انتهيا من مرة ، بينما كنت لاتزال نائما . والا لما اعترف لها تاكا بنوع الأشياء التى رويتها لى توا . فهى ببساطة لن تكفى كمقدمة للتغريز بها » .

تساءل هوشيو وكأن مدركاته الأخلاقية وجدت طريقتى لاتغتفر : « ألست غاضبا يا ميتسو ؟ »

قلت : « لقد فات أوان ذلك أيضا . فما الفائدة التى سأجنيها لو أنى بدأت أقول لاتفعل ذلك لاتفعل ذلك ! هذا لاينبغى لك » .

نظر الى هوشيو بمقت مركز قوى كالسم يسيل من عينيه . ثم تخلى فجأة عن أى قلق أو اهتمام بالديوث ، وحين انسحب الى كوامن عقله المنعزلة ، حضن ركبتيه ورفع رأسه وأخذ يشكو مقدما نسخة تثير الشفقة لولولة زوجات المزارعين اللاتى كن فى حالة من البؤس فى المساء السابق .

« أيها الجحيم ! يا لها من فوضى ، ماذا عساى أن أفعل لقد أنفقت كل مدخراتى على السيتروين ، ولا أستطيع العودة الى عملى فى ورشة اصلاح السيارات . فماذا عساى أن أفعل بحق الجحيم ؟ يا لها من فوضى معلونة ! »

سمعت خليطا من الأصوات قادمة نحو المنزل : مثل موسيقى « النيمبوتسو » ونباح الكلاب القلق وهى تتأهب للفرار وضحك وصياح من أناس من مختلف الأعمار . كنت أشعر بها طوال الوقت الذى كان هوشيو يتحدث فيه كنوع من الهلوسة السمعية ، أما الآن فمن الواضح تماما أنها حقيقية وتداهم المنزل . وكان للموسيقى والجلبة الانسانية جو معاكس تماما للانتفاضة الخابية ذلك الصباح . وعلى سبيل مشاركة البؤس مع رفيقى الشاب الذى شعر بأن كل ماهو صحى وسليم فى العالم قد تخلى عنه ، نهضت ونظرت من النافذة على الفناء فى أسفل .

وقبل مضى وقت طويل ، ظهرت روحان على رأس فرقة من الموسيقيين والكلاب والمتفرجين أكثر عددا مما شاهدته فى أى رقصة منذ طفولتى . وتدفقوا الى الفناء فامتلأ على آخره . وبدأت الروحان تقومان بحركة دائرية بطيئة فى الفراغ الصغير الذى تركناه فى الوسط . وكان الموسيقيون يعزفون على آلاتهم بتركيز متصل . وكانت أكتافهم تنحنى تحت ضغط المتفرجين خلفهم . واندفع كلبان ينبحان بشدة حول الدائرة الى أن دخلاها بعد أن اعتقدت الروحان أن جلد الكلبين جزء من أداء رقصة النيمبوتسو . وفى كل مرة يضرب فيها أحد الكلاب ، ترتفع من المتفرجين صيحة من البهجة .

كانت أزياء الروحين من نوع لم أتمكن من تذكر رؤيته فى أى من الرقصات المختلفة فى الأيام الخوالى . فكان الرجل يرتدى قبعة ذات حواف حادة ويعلوها تاج طويل وكذلك معطفا أسود اللون وتحته صديرى أسود ، ولكنه يكشف عن مساحة عارية من الصدر . كان هذا هو الرداء المسائى لجدنا الأكبر : لقد رأيته من قبل محفوظا فى حجرة بالمخزن ومعه

كوفية منشاة . وتعجبت للسبب الذى دعاهم الى حذف القميص من مظهر (الروح) المستيقظة .

كانت الفتاة الصغيرة المكتظة باللحم التى رأيتها أول أمس فى مكتب السوبر ماركت تلعب دور (الروح) الثانية التى تسير فى أعقابه وترتدى زيا كوريا ناصع البياض . بدت ملابسها قشيبة : وتعجبت من أى مخبأ استطاعوا اخراج هذه الملابس للاستعمال كزى فى رقصة النيمبوتسو . ومن المحتمل تماما أن شباب الوادى الذين أغاروا على المستوطنة الكورية يوم قتل س . لم يغتصبوا الحلوى والمسكرات فقط وانما سرقوا أيضا بعض أفضل ملابس الفتيات واحتفظوا بها لما يزيد على عشرين عاما .

كنت أشك فى أنهم ، فى الغارة الأولى ، لم يرتكبوا الجريمة فحسب ، وانما ارتكبوا فعلا مرعبا اخر لم يمكن لموت س . وحده أن يكفر عنه ، وأن معرفة ذلك الفعل ، هى التى دفعت س . إلى أن يرقد فى حالة من الحزن اليائس على أرض الحجرة الخلفية فى أسفل المخزن ، حتى بعد أن قرر أن يقوم بدور كبش الفداء فى الغارة الثانية .

وبقدر مايتعلق الأمر بالكورى القتيل ، فان تقديم أهل الوادى لجثة س . قد جعل الصفحة بيضاء ، لذا يبدو من المحتمل أن جريمة أخرى قد تم ارتكابها وتكمن وراء بيع القرية الأراضى للكوريين ، تلك التى أقاموا عليها مستوطنتهم .

راحت الفتاة تسير برشاقة يعلو ووجها حياء وهى تسير فى أعقاب الشاب الذى يرتدى القبعة والمعطف . كما تعلو وجهها الصغير ابتسامة منتشية كابتسامة نجمة اللحظة الحاضرة ، وعيناها نصف مغمتضين من النشوة وتلف جسدها بالملابس البيضاء التى لابد أن أخوتها الأكبر سنا انتزعوها من احدى الفتيات فى المستوطنة الكورية بعد أن فعلوا ماشاءوا ، فى صيف عام ١٩٦٥ .

وأعاد منظر (روحى) الامبراطور وزوجته فى الملابس الكورية اشعال نشوة جديدة فى كل سكان الوادى وما وراءه من ريف . بحثت عن تاكاشى فى الزحام ، غير أن زفرات الجموع استجابة لحركات (الأرواح) والكلاب

داخل الدائرة ، وكانت من القوة بحيث إن النظر اليها كان مرهقا جسديا .

وحين أدرت عينى بعيدا لمحت زوجتى تقف على عتبة المنزل الرئيسى وتشب كى تتمكن من النظر من فوق رءوس الجمهور الى الدائرة . وأسندت نفسها على الباب بيدها اليمنى ، وكانت تظلل عينيها من الشمس بيدها اليسرى وهى تشاهد الرقصة . وكانت يدها تلقى بظل على جبهتها وعينيها وأنفها بحيث لم يمكننى أن أحكم على التعبير الذى ارتسم على وجهها . ومع ذلك ، فقد كان من الواضح تماما ، أنها حادة الأنوثة والنعومة ، مثل الجونلة الحرير المطوية بتنسيق ، التى ترتديها روح الفتاة الكورية . وصدرت صرخة بعيدة من المرأة التعسة المحبطة المرهقة كنت أتوقعها. وأدركت أنه بفضل تاكاشى قد شفيت من الاحساس باستحالة ممارسة الجنس ، ذلك الاحساس الذى كان ينخر فى صميم حياتنا الزوجية . حاولت أن أنظر اليها على أنها كائن مستقل استقلالا حقيقيا .

تحركت اليد التى كانت تظلل عينيها حركة صغيرة للغاية مما كان ينذر بالكشف عن الجزء العلوى من ملامحها الهادئة التى صارت لينة حديثا فى ضوء الشمس . تراجعت عن النافذة فى حركة منعكسة ، وكأنى أرتعد من التفكير فى أن النظر المباشر الى تلك الملامح قد يجعلنى أتحجر .

أما هوشيو الذى صار أكثر اهتماما بالجلبة خارج المخزن من اهتمامه ببؤسه بسبب التخلى عنه ، فقد صعد بسرعة خلفى ، وزج بأنفه فى النافذة بدلا منى . فذهبت وتمددت على المنضدة ووجهى الى أعلى . الآن وقد انهمك رفيقى فى الرقصة الجديدة مديرا ظهره الىّ ، وجدت نفسى لأول مرة ، منذ سمعت أخبار زنى زوجتى حرا حرية تامة من حملقة الآخرين . فرقدت هناك أتنفس فى سكينة ، مخرجا الدم من قلبى سبعين مرة فى الدقيقة وأسحبه مرة أخرى دون أن أحس بأن حرارة جسدى قد صارت ٩٨ درجة فهرنهايت باعثة الدفء فى جسدى .

سمعت تاكاشى ينادى بصوت مرح منبسط : « ميتسو » نزلت على السلم حتى نصف المسافة وجلست ، متجاهلا هوشيو الذى تحرك كى يوقفنى . وكان تاكاشى محاطا بهالة من الصوت بلون قوس قزح المائل الى

الحمرة ، وهو يقف على بعد وخلفه الأضواء الخارجية . ولم يحجب وجهه وجسده اللذين كانا يتجهان نحوى الظل حجبا تاما ، ولكن أيضا ذراعيه اللتين كانتا ممدودتين نحوى . واذا كان لى أن أتعامل معه معاملة متكافئة ، فعلى أن أحتفظ بوجهى مدفونا فى الظلام . وسألنى الشخص الأسود وهو يلمع من كل ناحية بفقاعات دقيقة من الضوء كالشروق المنكسر على بحر متموج : « هل أخبرك هوشيو بما فعلت ؟ » فجعل هذا السؤال الصورة تبدو كحيوان برمائى رخو يخرج من البحر .

قلت بهدوء : « نعم أخبرنى » كنت أريد أن أبين كيف أنى غير منفعل بالمقارنة به ، اذ كان هذا الأخ الأصغر يستعد الآن لأن يلقى بزناه أمام الديوث بنفس اللهفة التى رجانى بها طفل فى احدى المرات أن أتفرج بينما جعل حشرة صغيرة تهاجم أصبعه .

« لم أفعلها فقط من أجل الجنس . فلقد كانت طريقة للوصول إلى معنى شىء ما مهم جدا بالنسبة لى . »

هززت رأسى بصمت كى أبين شكوكى فيما قال ، إذ كان تاكاشى شأنه شأن الكلاب التى كانت تنبح على (الأرواح) يتأرجح بين النشوة والاحساس بالتوجس ، فطعنته هذه الطعنة من سوء النية . فقال محتجا بغضب : « انى أقول الصدق ، لم يكن مافعلت من أجل الجنس ، إذ لم أشعر فعلا بأى رغبة مطلقا . بل كان على أن أقوم بكل أنواع الأشياء بنفسى كى أستهلك بشكل سليم » .

وللحظة شعرت أن حرارة وجهى ترتفع من الحياء مع مزيج من الغضب والرغبة فى الضحك ، إذ إن هذا حررنى من أى شعور بالغيرة . اذن كان عليه أن يمارس كل الأشياء بنفسه .

جعلنى الغضب أرتعش ، وفى نفس الوقت ، كان على أن أضغط على أسنانى كى أكتم الضحك . لكم تعب فى فعل ذلك ، كل شىء (بنفسه) ياله من طفل مبتذل ، اذ لم يدرك سوى القليل أن زوجتى وحدها ، ولا أحد آخر ، هى التى حققت شيئا (بنفسها) باعتبارها كائنا ناضجا جنسيا ، لكم عمل بشكل يائس كى يقوم بأول عمل له من أعمال الزنى ! اذ كان يخشى

من أنه اذا ما أخفق فى أن يقذف بالطريقة الصحيحة سينغص هذا عليه باحساس خانق من الخجل ليس فقط نحو رفيقته فى الزنى ولكن نحوى أيضا ! كان الأمر كله به ذكرى قاتمة من فترة المراهقة .

قال وهو يهز رأسه بغيظ : « سأتزوج ناتسومى ، ياميتسو ، وأتمنى ألا تتدخل فى شئوننا » .

فسألته بسخرية : « وهل ستجرب جميع أنواع الأشياء وأنت متزوج دون أن تريدها ؟ » فقال وهو يخفى ذله بمظهر من الغضب : « هذا يرجع لى ! » . « صحيح هذا يرجع لك أنت وناتسومى . غير أن هذا يفترض أنك تستطيع بشكل ما ، أن تبقى بعد انهيار انتفاضتك وتخرج من الوادى فى سلام ، وتأخذها معك » .

« اسمع ! لقد عادت الانتفاضة الى مدها القوى . فلقد رأيت كيف تجمع الوادى والريف بعنف حول الأرواح ، لقد قمنا بعملية نقل دم للانتفاضة . وأعدنا لها قوتها بجرعة قوية من دم الخيال ! »

استعاد صوته النشوة التى كانت به حين نادانى فى أعلى : « لقد كانوا واثقين من أن عنفنا قد لايحمل نفس السلطة التى تحملها عصابة الامبراطور . ولكن بعد أن ضحكوا ضحكا جيدا على الروحين أصبحوا يتمتعون بالقوة الانفعالية التى تجعلهم يحتقرونه ! اذ واتتهم الشجاعة مرة أخرى لرؤية الرجل الذى يسمونه امبراطور محال السوبر ماركت على أنه قاطع أخشاب سابق وكذلك باعتباره كوريا تصادف أن حقق قدرا من الثروة . لذا أظهروا فورا احتقارهم البلطجى وجردوا المحل مما به من أجهزة كهربية ، وكل ما وقعت عليه أعينهم . فما إن قرروا أن العدو ضعيف عاجز ، شعروا أنهم يمكنهم أن يدوسوه بالأقدام . والحقيقة المحرجة هنا هى أن الامبراطور كورى ، إذ كانوا على وعى تام بالبؤس الذى كانت عليه حياتهم . وكانوا دوما منكسى الرءوس ، بسبب شعورهم بأنهم أقل أنواع المخلوقات أهمية فى الغابة . أما الآن فهم يتذكرون لذة التعالى الذى كانوا يحسون به تجاه الكوريين قبل الحرب وأثناءها . فهم منتشون باعادة اكتشاف أن وجود المطاريد أسوأ من وجودهم ، إنه كوجود الذباب . وكل

ما أحتاج اليه هو تنظيمهم وعندها سأتمكن من مقاومة الامبراطور الى أجل غير مسمى . ربما كانوا صغارا وقذرين كالذباب ، غير أن هذا هو مايعطيهم معا قوة خاصة » .

« لكن هل تتخيل أن ذبابك لن يدرك قط كم تحتقر الناس هنا ؟ انتظر كى ترى فستجد أن قوة الذباب موجهة اليك يوما ما ! بل إن انتفاضتك لن تكتمل الى أن يحدث ذلك » .

أعلن تاكاشى الذى اكتسب الآن ليونة ما فى السلوك : « هذا هو فقط المنظور الزائف لشخص متشائم ينظر الى الوادى من عليائه فى المنزل . لقد جعلت انتفاضة الأيام الثلاث الماضية نظرة نخبة الذباب نظرة ثورية وهم يشكلون خدشا فى صفوف الذباب العادى . وأعنى بالنخبة ملاك الأراضى فى الغابة ، إذ كانوا دائما يعتقدون أنه حتى اذا ما وصلت الحياة فى الوادى الى طريق مسدود ، وانتقل جميع سكان المنخفض أو ماتوا ، سيكون عليهم الانتظار حتى ترتفع الأشجار مرة أخرى بما يكفى كى يجعل تجهيز الأخشاب ممكنا مرة أخرى . لكن هذه الانتفاضة أعطتهم دليلا على أن الشباب اذا ما اقتيدوا بالقسر يصبحون شيئا يجب الخوف منه . لقد كانت درسا عمليا فى تاريخ مسألة ١٨٦٠ . وفوق ذلك ، فان الحركة التى فهموها علي حقيقة مجسدة - ومن المسلم به أن التجسيد كان تزييفا - غير أن الشىء المهم على أى حال هو أنهم حين أدركوا أن روح الامبراطور ما هى الا كورية تستثير الشفقة صاروا جميعا وطنيين بين عشية وضحاها . من الناحية النفسية ، كانت هذه هى نفس النزعة الوطنية التى أظهرها أجدادهم القذرون الذين احتلوا مقاعد فى جمعية المديرية ما إن وفر لهم المال قطع جزء من الغابة رغم أنهم لم يكن لديهم برنامج سياسى يمكنهم تقديمه . فهم يفكرون فى إعادة الاقتصاد اليابانى الى أيدى اليابانيين . ومن حسن طالعهم أن العدو هو ذلك الامبراطور الأحمق العجوز الذى يسير فى موكب فى معطف صباحى قديم الطراز دون أن يرتدى قميصا ، ناهيك عن رابطة عنق أو قفاز .... لذا فإن الفكرة التى تحولت الى خطة محددة ، هى جعل العديد منهم يسددون المال للاستيلاء على السوبر ماركت بما فى ذلك الخسائر التى لحقت به نتيجة أعمال النهب ، وأن يدار إدارة مشتركة

عن طريق أصحاب المحال فى الوادى الذين خرجوا من مجال الأعمال . إن الكاهن يجرى فى كل مكان كى يمهد الأرض . أتدرى ياميتسو ، ان هذا الكاهن أكثر من مجرد فيلسوف ، ذلك أن لديه حماس الشخص الثورى الحريص لأن يضع خيالاته المحببة الى نفسه موضع التنفيذ . والأكثر من ذلك ، أنه الشخص الوحيد فى المنخفض الذى ليس به أى أثر للأنانية . فهو ، بذلك ، أوثق حلفائنا » .

« لن أهتم فأنا أتزعم انتفاضة ناجحة . اننى شرير فعال مثل أخينا الأكبر فى ميدان القتال » .

قلت وأنا أنهض : « أنت تعرف هذه الأمور خير معرفة ، ياتاكا ، فيستحسن أن تعود الى ميدان معركتك. غير أنى أخشى ألا أستطيع مشاركتك فى حسك الفكاهى بشأن هذا الأمر » .

ثم سأل : « كيف حال هوشى الآن ؟ حاول أن تكون لطيفا معه فبعد أن راقبنا ونحن نمارس الحب رأيته يمرض بهدوء . فما هو الا طفل ! »

ثم أسرع بعيدا .

•

فى تلك اللحظة ، استحوذت على فجأة فكرة سرعان ما أصبحت قناعة ، وهى أن مشروع تاكاشى قد يكتب له النجاح . وحتى اذا مافشلت (الانتفاضة) بهذا المعنى ، الا أنى شعرت أنه سيرتفع فوق التحلل ويهرب كى يبدأ حياة زوجية جديدة خالية من الأحداث مع ناتسومى . عندئذ فان الروتين الخالى تماما من الأحداث سيسد الى الأبد الفجوة بين الرغبة فى معاقبة الذات التى خلقها شىء لا اسم له بداخله ووعيه بحبه للعنف .

وساعد الخطاب الذى أرسله أخو جدنا الأكبر والذى قرأته فى نفس اليوم على تأكيد هذه القناعة . رغم أنه تزعم انتفاضة انتهت بكارثة ويأس ، لولا أنه ابتعد واستمر على قيد الحياة ليستمتع بشيخوخته فى سلام .

رجعت الى أعلى فوجدت الشاب ، الذى تخلى عنه الحارس لايزال ملتصقا بالنافذة . ودون أن يستدير أخذ يشكو :

« ان جليد الحديقة موحل بسبب كل أولئك الناس الذين ساروا عليه . انى أكره ذلك ، فهو يلطخ السيارة ولايمكن للمرء عمل شىء ازاءه .

وفى وقت متأخر من تلك الليلة ، وبينما كنت أنا وهوشيو ننام جنبا الى جنبا تحت أغطيتنا وكل منا يحتضن جسده البارد الى نفسه ونقضى الوقت فى جهد يقظ كى نصد برودة ذوبان الجليد الذى كان قد بدأ بداية جادة ، حضرت زوجتى الى أعلى ، وقالت بصوت مجهد مبحوح دون أن تتساءل ما اذا كنا ننام نوما عميقا فى الظلام :

« تعالَ إلى المنزل الرئيسى . فلقد حاول تاكا أن يغتصب فتاة من الوادى . وقتلها . وهجره الفريق . وذهبوا الى بيوتهم . وفى هذا الصباح ، سيأتى رجال الوادى ويأخذونه » .

جلست أنا وهوشى فى الظلام . وللحظة ظللنا فى صمت صارم نصغى لأنفاس تلهث .

حاولت بجهد أن أقول : « يستحسن أن نذهب » ، غير أن جسدى المتثاقل كان يسحب الى أسفل بشكل لايقاوم بواسطة خدر معسول تماما على عكس الأرق الذى كنت أعانيه منذ لحظة . لو أنى أغلقت عينىّ وتركت نفسى أعود الى الوراء وأنكمش كالجنين لأمكننى أن أنكر الواقع برمته ، ولو أن الواقع توقف عن الوجود ، لاختفى ، عندئذ أخى المجرم والجريمة ذاتها أيضا ، غير أنى فى النهاية ، هززت رأسى فى استسلام ، مرددا ، « يستحسن أن نذهب ، يستحسن أن نذهب » ونهضت ببطء واقفا على قدمىّ .

الفصل الثانى عشر

حفل فيما وراء اليأس

وفى صمت ، شققت أنا وزوجتى والشاب طريقنا عبر الحديقة الأمامية ، وكانت أقدامنا تدوس على الجليد نصف المتجمد ، فتحدث صوت تكسير كشخص يأكل البسكويت . فنطرت الى أسفل فى فراغ الوادى المظلم الصامت ، الذى تحول الآن الى حفرة لا قرار لها ، ارتفع من أعماقها ريح بارد رطب . كان باب المنزل الرئيسى مفتوحا . فتوقفنا توقف جماعة مترددة وكأنما يمنعنا الضوء الخافت الذى كان يتسلل من الداخل من الحركة ، ثم دلفنا الى العتبة . كان تاكاشى يمسك ببندقية الصيد ، وهو يجلس منكس الرأس ، بجانب المدفأة وهو يقوم بتلميع البندقية بمهارة بيد واحدة وكأنه ظل يفعل نفس ذلك الشىء منذ سنوات حتى الآن .

حملق الرجل صغير الحجم الذى كان يقف بلا حراك فى المطبخ المظلم فى مواجهته ، وذلك لدى سماعه صوت دخولنا ، غير أنه كان يجد صعوبة حتى فى أن يدير رأسه وينظر الينا ، اذ كان التوتر قد جعله يتصلب بحيث صار كمن يوشك أن يسقط ممددا على الأرض فى أى لحظة . كان ذلك الشخص هو جى الناسك .

توقف تاكاشى عن العمل بشكل يوحى بالتردد ، ورفع عينيه ونظر الينا . وكان وجهه الداكن يلتوى بشكل غريب . وكان شعره يعلوه شىء أسود لزج . مد يديه نحوى ، وهو يتحرك كأنه يحلم . وكان خنصره وبنصره يختفيان تحت ضمادة عريضة من القماش ، ولكن بقية يديه كانت مغطاة ببقع سوداء .

حرك أصابعه الممدودة بسرعة ، وهو ينظر الى بعينين كعينى قرد حزين ، ثم انطلقت منه قهقهة واهنة أخذت تتردد وكأنما ينفخ فقاعات من بين شفتيه المضمومتين . وجعلتنى الملامح المتوحشة التى ظهرت من وجهه أنكمش مرة أخرى .

فجأة ، ضربت زوجتى بقبضة يدها على العبوس المرتسم على فم تاكاشى ، بعد أن خطت وحدها كى تقف الى جانب المدفأة . ثم جثت على ركبتيها ، فظهر أحد ثدييها مستديرا من رداء الكيمونو الذى ترتديه ليلا كجزء سليم يبرز من آلة محطمة . وأخذت تحك بقبضة يدها فى الجزء الأمامى من رداء نومها مرات عديدة ، ولم تغط الثدى الا حين ذهب الدم .

تلاشت ابتسامة تاكاشى على الفور . ونظر الى بتساؤل غير أنه لم ينظر مجرد النظر الى المرأة التى ضربته . ولطخت بقع جديدة من الدم شفته ، كان هذه المرة يخرج من أنفه . فضم شفتيه وأخذ شهيقا عميقا محدثا ضوضاء فامتص الدم مع الشهيق داخل فتحات أنفه . وكنت واثقا أنه ابتلع دمه . وازداد وجهه قتامة باطراد الى أن بدت رأسه كطائر ذى ريش قاتم .

عادت الى حقيقة أنه قد نام مع زوجتى بواقعية جديدة مقنعة ، إذ أخذت تنقل نظرها من تاكاشى الى الناسك ، الذى تراجع بحركة غير متقنة الى جانب الموقد ، اذ كان يخشى أن تضربه فى المرة التالية ، كما كان يتوقع .

« لقد حاولت أن أغتصب تلك القطعة الجنسية الصغيرة التى التقيت بها أمس ، يا ميتسو ، فتقاتلت معى العاهرة الصغيرة ، وضربتنى فى أمعائى وحاولت أن تخرج عينىّ . فجن جنونى . وأوقعتها على الصخرة حيث ضغطت عليها بركبتىّ ، وأمسكت بقوة بذراعيها بإحدى يدىّ ، ثم أمسكت بحجر بيدى الطليقة وهشمت رأسها بذلك الحجر . وأخذت تصيح بأعلى صوتها (لا ! لا !) وهى تدير رأسها من جانب الى آخر كى تبين لى أنها تعنى ذلك ، غير أنى ضربتها مرة أخرى ولم أتوقف حتى قسمت جمجمتها شطرين » .

بدا الصوت المشوش الواهن كأنه يأتى من مكان بعيد . وكانت اليدان

الملطختان بالدم ما زالتا تمتدان وكأنه يريد أن يستوثق من أنى رأيتهما جيدا . ولكن ، كانت تكمن نبرة من النزعة الاستعراضية المتحدية فى صوته وكأنه كان يريد أن يواجه العالم بما فعل بسفور . وخلت الطريقة التى يتحدث بها من أى تعبير صوتى أو أى توجه نحو أحد ، اذ كان من المحتمل أن يسمع صوته الرتيب الى الأبد . وشعرت بشىء يثير الاشمئزاز بشكل حاد .

استطرد قائلا : « بينما كنت أضربها حتى الموت ، كان جى الناسك يختبىء خلف الصخرة . فرأى كل شىء ، لذا فهو شاهد . ذلك أن جى يستطيع أن يرى فى الظلام ! »

ونادى بثقة ، وهو يستدير نحو الظلال المظلمة بجانب الموقد حيث كان يتلكأ الشاهد على جريمته : « جى ! جى ! » وكأنما ينادى على شخص ضعيف تحت حمايته كى يقف الى جانبه ، غير أن الناسك بدلا من أن يتقدم الى الأمام ، ظل دون حركة كما لو لم يجب نداءه .

فسألت ولم يكن لى من غرض سوى ايقاف فيضان الكلام المتدفق هذا : « لم حاولت اغتصابها ؟ هل كنت مخمورا ؟ » اذ لم يكن لدى أقل اهتمام بالدافع الأصلى الذى دفع به الى اغتصاب الفتاة ، ذات الوجه الوردى .

« لم أكن مخمورا . فلقد مارست ما أعظ به من مواجهة الواقع بذهن صاف . وكنت دائما ما أفعل ذلك ، ياميتسو . كنت رائق الذهن غير أنى لم أستطع أن أمنع نفسى ، إذ كان على أن أغتصبها ! »

وتحركت ابتسامة هزيلة ممزقة على وجهه المتوتر فسألته : « ولكن ، ألم تقل إنك لم تشعر بأى رغبة وأنت فى الفراش مع ناتسومى ؟ » وكنت بسؤالى هذا أقصف فى وجهه هو وزوجتى بقنبلة من مدفع هاون . وكانت زوجتى لاتزال تجثو الى جواره وتنظر اليه مرة أخرى فى ذهول . ولاحظت باشمئزاز يتغلغل فى أعماقى ، الغضب الذى أثارته نظرته فى تاكاشى ، غير أن عينى زوجتى مركزتان عليه ، وكان قناع وجهها الأبيض لايبدى أى تعبير غير الدهشة والذهول . وكان الوجه الملطخ بالدم الحى الذى يفيض من تحت الجلد ، وكان هو الذى يتوق الى أن يصرخ قائلا : « لا ! لا ! »

بانزعاج وذعر وخجل ، وأظهر رد فعله للتخلى عنه أمام زوجتى حساسية مفرطة وعدم نضج لايلائمان أحد رجال العنف ، وكنت أتساءل عما اذا كان الغرض من الجلوس هناك ليس مجرد الالقاء ببقع الدم بالقوة كى يستبدل الغضب المكتوب فوق صفحة وجهه بكاملها باثارة أكثر قسوة . فرمقنى بنظرة ماكرة ، ثم قال ببرود وكأنما تشتعل فى أحشائه رغبة لاتهدأ : « لقد كانت « أتان » لطيفة . كما كانت أكثر شبابا ، أى نوع الفتيات الذى يجعل جسدك يعمل ! »

زحفت زوجتى على ركبتيها الى الخلفية وهى تشعر بالمذلة . ولم تعد تنظر الى تاكاشى أو الى غيره ، وبدا لى أنى أتبين لمعة غضب فى البؤس المنبعث من عينيها المنكسرتين . فلم تعد عشيقة تاكاشى : غير أن هذا لم يعن أنها عادت الى . ففى حكايات الزنى ، كان ذلك هو دائما قدر الزوج الذى كان دائما مايتم الأخذ بثأره من عشيق زوجته . ولا يعنى هذا ، فى الواقع أنى عاقبته : فأعاد لى الشعور بالاحتقار قواى الحرة التى تمكننى من الملاحظة . ولأول مرة منذ سمعت بخبر ذلك الفخ المميت الذى سقط فيه تاكاشى ، انطلقت من قيدى المطرز من الحيرة والاحباط . فخطوت كى أشغل المكان الذى جلت عنه زوجتى . مشيرا الى هوشيو كى يتبعنى . فجذب تاكاشى البندقية اليه بسرعة تكذب ماكان يوحى به من تكاسل ، وافسح مساحة بيننا بحيث واجه بعضنا البعض الآخر على مسافة مناسبة للمناقشة .

بدأت نقدى لروايته قائلا : « إنك تقول ، ياتاكا ، إنك حاولت أن تغتصب الفتاة وضربتها بحجر حتى الموت لأنها قاومتك ، غير أن هذه أكذوبة ، أليس كذلك ؟ » .

« اسأل جى سأحضره كى يروى لك مارآه ! »

« ماهو سوى أحمق ، ومن الممكن أن يردد أى شىء تضعه فى رأسه . فلا أعتقد أنك ارتكبت جريمة قتل ، ياتاكا » .

« ومن أين لك بهذه الثقة ، ياميتسو ، انظر الى الدم الذى يلطخنى . اذهب الى بيتها حيث أخذ فريق كرة القدم جثتها ، وتحقق بنفسك ! لقد

تهشم رأسها حتى صار كالعجينة الرخوة . فكيف بامكانك السخرية منى ، وأنت على كل هذه الثقة من النظريات الجامحة التى تخترعها ؟ »

« ليس لدى أى شك فى أنها ماتت . وقد تكون رأسها شقت الى شطرين ، يا لها من فتاة مسكينة ! غير أنى أشك فى أنك فعلت ذلك كجريمة متعمدة ، اذ ليس فى امكانك فعل ذلك . بل حتى حين كنت صبيا وتركت الحشرة تعض اصبعك ، تخيرت بعناية النوع الذى لايلدغ . فأنت ابن سفاح جبان ، وأراهن أنها ماتت فى حادث ! »

فقال : « غدا صباحا ، حين يأتى الذباب فى جماعات غاضبة من الوادى كى يأخذونى ، سيخبرهم جى بما جدث . فلم لاتصغى بدلا من أن تحلم بالقصة وحدك ؟ فلسوف يخبركم تماما . سيحكى كيف ضربتها بالحجر ـ تلك العاهرة الصغيرة الغبية المثيرة التى كانت تظن أن بامكانها قيادتى ـ بينما كانت ترد على هجومى كقطة مجنونة . وسترى مدى خطر اللعب الى جانب زعيم تمرد فى عنفوانه » .

قلت ، وأنا أشعر بأول دقات الشفقة على هذا الطامح للقتل ، وهو يتعلق بعناد بخياله الطفولى : « ومن ذا الذى سيصدق شهادة رجل مجنون ؟ خاصة أهل الوادى الذين يعرفون مدى جنونه لعشرات من السنين » .

أبرز جى الجزء الأعلى من جسده من خلف الموقد لدى ذكر اسمه . ووجه أذنا طويلة ككتلة من الشعر الرمادى كى يلتقط حوارنا . ربما كنا قضاة نجلس كى نقرر مصيره ، ونحدد ما اذا كان وجوده الهزيل كناسك يشكل جريمة أم لا . ولكنه رغم أنه قد أصغى بصمت منتبه ، لم يبد اى دليل على الفهم ، كما لو كانت محاورتنا بلغة أجنبية . وكأنه فى أعماق فكره قد تنهد تنهيدة عميقة .

صاح تاكاشى قائلا للرجل العجوز على سبيل التشجيع : « خذ الأمر ببساطة ياجى . ليس أمامك ماتفعله حتى الغد . لماذا لاتذهب وتنام فى حجرة المخزن بعيدا عن الناس ؟ »

فاختفى جى على الفور ، فى الظلام دون أن يحدث أى صوت وهو يذهب أكثر مما يصدره حيوان ليلى . فتصورت أن تاكاشى لم يشأ أن يدعه يسمع

أيا من انتقاداتى . ذلك أن نظريتى التى تقول إن الفتاة ماتت فى حادث وإن تاكاشى يستخدم جثتها لخدمة حيلة صارت قناعة . ومع ذلك ، ظل هناك شك فى السبب الذى دعاه الى استعمال شهادة رجل مجنون كى ينصب من نفسه قاتلا : هل كان يفكر فى التأثير فى الوادى برمته ؟ فى امكانى ، اذا شئت ، أن أشهد بأن كل ما ادعاه تاكاشى مجرد حادث ، ناهيك عن أنه لايتصل به كلية . ولكن من حق تاكاشى أن يقرر ما اذا كان يقبل معونتى ويتخلى عن خطته فى تشكيل فريق مع الناسك .

تساءلت كهيئة دفاع لاتسير على مايهوى العميل : « لماذا سلكت هذا الطريق الى الصخرة ؟ » ان تلك الصخرة كتلة ضخمة ترتفع فوق الأرض فى النقطة التى ينحدر فيها طريق الحصى الى الكوبرى خلال الوادى . فكانت تشكل عنق زجاجة فى الطريق وتحجب رؤية الكوبرى . ولم يكن مهبط الخمسين ياردة من هناك الى الكوبرى منحدرا فحسب ، وانما كان أيضا متعرجا . لذا فكان أكثر موقع فى الوادى تتكرر فيه حوادث السيارات . ولكنه لايكاد يصلح لمحاولات عاشق فى وقت متأخر فى ليلة من ليالى الشتاء .

أجاب تاكاشى بنفس الحذر العنيد : « كنت أريد اغتصابها على مقعد الستروين ، وكنت أبحث عن خير مكان للتوقف بالسيارة . فاذا ما أوقفت السيارة بجانب الصخرة ، فلن يأتى أحد الى الوادى كى يتجسس عليك ، بالإضافة إلى ذلك ، فان الصخرة تحميك من عضو الفريق الذى يقوم بالحراسة طوال الليل عند نهاية الكوبرى » .

« بما أنك تقول إنك أنزلتها على الصخرة وضربتها بحجر ، أفترض أنها قاومت وهربت خارج السيارة ، وأنك أمسكت بها مرة أخرى » .

« هذا صحيح » .

« ولو أنها قاومت داخل السيارة حقا ، فلا أتصور أنها كانت تكافح فى صمت ، أليس كذلك ؟ كما لا أفترض أنها جرت فى صمت بعد أن خرجت من السيارة . فلقد كانت عضوا نشطا فى الانتفاضة ويفترض أنها كانت تعلم بوجود أحد أصدقائها يقوم بالحراسة عند الكوبرى ، لذا فمن المؤكد

أنها كان يمكنها أن تصيح طلبا للنجدة ، أنت تقول ، كذلك ، إنه بعد أن أمسكت بها ، صرخت وأنت تضرب جمجمتها ، فلم لم يأت الحارس ويمنعك من قتلها ؟ »

« بعد أن أجهزت عليها ، اكتشفت أن جى كان يتجسس علينا . وما إن بدأت فى التحدث اليه ، حتى جاء الحارس يجرى . فصدم لما فعلت ، وجرى لاحضار أى شخص كى يساعده فى حمل جثة الفتاة . لذا أخرجت جى من خلف الصخرة ، ووضعته فى السيارة وابتعدت قادما الى هنا » .

« لايمكننا أن نحصل على صورة موضوعية لما حدث سوى عن طريق الحارس الشاب . فاذا كان من اليسير عليك أن تمسك بها بمجرد أن فرت ، فلابد أنه ، على الأقل ، قد لمحك تخرج مخها من كتلة الصخرة . ذلك أن كل المسألة استغرقت بضع دقائق فقط . وعليه فانه بالرغم من احتمال ألا يكون الحارس قد سمع صراخها داخل السيارة ، فلابد أنه كان خلفك تماما فى الوقت الذى سددت فيه ضربتك الأخيرة . وكان فى امكانه أن يسمع أنينها » .

قلت وأنا أشعر بالخفة والنشاط لدى اكتشاف هذا الخيط الجديد : « أثق تماما فى أن هذا ماسيقوله ، إذ كان الجليد يذوب ، فأخذتها فى نزهة بالسيارة على طول طريق الحصى . ثم حدث شىء ما بينكما ، مما دفعها الى أن تقفز من السيارة فاصطدمت رأسها بالصخرة . وسبب وجود دم على جسدك هو أنك التقطتها بعد الحادث . أو قد تكون لطخت نفسك بالدم عمدا وهو يسيل من رأسها . بالاضافة لذلك ، فقد كنت تقود السيارة فى مكان تقل فيه الرؤية تماما مع كوبرى لايبعد سوى بضعة ياردات ، بسرعة تكفى لتهشيم رأس الفتاة حتى تصبح كالعجينة الرخوة اذا ماقفزت خارج السيارة . يمكنك أن تقول مايحلو لك ، ولكنى واثق من أنك كنت منشغلا بعجلة القيادة الى حد لايسمح لك بوقت كى تلهو بها جنسيا ـ ناهيك عن اغتصابها ـ رغم أنه لابد من أن شيئا ما قد حدث جعلها تقفز خارجة من السيارة . ولدى شك فى أن السبب الذى كنت من أجله فى السيارة حين حضر الحارس هو ببساطة أنك كنت عائدا الى موقع الحادث . بل إنى واثق أنك لم تخرج من السيارة على الاطلاق . وربما لم تعثر عليها الى أن ذهب

الحارس كي يبحث عن أصدقائه . وأما عن جى ، فأنا أشك فعلا فيما اذا كان قد شهد أى شىء . وأراهن أنك التقطه وأنت فى طريقك الى البيت وزودته بتفاصيل عن جريمتك الخيالية » .

جلس تاكلشى فى صمت ورأسه منحنٍ ، وكأنما يمضع ماقلت . وانسحب مرة أخرى الى قوقعة العزلة التى يختبىء داخلها وكان من المستحيل أن تعرف ما اذا كانت تخميناتى نجحت فى أن تمزج نسيج جريمته المختلفة بمجرد النظر اليه .

تكلم هوشيو ، بصوت طفولى يرتعش بعنف من شىء أكبر من البرد قائلا : « تاكا ، أنت تعلم تماما أنها كانت دائما تحب أن تفعلها معك . حتى فى النهار ، اعتادت أن تنالك فى ركن معتم من المنزل . فلم تكن بك حاجة لاغتصابها ، إذ كان فى امكانك أن تنالها بمجرد خلع سروالها الداخلى . لذا فأراهن أنها أغاظتك كثيرا فى السيارة لدرجة جعلتك تسرع بالسيارة كى تخيفها ، إذ إنى أذكر إنك اعتدت أن تقول انك كنت تلعب مثل هذه الآلاعيب فى الولايات المتحدة . وأراهن أنها كانت مرتعدة بحيث فقدت عقلها فقفزت كى تنجو بجلدها ، لأنها كانت واثقة من أنك تستطيع أن تدور عند المنحنى بسلام بجانب الصخرة » .

استطردت قائلا بعد أن شجعتنى تلك الملحوظات التى قالها خبير السيارات : « اذا كان الأمر كذلك ياتاكا ، فلا يمكنك أن تسمى ماحدث جريمة . فهى اما حادث أو اهمال . وحتى اذا كان اهمالا ، فالخطأ ليس خطأك بالكامل ، فهو خطؤها جزئيا تلك الفتاة المسكينة » .

كان تاكاشى يحشو البندقية بالرصاص وهو مازال صامتا . وكان يعمل بعناية وهو يركز على مهمته خوفا من وقوع حادث ، غير أنى استطعت أن أعرف أن الوجه المختبىء كلية فى ظل رموشه والجسد الضئيل الذى تصلب بفعل التوتر ، تسيطر عليه من الداخل قوة وحشية تقف حائلا دون أى محاولات يقوم بها الآخرون بغرض الفهم . وطرأ على ذهنى خيال غريب أن طفلنا الذى كان يرقد بعينين بنيتين مفتوحتين تخلوان من أى تعبير ، سوى أنها توجد ببساطة وهدوء ، ذلك الطفل ، قد كبر دون أن يقيم اتصالا

مع العالم الخارجي يوجد هنا الآن ، وعلى جسده دم يعلن عن الجريمة التى ارتكبها . وشعرت فجأة أن أمنى ليس له ضمان سوى اليأس وانعدام الثقة التى أظهرها تاكاشى وأنا أتفوق بحديثى البليغ بينما هو ينهار ويهوى بين وصلات الطريق ، ورغم ثقتى من القدرة على اظهار عدم واقعية جريمة تاكاشى التى يعترف بها ، فإن صمته العنيد بينما كان يجلس ووجهه فى الظل يتعامل مع البندقية كطفل صغير مستغرق فى لعبة جديدة ، قوّى هذا الصمت بالتدريج لدى الخوف الغريب بأنى أنظر الى حيوان .

دفعنى صمته إلى أن أسأل زوجتى التى كانت صامتة بالمثل : « أتعتقدين أنه ارتكب حقا جريمة كهذه ؟ »

كانت جالسة تفكر ، فلم تبد أى استجابة مباشرة . ثم قالت بصوت جاف يشى بانفعال آخذ فى الظهور ، دون أن ترفع عينيها ، قالت : « مادام يقول إنه قتلها ، فليس فى وسعى سوى تصديقه . فهو ، على الأقل ، ليس من النوع الذى يستحيل عليه ارتكاب جريمة » .

كانت شخصية غريبة غير مألوفة ولايسهل الاقتراب منها ، وكأنها لم تسمع حرفا من كلامى باعتبارى مجلس دفاع . فلما كانت أذناها مغلقتين وعيناها تنظران الى أسفل ، فقد جعلت نفسها تستجيب مباشرة الى هالة الجريمة الواضحة التى تحيط بتاكاشى . وهو أيضا رفع بصراحة عينيه الزائغتين كى ينظر اليها ، ومر شىء أشبه بظل سحابة عابرة تحت جلده فى العمق . ثم قال وهو يبدأ من جديد فى تفحص بندقيته بعناية :

« إنها على صواب . فلقد قتلت الفتاة بضربها مرارا على رأسها بصخرة . لم لا تصدق ذلك ، ياميتسو ؟ »

« ليس ثمة لماذا أو بناء على ذلك . فالمسألة ليست مسألة تصديق أو تكذيب . كل ما أقوله هو أنه من الممكن أنك لم ترتكب جريمة » .

ووضع البندقية المحشوة بالطلقات عبر ركبتيه بحذر ، وبدأ يفك الضمادة المصنوعة من قطعة من القماش العريض من اصبعى الخنصر والبنصر بيده القذرة .

وبدت خيوط رقيقة مبللة من تحت القماش . وكانت الضمادة مربوطة

بعناية حتى بدا أنها ستظل تفكك الى الأبد . ثم ظهر عودان منكمشان برتقاليا اللون واندفع الدم فجأة من الطرفين المستديرين اللذين كان لهما مستويان . فرفع الجرحين لى كى أراهما والدم يسقط على ركبتيه . وفى اللحظة التالية ، وضع يده على الاصبعين من أسفل ، ثم دفع بهما بين ركبتيه وانحنى الى الأمام وبدأ يئن من الألم .

قال وهو يئن : « ميتسو ، أقسم بالله أن هذا مؤلم ! » ثم رفع نفسه بجهد وبدأ فى ربط الخيط والقماش القذر حول اصبعيه مرة أخرى . ثم زحف هوشيو ، ككلب مريض عجوز ، بلا ثبات الى حافة الأرضية المرتفعة ومد رقبته الى الأمام وأفرغ معدته .

« أيها الجحيم ، لكم تؤلم ! آه يا إلهى ! »

ثم بعد أن خفت أسوأ نوبات الألم قليلا ، نظر وشرح بتفاصيل غير ضرورية : « كنت أضغط على وجهها بيدى اليسرى ... ضاربا رأسها بكتلة الصخر التى كانت فى يدى اليمنى . فى البداية ، أخذت تصيح قائلة « لا . لا » وفجأة انغلق فمها على يدى اليسرى بصوت واضح . فسحبتها بسرعة ، غير أن أسنانها كانت قد غرست فى مفصل اصبع الخنصر والبنصر . وكل ما استطعت فعله هو ضربها على فكها بالصخرة كى أجعل فمها ينفتح ، غير أن أسنانها كانت شديدة الحدة - مما جعل فمها ينغلق الى الأبد وهو يعض أطراف أصابعى . حاولت أن أفتح فمها بالقوة مستعينا بعصاة كى أخرجهما ولكن ذلك كان بلا فائدة . ومازالت الرأس المحطمة بها قطعتان من اصبعى فى فمها ! »

مست كلماته قلبى ، إذ شعرت بحقيقة (المجرم) تاكاشى ، وبدرجة مكافئة من اليقين حقيقة الجريمة . وكنت شأنى شأن هوشيو ، يستحوذ على شعور بالخوف والبغض لشخص تاكاشى بلغا حد الغثيان الفعلى . ولايعنى هذا أننى بدأت أقنع بأنه ضرب الفتاة حتى الموت بصخرة : فما زال فى امكانى التفكير فى أنها قد فزعت من شدة السرعة التى حاورت بها السيارة المنحنيات المظلمة فى الطريق مما دعاها الى القفز خارجها . غير أن تلهفه المهووس بفكرة واحدة وهى أن يحقق لنفسه (مكانة) المجرم ،

ويزعم أن جريمته الخيالية دفعته أن يرتكب فعلا غريبا لايطاق من فرط فظاعته ، إذ استخدم عصاة كي يفتح فمها بالقوة بينما كانت ترقد ميتة ورأسها محطمة ، ثم يزج باصبعين من يده اليسرى بين أسنانها ، ويغلق الفم . كان فى وسعى أن أستمع اليه . ثم يمسك بكتلة من الصخر ، لابد أنه ضرب على فكها حتى انغرست الأسنان فى اصبعيه . وفى كل ضربة فى ذقن الفتاة الميتة ، لابد أن الدم كان يغمر كل جسده وقطعا من المخ من الجمجمة المهمشة والفم والمحطم بالاضافة الى دمه هو أيضا .

قلت بصوت مبحوح دون أن تكون لدى ارادة فى مزيد من الجدال :

« انك ياتاكا ، مجرم مجنون ! »

فأعلن تاكاشى وهو يرفع نفسه الى أعلى بتحد :

« الآن أشعر أنك فهمتنى حق الفهم » .

فجأة صاح هوشيو ، الذى كان مازال راكعا على ركبتيه ويديه ، بنبرة من اليأس التام :

« كفوا عن هذا ، لم لا تفعلون شيئا لانقاذ تاكا ؟ أقول لكم إنها كانت حادثة » .

قال تاكاشى بنبرة رقيقة تشبه لهجة العم التى كان يستخدمها عادة مع حارسه الشخصى : « اعط ، يا ناتسومى ، لهوشيو بعضا من تلك الأقراص المنومة التى كانت مومكو تأخذها ، ضعف الجرعة المعتادة . يستحسن ، يا هوشى ، أن تحصل على قسط من النوم . ان هوشى مثل الضفدع بل أفضل . فحين يحس بشىء لايمكن لعقله ، أو جسده استيعابه ، سرعان ما يفرغ معدته ويستسلم » .

فقال هوشيو معترضا : « لن آخذها ولا أريد أن أنام » .

لكن تاكاشى تجاهل هذا بينما أعطت زوجتى لهوشيو كوبا من الماء والأقراص المنومة ، التى ابتلعها بعد استعراض للمقاومة الهزيلة ، وسمعنا جميعا الصوت الضعيف المألوف ، بينما كان الماء ينزل فى حلقه .

قال تاكاشى : « ستحدث أثرها حالا . ذلك أن هوشى همجى ، إذ لم يتناول عقاقير تقريبا من قبل . ابق معه ، ياناتسومى ، الى أن ينام » .

فرد هوشيو ، محاولا أن يحتج احتجاجا أخيرا بصوت من الواضح أن به مسحة من الخوف حتى بعد أن بدأ يخضع لمفعول الأقراص المنومة ، قال : « لا أريد أن أنام ، يا تاكا ! لأنى أشعر بأننى لن أستيقظ مرة أخرى . »

« كلا ! بل نم ! وغدا صباحا ستستيقظ بشهية جيدة » قال تاكاشى ذلك ، وتجاهل الشاب بقسوة وهو يستدير نحوى .

« لدى شعور ، ياميتسو ، أن أهل الوادى سيأتون ويقتلوننى بلا محاكمة ، واذا كنت سأدافع عن نفسى ببندقية الصيد ، أظن أنى يجب أن أحتمى فى المخزن كما فعل أخو جدنا الأكبر . لذا ، أسألك أن نتبادل الأماكن أنا وأنت » .

قالت زوجتى بقلق واضح يكذب ماتقول : « لن يقتلوك أبدا بلا محاكمة ، يا تاكا » .

« ليس فى إمكانى تصورك تصد دهماء جاءت كى تقتل ببندقية صيد . هذا التصور لا يوجد سوى فى عقلك » .

« انى أفهم الوادى أفضل منك ، ياناتسومى . لقد بدأوا يسأمون الانتفاضة لأنهم اشتركوا فيها . لذلك ، فأنا واثق من أن بعضهم سيفكرون فى أنهم يمكنهم التكفير عن كل شىء بازاحة اللوم على عاتقى ، ثم يضربوننى حتى الموت . انهم على صواب . ذلك أنى اذا ماقمت بدور كبش الفداء ، كما فعل « س . » فان ذلك سيبسط الكثير من الأمور .

« ان القتل بلا محاكمة ، مستحيل تماما » . قالت ذلك بعناد ، وأطلقت نظرة متوسلة نحوى باعتبارى أقرب شىء اليها ، وكانت تبدو على عينيها حاجة لاتقاوم الى الكحول .

« انت لاتعتقد ، ياميتسو ، أنه سيكون هناك قتل فورى ، أليس كذلك ؟ »

فأجبت : « أيا كان الأمر ، فان تاكاشى باعتباره العقل المدبر لانتفاضة

الخيال ، يريد بالطبع أن يبقى على شرارات الخيال تنتشر حتى تبلغ مداها . وسيكون العامل الحاسم منحصرا فى مدى قدرة أهل الوادى على لعب دورهم الخيالى . وليس فى مقدورى أن أتنبأ بذلك الآن » .

راقبت نظرتها تتحول بعيدا عنى بخيبة أمل .

قال تاكاشى بخيبة أمل مماثلة : « انه على صواب » . ثم قبض على بندقية الصيد وصندوق طلقات بيده التى لم تصب ونهض ببطء واقفا على قدميه . كان من الواضح أنه قد وهن تماما ، لدرجة أنه اذا ما جذبه ثقل البندقية الى أسفل ، كان من الممكن أن يموت فورا . فقلت له :

« اعطنى البندقية ، فأحملها لك »

رجانى ببساطة قائلا :

« عد معى الى المخزن ، وابق معى الى أن أنام » .

كنا نخرج من المطبخ الى الحديقة الأمامية حين صاحت زوجتى قائلة له وكأنها تودعه الوداع الأخير :

« لماذا ، ياتاكا ، لاتنقذ نفسك ؟ اذ يبدو أنك تحاول ، إما أن تقتل دون محاكمة ، أو أن يحكم عليك بالموت » .

لم يحر تاكاشى جوابا ، وظل وجهه القذر الشاحب المملوء بالحبوب منغلقا دون أى تعبير . فكان يتصرف وكأنما فقد كل اهتمامه بها . وشعرت ، فجأة ، أنى أنا وزوجتى خاسرين يائسين . وحين نظرت حولى ، رأيتها تجلس فى سكون ، ورأسها منخفض الى صدرها . وكان الشاب الذى بجانبها متجمدا فى وضع غير طبيعى ، إذ كان نصفه جالسا والنصف الآخر راقدا ، كحيوان متوحش شله سهم مسموم . فبفضل اقتراح تاكاشى صار بالكامل تحت تأثير الأقراص المنومة .

وسرت وراء أخى وأنا أرتعش تحت الضوء الخافت المنبعث من المصباح المعلق فى الأفاريز ، وأنا آمل ، على الأقل ، أن تكون زوجتى قد أخفت بعض الويسكى فى مكان ما كى يعينها على مواجهة ما بتلك الليلة من برد وملل . وكان هو أيضا يرتعش بعنف ، وترنح أكثر من مرة .

وفى حجرة المخزن ، كان جى الناسك يصدر صوتا كالكلب وهو يعطس . ولم تبد أى حركة فى الظلام المخيم على مبنى جين الخارجى ، ذلك أن (أسمن امرأة فى اليابان) بعد أن تحررت من أى احباط فيما يتعلق بأمر الطعام ، كانت تستمتع بأول نوم لها بلا متاعب منذ سنين .

زحف تاكاشى تحت أغطيتى ، وهو مازال يرتدى سترته وسرواله الملطخين بالدم ، وانكمش تحتها كى يخلع جوربه كثعبان وضع فى حقيبة . ثم سحب البندقية مرة أخرى ، وطلب منى أن أطفىء النور . فلاءمنى هذا الطلب تمام الملاءمة .

وبينما كان أخى يرقد كان خداه غائرين كخدى رجل عجوز اما عيناه فكانتا زائغتين تخلوان من أى تأثير أكثر من أى وقت مضى ، على حد ما أذكر . وكان جسده أيضا ضئيلا تحت الأغطية حتى لايكاد يبرز ، وكأن أحدا لاينام تحت الأغطية واللحاف .

وبينما كنت أنتظر كى تختفى صورة تاكاشى ، وهو يرقد على ظهره ، من شبكية عينى فى الظلام ، لففت بطانية هوشيو حول وسطى وجلست وأنا أسحب ركبتى الى صدرى . وصمتنا لبرهة .

ثم بدأ تاكاشى يقول « أتدرى ياميتسو ، ان زوجتك أحيانا ما تصيب الهدف تماما : فأنا لا أريد أن أنقذ نفسى . أريد أن أقتل بلا محاكمة »

« أعرف ذلك ، فأنت لاتتمتع بالشجاعة كى تدبر جريمة عنيفة وحدك ، ولكن مع وجود حادثة فمن الممكن أن تعتبر هذه ، على سبيل الخطأ ، جريمة عنيفة . فما عليك الا أن تلقى بنفسك فى الصورة وتبذل كل ما أوتيت من جهد كى تتأكد أنك اما ستقتل بلا محاكمة أو تعدم . هذا هو رأيى فى المسألة » .

رقد تاكاشى فى صمت ، وهو يتنفس بعمق وكأنما يشجعنى على إكمال ملحوظاتى . غير أنى لم يكن لدى ما أقوله أكثر من ذلك . اذ كنت أشعر بالبرد الشديد كما كنت مكتئبا تماما . وبعد بعض الوقت ، واصل الكلام :

« هل تنوى ايقافهم غدا ؟ »

« بالطبع . غير أنى لا أدرى هل فى امكانى أن أتدخل فى خطتك الهادفة الى تدمير الذات بعد أن صرت متورطا فيها كل هذا التورط الشديد ؟ »

« أريد أن أخبرك بشىء ، ياميتسو . أريد أن أقول لك الحقيقة » .

كان يتحدث باحجام وحياء وكان لديه شبه شك فيما سيؤخذ على محمل الجد كما كان جزئيا منشغلا فى شىء آخر . غير أن الكلمات كانت تخرج بصعوبة ، وتحدث أصداء مباشرة بداخلى .

قلت « لا أريد أن أسمعها ، لاتحاول أن تخبرنى بشىء » .

« بل سأخبرك ياميتسو ! » قال ذلك باصرار غير سار لم يكن له من أثر اللهم الا جعل رغبتى فى الفرار رغبة شديدة .

واهتززت من جديد بما كان يبدو عليه من استسلام وضيع . « لو أنك فقط تصغى ، أعتقد أنك ربما تتعاون ، على الأقل الى المدى الذى يجعلك تقف دون تدخل ، بينما يتم قتلى بلا محاكمة » .

ثم بدأ يقول ، وهو يتنهد من الاجهاد واليأس وكأنما قال ماكان على وشك أن يقول ، ثم ندم بعمق على ما قال ، سعى أن يسترد كلماته بلا جدوى . وفى كل مرة ينطق فيها بكلمة ، كان يبدو عليه أنه يتغلب على مقاومة من نوع ما بداخله .

« ميتسو ! ... كنت أقول دائما إنى ليست لدى فكرة لماذا قتلت شقيقتنا الصغرى نفسها . كما ساندتنى عائلة خالى ، إذ قالوا انها انتحرت دون دافع ظاهر . لذا كنت قادرا على الاحتفاظ بالسبب الحقيقى . ولم يحاول أحد أن يسألنى عن السبب فظللت صامتا طوال الوقت . ولم أخبر سوى شخص واحد فى أمريكا ـ وهى عاهرة سوداء أكثر الناس بعدا عنا ـ وكان ذلك بلغتى الانجليزية الركيكة . وبالنسبة لى ، فان التحدث باللغة الانجليزية أشبه بلبس قناع . لذلك لم أخبر أحدا قط من أجل كل الأغراض العملية . كان ذلك اعترافا زائفا . غير أنى لم أتحدث عن الأمر باللغة التى نشترك فيها أنا وأنت وشقيقتنا . ولا حاجة لى للقول ، إنى لم أذكر كلمة عن المسألة ، حتى لك . كل ماهنالك ، هو أنك قد اشتبهت فى وجود شىء شاذ يحيط بموتها من الطريقة التى كنت أفقد بها هدوء أعصابى اذا ماشعرت

بأنك تلقى بالتلميحات عن هذا الأمر . وفى اليوم الذى أعددت فيه الطيور الذيالة ، على سبيل المثال ، سألتنى هل (الحقيقة) لها علاقة بها . وفى تلك اللحظة كنت مقتنعا بأنك تعرف كل شىء وتتلاعب بى . فكنت أحس بغضب وعار شديدين حتى أنه كان من المحتمل أن أقتلك . غير أنى قلت لنفسى إنه لم يكن فى استطاعتك أن تعرف المسألة ، فأمكننى التحكم فى نفسى .

وفى الصباح الذى قتلت فيه نفسها ، وقبل أن أذهب لأخبر خالى والآخرين فتشت فى كل ركن من المبنى الخارجى حيث كنت أنا وهى نعيش عما اذا كانت قد تركت رسالة قد تثير الشك . ثم رحت أضحك وأبكى وأنا ممزق بين احساس جديد بالذنب وبين الشعور بالارتياح ، إذ قد أعفيت أخيرا من ضغط الخوف . ولم أذهب كى أبلغ عن انتحارها فى المنزل الرئيسى الى أن تأكدت أنى قد سيطرت على نفسى وأنى لن أنفجر فى نوبة أخرى من الضحك .

فى ذلك الصباح ، وجدتها تتأرجح فى دورة المياه وهى ميتة من أثر مادة كيماوية زراعية . واذا كنت فى عجب عن السبب الذى جعلنى أحس بهذا الاحساس العميق بالانعتاق عندما تأكدت أنها لم تترك ملحوظة أخيرة ، فلأنى كنت دائما أخشى من أنها قد تبوح بسرنا ، باعتبارها شبه متخلفة عقليا . فشعرت بأن موتها قد محا السر ، وكأن لم يوجد على الاطلاق تقريبا . غير أن الواقع بالطبع ، أبى أن يسير على هذا النحو . بل ـ على العكس ـ فقد سمم موتها حياتى اليومية كما سمم تطلعى للمستقبل .

« رغم أنها شبه متخلفة عقليا فانها كانت ، بشكل ما ، نوعا خاصا من الشخصيات ، إذ لم يكن لديها أى اهتمام سوى بالأصوات الجميلة ، فكانت فى أفضل أحوالها حين تصغى للموسيقى . وكانت أصوات محركات طائرة أو سيارة تجعلها تشكو من ألم فى أذنيها . أنا واثق من أن هذه الأصوات كانت تؤلمها حقا . فأنت تعرف أنك فى استطاعتك أن تكسر الزجاج اذا ماجعلت الهواء يتذبذب أليس كذلك ؟ حسنا ، يبدو أن الأمر كان شبيها بذلك ، لقد كان الما يشبه تكسر شىء رقيق داخل أذنيها .

عموما ، لم يكن هناك أى شخص فى القرية التى كان خالى يعيش فيها يفهم الموسيقى وكان فى حاجة تامة لها مثلها .

وذات مساء فى أوائل الصيف ، كنت مخمورا . انه اليوم الذى انتهى فى آخر بذر للأرز فى حقل خالى ، وكان عدد كبير من الزراع الذين دعوا يسكرون عند المنزل الرئيسى . وبما أننا أرستقراطيون ، فإننا بالطبع ، لم نساعد فى البذر ، ولكن الشباب رفعونى وأدخلونى معهم وأعطونى كأسى الأول ، الذى انطلق مباشرة الى رأسى . فلما وجدنى خالى مخمورا اعادنى الى المبنى الخارجى .

فى البداية ، كانت أختى مرحة وكانت تضحك من سكرى ، ولكن حين سكر الزراع وبدأت الضوضاء بالغناء وعزف الموسيقى أصبحت فجأة مذعورة ووضعت يديها على أذنيها وانكمشت على نفسها . ومع ذلك ، كانت الضوضاء أكبر من احتمالها ، فراحت تنهنه كطفل صغير . واستمروا يغنون أغانيهم المبتذلة بأصواتهم الغليظة حتى وقت متأخر من الليل . فجن جنونى ، وكرهت كل مايمت للمجتمع بصلة . وجذبتها الىّ ، فى محاولة لتهدئتها ، وبينما كنت أفعل ذلك شعرت بنوع شاذ من الاثارة . وقبل أن يمضى وقت طويل ، كنت أمارس الجنس معها .

كنا صامتين ومحرجين حرجا مؤلما لوجود كل منا مع الآخر كشقيقين . ظللنا راقدين فى سكون ، لانكاد نتفنس ونحاول أن نختبىء من ذلك الشىء الضخم المرعب القادم كى يتهمنا ويلعننا . كنت أود لو أصيح (لا ! لا !) نفس الصيحة التى نطقت بها الفتاة التعسة فى لحظة الموت بينما حطمت الصخرة رأسها ، اذا ماصدقنا رواية تاكاشى ، ولكن حتى مثل تلك الصرخة البسيطة أبت أن تخرج من الجسد الذى استقل فيه اللحم عن العظام وصار منفصلا ، يوجعه ذلك الألم البليد لتلك اليقظات الشريرة .

واستطرد تاكاشى ببطء وبصوت عليل : « من المؤكد أن القول بأنى كنت مخمورا فى أول مرة مارسنا فيها الجنس ليس عذرا لأنى فى اليوم التالى ، كررت نفس الشىء حين كنت غير مخمور » .

فى البداية ، لم تحب الجنس فى حد ذاته ، كما أنها كانت مرتعدة . غير

أن فكرة أن ترفض لى أى شىء لم تكن واردة لديها . لم أكن واع بأنها كانت تعانى من الألم غير أنى كنت قد بلغت من الرغبة مبلغا ، كما كنت قلقا من النظر الى الأمور من وجهة نظرها . وكى أهدئها أخذتها الى المخزن وأقنعتها أن كل المتزوجين يفعلون هذا .

وكان أكثر الأشياء مدعاة لقلقى هو أن تفشى سرنا لعائلة خالنا فى النهار بينما أكون فى المدرسة ، وتكون وحدها فى البيت . لذلك قلت لها « اذا عرف أى شخص آخر بما نفعل ، فسيؤذوننا بشكل مخيف . وتصيدت بعض الصور التوضيحية فى القاموس كى أريها صورا لأناس يحرقون ، فى العصور الوسطى . كما أخبرتها أننا اذا حرصنا على ألا يعلم الناس ، لأمكننا أن نحيا كأخ وأخته طوال حياتنا ، ونحن نفعل نفس الأشياء دون أن نتزوج أبدا من أى شخص آخر . وكان هذا هو مايريده كلانا ، كما قلت لها ، اذن ماذا يهمنا اذا استطعنا ألا ننكشف ؟ »

« كنت أصدق ماقلته . واننا سنكون أحرارا فى أن نفعل كل ما نرغب فى فعله . حتى ذلك الوقت ، بدا أنها كانت قلقة من التفكير فى أنى سأتزوج ان عاجلا أو آجلا وأتركها تعيش وحدها . كما ذكرتها أيضا كيف أن أمى أخبرتها ، قبل موتها ، بأن تظل دوما لصيقة بى . فكان لديها اعتقاد غامض بأنها لن تستطيع أن تحيا منفصلة عنى ، لذا فحين قمت باقناعها بكلام تستطيع فهمه ، بأن ندير ظهرينا للآخرين ونستمر فى العيش معا ، كأخ وأخت فى رابطة ضد العالم ، ابتهجت ابتهاجا حقيقيا .

وقبل مضى وقت طويل ، لم تعد تتردد فيما يتعلق بالجنس ، بل بدأت تبادر اليه بنفسها . وفى احدى الفترات كنا نحرص على الوقت الذى نكون فيه معا . ولم أكن ، سعيدا قط كما كنت فى تلك الأيام .

وفى احدى المرات حسمت أمرها ، إذ كانت قوية لا تتزعزع . وكانت فخورة بفكرة أنها فى استطاعتها أن تفعل كل شىء معى الى أن ماتت .

ثم .. أصبحت حاملا . أدركت ذلك ، خالتى أولا . وحين حذرتنى خالتى من ذلك ، كاد القلق يجعلنى أجن . وشعرت أنه اذا ما انكشفت ممارساتى الجنسية معها ، فاننى سأموت من العار فى الحال . غير أن خالتى لم

تشتبه فى أدنى اشتباه ، لذا ، ارتكبت ، فى النهاية ، عملا لا يغتفر من أعمال الغدر . فلقد كنت شريرا . ولم أكن جديرا بمثل هذه الأخت المستقيمة الواضحة » .

"أمرتها أن تقول إن رجلا مجهولا اغتصبها من القرية . وفعلت كما قلت . فأخذها خالى الى المدينة ، ولم يجهضها فحسب بل جعلها عقيمة . وحين عادت ، صارت مذعنة اذعانا تاما ، ليس فقط بسبب تجربة اجراء العملية ، وانما من صوت محركات السيارات فى المدينة . غير أنها كانت تطيع تعليماتى بشجاعة ولم تنبس ببنت شفة عنى لأى أحد ، حتى فى المنزل حين ضغط عليها خالى - وهى الفتاة التى لم تكذب فى حياتها كذبة واحدة - أن تتذكر أى ملامح مميزة للرجل الذى اغتصبها" .

توقف ونشج بالبكاء لبعض الوقت ، ثم أخذ يروى أقسى تجربة فى حياته ولم يكن قد تخلص من نوبة البكاء التى انتابته وهو يقطع روايته بأنات صغيرة . ورقدت أصغى اليه بسلبية تامة ، وهو بائس ومنكمش كسمكة مجففة ؛ إذ كان البرد والوجع الذى أصاب رأسى يتغلبان علىّ .

"لقد حدث فى تلك الليلة . كانت تنظر الىّ ، وهى شديدة الخوف بحيث لم يمكنها أن تستجمع نفسها . وكانت تطلب منى أن أنقذها . ومن الذى يمكنه أن يلومها ؟ وبما أن الجنس قد صار عادة بيننا ، اعتقدت أنها تجد الراحة فيه . غير أن أى أحد حتى ولو كانت لديه معرفة جنسية ضئيلة كما كنت فى تلك الأيام ، كان يعرف استحالة الجنس بعد ذلك النوع من العمليات . وشعرت بالخوف عندما فكرت فى أن أعضاءها التناسلية قد تجرح جرحا داخليا عميقا ، كما شعرت باحساس من التقزز الفسيولوجى . وليس من الممكن لومى أنا أيضا ، ولكنها لم تستطع أن تفهم ما يمكن أن يبدو واضحا بالنسبة للناس العاديين . فحين رفضتها - لأول مرة فى حياتنا - أصبحت عنيدة فجأة . فزحفت بجانبى وحاولت أن تلمس عضوى . فضربتها ، وكانت هذه هى أول مرة تضرب فيها فى حياتها . ولم أر فى حياتى إنسانا يبدو مفزوعا كل هذا الفزع أو حزينا وبائسا كل هذا الحزن والبؤس . ثم قالت بعد برهة : (لم يكن ما قلته صحيحا ، ياتاكا ، بل كان خطأ ، رغم أننا احتفظنا به سرا ...)" ..

لم يرتفع أدنى صوت من الوادى ؛ ذلك أن غطاء الجليد الذى كان يرقد دون ازعاج فوق الغابة كان كفيلا بخنق أى صوت . وحتى الجليد الذى كان قد بدأ فى الذوبان ، قد جمده البرد مرة أخرى . ومع ذلك فان صوتا حادا لم يكن من السهل على الأذن البشرية الامساك به بسبب موجات تردده ، بدا طوال الوقت يسرى فوق ذلك المخلوق الضخم الذى ملأ جسده المنكمش الفراغ الذى كان يجسم فوق الوادى .

وشعرت وكأنما أغشية حنجرتى وشعيراتى الشعبية ، بل حتى رئتاى قد انفجرت فى طفح قرمزى ؛ لقد أصبت بالحمى ، ولذا شعرت بأن لحمى وعظامى قد تشوهت وأخذت تنغص علىّ بآلام حادة . وما كدت أفيق من نوبة السعال هذه ، حتى تحدث الىّ تاكاشى بنبرة مستسلمة من تأنيب الذات ، بعد أن أظهر دلائل على الشفاء ولو قليلا مما عانته روحه من اذعان عميق . قال :

"مادمت لن تتدخل ، ياميتسو ، فأنا واثق من أنى سأعدم ، هذا لو عشت حتى الغد . وفى كلتا الحالتين ، سواء قتلت بلا محاكمة أو تم اعدامى ، فانى أريد أن أعطيك عينىّ كى تستخدم شبكيتهما لاجراء عملية فى عينيك . وعندها ستبقى عيناى ، على الأقل ، وتشاهد الكثير من الأشياء بعد وفاتى . وسيكون عزاء لى أن أقوم بدور نوع من العدسات . ستفعل هذا ، أليس كذلك ، ياميتسو" ؟

واندفع خلال جسدى حافز للرفض كالبرق . توقف الصياح الآتى من الغابة وتلاشت الأشباح الصغيرة السوداء المزدحمة فى المخزن .

فقلت بصوت يرتعش من الغضب : "ليس ثمة ما يقنعنى بأن آخذ عينيك" .

"لم ، لم لا ؟ لماذا لن تقبلهما" ؟ قال ذلك تاكاشى ، وهو يصيح بصوت حزين جفت منه نبرة الشفقة على الذات وحل محلها شك يائس متنام .

"هل ذلك لأنك غاضب منى بخصوص شقيقتنا ؟ ولكنك لم تعرفها سوى حين كانت طفلة صغيرة ! فبينما كنت أعيش معها فى بيت شخص آخر ، كنت أنت هنا فى الوادى مع جين تنفذ ما تأمر به . واستخدمت النقود التى

تركت لنا كى تذهب للمدرسة الثانوية فى المدينة ، وإلى الجامعة فى طوكيو أيضا ، ألم تفعل ذلك ؟ فلو لم تحتفظ بالنقود لنفسك ، لعشنا نحن الثلاثة معا فى الوادى . فأنت لست فى وضع يسمح لك بانتقادى . ولم أقل الحقيقة لمجرد أن أدعك تلقى الأحكام على بشأنها" .

صحت قاطعا احتجاجه بينما بدأت تتملكه ثورة عنيفة جديدة :

"وليس هذا ما أعنيه أيضا . أولا ، أنا لست مستعدا ، من الناحية النفسية ، أن أقبل عينيك . ولكن على صعيد أكثر عملية ما أعنيه هو : أنك لن تقتل غدا صباحا ، كما لن تحكم عليك أى محكمة بالاعدام . انه فقط احساسك بالذنب ، هو الذى جعلك تأمل أن تعاقب نفسك على العلاقة المحرمة وعلى موت شخص برىء أدت اليه هذه العلاقة ، كما تأمل أن يضعك الناس هنا بين أرواح الوادى كى تذكر باعتبارك رجل عنف . وأسلم بأنه فى حالة ما اذا تحول هذا الخيال الى حقيقة ، سيتحد جانبى شخصيتك مرة أخرى فى الموت . وربما ينظر اليك ، لمائة سنة ، باعتبارك تجسيدا لأخى جدنا الأكبر الذى هو الهك المعبود . ولكن ياتاكا ، رغم أنك تتلاعب دائما كى تضع نفسك فى الخطر ، فإنك من النوع الذى دائما ما يكون لديه مخرج فى اللحظة الأخيرة . فلقد اكتسبت تلك العادة يوم سمح لك انتحار هذه الأخت بأن تستمر فى العيش دون أن تعاقب أو يلحق بك العار . وأنا واثق أنك ، فى هذه المرة أيضا ، ستحتال حيلة قذرة ما كى تستمر على قيد الحياة . ثم ، بعد أن تنجو بهذا القدر من العار ، ستقدم أعذارك لشبحها ، ستقول ، فى الحقيقة ، لقد وضعت نفسى عمدا فى زاوية ضيقة حيث لم يكن أمامى أى اختيار سوى أن أقتل بلا محاكمة أو أعدم ، ولكن العديد من أبناء السفاح أجبرونى على مواصلة الحياة ، ولقد حدث نفس الشىء فيما يتعلق بتجربتك العنيفة فى أمريكا ؛ إذ لم تكن ملتزما التزاما حقيقيا على الاطلاق . كنت فقط تأمل فى أن تجد ذريعة للاستمرار لبعض الوقت ، متحررا من ذكرياتك المؤلمة . وكل ما فعلته من الناحية العملية ، هو أنك تناولت قدرا من عقار ، وبذلك وفرت عذرا لعدم قيامك بمزيد من المخاطرات أثناء اقامتك فى الولايات المتحدة . ونفس الشىء يصدق على الاعتراف القذر الذى أدليت به . فلو أنى أضمن أنه حتى ذلك

لم يكن الحقيقة المطلقة أيضا ، وأن ذكرها مرة واحدة لن يعنى أنك تقتل ، أو تنتحر ، ولكن ألم تتخبط لوقت طويل ، وأنت تتوقع أن أقبلك كما أنت ، بكل تجاربك الماضية ، وهكذا أعتقك بضربة واحدة من حالتك المنفصمة ؟ مثلا ، هل تعتقد أن لديك الشجاعة أن تعترف مرة أخرى أمام أهل الوادى ؟ فسيكون ذلك مخاطرة حقا . غير أنى لا أتصور أن لديك ما يلزمها . وقد لا تسلم بذلك شعوريا ، غير أنك تتوقع أن تنجو بشكل مامن محكمة الكنجارو . واذا أرسل بك كى تحاكم ، سترجوهم أن يعدموك وكأنك تتحدث باخلاص مقنع يكفى لخداعك أنت نفسك . ولكنك ، فى الواقع ، ستكون جالسا بهدوء فى زنزانتك الى أن يثبت التحقيق أن جريمتك الوحيدة كانت التمثيل بجثة بعد أن ماتت نتيجة لحادثة . فلا تكذب علىّ بشأن اعطائى عينيك بعد أن تقتل ، وكأنك تظن حقا أنه لم يتبق لك فى الحياة سوى وقت قصير ؛ فأنت تعلم أنى سأسر حتى بعينى رجل ميت ؛ كل ما هنالك أنك تعبث بعجز شخص آخر" !

رفع تاكاشى نفسه بصعوبة واضحة فى الظلام . ووضع البندقية على ركبتيه ، وبعد أن وضع اصبعه على الزناد ، استدار كى يواجهنى . فظننت أنه ربما يطلق الرصاص علىّ ، ولكنى لم أتحرك أدنى حركة ؛ إذ شعرت بالاحتقار الشديد ، ولم يهددنى هذا السقوط المفاجىء فى العنف ، فلم يمسسنى الخوف حتى من منظر البندقية ولا رأسه الأسود الصغير وهو يتأرجح فى ايقاع مع تنفسه الصعب .

سأل بصوت دامع بسبب الحزن العاجز ، وهو يحملق بنفاد صبر من خلال الظلمة كى يتيقن من التعبير المرتسم على وجهى :

"لماذا تكرهنى ، ياميتسو ؟ ولم كنت دائما تمقتنى ؟ لقد كنت تكرهنى ، حتى قبل أن تعلم بما فعلته بشقيقتنا أو مع ناتسومى" .

"أكرهك ؟ المسألة ليست مسألة ما أشعر به ، ياتاكا . فأنا أعطى ببساطة رأيى الموضوعى ، وهو أنه حتى شخص مثلك اختار أن يحيا باحثا عن وهم درامى ليس فى امكانه الوقوف فى وجه التوتر النقدى الى أجل غير مسمى ، مالم يُصب هو نفسه بالجنون . ولنأخذ مثلا أخانا الأكبر ، ربما استمتع بالعنف فى ميدان القتال ، ولكنى متأكد من أنه عاد الى الوطن وهو

على قيد الحياة ، لاستبعد هذه الذكرى ، واستقر مرة أخرى بكل ارتياح مستسلما لروتين يومى ثابت . وما لم يكن الأمر كذلك ، لغمر العالم المجرمون الذين يتسمون بالعنف بعد كل حرب كبيرة . فقد كان أخو جدنا الأكبر الذى تؤمن به ايمانا عظيما باعتباره زعيما لانتفاضة مسئولا عن عمليات قتل جماعى ، وفى النهاية ترك رفاقه للقدر كى يستطيع أن يفر من خلال الغابة . فهل تظن أنه بعد ذلك انهمك فى أخطار جديدة واستمر يعيش حياة تتسم بالقسوة ببساطة كى يبرر وضعه كرجل من رجال العنف ؟ حسنا ، لم يفعل ذلك . فلقد اطلعت على الخطابات التى كتبها . وهى تقول انه لم يعد أحد رجال العنف . بل والأكثر من ذلك ، إنه حتى من الناحية النفسية ، فقد الحماس الذى كان لديه كزعيم متمرد ولم يكن الأمر يتعلق بمعاقبة الذات . وانما نسى ببساطة تجاربه فى الانتفاضة وقضى سنواته الأخيرة كمواطن عادى تماما . وجرب جميع أنواع الحيل كى يساعد ابن أخيه المحبوب كى يحتال على التجنيد ، ولكنه فشل . ويبدو أن من كان فى وقت من الأوقات ثوريا ، فإنه قد مات فى فراشه بسلام ، وهو يفكر بحزن فى مصير ابن الأخ هذا ، الذى لم تأت أخبار عنه منذ أن أرسل للقتال فى الحرب . لقد مات ، من الناحية العملية ، كحمل ، غير مؤهل مطلقا لأن يصير أى نوع من الأرواح . وأنت أيضا ، ياتاكا ، لن تقتل غدا صباحا ، ستذهب الى الوادى كى تطلب معاملة جيدة لمزارعيك المضارين ، وسيقبض عليك ، وبعد أن توضع تحت المراقبة أو تخدم لمدة ثلاث سنوات تقريبا ستحتل مكانك مرة أخرى باعتبارك عضوا فى المجتمع عاديا حسن السلوك . ولكنك ، ياتاكا ، أكبر من ان تحرق نفسك فى أوهام بطولية من هذا النوع ؛ إذ إنك لم تعد طفلا" .

وقفت وحدى فى الظلام ، أتحسس بقدمى أعلى السلم ، ونزلت الى أسفل . وسمعت خلفى صوت تاكاشى الذى يملؤه البؤس بشكل يصعب التعبير عنه (وشعرت أنى قد يطلق علىّ الرصاص ، هذه المرة ، مع أن الخوف من التهديد بالعنف أبى أن يكون حقيقة ولم أستطع أن أحس بشىء سوى بالحمى بداخلى والألم المزعج فى كل جزء من جسدى) .

"لماذا ، ياميتسو ، تمقتنى كل هذا المقت ؟ لم ظللت تكرهنى دائما ؟ نحن الشقيقان الوحيدان اللذان بقيا من عائلة نيدوكورو ، أليس كذلك" ؟

كانت زوجتى فى المنزل الرئيسى مازالت تشرب الويسكى وتنظر أمامها الى لا شىء ، وعيناها في احمرار الدم مثل المرأة التى تأكل الرجال فى الأدب الشعبى الكورى . وخلف الأبواب المنزلقة المفتوحة ، كان هوشيو ينام الى جوار مomوكو ، مستغرقا فى النوم على وجهه ككلب انهار من فرط الاعياء . فجلست فى مجال رؤية زوجتى ، وأخذت زجاجة الويسكى من بين ركبتيها ، وشربت جرعة مباشرة من الزجاجة ، وانتابتنى نوبة أخرى من السعال ، ولكنها ظلت تتخبط فى بحار السكر المتلاطمة وكأنى غير موجود . وشاهدتها والدموع تنهمر من عينيها القاتلة الحمراء كالدم وتجرى على جلد خديها الجاف . وبعد برهة ، رن صوت طلقة من المخزن ، وأخذت أصداؤها تتذبذب الى ما لا نهاية حول الغابة التى دثرها الليل بعباءته . وبينما كنت أجرى عارى القدمين عبر الفناء ، انطلقت طلقة أخرى . وفى تلك اللحظة ، جاء الناسك جاريا من حجرة المخزن فى حالة من الهلع . فما كان الا أن اصطدمنا بعضنا ببعض ، وابتعد كل عن الآخر فى حالة من الخوف . فى أسفل السلم ، ناديت على الحجرة فى أعلى . وكان النور مضاء الآن . فجاء صوت تاكاشى هادئا ومحصنا نفسيا مرة أخرى :

"انه أنا ، ياميتسو . انى أختبر قوة الرصاصات المختلفة وقوة انتشارها استعدادا للمعركة غدا صباحا ضد دهمائى الوهميين" .

وفى طريق عودتى الى المنزل الرئيسى ، وجدت أبناء جين يقفون فى سكون وصمت فى الفناء ، فطمأنتهم بأنه لم يحدث شىء . وكانت زوجتى تثبت ناظريها على كأسها الذى لمع بداخله الويسكى والماء دون أن تكترث أيضا بالطلقات أو بخروجى المفاجىء ، وكان وجهها المتجه الى أسفل ، على ما يبدو قد تحول الى اللون البرونزى .

حملق هوشيو وموموكو بقلق ثم استمرا فى النوم .

وبعد ثلاثين دقيقة ، انطلقت طلقة أخرى . فانتظرت عشر دقائق كى أسمع طلقة رابعة . ثم لبست حذاء طويلا فى قدمى القذرة وتوجهت الى المخزن ؛ إذ لم يرد تاكاشى حين ناديته من أسفل السلم .

جريت على السلم صادما رأسى هنا وهناك ، وفى كل مكان بينما كنت

أصعد . رأيت أمامى مباشرة رجلا يستند على الجدار . وكان جلد وجهه وصدره العارى ممزقا . بدا كدمية ذات لون أحمر براق ولا ترتدى سوى السروال . فلما اتجهت نحو الجسد ، صدرت أنة بينما صدمتنى بندقية صيد معلقة فى عوارض الزلكوفا بشدة فوق أذنى . وربطت قطعة من الأحشاء زناد البندقية بأحد أصابع الدمية ، بينما كانت الأصابع تسقط فوق أرضية التمامى . وعلى خشب الجدار والبلاستر فى الارتفاع الذى كان من الممكن أن يقف عنده الرجل وهو ينظر الى فوهة البندقية ، رسم اطار رأس رجل وكتفيه بقلم رصاص أحمر ، بعينين كبيرتين جدا لهما علامة متقنة على الرأس . خطوت الى الأمام ، فرأيت العين المرسومة بقلم رصاص وقد انفقأت تماما بالرصاص ، حتى أنه بدا أن كرتين من معدن الرصاص تنظران إلى من التجويفين . وكان مكتوبا على الحائط بجانب الرأس بنفس قلم الرصاص :

لقد قلت الحقيقة ؟

وحين جثوت فى الدم ، مسست وجه تاكاشى الذى كان يغطيه اللون القرمزى ، كان قد مات . فداخلنى شعور بأنى قد التقيت برجل ميت كهذا تماما وفى نفس هذا المخزن لمرات عديدة من قبل .

الفصل الثالث عشر

اعادة المحاكمة

هبت الريح المتثاقلة الرطبة التى لفت المنخفض فى الغابة طوال الليل مكونة دوامات صغيرة من الهواء فى القبو الذى كنت أجلس منكمشا فيه على نفسى . فاستيقظت من نوم مضطرب قصير كي أجد حنجرتى متورمة ومحتقنة بشكل مؤلم ، ولكن أثر الخمر قد تلاشى وعاد مخى الى حجمه الطبيعى تاركا فجوة ، شق الاكتئاب القاتم طريقه من خلالها رغم أن عقلى كان قد تضخم وصار محموما قبل أن أنام ، أما رأسى فكان صافيا . رحت ابحث عن زجاجة الويسكى فأخذت رشفة منها . وبدا أن برودة الماء سرت فى رئتى مباشرة وكبدى المنهك انهاكا يجلب الحزن .

فى أحلامى ، كان تاكاشى يقف فى شبورة أمامى ، على بعد خمس ياردات ، ومازال يشبه دمية حمراء ونصفه الأعلى مشقوق كثمرة الرمان الناضجة . وترصع فتحات عينيه رصاصات متلألئة ، فتحوله الى مارد ذى عينين من حديد . كان يقف فى احدى زوايا مثلث طويل وكنت أنا الزاوية الحادة لمثلث طويل آخر ، وكان رجل منحن ذو وجه نحيل يقف وهو يشاهدنا فى صمت . كانت ركبتاى تبدوان كأنهما تقفان على منصة أعلى ، اذا ما نظر أحد الىّ من وضعى الحالى ، وأنا منثن بحيث كنت شديد القرب من الأرض حتى أن رأسى كان بالفعل على ارتفاع أقل من ركبتى .

كنت أجلس فى الصف الأول من مسرح كان سقفه أعلى من حجمه بشكل غير متناسب ، وكان الشبحان يقفان فوق خشبة المسرح ، حيث استطعت أن أرى مجموعة من الرجال المسنين يرتدون حللا داكنة اللون وقبعات تغطى آذانهم ، يتجمعون فى بقعة رطبة مظلمة . من الواضح أن

أحدهم كان فى احدى المرات صديقى الذى طلى رأسه باللون القرمزى وشنق نفسه .

وفى أعلى خشبة المسرح ، فتح تاكاشى الفم الذى لم يعد أكثر من حفرة صغيرة بعد أن أطلقت النار على شفتيه ، لم يعد سوى ثقب صغير أسود تشوبه حمرة وصاح فى كراهية ظافرة : ان اعادة محاكمتنا ، هى محاكمتك ! وخلع الرجال المسنون فى القاعة ، والذين اشتبهت أن تاكاشى قام بتنظيمهم فى الحقيقة ، خلعوا قبعاتهم ، ولوحوا بها مهددين نحو عارضة الزلكوفا الكبيرة المرتفعة مباشرة فوق رءوسهم . فاستيقظت باعياء ويأس .

وكان المكان الذى أجلس فيه الآن فى سكون كما كنت أجلس محتضنا ركبتى فى ذلك الفجر الخريفى فى السنة السابقة فى حفرة صهريج الصديد فى حديقتنا الخلفية ، تحولت الى قبو حجرى اكتشفه الامبراطور ورجاله وأزالوا عنه غبار النسيان الطويل حين جاءوا للقيام بمسح مبدئى كى يفككوا المخزن . وكانت هناك حجرة ملحقة بالمساحة الداخلية التى كنت أجلس فيها . وبهذه الحجرة مكان سرى بل وبئر .

وكان من الممكن أن يعيش المرء هنا فى اعتقال اختيارى ، رغم أن البئر كان قد انسد فى هذا الوقت ولم تخرج منه رائحة ماء ، ولم تعد الحجرة السرية قابلة للاستخدام ؛ إذ انعزلت منذ وقت طويل . وانبعثت من كلا الثقبين المربعين رائحة ملايين الطحالب وربما كان هناك بعض البنسلين .

أكلت "سندويتش" من اللحم المدخن ، وشربت بعضاً من الويسكى ورحت فى النوم حيث كنت أجلس . ولو أنى تقلبت فى نومى ، لجرحت رأسى بالاصطدام فى القوائم الخشبية التى تدعم أرضية المخزن .

كان الوقت لايزال منتصف الليل . ومنذ الصباح الباكر ، حين جاءت الأخبار بأن الامبراطور يقوم بزيارته الشخصية الأولى للوادى منذ الانتفاضة ، كانت الرياح الجنوبية التى تبشر بنهاية الشتاء تكتسح الغابة والمنخفض ، كما هبت بلا هوادة حتى السحر .

وبينما اشتدت العاصفة ، أصدرت الغابة زئيرا من حنجرة عميقة كبحر

عاصف ، وظل الصوت يتضخم حتى أن التربة ذاتها بدت كأنها تصيح . واستطعت أن أتبين ، أصواتا منعزلة تطفو الى السطح كالزبد ، وراحت الأشجار الضخمة التى على حزام الأرض الواقع بين الوادى والغابة ، تئن فى الرياح وتنادى بنغمات فردية أيقظت ذكريات ماضية حية . وكانت عمالقة الغابة مازالت حية بداخلى كذكريات الحظيرة القديمة فى الوادى التى تحدثت اليها فى طفولتى ، وظللت أذكرها منذ ذلك الوقت . لم يكن ذلك بطريقة عميقة وانما كان لكل منها طابعها الخاص .

فى أحد الأيام ، حين كنت صغيرا ، أخذنى عامل عجوز من محل صلصة الصوية دون وعى منى الى الممر المؤدى الى النهر بجانب المحل الذى كانوا يصنعون فيه الصلصة . وكان هذا العامل يعيش فى طبقة اجتماعية مختلفة عن طبقتى فى مجتمع الوادى ، ولم أكن قد تبادلت معه كلمة واحدة . وأخذ يلوى ذراعى بينما رحت أقاومه ، صب فى أذنى شلالا من السباب الفظ عن جنون أمى . وكما تذكرت بوضوح وجه الرجل العجوز الذى يشبه وجه الكلب ، استطعت أن أرى الآن شجرة الكستناء العتيقة التى كانت مزروعة على جانب التل خلف المنزل . فبينما كنت أصغى الى صوت الشجرة برزت بأكملها أمام عينى بتفاصيل حية على شاشة ذاكرتى ، تنحنى وتصيح فى العاصفة . وحتى أثناء الصباح ، حين لم تكن الريح شديدة جدا ، رقدت أصغى الى صوت الأشجار فى الريح .

طرأ على ذهنى أنه ، بمجرد أن أغادر هذا المكان ، لن أراها مرة أخرى قط ، فجعلتنى هذه الفكرة أشك تماما فى مدى امكانى الاعتماد على ابصارى فى تلك المناسبة الأخيرة ، كما جعلتنى مدركا ادراكا مباشرا الموت الذى ينتظرنى فى يوم من الأيام .

ومع ذلك ، كان كل ما يشغلنى خطابان يعرضان على وظيفتين ؛ إحداهما كان من أستاذى فى القسم فى طوكيو ، أما الآخر فكان من مكتب احدى الحملات الاستكشافية الذاهبة الى أفريقيا لصيد الحيوانات من أجل حديقة حيوان مفتوحة يزمع انشاؤها فى مكان ما فى البلاد .

عرض علىّ الأستاذ منصبى محاضر فى الأدب الانجليزى كانا محجوزين بالفعل فى الجامعات الخاصة لى وللصديق الذى شنق نفسه .

وكان هذا العرض يحمل وعدا بالمستقبل المستقر .

أما خطاب مكتب الحملة ، فكان استدعاء عاجلا تفوح منه رائحة عدم الاستقرار وهو موجه من أحد الباحثين ، فى نفس عمر "س" لو قدر له أن يعيش ، وقد تخلى عن منصب أستاذ مساعد فى علم الحيوان كى يقوم بتنظيم حديقة الحيوان هذه . وكان هو نفسه الذى أثنى على ترجمتى للكتاب الذى ترجمته عن نصب الشراك فى قسم عرض الكتب فى صحيفة رئيسية . كنت قد قابلته عدة مرات ؛ فهو من النوع الذى لا يمانع فى ركوب سفينة غارقة ويعمل قبطانا على متنها حتى بعد أن تغادرها الفئران . ويريد منى أن أنضم الى الحملة باعتبارى مترجمها الرسمى .

وربما كان الخطابان الأولان يمثلان فرصتى الوحيدة الباقية كى أنضم لذلك النوع من المناصب ؛ فحين مات صديقى ضربت عرض الحائط بمنصب المحاضر الذى عرضته علىّ الجامعة التى تخرجت فيها ، دون حتى استشارة أستاذ القسم الذى كنت أدرس فيه ، والأكثر من ذلك ، وبما أن تاكاشى لم يترك لى أيا من المال الذى حصل عليه من بيع الأرض والبيت ، فعلىّ أن أقرر أن تكون لى مهنة ان عاجلا أو آجلا .

كان منصب المحاضر مثاليا ، غير أنى كنت مترددا . قالت زوجتى ، التى لم أناقش معها بعد مسألة الوظيفة القادمة ببرود تام :

"اذا كنت مهتما بالعمل فى أفريقيا ، لماذا لا تذهب ، ياميتسو" ؟

انتابنى توجس خانق من كل الصعوبات وعوامل القلق التى قد يجرها عمل غير مألوف كهذا . فقلت :

"أنا واثق أن عمل (المترجم الرسمى) لا يعنى مجرد عمل تحريرى على الورق ، وانما أيضا اعطاء الأوامر للحمالين وعمال المخيم ، وأستطيع أن أرى نفسى ، وأنا أصيح (الى الأمام سر) وما شابه ذلك من أوامر بلغة سواحلية " .

كنت أتحدث بنبرات ملؤها الازدراء التام غير أنى رأيت بعين عقلى رؤية أسوأ مما قلت ؛ رأيت نفسى ملطخا كلية بالدم بسبب ما أحدثته بنفسى من

الاصطدام بجبهتى ، وعظام خدى ، بل حتى عينى التى لا ترى الأشجار الأفريقية ذات الجذوع الحديدية والصخور الصلبة لدرجة تكفى كى تحوى الماس .

ورأيت نفسى أسقط ضحية للملاريا الحادة ، وأئن تحت وطأة حمى شديدة تجعلنى أمقت توبيخات عالم الحيوان ذى الشخصية الطاغية وتوسلاته وأرتمى منهكا على أرض المستنقعات ، وأصيح بالسواحلية بأقصى مافى وسعى : "سنغادر غدا" . "سيذهب تاكا وهو يشق لنفسه حياة جديدة فورا . كما قالت مومومكو ، فان طفل الإنسانية الذى سيسافر كل هذه المسافة الى أفريقيا كى يصطاد الفيلة كان بعينيه أمل الإنسانية الوحيد ؛ إذ كانت له رؤية للإنسان الأول الذى سيذهب الى أحراش أفريقيا كى يصيد الفيلة بعد أن دمرت جميع حدائق الحيوان فى حرب نووية . "انه أستاذ إنسانية وهمية" .

وقبل رحيله ألقى هوشيو علىّ وعلى زوجتى الخطاب التالى ، بينما كانت موموكو تقف وادعة وغاية فى الأنوثة الى جانبه ، وتومىء ايماءات عديدة تأييدا لما أدلى به من ملحوظات :

"الآن ، ولم يعد تاكا بيننا ، علينا أنا ومومو أن ندبر أمرنا . لذلك ، سأتزوجها . فكلانا ، قد تعدى سن الرشد . ويمكننا أن نكسب عيشنا معا ؛ إذ يمكننى أن أجد جراجاً فى أى مكان ، كما تستطيع مومو أن تعمل نادلة فى مقهى . وآمل أن أمتلك محطة وقود . لقد اعتاد تاكا أن يقول إنى يجب أن يكون لدىّ نوع من تلك المحطات التى شاهدها فى أمريكا ، ذلك النوع الذى يمكنه القيام باصلاحات مهمة كما يقدم وجبات خفيفة . أما الآن وقد مات ، سيكون علىّ أنا ومومو أن ننشىء ذلك بمفردنا ؛ إذ ليس أمامنا من يمكن أن نتوجه اليه" .

كان فى امكاننا أنا وزوجتى أن نغادر المنخفض معهما ، طالبين منهما أن يأخذانا معهما ، غير أنى كنت مصابا بحمى بسبب البرد . وحتى بعد ذلك ، أصيبت يداى بشعور بالحرارة والحساسية دام لثلاثة أسابيع ، وكأنهما قد صارت بهما طبقة اسفنجية منعتنى من رفع أى شىء . ثم ،

حين تحسنت صحتي ، بدأت زوجتى تقول إنها ليست مستعدة لرحلة طويلة ؛ إذ كانت ، تعانى من نوبات متكررة من الغثيان والهزال . ولم أجد عناء فى استنتاج ما كانت تعد نفسها له نفسيا أى ما كانت تتمناه بكل كيانها ، ولكن لم تكن بى رغبة فى مناقشة هذا الأمر الذى أصبح مستقرا .

فكرت مليا فى مسألة عملى الجديد ، بشعور غامض بالاستسلام ، بينما كانت ناتسومى تجلس فى كآبة على الجانب الآخر من المدفأة ، قدمى تثبتت بقوة فى قاعدتها . ولم يبق أحد فى المنزل الرئيسى يقطع علينا حوارنا . غير أنها فى هذه الأيام ، اعتادت أن تغرق فى صمت عميق .

لفترة وجيزة ، بعد موت تاكاشى ، استغرقتها حالة من السكر المتجدد دوما . ولكن ما لبثت أن تخلصت من زجاجات الوسكى المتبقية ، وانكبت على انفاق وقتها ، جالسة على الكعبين ويداها مطويتان على بطنها وعيناها نصف مغمضتين ، باستثناء الوقت الذى تقضيه فى النوم . وشككت أن الاقتراح الخاص بأفريقيا لم يكن بالنسبة لها سوى تعليق نزيه على خيارات تواجه شخصا غريبا تماما . ولم أعد ألقى بظل عميق على عالم وعيها ، كما أنها فعلت نفس الشىء بالنسبة لى .

وبعد الظهر ، زحف ابن جين الأكبر الى المطبخ وأخذ يتحرك بهدوء دون أن يأبه لصمت زوجتى .

وراح يقول : "الامبراطور يعبر الكوبرى ، ومعه خمسة من الشباب" .

فى ذلك الوقت ، لم يعتقد أى من أهل الوادى أن الامبراطور قد يحضر عصابة معه . فبمجرد أن بدأ ذوبان الجليد ، أرسل ممثلا له سوى جميع المسائل المعقدة التى خلقتها (الانتفاضة) بأبسط طريقة ممكنة . وكدس البضائع فى أول شاحنة تدخل الوادى ، وأعاد فتح السوبرماركت . كما لم يطلب أى تعويض عن أعمال النهب ، وكذلك لم يبلغ الشرطة بالأمر . أما الخطة التى قدمها الكاهن وقنفد البحر لجعل السكان الأكثر ثراء يقدمون الأموال للاستيلاء على السوبرماركت ، بخسائره وكل ما يتعلق به ، فقد تم رفضها رفضا تاما . وكانت هناك ، شائعة تقول إن أحدا لم يقدم اقتراحا رسميا الى الامبراطور ، على الاطلاق .

وفى خلال وقت قصير بعد موت تاكاشى ، انهارت القوى التى تقف وراء (الانتفاضة) . وفقدوا أى سلطة يؤثرون بها على الامبراطور عن طريق التهديد باشعال نار الشعب من جديد . وكانت ربات البيوت فى الوادى والريف يشترين بكل سعادة مواد غذائية وسلعا منزلية تكلفهن ما متوسطه عشرون أو ثلاثون فى المائة أكثر مما كانت تكلفهن قبل الاضطرابات ، بعد أن شعرن بالامتنان الوضيع والرضى على عدم مساءلتهن بخصوص النهب . وأما بالنسبة للأجهزة الكهربية التى تم نهبها ، فإن الناس حضروا واحدا بعد الآخر ، سرا ، كى يعيدوها للسوبرماركت ، حيث عرضت للبيع مرة أخرى ، باعتبارها بضائع تالفة ، فبيعت بتخفيضات خاصة فى وقت وجيز .

واتضح أن نساء الريف اللاتى اشتركن فى الانتفاضة وتقاتلن فيما بينهن على أخذ الأقمشة الرخيصة ، لديهن سيولة نقدية مخفية يعتد بها وكن من بين أكثر العملاء تلهفا فى وقت التخفيضات . وأغلق ملاك أراضى الغابة على أنفسهم مرة أخرى قواقعهم المريحة وهم يتنفسون الصعداء .

سرت الى الوادى خلف ابن جين ، وكان الغبار السميك يلسع عينى ؛ إذ كانت الريح الصاخبة تهب على الحقول . وكان كل ما حوله يلفه شعور بالخسارة غير المحددة كالحطام الميت لكائن بشرى مما أيقظ قلقا غامضا داخلى ، بينما نقلت نظرتى عبر الوادى . كانت هذه حال كل شىء بلا استثناء ؛ فهى حال مساحة أرض العشب الذابل البنى التى تلاشى عنها الجليد تماما ، تاركا التربة عاجزة وعليها أن تنبت حياة جديدة ، بل حتى المرتفعات المظلمة دائمة الخضرة فى الغابة فيما وراء أيكات الاشجار المتساقطة فى نهاية الموسم .

نظرت بعينى الى أسفل ، فرأيت الجزء الخلفى من رقبة الصبى حيث رسمت القذارة شكلا ما ؛ ذلك أنه ظل منكمشا ، لعدة ساعات طوال على قمة الصخرة الضخمة ، حيث لاقت آنية الجنس الصغيرة حتفها ، وهو يدفع عنه الريح المحملة بالغبار كى يلمح الامبراطور وهو يشق طريقه الى الوادى .

سار الصبى بسرعة حانيا رأسه ، بينما ينشع جسده من الخلف بتعب

غير مألوف بالنسبة لطفل . لقد كان هذا هو تعب ألم بعضو بعائلة استسلمت فى النهاية . وشعرت أن الوادى كله كان فى انتظار وصول الامبراطور ومرءوسيه بنفس حالة الاعياء هذه ؛ إذ إن المنخفض قد استسلم بلا شروط .

ولم يكن الصبى ليلعب دور الحارس الليلى بكل هذا الحماس مالم يكن الغرض من ذهابى الى الوادى للقاء الامبراطور له صلة بأمه ، التى لم تكن تأكل شيئا تقريبا الآن ، والتى أخذت تزداد نحافة بسرعة . وكنت أشك فيما اذا كان يود أن يعمل من أجلى فى ذلك اليوم ، بما أن موت تاكاشى قد حجبنى عن حياة الناس اليومية فى المنخفض مرة أخرى .

وحين وصلنا الى الساحة أمام مكتب القرية ، تعرفت على الامبراطور واتباعه ، الذين بدا أنهم قد مروا بجانب السوبرماركت وكانوا يسيرون بخطى منتظمة صاعدين الى طريق الحصى . وكان الرجل الضخم الذى سار بخطا واسعة وبدقة عسكرية وهو يركل أسفل معطف طويل أسود يصل الى كعبيه تقريبا الى أعلى هو الامبراطور . وكان الوجه مكتنزا بوضوح ، وتحت القبعة ذات الحواف والتى يمكن أن تغطى الوجه كما كان لونه نضرا . كذلك فان الشباب المحيطين به الذين ساروا بنفس الخطوات الواسعة النشطة كانت أجسادهم جميعا قوية مثل جسده . وكانوا يرتدون معاطف من خرق صوفية كما كانوا عراة الرءوس يسيرون وأكتافهم الى الوراء ورءوسهم مرفوعة الى أعلى ، متمثلين بزعيمهم . فذكرنى هذا بقوة بيوم دخول قوات الاحتلال ، حيث أتت سيارات الجيب الى الوادى أولا ، كان الامبراطور وجماعته مثل الأغراب الظافرين الهادئين الذين أتوا ذات صباح فى منتصف الصيف .

لقد وجد كبار الوادى من الصعب عليهم أن يعتادوا على الشعور بالخضوع للاحتلال حتى بعد أن شهدوا تأكيدا عمليا لهزيمة الأمة ، فاستمروا فى أداء مهامهم اليومية ، متجاهلين القوات الأجنبية . الا أن نفوسهم ، كانت طوال الوقت تختنق بالعار . أما الأطفال فكان وضعهم مختلفا ؛ إذ تكيفوا بسرعة مع الوضع الجديد ، وأخذوا يجرون خلف عربات

الجيب وهم يهللون ، كما قدمت الأغذية المعلبة والحلوى . اما الكبار فقد ألم بهم سوء الطالع الذى جعلهم عندما التقوا بموكب الامبراطور راحوا يشيحون بوجوههم ويدلون رءوسهم كالكابوريا الخجلة التى تتوق الى أن تهرب بعيدا كى تدخل جحرا مناسبا .

ففى يوم الانتفاضة ، اكتسبوا دافعا مدمرا من خلال قبولهم الصريح المباشر للعار الذى تنطوى عليه هذه الانتفاضة ؛ إذ وحدت صفوفهم . ولكن العار يعذبهم الآن ، فاستسلموا .

ان التباين بين (روح) الامبراطور فى المعطف الصباحى بلا قميص وحقيقة الامبراطور نفسه ، تجعلنى أتأمل بشىء أقرب الى التقزز تقلص العار الذى يكاد يكون شخصيا ، فيما كان يمكن أن يحدث لو أن الشباب الذين ارتدوا ملابس الأرواح أجبروا على أن ينتظروا على جانب الطريق ، بينما كان الامبراطور يمر . كان أطفال الوادى الذين ساروا فى مؤخرة الموكب صامتين ، وكأنهم منشغلون بعويل الرياح العاتية التى تهبط من أعلى الغابة . كان هؤلاء هم أول أطفال يتكيفون مع هذا الوضع فى الوادى ، كما فعلت أنا وزملائى فى طفولتنا . غير أنهم كانوا شركاء فى الانتفاضة ، وبهذا الوصف ، فقدوا أصواتهم ؛ إذ كانوا متعبين بعبء العار الذى يمكن لرءوسهم الصغيرة أن تستوعبه .

أحس الامبراطور بوجودى قبل مضى وقت طويل . ففى نهاية الأمر ، كنت أنا الوحيد فى الوادى الذى انتظره برأس مرفوعة دون أن أخشى أن ألقى نظرته . فتوقف أمامى ، تسانده مجموعة الشباب الذين أظهرت ملامح وجوههم أنهم من نفس جنسه ، ووقفوا هناك فى صمت ، وانكمش الجلد الواقع بين رموشه فى تجاعيد عمودية لم تشر الى شىء اللهم الا التركيز بعناية ؛ إذ كان ينظر الىّ بهدوء بعينيه الواسعتين . ونظر الى أتباعه ، فى صمت ، فقلت مخاطرا بصوت بح رغم إرادتى :

" اسمى نيدوكورو أنا أخو تاكاشى الأكبر الذى عقد الصفقة معك" .

فقال امبراطور السوبرماركت : "وأنا بيك سون ـ جى . وكم أنا حزين على أخيك . يالها من مأساة ! لقد كان رجلا من نوع خاص" .

فنظرت اليه مليا بمزيج من الانفعال غير المتوقع والشك : نظرت الى العينين المفتوحتين اللتين تنظران إلىّ بتعبير من الحزن المتصاعد . لم يخبرنا تاكاشى أن الامبراطور على هذا الشكل ؛ إذ خدعنا نحن وأهل الوادى بأن قدم الامبراطور الينا على أنه (روح) مقيتة . لقد شككت ، فى الواقع فى أن الكورى قد أثر فيه تأثيرا عميقا حتى أن تاكاشى أخبره بأنه شخص من نوع خاص لذا استخدم الامبراطور نفس التعبير كطريقة خاصة لرد المجاملة للميت .

بدت رموشه كثيفة وعريضة وكانت له أنف قوية ، غير أن الشفتين الصغيرتين كانتا حمراوين كشفتى فتاة ، مما أعطى مسحة من الشباب على الوجه كله . ابتسم ابتسامة مهذبة ومضت منها أسنان بيضاء كى يشجعنى بينما كنت أحملق فيه فى صمت . فقلت : "لقد أتيت كى أطلب طلبا" .

فرد بيك مبتسما بنفس التجاعيد بين رموشه : "وأنا كنت فى طريقى كى ألقى نظرة على المخزن . ولكى أقدم تعازىّ فى نفس الوقت" .

فاستطردت قائلا ، "إنه بخصوص أم هذا الصبى ؛ فهم يعيشون فى المبنى الخارجى . والأم مريضة الآن ؛ لذا ، أطلب منك ، اذا كان ذلك ممكنا ، أن تدع المكان لفترة قصيرة دون أن تهدمه" .

قال ابن جين ، على سبيل اكمال روايتى : "ان المريضة تزداد نحافة . وهى تقول إنها ستموت فى الصيف" . لقد أثرت الأغذية المعلبة التى أكلتها على كبدها وفقدت بالفعل نصف حجمها القديم ، وتوقفت الآن عن تناول الطعام . ولن تعيش طويلا .

اختفت ابتسامة بيك وتفحص ابن جين بعناية : "فكان الصبى على العكس منى ، فهو لم يكن شخصا غريبا يقيم بصفة مؤقتة فى الوادى . فعامله طبقا لذلك ، باهتمام عادى تناقض مع النبرة الودودة المتباسطة التى استخدمها معى فى الحوار . على أى حال ، استعاد مباشرة تقريبا الابتسامة المهذبة مع العبوس الصغير الأقرب لتوبيخ الذات وقال :

"لا أرى سببا يمنع الناس الذين يعيشون فى المبنى الخارجى من

الاقامة هناك مادام لا يتعارض هذا مع تفكيك المخزن ونقله . الا أنه يتحتم عليهم تحمل بعض القلق حين يجرى العمل".

ثم أضاف ، مع وقفات بين كل عبارة وكأنما قصد الى طبع ما قاله فى ذاكرة الصبى : "وعموما ، اذا ما مكثتم بعد أن ينتهى العمل فى المخزن ، لن أدفع لكم تعويضا كى تخرجوا" .

فانسل ابن جين واشتعلت فى رأسه العداوة للامبراطور . وفى نفس الوقت ، بدا أن النظر اليه من الخلف يؤكد على أن اخفاقى فى الاعتراض على بيان بيك قد أفقدنى البقية الباقية من صداقته .

قال بيك ونحن ننظر الى الصبى وهو يختفى : "سنهدم جزءا من جدار المخزن تمهيدا لتفكيكه . ولقد أحضرت بعض الشباب الذين يدرسون الهندسة المعمارية" .

سرنا معا جنبا الى جنب نحو المخزن . وكان الطلبة يميلون الى السمرة وأجسادهم كأجساد المصارعين تعلوها رءوس كقذائف المدافع ، كتومين للغاية ؛ إذ لم يهمسوا حتى فيما بين أنفسهم .

حين وصلنا الى الحديقة الأمامية ، قال بيك : "هل لديك مانع فى اخراج أى شىء ذى قيمة ان وجد" ؟

فى البداية ، نزع الشباب أبواب المخزن وأخرجوا الأشياء القابلة للنقل بعناية أقرب الى التوقير . ولكن بعد وقت قصير ، أعطى بيك أمرا باللغة الكورية ، فبدأوا فجأة يشبهون تقريبا عمال الهدم . فبينما حطموا جدار الطابق الأول المواجه للوادى ، ارتفع البلستر والخيزران فى الهواء ، ثم نزل كالمطر فوق رأسى ورأس أطفال الوادى الذين أتوا للفرجة . فقد استحال الجدار الى مسحوق وتهاوى بعد أن ظل صامدا هنالك لما يزيد على قرن من الزمان . أما الشباب الذين كانوا يتناوبون على ادارة آلة الهدم ، فلم يبد عليهم أدنى اكتراث بتركيبة المخزن وتوازنه بمجرد هدم الجدار . ونفس الشىء يصدق على بيك الذى وقف يدير العمليات دون أن يقلقه التراب . كان هذا يبدو كايماءة متعمدة للعنف موجهة نحو أهل الوادى ؛ إذ إن بيك وأتباعه كانوا يظهرون ، بتدميرهم أقدم رمز باق على

طريقة الوادى التقليدية فى الحياة ، يظهرون ، انهم يمكنهم ، اذا شاءوا أن يدمروا معيشة أهل الوادى ، كان كل ذلك واضحا للأطفال الذين كانت أنفاسهم تتلاحق ولابد أن الكبار أحسوا بذلك أيضا ؛ ذلك لأن أحدا لم يأت من الوادى كى يحتج على أمواج التراب التى كانت تنذر بغمره . ورغم أن الجدران كانت تتهاوى بفعل الزمن ، فإنها ظلت تسند أسقف ثقيلة كما كانت تفعل منذ قرن ، وكنت أنا قلقا من أن ازالة جزء منها قد يهوى بالمخزن بأكمله فى الريح العاتية . فاستحوذ علىّ شك أن بيك لم ينو قط حمل اطار المخزن بما به من عوارض كبيرة ، ثم إعادة إقامته فى المدينة ، وإنما اشتراه ، للاستمتاع بتدميره أمام أهل الوادى .

وقبل مرور وقت طويل ، أسقط حائط ثالث مواجه للوادى تقريبا وانهار من السقف الى الأرض وأزيح البلاستر الذى تركته الرياح بواسطة الجواريف . فنظرت أنا والأطفال الى المخزن من الداخل ، ونحن نقف الى جانب بيك وقد انعكس عليه ضوء النهار بوضوح وقسوة . وظل المخزن مفتوحا فى مواجهة الوادى وكأنه خشبة مسرح ، فأحدث انطباعا سيعاودنى فى أحلامى . وبدا متقلصا بشكل غريب وكشفت الأجزاء غير المنتظمة فى داخله . ففجرت ذكرى كآبة قرن بأكمله إلى الأبد ، وبينما كنت أنظر ، تذكرت "س" وهو يرقد هناك بلا حراك وسمحت المساحة الناتجة عن سقوط الجدار بامكان النظر الى المكان بأكمله كما ظهر حوض النهر ، بلونه البنى العميق وقد استولى عليه جفاف الشتاء .

"هل لديكم عتلة فى أى مكان" ؟ قال بيك باللغة الكورية موجها حديثه الى طلبة الهندسة الذين انتهى عملهم . وتقدم نحوى مما جعل الأطفال المتفرجين يتراجعون الى الخلف وهو يمر من وسطهم ، وتحدث الىّ بابتسامة ، رغم بقاء التجاعيد بين رموشه التى كساها التراب :

"أود أن أنزع بعض ألواح الأرضية كى ألقى نظرة على القبو . فالقباء فى مثل هذا النوع من الأماكن يكون لها حجر وأرضيات ، لذا سنحتاج الى المزيد من العمال اذا كنا سننزعه أيضا" .

"ولكن لا يوجد أى قبو" .

قال أحد الطلبة ، ووجهه أبيض مثل الطباشير بسبب التراب بهدوء زعزع من ثقتي : لابد أنه يوجد ، يمكنك معرفة ذلك من الطريقة التى ترتفع بها الأرض" .

فأخذته الى حجرة المخزن كى يفتش عن قضبان الحديد التى كان أهل الوادى يستخدمونها حين كانوا يتجمعون معا لاصلاح طريق الحصى .

فى مدخل المخزن كان هناك كوم من قطاعات جذوع الاشجار . وكان أعضاء الفريق قد تخلوا عن الأسلحة حين فروا ، فجمعته فى مكان واحد ، وتركته هناك فى الصباح الذى مات فيه تاكاشى . فسحبنا قضيبا من تحت أرضية حجرة المخزن . ثم ، وقفت ، وأنا مازلت غير مقتنع بامكان وجود قبو ، عند باب حجرة المخزن أراقب الشباب وهم يرفعون ألواح الأرضية . وسرعان ما انخلع الخشب الذى كان قد تعطن بفعل الزمن وكان على المشاهدين فى الكثير من الأحيان أن يبتعدوا كى يتجنبوا سحبا جديدة من التراب . ثم خرجت من الأرض شبورة سوداء من رطوبة صافية تنبىء بوجود مياه تحت الأرض ، ظهرت من خلفية المخزن رائحة وتقدمت نحونا ببطء ؛ فتقهقرنا ، غير أننا استطعنا أن نسمع الشباب وهم لا يزالون يرفعون ألواح الأرضية محدثين فتحة أكثر اتساعا .

حين استقر التراب فى النهاية ، ودخلت أنا وبيك وجدنا فجوة طويلة تمتد بلا انقطاع من فتحة الحائط فى خلفية الحجرة الى حافة الأرضية المرتفعة فى المدخل . وظهر من الفتحة وجه شاب يبتسم ببراءة ؛ وبعد أن نادى الامبراطور بلغة كورية مرحة ، أعطاه الغلاف الأعلى لكتاب أكله الدود . فقال بيك بسعادة :

"إنه قبو صخرى جيد البناء تحت الأرض ، ألم تعلم بوجوده حقا ؟ ذلك أن هناك العديد من الأعمدة التى تجعل التحرك فى الداخل أمرا صعبا ، غير أن به حجرتين بهما العديد من الكتب والصحف القديمة كهذا . ولن أدهش لو أنهم احتفظوا بشخص مجنون أو هارب من التجنيد هناك فى أسفل" .

استطعت أن أقرأ العنوان على الغلاف القذر الذى كان يمسك به فى

يده : سؤال وجواب عن الحكم بقلم السكيرين الثلاثة ، وكذلك كلمات : "نشر : شوزيشا بطوكيو" فلمحنى الحرس وأنا أتوه فى موجات الذهول . أثارت الصدمة شيئا بداخلى بقوة ظهر فى النهاية ، واتخذ شكل الكشف أو جلاء الغموض . وكان هذا هو نفس الكشف الذى يكمن وراء انشغالى بينما كنت أجلس فى القبو ليلا .

قال بيك وهو يترجم تقريرا قدمه شاب آخر فى أسفل فى القبو :

توجد الكثير من الثقوب التى تدع النور يضىء الجانب الذى به الجدار الحجرى قال : "وأظن أنها لا يمكن تبينها من الخارج . فهل تريد الدخول وإلقاء نظرة" ؟

فهززت رأسى فى صمت ، ومازلت ثملا باكتشافى الذى أخذ يتخذ شكلا محددا تمام التحديد . كان لبه هو ادراك أن أخا جدنا الأكبر لم يتخل عن زملائه ولم يتركهم لمصيرهم منطلقا الى الغابة بحثا عن عالم جديد ، بعد انتفاضة ١٨٦٠ ، كان هذا الادراك ثابتا لا يتزعزع . فرغم عدم تمكنه من منع مأساة قطع رءوسهم ، فإنه قام بمعاقبة نفسه ؛ إذ إنه فى يوم الانهيار النهائى ، أغلق القبو على نفسه ، وهناك احتفظ بتكامل شخصيته كزعيم للانتفاضة ، وإن كان ذلك بشكل سلبى ، دون أن يتراجع عن معتقداته . ولاشك أن الخطابات المختلفة التى بقيت بعده قد كتبت وهو فى مخبئه وأنه كان يسلمها لأولئك الذين كانوا يقدمون له الطعام خلسة . ولابد أنه خطها فى فترات الراحة من القراءة ، كما كان يتخيل بينه وبين نفسه ، نوع الخطابات التى كان من الممكن أن يرسلها لو أنه تمكن من أن يقضى حياته فى مكان آخر ، وتقدم ببطء من أحلام الشباب بالمغامرة . كذلك فإن عدم وجود عنوان للكاتب ، كان تأكيدا على أن كاتبها لم يغادر قبوه قط . ومن جانب جدنا الأكبر أيضا ، كان الاتصال عن طريق الخطابات فقط .

بالنسبة لإنسان يحيل هذه الحياة من السجن الاختيارى ، إنسان ظل ساعات طوالا منكبا على المادة المطبوعة التى تلقى اليه فى قبوه ، وقضى أيامه فى شطحات الخيال مثل تقديم الدعوة للدراسة فى أمريكا ، أو واقعة صيد الحيتان قبالة جزر البونين ، فان المسائل الأكثر واقعية كان لابد أن

تكون بعيدة عنه ؛ إذ لابد أن يكون من الصعب عليه أن يتأكد حتى من أن أحداثا عادية وتافهة تحدث الى جانب مخبئه مباشرة .

لابد أنه اعتاد ، فى قبوه ، أن يركز سمعه كى يسمع أولئك الذين ربما لن يراهم قط ، رغم أنهم يحيون تماما بالقرب منه ، كان يكتب رسالته لأولئك الذين فى العالم فى أعلى :

"أرجوك فى حالة وصول أى خطاب أن تبلغنى بفحواه بكل ما أوتيت من سرعة" .

تحدث بيك على غير توقع ، عن الحادث الذي وقع فى صيف عام ١٩٤٥ ، بينما كنت أنوى الذهاب الى المنزل الرئيسى بعد أن أصبحت محموما بسبب هذه الاكتشافات الجديدة . بينما كان يحاول أن يسبر أغوار السبب الحقيقى الذى يكمن وراء صمتى المطبق ، وهو الصمت الذى كان شديد الوضوح بحيث لا يمكن تفسيره على أنه ناتج عن الدهشة البسيطة لدى اكتشافات "بخصوص وفاة أخيك فى القرية الكورية بعد أن عاد الى الوطن من الجيش ، لا يمكن لأحد أن يجزم بمن قتله ؛ هل نحن أم اليابانيون . لقد كان بالموضوع قدر كبير من البلبة ؛ إذ وقف مقيدا وذراعاه الى جانبيه الى أن قتل . أى اننا قتلناه نحن واليابانيون معا . لقد كان رجلا آخر من نوع خاص .

توقف بيك وانتظر رد فعلى . فلم أقل شيئا ولكنى أومأت وكأنى أقول :

"أجل ، أظنك على صواب . لقد كان "س" هذا النوع من الرجال" .

وذهبت الى المنزل الرئيسى مغلقا الباب كى أحتمى من التراب الذى جاء فى أعقابى . وسمعت نفسى أنادى بصوت متوتر فى الكآبة التى تحيط بالمدفأة : "تاكا" غير أنى أدركت ، على الفور أن تاكاشى قد مات ، وندمت بحدة على غيابه أكثر من أى وقت منذ أن انتحر . فلقد كان هو أحق من أى شخص آخر بسماع الحقائق الجديدة عن المخزن . ولما اعتادت عيناى

الظلام ، طفا وجه زوجتى فى مجال النظر ؛ ذلك الوجه المتورم الذى صار كدائرة كاملة . كانت تنظر الىّ فى ريبة .

قلت كمن يعلن نبأ :

"يوجد قبو تحت المخزن ، ويبدو أن أخا جدنا الأكبر كان يختبىء هناك طوال الوقت ، يكفر عن نفسه باعتباره زعيما للانتفاضة التى فشلت .. لقد مات تاكا وهو يشعر بالخزى لشقيق جدنا الأكبر ولنفسه ، ولكن شقيق جدنا الأكبر عاش حياة مختلفة تماما عما تصورنا . اكتشفت ذلك توا . فلم يكن هناك ما يجعل تاكا يشعر بالخزى ، على الأقل ، فيما يتعلق من الأمر بشقيق جده" .

كنت أتحدث بتعجل كما كان اقتناعى يزداد بما قلت . فصاحت قائلة :

"ولكنك أنت الذى جعلت تاكا يشعر بالخزى بينما كان يقف على حافة الموت ! أنت الذى جعلته فريسة لاحساسه بالعار . فما فائدة ذلك النوع من الكلام الآن" ؟

فلما كنت فى حالة من الاثارة بالاكتشاف الجديد ، أملت فى بعض كلمات العزاء من زوجتى ، ولم يطرأ على فكرى أنها ستختار تلك اللحظة كى تنقلب علىّ . فوجدتنى فى حالة من الشلل ، محاصرا بين آثار الاكتشاف وعدائها السافر . واستمرت قائلة بحدة متصاعدة :

"لا أعتقد أنك دفعت به فعلا للانتحار ، ولكنى أثق تمام الثقة أنك فرضت عليه أبشع أنواع الموت وأكثرها مجلبة للعار . فظللت تزج به الى داخل عاره الى أن أصبح ذلك العار هو الشىء الوحيد الذى تبقى أمامه .. فبمجرد أن قرر أن يموت ، عقد عليك كل أمله ، كما أثق تماما ، فى أنه أخفق فى هزيمة خوفه . غير أنك رفضت أن تقبل عينيه التى عرضها عليك ، أليس كذلك ؟ بل حتى حين فعل كل شىء وكاد أن يجثو على ركبتيه ، ويرجوك أن تخبره أنك لم تكرهه ، لم تشأ أن تقول : (لست أكرهك) كلا بل سخرت منه وضاعفت شعوره بالخزى . وتخليت عنه بحيث لم يعد لديه أى خيار سوى أن يطلق الرصاص على وجهه فيحوله أشلاء بتلك الطريقة

المقززة المثيرة للشفقة . والآن وبعد أن مات ، ولم يعد من الممكن إصلاح مافات ، تبدأ فى القول إنه لم تكن به حاجة الى خجل بسبب أخى جدنا الأكبر ! إن مجرد معرفة تاكا عن الرجل ، حتى لو لم ترشده الى طريقة تجعله يستمر فى الحياة ، كان فى إمكانها ، على الأقل ، أن تمنحه قوة روحية فى ذلك اليوم الأخير ، فى اللحظات التى سبقت قتله لنفسه ، فلو أنك أخبرته حينئذ بما تحاول الآن ، بكل اطمئنان وثقة أن توصله اليه بعد أن مات ، لما كان لانتحاره أن يكون على كل هذا القدر من البشاعة" .

"إن الحقائق التى أخبرتك بها توا لم تكن قد اكتشفت حتى بدأ الامبراطور فى مسحه للمخزن . فى تلك الليلة كان شىء كهذا يبدو مستحيلا . غير أنه من الواضح ، أن شقيق جدنا الأكبر قد حبس نفسه تحت المخزن وعاش هناك فى عزلة حتى وفاته" .

"الآن وقد مات تاكا ـ ياميتسو ـ ما الفرق لديه فيما لم تكن تعلم ، وفيما تعلم الآن ؟ فأنت تلقى بالناس جانبا ، وتدعهم يموتون دون أمل ، ولكن كل ما تستطيع فعله للتعويض عن ذلك هو أن تصبح قائلا : (لقد تخليت عنك) فى أحلامك أو تسكب الدموع لتعزية الذات . والآن ، كما كان الحال فى الماضى ، وفى المستقبل ، والى الأبد ! قد تجدد الاكتشافات الجديدة دموعك ولكنها لن تعزيها على الموت بكل هذه البشاعة وبكل هذا اليأس" !

استسلمت ، وقنعت بالنظر الى عينيها ، اللتين كانتا صارمتين من فرط الكراهية حتى أن التجاعيد التى كانت حولهما أشبه بطيات من الصمغ المتجمد . لم أكن قد أخبرتها باعتراف تاكاشى بالعلاقة المحرمة . وحتى ولو فعلت ذلك ، فلن تزيد عن الاشارة الى أنى لو قلت له ، بعد اعترافه ، إنه قد قام بما يمكن من اصلاح بالحياة لسنوات عديدة فى الظل المؤلم للحقيقة لخفف ذلك ، الى حد ما ، من بشاعة موته . وربما كان لها ما يبرر ذلك تماما .

ظلت عيناها مثبتة علىّ ، ولكن هالة الغضب قد ذوت ، واكتسبتا ظلا جديدا من الحزن دون أن يفقدا ما بهما من كراهية .

وقالت : "والآن ، فإن أى شىء جديد يبين أنه لم تكن به حاجة الى أن يقتل نفسه بهذه الطريقة المقززة لم يزد عن أن يجعل الأمر أكثر بشاعة" .

وانفجرت فى فيض من الدموع وكأن قوقعة الكراهية الصلبة قد انفجرت كى تطلق ثمرة الحزن التى بداخلها . وبعد وقت قصير أفاقت ، ثم قالت : "لقد كنت أجادل نفسى على مدى الأسبوعين الماضيين فيما اذا كان علىّ أن أجهض نفسى أم لا ، غير أنى قررت الآن أن أحتفظ بطفل تاكا ؛ إذ لا أستطيع أن أحمل نفسى على مزيد من القسوة فيما يتعلق الأمر به" .

استدارت كى تواجه الظلمة الأعمق فى خلفية الحجرة وأسدلت ستارا على نفسها ، ومن الواضح أنها كانت عازمة على رفض أى استجابة تقف ضد قرارها . فنظرت الى ظهرها العريض من أسفل بينما كانت تجلس ـ الأم الحامل من جديد ـ وكل ثقل جسدها يرتكز على كعبيها ، كان بها شىء يوحى بالتوازن الجسدى والعقلى كما كانت حين حملت بطفلى . ففهمت عزمها على أن تلد الطفل الذى فى رحمها ، طفل تاكاشى : فهمت ذلك بنفس الاحتكاك الجسدى الذى يدرك به الشخص كتلة من الصخر تقع أمام عينيه ، واستقر هذا الفهم بثبات فى عقلى دون أن يحدث أى اضطراب انفعالى .

ولما خرجت مرة أخرى الى الحديقة ، وجدت الامبراطور يقف عند مدخل المخزن ، يعطى أوامر بصوت مرتفع ، باللغة الكورية لأولئك الموجودين بالداخل بينما شكل الأطفال الذين يتفرجون ، دائرة محكمة منتبهة خلف ظهره . ولم يعر أى منهم انتباها لوجودى . فقررت أن أزور المعبد وأخبر الكاهن الشاب باكتشاف القبو والكشف الذى ألهمنى به ؛ لذا توجهت وحدى نحو الوادى أسير بسرعة تحت وطأة نسمة متربة .

بينما كنت أقرأ كتاب "تاريخ الانتفاضة فى قرية أوكوبو" ، ذلك الكتاب الذى أعطاه الكاهن لى ، مررت بفقرة غريبة نوعا ما . فألقى اكتشاف القبو فجأة بهذه الفقرة فى مكان مريح نابض ؛ إذ أصبحت الآن فى صلب

اكتشافى وأقنعتنى أن شقيق جدنا الأكبر قد عاش ، فى الواقع ، فى حبس اختيارى فى المخزن .

كان كتيب جدنا الأكبر عبارة عن مجموعة من الروايات المختلفة عن اضطرابات ١٨٧١ مصحوبة بتعليقات وملحوظات كما تراها السلطات والمواطن العادى .

ويقول الكتيب إن الحادثة يشار اليها عادة باعتبارها اضطرابات أوكوبو ؛ ذلك أن سكان أوكوبو قد أسقطوا أيكة خيزران كبيرة وصنعوا منها رماحا للجميع . ويكمن سبب الاضطرابات فى كره الناس للحكومة الجديدة ، وعلى الأخص ما دعت اليه من تطعيم اجبارى ضد الجدرى وكذلك كلمة "ضريبة الدم" التى تستخدم فى الاخطار الرسمى للاشارة الى الخدمة العسكرية ؛ إذ إنها أدت الى اشاعة مؤداها أن الدم سيتم نقله من الجمهور كى يباع للأجانب .. لقد تسببت هذه الاشاعة فى فزع الجمهور ، وقد نتجت عنها الانتفاضة . ولم يجر تحقيق لمعرفة زعماء الشبكة وغيرهم ممن يخصهم الأمر فى الأنتفاضة ، ولم تتم معاقبة أى شخص .

أما الفقرة التى تروى رواية السلطات عن الاضطرابات فكانت كما يلى :

لقد أثار الأمر نص على الغاء العشائر فى يوليه ١٨٧١ ، وإحلال نظام المديريات محله ، معارضة بين سكان قرية أوكوبو ذوى العقول المحافظة وجاءت التقارير فى أوائل أغسطس بأن مؤامرة يتم اعدادها لمقاومة هذا الاجراء ، إلا أنهم رفضوا الاقتناع .

وبعد أن حث السكان القرى الأخرى للانضمام اليهم ، تجمعوا على حوض النهر الجاف شمال قلعة أوهاما ، فى مساء نفس اليوم . وانتشر السخط باطراد الى أن تورطت سبعون قرية .

وبمقدم اليوم الثانى عشر من الشهر ، وصل عدد الدهماء الى حوالى أربعين ألفا . وشغلوا أنفسهم باطلاق نيران بنادقهم فى الهواء ، واطلاق صيحات القتال ، واختلاق اشاعات لا أساس لها .

وسرعان ما تدفقوا على "أوهاما" ، وهم مسلحون برماح من الخيزران والمسدسات فاستولوا على الشوارع . وزعمت الاشاعات التى قاموا بنشرها أن كبير المستشارين هو الذى دبر عودة الحاكم السابق الى طوكيو ، وأن الاحصاء يقصد منه الحصول على الدم من الجمهور ، كذلك فان التطعيم ماهو الا حيلة لتسميم معارضى الحكومة ، الى جانب غير ذلك من الاشاعات التى يصعب حصرها وذكرها فى هذا المجال .

وبقى الجمهور فى مكانه دون تقديم أى مطالب الى أن صار مكتب المديرية نسبيا تحت الحصار والتقى المسئولون الذين أرسلوا لتهدئتهم بمرور الوقت ، بكبير ممثلى مثيرى الشغب ، الذى أصر على ألا يعود الحاكم السابق الى طوكيو وأن يعود نظام الحكم السابق على عودة الأسرة الحاكمة للخكم ، وكذلك وجوب فصل المسئولين الحاليين وعودة الموظفين الإداريين السابقين الى أماكنهم .

وفى اليوم التاسع عشر حين بدا أنهم سيشنون هجوما على مكتب المديرية ، تقرر استخدام القوات لكبح جماحهم ؛ مما جعلهم يترددون ولم يتم الهجوم قط .

وعلى أى حال ، فقد أصابت الفوضى جمعية المديرية . وتم الرجوع عن قرارها السابق ؛ إذ أصبح الكثيرون يعارضون القمع بالقوة ، وتقرر استدعاء عدد من مسئولى ما قبل عودة نظام الحكم الحالى كى يتولوا الموقف .

فى اليوم الخامس ظهر الحاكم السابق كى يتناقش مع الدهماء شخصيا ، غير أنهم مع ذلك ، رفضوا أن يتفرقوا .

وفجأة ، فى شفق ذلك اليوم ، قرر كبير المستشارين مغادرة مكتب المديرية ، وبعد ذلك بوقت قصير ، وصل خبر بأنه قد قتل نفسه فى منزله .

أما الرواية الأخرى التى كتبت من وجهة نظر الإنسان العادى ، فكانت حكاية رومانسية أكثر من كونها تاريخا ؛ إذ إن الزعيم الذى ظهر فيها ، الرجل الذى تفاوض مع السلطان باعتباره كبير الممثلين ، كان يوصف ،

بأنه شخص مجهول الأصل يبلغ طوله ستة أقدام وشعره طويل كشجيرة . وقالت فقرة أخرى :

"إن الرجل الغريب ذا الشعر الطويل الذى ذكر كثيرا فى هذه الرواية كان مخلوقا ذا ملامح غير عادية ؛ ضخم البنية ، ترتفع قامته الى ستة أقدام وله ظهر منحن وسحنة شاحبة عليها علامات الموت . ومع ذلك ، ورغم غرابة مظهره ، فقد أذهل الجميع بفصحاته وقدرته الفائقة فى كل شىء كان يفعله" .

أما عن احتمال عدم اشتراك البعض فى هذه الانتفاضة فى مجتمع ريفى صغير كهذا ، دون أن يكون لدى أحد فكرة عن زعيمها ، فقد قنع جدنا الأكبر بكتابة ذلك الهامش غير المقبول على الاطلاق : "لقد جعل معظم المشتركين وجوههم سوداء بتلطيخها بالدخان الناتج عن الاحتراق بحيث كان من المستحيل تمييز شخص عن الآخر" .

وهكذا فشل فى استجلاء السؤال الذى أثاره فشلا تاما ، والخاص بتحديد شخصية ذلك المخلوق العجيب بالضبط . وكان مكتوبا فى الفقرة الأخيرة المتعلقة بالشخص الغريب مايلى : "وعقب الأنباء التى تحدثت عن تفرق المنشقين عند مدخل قرية أوكوبو فى اليوم السادس عشر ، اختفى زعيمهم وكأنما مسح عن ظهر الأرض" .

كانت صفات الزعامة البارزة فى الرجل الضخم واضحة بالفعل فى المهارة التى جعل بها مكتب المديرية محاصرا ـ وبذلك احداث ضغط على العدو دون استفزاز الجيش للتدخل ـ كما حافظ على ميزان حساس للقوة بين الشعب والسلطات الى أن تغير مسار النقاش فى المجلس فى النهاية .

غير أن جدنا الأكبر كان لديه ما يمدح به هذا الزعيم كما يلى : "إذا ما نظرنا الى الاضطرابات ، فان أكثر الأشياء الجديرة بالملاحظة هى أنه لم يكن لإنسان واحد أن يصاب بخدش . ولابد أن لديه قوى غير عادية على الزعامة ، بحيث يمكنه تنظيم اضطراب قوى كهذا دون أن يصاب رجل واحد بجرح" .

لذا فان كشفى صار ، بدوره ، قناعة بأن الرجل الطويل ذا الكتفين المحنيين الى أسفل والوجه الذى يعلوه لون الرماد هو أخو جدنا الأكبر وقد ظهر من جديد فوق الأرض بعد أن قضى عشر سنوات فى التأمل المنعزل فى انتفاضة ١٨٦٠ . لقد بحث فى كل ما تم الفوز به أثناء ما يزيد على عشر سنوات طوال من نقد الذات فى انتفاضة ثانية ناجحة مختلفة تماما عن الأولى .

ذلك أن الانتفاضة الأولى كانت دموية ويحيط الشك بما حققته . أما فى الثانية ، فلم يقتل أحد أو يجرح سواء من بين المشاغبين أو المزارعين . ودفعت ، بالفعل ، كبير المستشارين وهو هدف الهجوم ، الى الانتحار . وفوق ذلك ، مكنت جميع المشاغبين من الفرار دون أى ضرر أو عقاب .

لقد حاولت أنا وتاكاشى دائما أن نكتشف ما صار عليه حال شقيق جدنا الأكبر بعد انتفاضة ١٨٦٠ ، غير أننا لم نعثر على شىء ذى مغزى ، والسبب فى ذلك أننا كنا نطارد شبحا ، أى الرجل الذى فر من خلال الغابة .

لم تصدر من الكاهن أى حركة مباشرة تؤيد أو تنفى ما قلته ، بل احتفظ بابتسامته طوال حديثى الطويل وأحمر وجهه المهذب حياء ؛ ذلك أن نشاطه السافر أثناء أيام الانتفاضة كان لا يزال يقلقه حين يكون معى ، فكان يتحايل كى يبدى ثباتا مبالغا . وبعد برهة ، على أى حال ، طلع بفكرة أيدت النظرية التى توصلت اليها .

"فلنفكر فى الأمر ، ياميتسو ، إن الحكاية الأسطورية للرجل المنحنى فى اضطرابات ١٨٧١ معروفة تماما فى الوادى بحيث من الممكن توقع وجوده بين أرواح رقصة النيمبوتسو ، أليس كذلك ؟ ربما أسقطوه لأنه يضاعف من روح شقيق جدك الأكبر . ربما كان ذلك نفيا فقط ، ولكن .. أعتقد أن جدك الأكبر طلب أن ترسم هذه الصورة لأخيه بينما كان لا يزال يعيش فى القبو" .

جلبت لى الصورة الزيتية نفس الاحساس العميق بالسلام الذى جلبته لى حين رأيناها أنا وتاكاشى وزوجتى معا ، غير أن السلام لم يكن شيئا قد

أثير فى عقلى بشكل سلبى هذه المرة ، وانما كان شيئا جوهريا للصورة ذاتها ، فلقد كانت هناك على الورق ، مستقلة عنى . بعبارة أخرى ، فان ذلك الشيء الذى كان يشع منها كل هذا الاشعاع هو الرقة . وفى جميع الاحتمالات لقد كان ذلك ـ أى جوهر الرقة الخالصة ـ هو ما طلب الرجل الذى أمر برسم الصورة من الفنان أن يرسمه . مادامت الصورة تهدف الى منح السلام لنفس أخيه وهو يكافح فى السجن الذى فرضه على نفسه مع جحيمه الخاص ، فكان ، بالطبع ، لابد لها من أن تصور الجحيم . غير أن بوصة نهر النار كانت لتمثل حمرة أوراق شجرة القرانيا ، وكان لابد من رسم أمواج النار على هيئة خطوط رقيقة لينة كطيات رداء امرأة . من الناحية العملية ، كان ينبغى أن يكون أثر نهر اللهب غاية فى الرقة . وكان شقيق جدنا الأكبر يضم الرجل الميت وهو يصرخ فى ألم . وكذلك الشيطان الذى يعذبه ، وبما أن الصورة صممت كى تجلب الراحة لتلك النفس التى تصرفت بشطط ، فلابد لها من أن تصور معاناة الموتى ، وقسوة الشياطين بدرجة مساوية من الدقة . ومع ذلك ، فمهما كان الميت منكبا على تصوير الألم ، والشيطان منكبا على ايقاع العذاب ، فلابد أن تربطهما ، فى نفس الوقت ، روحيا رقة هادئة . ومن المحتمل تماما أن أحد الرجال ذا الشعر المشعث والذى كان ينفرد كالنسر على الصخور الضخمة الساخنة الحمراء أو أحد الذين ألقوا بمؤخرتهم مثلثة الشكل خارج نهر اللهب نحو النار التى يمطرها الفضاء ، هو صورة لشقيق جدنا الأكبر نفسه . فى حقيقة الأمر ، بما أن الفكرة لها مايوحى بنفس الخاصية المميزة .

فقال الكاهن من قبيل التذكر : « كان فى منظر هذه الصورة دائما مايجعل تاكا فى حالة مزاجية سيئة ، فلقد كان يخشاها منذ طفولته » .

اختفت بالتدريج الابتسامة الخالية من المعنى التى كانت على وجه الكاهن الشاب ، وحل محلها شعور مؤكد بالتعب . ولقد علمتنى التجربة أنه اذا ما تحدى أحد اراءه فان وجهه يتخذ مظهرا منغلقا نصف متحد . غير انى لم تكن بى رغبة فى أن أروى له المزيد عن مشكلاتى الداخلية ، مادام هو ، فى نهاية الأمر ، لم يكن مهتما بأى شيء خارج عن حياة الناس فى

الوادى ، وبالنسبة لى ، كانت صورة الجحيم دليل اثبات اضافى ويمكنها بالاضافة الى ما لدى من أدلة اخرى أن تكبر وتبرر اعادة النظر فى الأحكام التى نطقت بها ، حتى الآن ، عن شقيق جدنا الأكبر وعن تاكاشى .

وأطلعنى الكاهن الشاب على أخر أنشطة الشباب بعد الانتفاضة ، بينما كان يصحبنى الى بوابة المعبد : « أتذكر الشاب السبارطى الذى كان يعمل مع تاكا ؟ يقولون إنه سيحصل على مقعد فى المجلس حين تعقد الانتخابات الأولى منذ ضم القرى . قد تبدو انتفاضة تاكا كأنها فشلت فشلا ذريعا ، غير أنها ، على الأقل هزت الوادى من ثباته . فالشباب الذين شكلوا ، جماعة تاكا قد وسعوا نفوهم بالنسبة للرؤساء كبار السن ذوى العقول المحافظة الى حد ايصال احد أعضائهم الى المجلس المحلى ، لذا ففيما يتعلق الأمر بمستقبل الوادى ككل ، كانت الانتفاضة فعالة ، فى نهاية الأمر . فلقد فعلت شيئا لارساء الاتصال الرأسى داخل مجتمع الوادى ، ولتقوية الاتصال الأفقى بين الناس الأصغر سنا . أتدرى ، ياميتسو ، انى أشعر أن طموحا محددا ما لتطور الوادى فى المستقبل قد انفتح أخيرا ، وأشعر بالأسى على « س » وتاكا ولكن كلاهما لعب دوره »

حين عدت ، لم يعد الامبراطور موجودا فى المخزن ، وكان الاطفال الذين تركتهم يحملقون فى ثقب الجدار والفجوة الموجودة فى الأرض ، يتناثرون متفرقين على طريق الحصى كطيور أخافتها أول تباشير الغسق . حتى حين كنت طفلا كان أطفال الوادى يسرعون الى منازلهم لاهثين فى اللحظة التى يبدأ فيها الغسق ، ما لم يكن هناك مهرجان أو مناسبة خاصة من نوع ما . هذا على العكس من أطفال الريف الذين كانوا يستمرون فى لهوهم حتى بعد أن يسود الظلام . قد لايكون أطفال اليوم مذعورين من التشوزوكابى الذى كان يعيش فى الغابة ، غير أن عاداتهم على الأقل ، لم تتغير .

تركت زوجتى الى جانب المدفأة طبقا به سندويتشات من اللحم المدخن ، عشاء لى ، اشترت منه كمية من السوبرماركت ، وذهبت كى ترقد فى الحجرة الخلفية ، لتكرس نفسها للعناية بالجنين الراقد فى رحمها . بعد أن لففت السندويتشات ، ألقيت بها فى جيب معطفى الخارجى وذهبت من

خلف المنزل كى أتصيد زجاجتين من اليوسكى ، إحداهما مملوءة والأخرى فارغة . وغسلت الزجاجة الفارغة وملأتها بالماء الساخن ، رغم علمى بأنها ستبرد بحيث تلدغ اللثة شأنها شأن الماء المثلج . وحين خمنت بأن الجو سيكون شديد البرودة أثناء الليل ، زحفت مارا بالمكان الذى كانت زوجتى ترقد فيه ، بنية الحصول على بعض الأغطية الإضافية من الغرفة الصغيرة ولكنها لم تكن نائمة فقالت فجأة :

« لقد كنت أستعرض العديد من التفاصيل فى حياتنا الزوجية بينى وبين فنسى ، فوصلت الى نتيجة هى أنى ، تحت تأثيرك ، قد تركتك تشارك فى المسئولية عن عدد كبير من قراراتى الخاصة ، وهذا معناه أنك حين تتخلى عن شخص ما ، فأنا أيضا شريك فى هذا التخلى . ولكن ذلك الآن يزعجنى ياميتسو ، وعن الطفل الذى لم يولد بعد . سأفكر بنفسى ولنفسى ، مستقلة عنك »

فقلت بلا روح : « استمرى فان رأيى لم يلق استجابة ، على أى حال » .

ثم قلت فى نفسى : « وأنا أيضا سأحبس نفسى فى قبو المخزن كى آخذ قسطا من التفكير . بذلك الدليل الجديد ، كان على أن أتخلص من أفكارى المسبقة عن شقيق جدنا الأكبر وعن تاكاشى وأعيد النظر فى الحالتين من البداية . ان فهما تاما قد يكون بلا معنى ، الآن وقد ماتا ، غير أن ذلك جوهرى بالنسبة لى »

نزلت الى داخل القبو ، ولففت ثلاث بطانيات باحكام فوق معطفى وأخذت ألف حول نفسى فى مواجهة الجدار الأبيض فى النهاية القصية للحجرة الخلفية ، تماما كما لابد أن الأثير الطوعى كان يفعل منذ قرن ، ثم ، وبينما كنت آكل طعامى وأشرب بالتبادل من الويسكى ومحتوى الزجاجة الأخرى ـ ماء دافىء فى البداية ، سرعان ماتحول الى ماء بارد ، مع أنه لن يتجمد طالما تهب رياح الجنوب على المنخفض ـ بدأت فى التفكير من جديد .

هبت رائحة عطنة من أحد أركان هذا القبو الذى لم تطأه قدم إنسان

لسنوات ، حيث شكلت الرياح كوما من الكتب والصحف القديمة التى أكلتها الحشرات ، ومنضدة كتابة تفككت وكذلك بقايا حصير التمامى التى تعفنت فصارت قطعا ثم جفت مرة أخرى . كذلك هبت رائحة أخرى من صخر الأرض ،. التى كانت رطبة رطوبة خفيفة كالجلد البارد المبلل بالعرق والمتآكل حتى أنها صارت كنسيج لين . وتعلق حول فتحات أنفى تراب دقيق رطب ، وحول شفتىّ وحتى حافة عينى مما أنذرنى بامكان سد مسامى بشكل مميت . وفجأة استرجعت ذكريات مؤلمة من الطفولة ، وما أصابنى فيها من ربو قبل خمسة وعشرين عاما . فشممت أطراف أصابعى ، ووجدت أنها بها رائحة تراب حادة لم تزل حين حككتها فى ركبتى . وبرغم كل ماعرفت ، فان عنكبوتا بحجم الكاربوريا الصغيرة قد يأتى بعد أيام طويلة أقضيها فى ذلك الظلام الذى يصيب بمرض الخوف من الأماكن المغلقة ، قد يأتى مرفرفا من بين ذلك الحطام ويعض أذنى من الخلف . أثارت هذه الفكرة فى داخلى فى الأعماق تقززا جسديا ملأ على الفور أمام عينى بالحشرات العملاقة التى تنظر الى ، وبالبق والصراصير التى فى حجم الكلاب .

« هل هى اعادة محاكمة » ؟ ومع ذلك ، هاهو القبو ، فلو كان شقيق جدنا الأكبر قد حبس نفسه حقا هنا واحتفظ بهويته كزعيم للانتفاضة حتى نهاية حياته ، لكفى هذا كى يفسد الحكم الذى وضعت فيه دائما كل ثقتى ، ونفس الشىء يصدق على تاكاشى ، الذى عاش فى دأب كى يصبح نسخة من حياة شقيق جدنا الأكبر ، وعلى ضوء تكامل شخصية سلفه التى أظهرت حديثا ، بدأ انتحاره يشبه محاولة بطولية أخيرة كى يضع حقيقته بالكامل للعرض أمامى لفائدتى أنا الذى بقيت من العائلة .

أخذت أنظر فى عجز بينما سقط الحكم الذى حكمت به على تاكاشى وصار بدوره أشلاء الى الأبد . وما دامت صورة شقيق جدنا الأكبر ، تلك الصورة التى طالماسخرت منها فى كل مرة ألقى بها تاكاشى فى وجهى ، لم تكن وهما فى نهاية الأمر ، بدا وضع تاكاشى فى شكل أفضل الى حد كبير .

فى أعماق القبو حيث تحرك الظلام بموجات عنيفة من الريح ، رأيت

عينى قط ميت كنت أحتفظ بهما منذ كنت طالبا حتى تزوجت وكانت على وشك الحمل . أتذكر العينين منذ ذلك اليوم التعس الذى رأيته فيه يجرى ويبرز من بين أقدامه شيئا أشبه بيد ذات جلد أحمر ، عينى قط عجوز صافيتين تماما وهادئتين ، عينى قط ، رغم الألم الحاد الذى يتغلغل من الحواس الى المخ الصغير ، ظل يعانى وهو حبيس ، ظل هادئا بلا تعبير ، عينى قط تعامل مع ألمه باعتباره شيئا يخصه وحده ، وبهذا المعنى ، ليس له وجود بالنسبة للآخرين .

كذلك لم أبد أى تخيل للبشر الذين كانت عيونهم تخفى جحيما خاصا مشابها . فقد كنت دائم الانتقاد لمحاولات تاكاشى كمثال على هؤلاء البشر ، كى يكتشف طريقا لحياة جديدة . بل رفضت مد يد العون فى وجه طلبه المثير للشفقة حين كان الموت يحوم حوله ، لذا تعامل تاكاشى مع جحيمه بمفرده ، دون عون . وأصبحت عينى قطى ، رفيق حياتى كما تأملتهما فى الظلام ، أصبحتا عينى تاكاشى ، وكذلك عينى شقيق جدنا الأكبر الذى لم أعرفه قط ، وأيضا عينى زوجتى ، حمراء كأنهما متورمتان ، جميع هذه العيون اشتبكت فى حلقة ساطعة وصارت جزءا لايمكن انكاره من كيانى . ستستمر فى التكاثر ، كما كنت واثقا ، طوال ماتبقى لى من عمر ، الى أن تتلألأ مائة زوج من العيون تلمع كسلسلة من النجوم فى ليل تجربتى . وأحيا أقاسى من آلام الخزى تحت ضوء تلك النجوم ، وأحملق بخجل مثل فأر ، مع عينى الوحيدة ، فى عالم معتم خارجى متقلب .

ان اعادة محاكمتنا هى محاكمتك ! ولوح المسنون بقبعاتهم نحو العارضة . جلست منحنيا ولا أكاد أتنفس وكأنى أنكمش وحدى حقا أمام القضاة والمحلفين فى حلمى ، وكانت عيناى مغمضتين فى الظلام كى تتجنب العيون الأخرى المثبتة علىّ ، ورأسى تختفى فى المعطف والأغطية ككرة شاذة تلف ذراعىّ . فهل على ، اذن ، أن أعيش بقية أيامى بلا هدف ايجابى ؟ أيام غامضة غير محددة تبعث على الاكتئاب ، بعيدا عن الاحساس الواثق من الوجود الذى أحس به أولئك الذين سموا فوق

جحيمهم الخاص ؟ أو ربما يكون هناك سبيل للانطلاق والانسحاب الى ظلام مريح من نوع ما ؟

رأيتنى شخصا اخر ، كما يرى المرء تتابعا للصور الفوتوغرافية ، أنزلق من فوق كتفىّ المنحنيين بينما كنت أجلس كمجرد جسد فى اصيص للدفن ونهضت زاحفا من الفجوة التى توجد فى ألواح الخشب ، ثم أصعد على الدرج والملابس كالحزمة ، والجسد يرفرف فى هبات الريح القادمة من الوادى مباشرة .

وبينما وصلت ذاتى الشبحية الى النقطة من السلم التى يمكن منها رؤية الوادى يمتد تحت الجدار المحطم ، استطعت أن أرى فجأة ، وأنا مازلت قابعا فى قاع القبو ، الدوار الذى ألم بالشخص الواقف هناك فى منتصف السلم ، عاجزا مشلولا أمام الفراغ العميق الأسود الذى ملأته الرياح ، فضغطت بأصابعى كى أخفف من الألم البليد فى وسط رأسى من الداخل .

شعرت باحساس غير عادى بالقصور ، وهو شعور بدا أنه ، كالبرد يتعمق باطراد . خاطرت باطلاق صفارة صغيرة مؤثرة مستدعيا التشوسوكابى ، وأنا فى حالة نصف ماسوشية ونصف يائسة . كى يأتى ويدمر المخزن ويدفننى حيا تحته . غير أن شيئا لم يحدث ، بالطبع . فقضيت عدة ساعات فى خضوع تام ، وأنا أرتعش ككلب مبتل . وبمرور الوقت ، تحولت الفجوة الموجودة فى ألواح الأرضية فوقى وكذلك النوافذ السرية نصف المغلقة على الجوانب ، الى اللون الأبيض . هدأت الريح الآن . وتحت وطأة الرغبة فى التبول ، كافحت كى أنهض على ساقين متجمدتين ورفعت رأسى الى أعلى خلال الأرضية . كانت ، الغابة التى أحتلت كل المساحة التى أفسحها الجدار المحطم ، مظلمة . وتلفها الشبورة ليس بها سوى هالة ضيقة من اللون الأرجوانى الذى يعكس الفجر ، غير أنه عند الركن الأيمن من الثقب كانت السماء الحمراء كاللهب مرئية . رأيت هذا اللهيب الأحمر على ظهر أوراق الشجر عند طلوع النهار حين كنت فى حفرتى فى الحديقة . ولقد استدعى ذكرياتى عن صور الجحيم هنا فى المنخفض ، وأثر فى كنوع من الاشارة . وكان معنى تلك

الاشارة ، الذى لم يكن مؤكدا ، فى ذلك الوقت ، صار مفهوما بسهولة الآن . ذلك أن الحمرة بالصورة كانت أساسا هى لون مواساة الذات ، انه لون أولئك الناس الذين كافحوا كى يستمروا بهدوء فى حياتهم اليومية الأكثر ميوعة والأقل استقرارا والأكثر غموضا بدلا من مواجهة تهدد تلك الأرواح المرعبة التى تتعامل مباشرة مع جحيمها . وفى النهاية ، أدركت أن الوحيدين الذين استمدوا العزاء من روح جدنا الأكبر هم أحفاده الذين سمح لهم جدى بتلبية الطلب الداخلى الملح من أجل القفز المفاجىء غير المبرمج الى الأمام كى ينموا الى النقطة التى يكون فيها اتخاذ تصرف ما أمرا ضروريا .

وقف شكل معتم وهو ينظر إلى رأسى ، فى الظلام الشاحب خارج المدخل مباشرة حيث كانت هناك أبواب متعددة فوق بعضها البعض . لابد أن هذا الشكل قد كان يشبه ، من هناك شمامة واقعة على الأرض . تحرك الشخص ، لقد كانت زوجتى . كيف يلقى الانسان بتحية عابرة ، وكيف للمرء أن يتصرف كما يتصرف الناس فى الحياة اليومية العادية ، حين يكتشف وهو يطل برأسه من شق فى الأرض ، وهو يحملق فى رقعة حمراء من سماء الصباح . لم أستطع سوى النظر اليها ، وقد جعلنى الحرج أتحجر وكأن رأسى قد أصبح شمامة بكل مافى هذه الكلمة من معنى .

« أهلا ، ياميتسو » ، قالت ذلك ، وهى توجه الحديث الى بصوت حاد بسبب التوتر ، غير أنها تحكمت فيه كى تهدىء من فزعى ؛ إذ أخذت على حين غرة .

فقلت : « أهلا ، لاتقلقى ربما أكون قد سببت لك القلق ، ولكنى لست مجنونا » .

« لقد عرفت منذ عض الوقت أن من عادتك أن تنزل الى تحت الأرض كى تفكر . لقد فعلت ذلك فى طوكيو ، أليس هذا صحيحا »

فقلت وقد أضيف الخجل الى التعب : « كنت دائما أظن أنك كنت نائمة فى ذلك الصباح » .

فقالت : « كنت أراقبك من نافذة المطبخ . الى أن جاء بائع اللبن وتأكدت أنك ستعاد الى الحياة فوق سطح الأرض ؛ إذ كنت أخشى حدوث مكروه »

ثم وبينما بقيت صامتا ، استمرت قائلة بصوت أكثر نشاطا وكأنما تشجعنا :

« ألن يكون من الممكن لنا أن نحاول مرة أخرى معا ؟ ألا يمكننا أن نبدأ بداية جديدة بأن نربى الطفلين معا ، الطفل الموجود فى المؤسسة ، والطفل الذى لم يولد بعد ؟ لقد فكرت فى ذلك لوقت طويل ، وقررت وحدى أن هذا هو ما أريد . وجئت كى أسألك هل ذلك مستحيل أم لا . وحين رأيتك فى أسفل تفكر ، فكرت فى تأجيل الأمر حتى تخرج من تلقاء نفسك ؛ لذا كنت أنتظر هنا . بالنسبة لى ، كان الأمر أكثر رعبا من الوقت الذى قضيته فى الحفرة فى الحديقة الأمامية ؛ إذ كنت أخشى من أن تهدم الريح المخزن - إذ صار غير مستقيم بعد هدم الجدار - وشعرت بالرهبة حين سمعت صفيرا قادما من الأعماق ! غير أنى ظللت أنتظر ، لأنى لم أشعر أن من حقى أن آتى كى أخرجك .

كانت تتحدث ببطء . وكانت بالفعل تضغط بيدها على جوانب بطنها بالطريقة الحذرة التى تتبعها النساء الحوامل ؛ مما أعطى شكل جسدها الأسود الصغير كالرسوم المنمنمة ثباتا كشكل نول النسيج ، رغم وقوفها ، غير أنى استطعت أن أراه يرتعش من فرط التوتر المكبوت . انحنت وهى تتحدث وبكت فى صمت لبعض الوقت .

« فلنحاول ، سأقبل وظيفة تدريس اللغة الأنجليزية » قلت ذلك وأنا أتنفس بصعوبة مستخدما ماتبقى من هواء فى رئتى على قلته فى محاولة منى كى أبدو كأنى غير معد لهذه الفكرة . ومع ذلك ، فان الندم الذى رن فى صوتى كان واضحا . وبكيت فى صمت لبعض الوقت .

"كلا ، ياميتسو ، بل سآخذ الطفلين كى يبقيا مع عائلتى بينما تعمل أنت فى أفريقيا . لم لا تبرق لمكتب الحملة ؟ إذ إنى أظن أن الحاجة الى معارضة تاكا جعلتك ترفض عمدا الاشياء التى كانت تشبهه فيك . ولكن

تاكا قد مات ، ياميتسو ، لذا يجب عليك أن تكون أكثر أنصافا نحو نفسك . بعد أن رأيت الآن أن الروابط بين أخي جدكم الأكبر وبين تاكا لم تكن محض وهم خلقه تاكا ، لماذا لاتحاول أن تكتشف ماتشترك أنت نفسك فيه معهما ؟ بل إن من الأهم أن تفعل ذلك الآن ، إذا أردت أن تحتفظ بذكراك عن تاكا صريحة" .

وطرأ على ذهني ، باحتقار ملتو للذات أن العمل كمترجم فى أفريقيا لن يحل كل شيء ، غير أن ذلك الشعور لم يكن من القوة بحيث يجعلني أتجادل . ووشى صوتي بما في داخلي من قلق غير أن كل ماقلته هو :

« لو أننا أعدنا الطفل من المؤسسة فهل تعتقدين أننا نستطيع أن نجعله يتكيف مع الحياة بيننا » ؟

« لقد فكرت في ذلك وقتا طويلا ، في الليلة الماضية ، ياميتسو ، وبدأت أشعر أنه اذا ماتوافرت لنا الشجاعة فيمكننا أن نبدأ في ذلك على الأقل » قالت ذلك بصوت مؤثر به ارهاق جسدى وروحى واضح . فأخذت أركل بقدمىّ وأدور حتى رفعت نفسي بعد جهد الى الأرض بأسرع مايمكن ؛ إذ خشيت أن يغشى عليها . غير أنى انحشرت ، ومر وقت طويل قبل أن يمكننى أن أصعد الى مستوى الأرض . وبعد ذلك ، وبينما كنت أسير نحوها ، سمعت صوتا بداخلي يرتل ماقاله ببساطة حرس تاكاشى الشخصيون حين أعلنا خطتهما للزواج :

« الآن وقد صار تاكا غير موجود ، فعلينا أن ندبر أمرنا » .

ولم تكن بى رغبة فى كتم ذلك الصوت .

« لقد قمت بعمل رهان مع نفسي ، إنه اذا ماخرجت سالما من هناك ، فلسوف تقبل اقتراحى . لذا كنت فى حالة من التوتر والقلق طوال الليل » . قالت بصوت دامع متوجس بسذاجة ، وأخذت ترتعش بعنف أكثر من ذى قبل .

وفى أحد الأيام ، بعد ذلك بوقت قصير ، قررت زوجتى ، التى كانت

تخشى على الجنين من السفر ، أن تعبر الكوبرى ، الذى كانت أعمال الاصلاح قد بدأت عليه ، وتغادر المنخفض . وفى ذلك الصباح ، حضر رجل من الوادى كى يودعنا محضرا معه قناعا خشبيا صنع حديثا . كان يمثل وجها إنسانيا مثل الرمان المشقوق ، وكانت العينان مرصعتين بأظفار لاتعد . كان هذا الرجل هو صانع التمامى الذى كان قد اختفى من الوادى فى احدى المرات ثم استدعى من المدينة كى يساعد على احياء رقصة النيمبوتسو فى ذلك الصيف . وهو يعمل الآن فى صنع الحصر لقاعة جمعية الوادى ، التى كان من المقرر استعادتها بأموال خصصت من أجل ذلك فى وقت الدمج ، وكذلك لغيرها من الأماكن المختلفة التى وجدت بها أعمال له . وكان فى نفس الوقت يخطط لتصميم أزياء مختلفة لكل من الأرواح المشتركة فى الرقصة . فقدمنا له ، على سبيل الهدية السترة والسروال اللذين كان تاكاشى يرتديهما حين عاد من أمريكا ، كى يستخدمهما المؤدى الذى سيلبس قناع روح تاكاشى .

مررت أنا وزوجتى والطفل الذى لم يولد من خلال الغابة ، ونحن نغادر المنخفض الذى لن نطأه مرة أخرى فى جميع الظروف . أما تاكاشى كروح فقد صار ملكا عاما للوادى ، فلا حاجة بنا للعناية بقبره .

ان العمل الذى ينتظرنى بعيدا عن المنخفض ، فى الأيام التى ستحاول فيها ناتسومى أن تعيد طفلنا الى عالمنا من جديد وتستعد فى نفس الوقت لولادة الطفل الآخر ، يعنى هذا العمل ، حياة مليئة بالعرق والقذارة فى افريقيا . حيث أصيح بالأوامر باللغة السواحلية من تحت خوذتى التى تقينى لفح الشمس وأكتب على الآلة الكاتبة باللغة الانجليزية ليل نهار ، عندها سأكون مشغولا الى حد لايسمح لى بأن أنظر الى مايدور بداخلى . وباعتبارى كبير مترجمى الحملة ، لم يكن فى وسعى اقناع نفسى بأن احدى أنثى الفيل المرسوم على بطنها الرمادية الضخمة ستخرج متثاقلة أمام عينى ، بينما نتربص بين أعشاب السهول ، أما الآن وقد قبلت الوظيفة كانت هناك لحظات شعرت فيها أنها كانت ، على أى حال ، بداية لحياة جديدة . وأنه سيكون من السهل هناك ، على الأقل ، أن أبنى كوخى الجريدى .

الفهرس

ص

قبل ان تقرا ٥

الفصل الأول :

بالقرب من الموتى ١١

الفصل الثانى :

التئام شمل العائلة ٣٦

الفصل الثالث :

الغابة الرهيبة.. ٥٧

الفصل الرابع :

أحلام داخل أحلام ٧٧

الفصل الخامس :

إمبراطور السوبرماركت ٩٦

الفصل السادس :

رياضة غريبة ١٢٠

الفصل السابع :

موكب من الماضى ١٣٩

الفصل الثامن :

الحقيقة التى لاتقال ١٥٥

الفصل التاسع :

حرية المنفى.. ١٧٤

الفصل العاشر :

الخيال المشاغب ١٩٥

الفصل الحادى عشر :

سطوة الذباب.. ٢١٦

الفصل الثانى عشر :

حفل فيما وراء اليأس ٢٣٥

الفصل الثالث عشر :

إعادة المحاكمة.. ٢٦٠

رقم الايداع : ٢٩٣٠/ ١٩٩٥
I . S . B . N
977 - 07 - 0379 - 6

روايات الهلال تقدم

القمر يولد فى الأرض

بقلم

مجيد طوبيا

تصدر : ١٥ يونيه ١٩٩٥

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET